كوستي بندلي

الجنس

ومعناه الانساني

طبعة رابعة منقحة ومزادة

منشورات النور

مقتطفات مما كتبه الاستــاذ يوسف الخال
عن كتاب «الجنس ومعناه الانساني» في طبعته الاولى

« ... من حسن حظ القارىء العربي ان يصدر كتــاب في « الجنس ومعنـــاه الانساني » ، لكوستي بندلي ... وجدت نفسي امام عقل راسخ في معرفة الاسس والاصول ، متحرر من التزمت والتقليد ، منفتح على التيارات المعــاصرة في مجمــل تناقضها (...) .

« وكم افادني كتابه هذا عن الجنس . فمنه تعلمت مرة اخرى ان الجنس (...) ليس حاجة بيولوجية بحتة (...) وهو ، اذن ، لا يهدف الى ازالة توتر عضوي فقط . انه « وصال » و « جماع » مع الآخر ، يزيل العزلة التي يشكو منها الانسان ابدا (...) .

« وتعلمت ايضا ان « تحريـــر » الجنس في المجـون المعــاصر مــا هــو الا « عبودية » اقسى من عبودية الصمت والجهل والخوف (...) وكيف لا يكــون ذلك حين يبطل الشخص الآخر ويصير التركيز على اللذة الجنسية والتهالك عليها كميــة وتفننا ، لا نوعا وعاطفة . وهنا يدب السأم والفراغ (...) .

« وتعلمت من الكتاب ان الحب لا يبطل العلاقة الجنسية ، لكنه وحده يجعل منها « وصالا » لا احتكاكا خارجيا بين عزلتين متقابلتين (...) وما العفة ســوى الحرص على ان يحتفظ هذا اللقاء بمرماه الاتحادي (...) فالعفة ليست سلبيــة تعني ، بالمفهوم التقليدي الموروث ، الخوف من الجنس ، والنرجسية ، والكبت بجميع معانيه وابعاده . فما هذه الا عفة زائفة (...) .

« وتعلمت آخرا ، وهو الأهم ، ان الجنس سعي الى المطلق عن طريق الحب الذي فيه يتبلور الجنس ويتسامى (...) على ان المطلق لا يدرك بالحب الــذي يستقطبه (...) لذلك لا يقترن الحب بالسعادة فقط ، بل بالكآبة والحنين ايضا . وهنا يجيء دور الله . فهو « المشتهى بالحقيقة » كما تقول طقسية بيزنطية ، واليــه نسعى في آخر المطاف حركة الجنس عند الانسان (...) .

« وبايصالنا الى الله ، ينهي كوستي بندلي رحلته البهيجة الهانئة في مجاهــل الجنس وآفاقه الرائعة .

« وهي رحلة فريدة في نوعها ، على الاقل في تراث اللغة العربية » .

الفهرس

الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية

لقد نفدت الطبعة الاولى لهذا الكتاب منذ زمن بعيد . اما الطبعة الجديدة المزيدة ، فقد كانت عناصرها جاهزة منذ صيف ١٩٧٥ ، ولكن الأحداث اللبنانية المأساوية تسببت في تأخر صدورها . نعتذر عن هذا التأخير من كل الذين كانوا يتصلون بنا معبرين بإلحاح عن رغبتهم في ان يروا من جديد هذا الكتاب قيد التداول ، ونوجه اليهم خالص شكرنا .

في هذه الطبعة الجديدة ، اضفنا على النص الاصلي العديد من الحواشي ، وغايتها التوسع والتعمق والتدقيق في هذه او تلك من النقاط . وقد اعتمدنا جمع الحواشي المتعلقة بكل من فصول الكتاب في نهاية الفصل المذكور . هكذا لا تُفرض الحواشي فرضاً على القارىء الذي يتسنى له ان يكتفي اذا شاء بالنص الاصلي ، أو ان يعود الى هذه او تلك من الحواشي او الى الحواشي كلها عندما يحلو له وعلى قدر رغبته في الاستزادة حول هذا او ذاك من عناصر الكتاب .

نرجو ان يُوفق هذا البحث في صيغته الجديدة الى اسداء خدمة اوفر للشباب والمربين ولكل ساع الى الحقيقة والحياة .

في ١٩ / ٣ / ١٩٨٠

المؤلف

الى زوجتي واولادي
لذكرى اخي مرسيل

مقدمة

يدور هذا البحث حول مناقبية الجنس ، لذا لا بد لنا قبل الخوض في هذا الموضوع ان نوجز مفهومنا للاخلاق عامة . فكثيراً ما فُهمت الاخلاق — ولا تزال — على انها مجموعة نواميس يفرضها على السلوك الانساني مصدر خارج عن كيان الانسان ، سواء أكان هذا المصدر ارادة الهية مفروضة بشكل كيفي او وجداناً يتطلب من الانسان طاعة عمياء لأوامره ونواهيه . ذلك المفهوم الناموسي للاخلاق الذي تسرب عبر التاريخ حتى الى الاخلاق المسيحية محولاً إياها عن مفهومها الانجيلي الاصيل[1] ، لا يبدو لنا المفهوم الصحيح[2]. فالاخلاق في نظرنا نابعة من صميم الكيان الانساني ومعبرة عن متطلبات هذا الكيان العميقة . انها القواعد التي بموجبها يحقق الانسان انسانيته (وفي منظار ديني يعبر عن تلك الحياة النابعة من اتصاله بالله والتي بها تتحقق انسانيته على أكمل وجه)[3] . تلك النظرة الى الاخلاق تتفق وحدها ، كما يبدو لنا ، مع التعليم الانجيلي[4] من جهة ومع اكتشافات علم النفس الحديث من جهة أخرى[5] . لذا سنعتمدها فكرة موجهة لدراستنا هذه[6].

مناقبية الجنس ، في منظار كهذا ، هي ان يحقق الجنس مزماه الانساني . لذا لا يمكن تحديدها بالاستقلال عن دراسة الجنس كما يتجلى عند الانسان . هذا لا يعني انه من الممكن تحديد هذه المناقبية عن طريق الاستنتاج العلمي البحت . فالعلم ، من حيث هو علم ، يصف ما هو كائن وليس من شأنه ان يحدد ما ينبغي ان يكون . عالم القيم خارج عن متناوله[7] . لذا فالبحث في مناقبية الجنس يفترض تقييماً للجنس مرتبطاً بنظرة شاملة الى الانسان ومعنى وجوده . ولكن لا بد لهذا

التقييم ، اذا شاء ان يكون متأصلاً في مقتضيات الكيان الانساني ، ان يتخذ معطيات علوم الانسان منطلقاً له ، حتى لا يكون المعنى الذي يضفيه على الجنس غريباً عنه بل نابعاً من صميمه . هــــذا ما سنحاول تحقيقه[8].

حَواشِي المقدّمة

١ ــ راجع :

Albert Plé : Freud et la Morale, pp. 153-159, Ed. du Cerf, 1969.

٢ ــ حول عرض المبادىء الخلقية المسيحية ، وكأنها مضافة من الخارج الى السلوك ، راجع ايضا :

Chanoine Jérôme Régnier : Appels et Refus de l'homme moderne, p. 75, in Visages et Approches de l'Incroyance, Ed. du Chalet, 1965.

Claude Tresmontant : Les Problèmes de l'Athéisme, pp. 335-339, 349-350, 368-369, Ed. du Seuil, Paris, 1972.

٣ ــ راجع :

P. Schoonenberg : Le Monde de Dieu en devenir, p. 206, Ed. Le Centurion, Paris, 1967.

Claude Tresmontant : Comment se pose aujourd'hui le problème de l'existence de Dieu, pp. 400-402, Ed. du Seuil, Paris, 1966.

٤ ــ تقول ميشال جوز ــ رولان في كتاب ناري لها يعبر عن معاناة اليمة لمساوىء نمط من التربية « المسيحية » التقليدية :

« ان الاخلاق الجديدة المطالب بها انما هي اخلاق الانجيل . تلك سوف تفجر كل الاخلاقية المترمتة التي تميزت بها القرون الماضية والتي سببت كثيرا من الكوارث الحاضرة » .

Michèle Joz-Roland : Qu'as-tu fait de ton Dieu ? pp. 104-105, Ed. Fayard, Paris, 1970.

٥ ــ راجع :

Albert Plé : op. cit., pp. 143-183.

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, pp. 39-46, Ed. Mame-Fayard, 1971.

٦ — لهذا المنظار وحده ، على كل حال ، حظ بان يكون فعالا في تربية شباب اليوم الذين يريدون ان يكون سلوكهم الخلقي نابعا من قناعة شخصية لا من مجرد تقليد موروث . يقول مفكر الماني ، ارنست ال :

« حيث يقف التقليد — وذلك هو وضعنا اليوم — يبدأ الاعلام ، اي ضرورة تقديم التبريرات المقبولة . ان مهمتنا ، في تلك الظروف ، دقيقة بشكل خاص . وقد قال شوبنهاور : سهل ان تعلن الاخلاق ، ولكن ترسيخ اسسها اصعب بكثير » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, p. 209, Ed. Le Centurion, Paris, 1972.

٧ — راجع :

Marc Richelle : Pourquoi les psychologues ? pp. 50-54, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1968.

Pierre Antoine : Sens de la sexualité et recherche d'une éthique, pp. 320-321, in Sexualité humaine, Ed. Lethielleux, Paris, 1966.

٨ — في محاولتنا هذه ، سنستخدم بشكل اخص معطيات التحليل النفسي ، ولكننا سنجتهد بأن نتجنب الوقوع في الالتباس الخطير الذي يقوم على محاولة استنتاج مذهب خلقي من التحليل النفسي . فالتحليل النفسي ليس له ، بحد ذاته ، مشروع خلقي ، انما يهدف فقط الى القاء نظرة متبصرة على الدوافع العميقة للسلوك البشري والى فضح التبريرات الزائفة التي كثيرا ما يقدمها الانسان عن مواقفه . لذلك فليس من سلوك انساني ، ماجنا كان او متقشفا ، تقليديا كان او ثوريا ، الا ويضعه التحليل النفسي على المحك بلا رحمة ، فيضطر كل فرد الى التساؤل حول الدوافع الحقيقية لسلوكه ، اهي بالفعل متناسبة ام لا مع المثال الذي تبناه على الصعيد الواعي . سوف نجتهد بقبول هذا التمحيص القاسي لانه شرط لا بد منه لبلوغ اخلاق اصيلة . راجع بهذا الخصوص :

Paul Ricœur : La Psychanalyse et le Mouvement de la culture contemporaine, pp. 104-105, in Traité de Psychanalyse, tome I, Histoire, P.U.F., Paris, 1965.

الفصل الأول

الجنس الإنساني في فرادته والتباسه

آ- هَل الجنسُ حاجَة بيُولوجيّة بحتة ؟

كثيراً ما ُفهم الجنس – ولا يزال – على انه حاجة بيولوجية بحتة ، شبيهة بالجوع والعطش ، وان أهميته بالتالي ، على الصعيد المعنوي ، لا تفوق اهمية تلك الحاجات . وقد اتخذ هذا المفهوم منطلقاً لموقفين متناقضين يستندان اليه كلاهما رغم تباينهما[1] : الاول يبرر الاباحية لان العمل الجنسي شبيه « بشربة ماء » ليس الا ، والثاني يدعو الى التزمّت كونه يعتبر الحاجة الجنسية مجرد حاجة جسدية وبالتالي لا تستحق سوى اهتمام جانبي .

شطط هذا المفهوم انه نابع من نظرة خاطئة الى الكيان الانساني ، نظرة تعود الى افلاطون وقد جددّها ديكارت فانتشرت وطبعت الفكر الانساني لحقبة طويلة من الزمن . تلك النظرة هي الثنائية التي تفصم الانسان الى كيانين ، نفسي وجسدي ، لكل منهما استقلاله وان كانا في علاقة احدهما بالآخر[2].

ولكن هذه النظرة لا تثبت اذا قورنت بواقع الاختبار الانساني ، وقد تجاوزها الفكر الحديث الذي ، بتحليله لهذا الاختبار وبالاستناد الى المعطيات العلمية ، يقر الآن وحدة

الكيان الانساني ولا يرى الجسد ، كما كان يراه ديكارت ، مجرد آلة يقابلها فكر ، بل تعبير حي عن الشخص ومكان حضوره في الكون وبين الآخرين ، كما ان الكلمة هي مكان حضور المعنى[3].

١ – ليس من حاجات بيولوجية بحتة عند الانسان

من هنا ينتج انـــه ليس في الانسان من حاجات بيولوجية بحتة . فالحاجة الى الطعام مثلاً ليست عند الانسان مجرد حاجة جسدية ، لانها تتخذ طابعاً انسانياً شاملاً . فالمرء اذا سعى الى الطعام لا يرى فيه مجرد وسيلة لسدّ جـــوعه واعادة توازنه العضوي الى نصابه . انما يسعى ايضاً الى ارضاء حاجات معنوية ملازمة لتلك الحاجة الجسدية الى حد انها تندمج بها وتلوّنها : فانه حريص مثلاً على ان يكون مظهر الطعام جـذاباً والمائدة مرتبة ، وغرفة الطعام مزينة بما يبهج النظر من اثاث وصـور وغيرها . تلك الميول الجمالية مندمجة في الانسان بحـــاجته الى الطعام الى حد ان مشهد القذارة على المائدة قد يفقده شهيته وان كان جائعاً . ثم ان اللـــذة التي يشعر بها الانسان عند تناوله الطعام تابعة الى حد بعيد من جلوسه الى المائـــدة مع اشخاص يحبهم ويأنس لهم ، أكانوا افراد عـائلته او اصدقائه ، مما يظهر ان الروابط الاجتماعية اندمجت بالحـــاجة البيولوجية وطبعتها بطابعها الخاص[4] . وعلى العكس فقد اختبر الناس ان خبز الغربة مرّ ، اي ان الطعام يفقد لذته اذا كان الانسان مسلوخاً عـن

بيئته المألوفة ، المحببة . وقد اشار سارتر بحق الى ان الم الجوع عند المحرومين ليس هو فقط الم المعدة الخاوية ، انما هو الى حد بعيد ألم الذل الذي يشعر بـــه انسان جارت عليه الاوضـاع الاجتماعية فأصبح بنظره فقـــدان الغذاء صورة مريرة لكرامته المهانة . هذا مـا يقوله الزعيم الشيوعي هيدرير ، وهـــو من ابطال مسرحية « الايدي القذرة » ، لاحد افراد حرسه الخاص ، مذكراً اياه بما دفعه للانتماء الى الحزب : « سليك ! الم ترو لي انه كان يخجلك ان تكون جائعاً ؟ وانك كنت تغضب لكون الجوع لم يكن يسمح لك بالتفكير باي شيء آخر ؟ وان شاباً في العشرين له اهتمامات افضل من التفكير الدائم بمعدته ؟ » هذا ما يلقي ضوءاً على عنوان اطلقه سارتر على احدى مقالاته : « الجوع هو اكثر بكثير من الجوع[5] » .

فأذا كانت الحاجة البيولوجية الى الطعام مرتبطة بهذا المقدار بعوامل نفسية ، فـــلا غرو ان تؤول الاضطرابات النفسية الى اضطراب في الغريزة الغذائية نفسها . فالاختبار اليومي يعلمنا ان الانسان المصدوم نفسياً قد يحاول التعويض عن ذلك بافراطه في الطعام[6] او بالعكس قد يقرف الطعام ولا يتناول منه سوى النزر اليسير . وقد وجد الطب الحديث ان كثيراً من حالات فقدان الشهية بصورة دائمة ليس لها من اسباب عضوية انما هي عائدة الى مشاكل نفسية عميقة ومكبوتة تعود جذورها الى تاريخ الطفولة ، وهذا صحيح ايضاً بالنسبة للعديد من حالات النهم المرضي ، التي قد تعني محاولة لا شعورية للاستعاضة عن عطف مفقود[7] . لا بل قد تؤدي هذه المشاكل النفسية الى اضطرابات في الجهاز الغذائي نفسه (كعسر الهضم الناتج عن اسباب نفسية مثلاً) .وفي بعض الاحيان الى اصابات في انسجته : فالقرحة مثلاً مسببة في كثير

من الاحيان ، كما هو معلوم ، من عوامل نفسية[٨] .

٢ - الجنس بنوع خاص مرتبط بالشخصية ككل

فاذا كان صحيحاً ، كما حاولنا ان نبيّن ، انه ليس في الانسان من حاجات بحت بيولوجية ، فهذا صحيح خاصة بالنسبة الى الجنس[٩] . فالجنس في الانسان مرتبط بنوع خاص بالشخصية ككل[١٠]. هذا ما يميز الجنس الانساني بشكل قطعي عن الجنس الحيواني[١١]. فالجنس الحيواني تحدده اساساً عوامل جسدية ، وبنوع خاص الهورمونات أي افرازات الغدد الصماء التي بتأثيرها على الجهاز العصبي تحدد سلوك الحيوان الجنسي . أما الجنس الانساني فيتأثر الى حد بعيد بعوامل أخرى ، نفسية واجتماعية[١٢] ، ولذا قال عنه بحق الدكتور بول شوشار ، الاختصاصي المعاصر الكبير في فيزيولوجية الجهاز العصبي ، انه جنس نفسي (sexe psychologique)[١٣] ولنا على ذلك عدة أدلة .

منها ما يشير اليه الدكتور شوشار من ان استئصال الغدد الجنسية بعد البلوغ يزيل الغريزة الجنسية عند الحيوان ولكنه لا يزيلها عند الانسان : فالخصي يُثار جنسياً وان كان اصبح عقيماً[١٤] .

ومنها ما يتعلق بايقاع النشاط الجنسي . هذا الايقاع تحدده اساساً عند الحيوان عوامل عضوية . يقول الدكتور مارك اوريزون : « عند أنثى الحيوان ، يظهر السعي الغريزي الى الجماع نتيجة لاطلاق البويضة : انها حقبة الاثارة الجنسية . وبصورة عامة جداً ، ينتج السعي الى الجماع عند الذكر من

هذه الاثارة الجنسية اذا حدثت عند الانثى . اما خارج تلك الحقبة ، فالحاجة الجنسية في حالة رقاد ولا تظهر »[١٥] . اما عند الانسان فليس من ايقاع عضوي يُقنن النشاط الجنسي ، ذلك لان عوامل نفسية تلعب دوراً أساسياً لاثارة الغريزة الجنسية اوتهدئتها . يقول الكاتب نفسه في هذا الموضوع : « ان تقرير كينسي ... يخالف ، في هذا الموضوع كما في غيره ، بعض الافكار المألوفة . ففي الموضوع الذي نحن بصدده ، يقدم لنا هذا التقرير ، فيما يقدم ، شهادتين تشيران الى الحدين الاقصيين للنشاط الجنسي عند الانسان . جواباً على التحقيق المغفل الذي استند اليه اصحاب التقرير ، أجاب شخص انه يمارس الجماع يومياً خمس أو ست مرات . اما الشخص الثاني ، وهو ذو نشاط فكري واجتماعي قوي ، فلم يُشر سوى الى قذفين ليليّين او ثلاثة في السنة[١٦] .

« هذا ما يناقض مباشرة الفكرة المسبقة المتأصلة والمبسطة التي ترى ان ما يُطلق النشاط الجنسي عند الانسان هو نوع من الايقاع الفيزيولوجي الذي لا مناص منه على شاكلة بعض الافرازات . ان فيزيولوجية الجنس ، كما هي معروفة الآن ، تظهر بالعكس انه ليس عند الانسان أي ايقاع فيزيولوجي محدد من هذا النوع . ان للاثارة الجنسية دائماً منطلقاً نفسياً — واعياً او غير واع — ... »[١٧] .

صحيح ان لأنثى الانسان دورة جنسية فيزيولوجية شبيهة بما نجده عند أنثى الحيوان ، ولكن تأثيرها ضعيف على سلوك المرأة الجنسي بينما هو حاسم ، كما رأينا ، فيما يتعلق بأنثى الحيوان . يقول الدكتور مارك اوريزون : « كل ما هنالك ان بعض النساء يرغبن أكثر في الجماع او يكنّ أكثر تقبلاً له في الايام المجاورة لاطلاق البويضة عندهن . ولكن

هذه الظاهرة هي بالفعل قليلة الاهمية . وقد يحدث العكس ، لا على صعيد العقل ولكن على صعيد الرغبة ... »[18].

ويخلص هذا المؤلف الى انه « من البديهي ان الرغبة الجنسية ، في الجنس البشري ، خاضعة لتأثير عوامل مختلفة كلياً عن العوامل الفيزيولوجية ... »[19] .

بين هذه العوامل ، يلعب الخيال دوراً رئيسياً[20] . هذا ما يبينه مثلاً فرنسوا دويكارتس ، أستاذ علم النفس في جامعة لياج ، اذ يقول : « يستطيع الخيال وحده ان يثير رغبات جديدة ، حتى بعد علاقات جنسية موفقة » ويستنتج ان « الحساسية الجنسية عند الرجل والمرأة أكثر ديمومة مما هي عند الحيوان ، أقل خضوعاً للايقاعات الهورمونية »[21] . ويميل المؤلف الى قوة النشاط الجنسي عند بعض الشيوخ ، كفيكتور هيغو وميشله ، الذين قد يفوقون الشبان حرارة في علاقاتهم الغرامية ، بفعل الخيال وعوامل نفسية أخرى لم تؤثر فيها الشيخوخة كما أثرت في الجهاز الجنسي الفيزيولوجي[22] .

ومن جهة الاخرى ، فان اضطرابات الوظيفة الجنسية عند الانسان تشير الى هذا الارتباط الذي نحن بصدده بين الجنس والشخصية ككل . هذا ما يبدو لنا اذا تفحصنا حالات الشذوذ او العجز الجنسيين .

فلنأخذ على سبيل المثل نوعاً من الشذوذ الجنسي الا وهو الميل الى الجنس نفسه . فقد يبدو هذا الشذوذ لاول وهلة ناتجاً عن اسباب عضوية ، ولكن الواقع ان هذا التعليل غير وارد

في معظم الحالات[٢٣]. يقول الدكتور اندره ارتوس[٢٤] : « في الاغلبية الساحقة من الحالات ، ليست الجنسية المثلية homosexualité نتيجة وضع غير طبيعي للغدد ... انها سلوك خاص عائد لعوامل نفسية ... »[٢٥]. نعم قد تكون هناك استعدادات عضوية تمهد الطريق امام هذا الشذوذ ، ولكن السبب الاساسي يبقى ، في معظم الحالات ، نفسياً[٢٦]. فالجنس العضوي لا يكفي ، عند الانسان ، لتحديد الجنس النفسي . فقد يرفض الذكر في اعماق شعوره ان يقبل وضعه كذكر ، وكذلك فقد ترفض الانثى أنوثتها ، ويتأصل هذا الرفض ، كما بيّن التحليل النفسي ، في مراحل الحياة الاولى[٢٧].

ما هو صحيح بالنسبة الى الجنسية المثلية ينطبق أيضاً على العجز الجنسي عند الرجل والبرودة الجنسية عند المرأة . لقد اكتشف الطب الحديث ان معظم هذه الحالات عائدة لا الى أسباب عضوية بل الى اسباب نفسية[٢٨]. انها تعبير عن عجز الفرد على اقامة صلة حقيقية بشريكه[٢٩] وذلك لأسباب لاشعورية الى حد بعيد هي من باب النرجسية او الخوف او العداء[٣٠].

يمكن ايجاز ما سبق في هذا النص لايفون بريس : « ليس الجنس حاجة « جسدية » ، مستقلة فيزيولوجياً . ان الوظيفة الجنسية مرتبطة صميمياً بالشعور والخيال . نعلم اليوم ان معظم حالات العجز الجنسي والبرودة الجنسية « نفسية » ، وان ظهور الرغبة وقوتها مرتبطان بأفكار ومشاعر الفرد على الاقل بمقدار ارتباطها بالعمليات الفيزيائية والكيميائية التي تجري في جسده ، وان الوضع انطبيعي على الصعيد الجنسي مرآة أمينة كفاية للوضع الطبيعي على الصعيد النفسي »[٣١] .

فاذا كان الجنس عند الانسان مرتبط بهذا المقدار بالشخصية ككل[٣٢]، فهو بالتالي مندمج في الحركة التي تدفع هذه الشخصية الى تحقيق ذاتها على أكمل وجه في اطـــار علاقاتها بالكون وبالآخرين . انه بالتالي يحمـل معاني انسانية سنحاول الآن ان نجلوها .

ب - معاني الجنس عند الإنسان

يمكن تلخيص هذه المعاني بقولنا انها معانٍ اتحادية . فالانسان هو ذلك الكائن الذي يسعى الى اقامة شركة مع الآخرين لانه يحس بأنه لا يكتمل ولا يحقق ذاته الا بهذه الشركة . لذا حدّده ارسطو على انه « حيوان اجتماعي » . صحيح ان هناك مجتمعات حيوانية يدرسها العلم في أيامنا اكثر فأكثر . تلك المجتمعات هي أحياناً غاية في التنظيم وتوزيع الاعمال . ولكنها لا تتعدى كونها تكامل غرائز ووظائف . اما الاتصال الحقيقي بين الافراد ، فانه لا يتحقق الا من خلال لغة ، واللغة بالمعنى الصحيح يتفرد بها الانسان . فالجنس اذاً مرتبط بهذا المشروع الانساني الصميمي ، مشروع الاتصال بين البشر[٣٣]. يقول تيسون بهذا المعنى : « ان الغريزة الجنسية ... هي على أكمل وجه غريزة اجتماعية . ان الطاقات الغنية التي توقظها فينا تحتاج لبلوغ ملء تحقيقها الى الاتجاه نحو الآخر ... فالقاعدة الاولى للغريزة الجنسية هي ان تدفع الكائن بكليته نحو الآخر ... لذا يخلص هسنارد (وهو أحد كبار الاخصائيين

المعاصرين في شؤون الجنس) الى القول بأن « العمل الجنسي هو أساساً عمل اجتماعي »[٣٤].

١ ـ فالجنس داخل منذ البدء في اطار العلاقات الاجتماعية بين البشر

هناك وهم شائع ، ان عبّر عن شيء فهو يعبر عن رغبة واعية او غير واعية في الانفلات ، الا وهو ان الجماعات البدائية تمارس النشاط الجنسي بمعزل عن كل قيد . ان الدراسة العلمية لتلك الجماعات اثبتت بالعكس ان ممارسة الجنس فيها مقيدة بانظمة وقوانين[٣٥] . ومن اهم تلك القوانين ، كما بيّن العالم الاجتماعي الكبير كلود لافي ستروس ، قانون تحريم الزواج من الاقارب (prohibition de l' inceste) ولا يُعنى هنا بالاقارب مجرد الوالدين والاشقاء بل بصورة اعم الاشخاص الذين تربطهم درجات قربى يحددها العرف وتختلف من جماعة الى اخرى[٣٦]. هذا القانون يشمل الجماعات البشرية على تعددها واختلاف درجات حضارتها وان كان العرف يعفي منه بعض الافراد بالنظر للدور الهام الذي يلعبونه في الجماعة ، ولكن الشواذ هنا يثبت القاعدة[٣٧] . فما معنى هذا القانون الذي يتميز به النوع الانساني عن سائر الحيوانات ؟ لقد اوضح هذا المعنى كلود لافي ستروس بتحاليل شهيرة اذ ربطه بعادة العطاء المتبادل المتبعة عند الشعوب البدائية كما في مجتمعاتنا ايضاً . ففي كل المجتمعات البشرية يتبادل الافراد او الجماعات اشياء ثمينة ، ومن مظاهر هذا العرف تبادلنا الهدايا بمناسبة الاعياد . فما هي غاية هذا التبادل ؟ لقد كان بالامكان ان تُحصَّل هذه الاشياء وتستهلك فردياً . ولكن تبادلها يوجد رباطاً بين الافراد والجماعات ويخمد النزاعات العدوانية التي قد تبرز في العلاقات بينهم . وبما أن أثمن ما تملكه الجماعات البشرية

نساؤها ، لذا كان تبادل النساء بينها افضل تعبير عن ناموس العطاء المتبادل الذي ذكرناه . هذا هو بنظر لافي ستروس مبرر وجود قاعدة تحريم الزواج من الاقارب ، فقد قال عنها انها « ليست قاعدة تمنع الزواج من الام او الاخت او الابنة بقدر ما هي قاعدة تلزم باعطاء الام والاخت والابنة للآخر . انها القاعدة المثلى للعطاء »[٣٨] . وقد بيّن العالم المذكور ان هذه القاعدة كانت الشرط الاساسي للانتقال من الطبيعة الى الحضارة او بعبارة اخرى من الصعيد الحيواني الى الصعيد الانساني . ذلك انها « تقيم بين البشر رباطاً لا يستطيعون بدونه الارتقاء فوق النظام البيولوجي ليبلغوا نظاماً اجتماعياً »[٣٩] . فلولا هذه القاعدة لحكم على الجماعات البشرية المسيّرة بنواميس الغرائز أن تكون مغلقة ، متباعدة ، متناحرة ، وان تنفجر كل منها وتتفتت بداعي التنافس بين افرادها[٤٠]. هكذا نرى ان تقنين العلاقات الجنسية الملازم للجماعات من حيث هي بشرية قد جعل من الجنس اكثر من مجرد غريزة اذ جعل منه اداة للتخاطب بين البشر[٤١] .

٢ – الجنس الانساني بحد ذاته ينزع الى اتصال صميمي بالآخر

ولكن هناك ما هو أبعد واعمق من تسخير الجنس كأداة لربط الجماعات البشرية بعضها ببعض . فالجنس ، اذا أخذناه في حركته الخاصة ، ينزع عند الانسان الى اتصال صميمي بالآخر . ذلك هو معناه الانساني الاساسي . يقول الفيلسوف الشخصاني المعاصر فرنسوا شيرباز : « لا يمكن تحديد الجنس على انه وظيفة بيولوجية ، ذلك لانه يقيم علاقة وبالتالي فهو حركة ذات معنى ،

به ومن خلاله أتوجه الى آخر ، أقيم معه صلة عاطفية . وبعبارة أخرى فان العمل الجنسي يعني شيئاً ، يعبّر عن شيء ... ما يمكن ان يعطي الجنس معنى هو كونه يعبر عن تقارب لا ينتهي بين كائنين . ذلك هو اذاً المعنى الاساسي للجنس : انه يهيء للقاء بين كائنين حرين ولحميّين ويبشر به ، كما انه يبغي ايضاً تحقيقه وتتميمه . انه يبقى حركة فارغة طالما لم يُظهر ذلك المعنى الذي يبغي ان يعلن عن نفسه من خلاله . ولكنه يمتلىء معنى حالما تظهر نية اللقاء هذه »[٤٢].

اولا – انه حركة تدفع الفرد الى لقاء الآخر .

فالنزعة الجنسية الانسانية لا تهدف الى ازالة توتر عضوي وحسب . ان مجرد اثارة الفرد لاعضائه التناسلية الخاصة تكفي للحصول على انفراج عضوي ولكنه يترك في الانسان شعوراً بعدم الارتياح[٤٣]؛ ذلك ان الجنس عند الانسان يبغي ما هو أبعد من زوال التوتر العضوي ، انه يبغي الاتصال بالآخر ، كما تشير عبارات « جماع » و « وصال » التي تستعملها اللغة للاشارة الى العمل الجنسي . فالانسان يشكو ابداً من العزلة وهو يسعى من خلال سلوكه الجنسي ، ولو لم يعِ ذلك ، الى ازالة تلك العزلة باتحاد كامل بكائن آخر يُكمّل نقصه[٤٤]، كائن يكون على صورته لكي يتاح له الاندماج به ، ويكون مختلفاً عنه ، من حيث انه آخر ومن حيث انه من الجنس الآخر[٤٥]، كي يستطيع ان يكتمل به . هذا ما صورته رمزياً تلك الاسطورة التي رواها افلاطون ، اسطورة الاندروجين (الذكر – أنثى) . تقول الاسطورة انه كان في الاساس كائنات تجمع في جسد واحد اعضاء الذكر واعضاء الانثى . الا ان غضب الآلهة شطرها الى

شطرين ، ومنذ ذلك الحين اصبح كل من الشطرين يحنّ الى اللقاء بالشطر الآخر ليعيد معه الكيان الواحد الاصيل[٤٦].

ونجد في سفر التكوين من الكتاب المقدس وثيقة معبرة عن تلك النزعة الاتحادية للجنس الانساني .

« فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء باسماء . واما آدم فلم يوجد له عون بازائه . فأوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام فاستلّ احدى اضلاعه وسد مكانها بلحم وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأة فأتى بها آدم. فقال آدم ها هذه المرأة عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تُسمى امرأة لانها من امرىء أُخذت ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيرا جسداً واحداً » . (تكوين ٢ : ٢٠ - ٢٤) .

لدينا ، في هذا النص ، صورة بليغة عن العلاقة الوثيقة التي تشدّ الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر . فكل منهما متجه بطبيعته الى الآخر لانه ناقص بدونه ، يحنّ الى الاكتمال به ، حتى اذا اتحدّ به يؤلف واياه « جسداً واحداً » ، بالمعنى الكتابي لكلمة « جسد » التي تشير الى واقع الانسان الحيّ بكليته[٤٧] ، أي انه يؤلف واياه كياناً بشرياً حياً واحداً[٤٨].

ان ما عُبّر عنه شعرياً في الاسطورة وفي النص الكتابي ، ردده في عصرنا اهل العلم المشتغلون بتقصي اعماق النفس الانسانية. ان مؤسس التحليل النفسي ، سيغمون فرويد ، كان لأول وهلة ميالاً ، بتأثير ايديولوجية البيئة الطبية التي نشأ فيها ، الى اعتبار الميل الجنسي مجرد تعبير عن توتر عضوي[٤٩]. الا انه اضطر على

ضوء اكتشافاته الى تجاوز ذلك المفهوم الضيق للجنس ، فكوّن حوالى سنة ١٩٢٠ نظريته في « غريزة الحياة » التي وسّع فيها مفهومه للجنس فجعل منه طاقة اتحـادية ، شبيهة « بالعشق » (Eros) الذي تحدث عنه أفلاطون[٥٠] وبالمحبة التي وصفها الرسول بولس في رسالته الاولى الى أهل كورنثوس[٥١] . وفي كتابه الصادر سنة ١٩٣٠ بعنوان « ضيق في الحضارة » ، أكد فرويد ان الحب بين رجل وامرأة يكشف جوهر طاقة العشق (Eros) هذه (أي الجنس بالمفهوم الفرويدي الجديد) ، الا وهو « قصده بأن يجعل من عدة كائنات كائناً واحداً »[٥٢] .

وقد كتب المحلل النفسي الكبير المعاصر ، اريك فروم ، في مؤلفه « فن الحب » ما يلي : « ان الانجذاب الجنسي لا تسببه الحاجة الى ازالة توتر سوى جزئياً ؛ انه خاصة حاجة الى الاتحاد بين قطبين متضادين »[٥٣] ، وايضاً : « ان الرغبة الجنسية تسعى الى الانصهار ، ولا تُردّ أبداً الى حـاجة جسدية ، الى تفريغ توتر مزعج »[٥٤].

هكذا فالنزعة الجنسية تدفع الرجل والمرأة أحدهما نحو الآخر بغية ان ينصهرا ، من خلال تداخل الاجساد ، في لقاء صميمي ما بعده من لقاء . لذا ففي الجمـاع - اذا كان حقاً جمـاعاً ، وهذا ما سوف نرى شروطه فيما بعد - نشوة أقوى وأعمق من ان تُرد الى مجـرد زوال توتر عضـوي . انها نشوة المرء الذي بلغ ، باتحاده بالكائن المكمّل له ، قسطاً من الملء الذي يصبو اليه بكل جوارحه[٥٥]

ثانياً – مقارنة مع الجنس عند الحيوان[56]:

هذا البعد الاتحادي يميز بشكل قاطع الجنس عند الانسان منه عند الحيوان ، رغم نواحي التقارب الكائنة بينهما . فالجنس عند الحيوان مسخّر جوهرياً لاستمرار النوع . لذا فاتصال حيوانين جنسياً هو اساساً اتصال عضوين تناسليين متكاملين من اجل تخليد النوع . لا لقاء حقيقي اذاً بين الذكر والانثى ، بل تكامل وظائفي يمكن فيه مبدئياً لأي ذكر ان يقوم مقام ذكر آخر ولكل انثى ان تقوم مقام انثى اخرى ، بغض النظر عن الصفات الفردية التي تميز هذا او تلك من الذكور والاناث . لا بل يمكن القول ، على ضوء الدراسات الحديثة ، بأن ما يُطلق السلوك الجنسي عند الحيوانات ، حتى المتطورة منها ، كثيراً ما يكون ليس رؤية حيوان من الجنس الآخر ككل ، انما هو التقاط اشارة خاصة بادية على جسم هذا الحيوان[57]. فقد بيّن العالم الالماني الكبير تينبرغن Tinbergen ان انثى احد انواع الاسماك النهرية المدعوة épinoche لا تجتذب الذكر ، في فترة التناسل ، الا بسبب بطنها المنتفخ بالبيض والمتحرك ، وقد برهن عن ذلك بصنعه دمية ليس لها بشكل الانثى سوى شبه بعيد ولكنها تحمل مثلها انتفاخاً في جانبها الاسفل وحرّك هذه الدمية في الماء فاجتذبت الذكر تماماً كما لو كانت الانثى عينها[58]. ويحدثنا الاختصاصي الفرنسي بالسلوك الحيواني ، ريمي شوفان ، عن نوع من البط يتميز فيها الذكر عن الانثى بالوان غنية جداً منتشرة على كل جسمه ، ولكن سر اجتذابه للانثى كامن في علامة فارقة واحدة الا وهي الريش الاخضر الذي تتميز به رقبته ، حتى انه اذا نُتف هذا الريش بالذات في رقبة الذكر ،

رفضته الانثى [٥٩]

اولوية النوع تلك ، التي يتميز بها الجنس عند الحيوان ، تبدو بشكل صارخ في الحالات العديدة التي يقترن بها التناسل بموت كل من الحيوانين المتناسلين او احدهما ، ضحية ممارسة العمل الجنسي . فهناك مثلاً نوع من الدود البحري المدعو Palolo الذي يصعد افراده الى سطح البحر في موسم التناسل، فينفجر الذكور والاناث مطلقين الخلايا الجنسية التي تتحد بعضها ببعض لتنتج حيوانات جديدة . وكثيراً ما يكون الذكر وحده ضحية العمل الجنسي فذكور النحل لا مبرر لوجودها سوى ان يلقح احدها الملكة اثناء طيرانها العرسي ثم يموت فوراً ، وبعد فترة تقتل العاملات بقية الذكور وقد اصبحوا دون فائدة . وهناك نوع من الدود لا يمكن لانثاه ان تُلقح الا اذا سحقت بطن شريكها لتبتلع خلاياه الجنسية [٦٠] . هذا هو ايضاً شأن تلك الحشرة التي نسميها بالعامية في بلادنا « جملا » [٦١] mante religieuse والتي تفترس انثاها رأس الذكر اثناء العمل الجنسي، [٦٢] مما يؤدي ، كما بيّن الاختصاصيون ، الى تلقيح اوفر [٦٣] .هكذا « فالنوع ينتصر ونقل الحياة هو المهم . كثيراً ما يحصر الذكر في دوره فيخصب ويموت » [٦٤]

الا ان تطور الحياة من اشكالها الدنيا الى اشكال أرقى فأرقى يوازيه تطور في الجنس الحيواني نفسه ، فقد لوحظ انه عند الانواع الراقية من الحيوانات ، تتخذ العلاقة الفردية شيئاً من الأهمية في التناسل . فعند الطيور والحيوانات ذوات الثدي يظهر اختيار للشريك الجنسي واستمرار في العلاقات بين الشريكين قد يدوم فصلاً او أكثر او مدى الحياة[٦٥]. هكذا نجد « ارتقاء

تدريجياً للجنس من الصعيد البيولوجي الى الصعيد النفسي ، من مجرد الاتصال الجنسي دون وعي حقيقي لآخر هو مصدر انعكاسات ليس الا ، الى اختيار شريك خاص ، مما يشكل بذور الحب الانساني »[٦٦].

ولكن ظهور الانسان كان قفزة تحولت معها جذرياً نوعية الجنس . فرادة الانسان في انه يدرك ذاته ويدرك الآخر ويدرك الجنس . لذا لم يعد نشاطه الجنسي مجرد أداة لاستمرار النوع بل اصبح مسخراً لأهداف الذات الانسانية . وبالتالي فبين الجنس الحيواني والجنس الانساني اتصال وانقطاع بآن[٦٧] . يقول ابال جانيير بهذا المعنى : « الجنس الحيواني والجنس الانساني يستهدفان كلاهما استمرار النوع ويمكن مقارنتها من هذا القبيل ، الا ان الجنس الانساني يتجاوز هذا الهدف بشكل ملحوظ »[٦٨]، وايضاً : « ان لقاء الرجل والمرأة ليس لقاء الذكر والانثى . ليس ذلك وحسب . »[٦٩] . انه يتجاوز ضرورة استمرار النوع في اتجاهين : اولاً انه ليس منحصراً في مواعيد الخصب كما هي القاعدة عند الحيوان ، ثانياً انه يسعى الى الاتحاد بين شخصين . فبخصوص الاتجاه الاول يقول الدكتور شوشار : « الحياة الجنسية عند الحيوان آلية تستهدف الاخصاب وتحصر النشاط الجنسي في الوقت المفيد فقط . أما في النوع البشري فالرغبة الجنسية ، على العكس ، تنزع الى الاستقلال عن العوامل الهورمونية والى ان تصير ممكنة في كل وقت ؛ ان عملية الادراك تركز الاهتمام على العلاقة الجنسية ومتعتها وليس على الاخصاب »[٧٠] . أما بخصوص الاتجاه الثاني ، فيقول الكاتب نفسه ان أنسنة الجنس تتجلى « بأولوية غاية الاتحاد النفسية على غاية التناسل البيولوجية »[٧١]. مجمل الكلام انه ، على حد تعبير المفكر المعاصر بول افدوكيموف ، « في

الانسان يجد التميز الجنسي معناه وقيمته الخاصة ، بالاستقلال عن النوع ،[٧٢] . هذا المعنى هو اتحاد قطبين شخصين متضادين ومتكاملين في نشوة لقاء يجمع بينهما في الصميم[٧٣].

٣ - الالتباس الكامن في الجنس الانساني .

ولكن الانسان كائن مُعقّد تمتد جذوره الى اعماق عالم الغريزة ويتطلع بانظاره الى أسمى القيم . هذا التعقيد في الانسان، هذا التوتر الذي يكوّن فرادته ، بادٍ ايضاً في الجنس الانساني. فان هذا الجنس ينتمي الى الغرائز ويتجاوزها بآن . فهو من جهة حاجة غريزية نابعة من الكيان العضوي تدفع الى سلوك يزيل توتر هذا الكيان ويعيد اليه توازنه . ولكنه من جهة أخرى يتميز عن الغرائز كافة . فالغريزة العادية هي حاجة الى شيء ، فاذا استُهلك هذا الشيء زال التوتر ورقدت الحاجة الى حين . هكذا فالحاجة الى الطعام تزول باستهلاك الطعام ، وكذلك الحاجة الى شراب ، والحاجة الى حرارة والحاجة الى هواء ... اما الجنس فهو صميمياً عند الانسان نزعة الى الاتحاد ، والاتحاد لا يكون بين شخص وشيء بل بين شخص وشخص . الجنس الانساني اذاً سعي الى شخص[٧٤]. والشخص لا يُستهلك والا أصبح شيئاً ، انما يُلاقى ، يُتصل به[٧٥]. الغريزة العادية لا تقيم وزناً للشيء الذي تسعى اليه من حيث هو ، انما تتخذه وسيلة لبلوغ مأربها ، لذا تتلفه لتعيد التوازن العضوي الى نصابه . اما الجنس ، فمن حيث انه نزعة اتحادية ، فلا يستطيع ان يبلغ مرماه الا بتأكيد شخص الآخر ، لان الاتحاد لا يتم الا بين قطبين متقابلين ويتطلب بالتالي قيامهما كليهما دون ان يغيب أحدهما ، دون ان يذوب في الآخر . من هذه الناحية لا يمكن اعتبار الجنس حاجة غريزية على شاكلة

الجوع مثلا[٧٦]، لانه يتفرد بكونه « في جوهره حماسة المشاركة الحبية بين ذات وذات »[٧٧].

هكذا يبدو لنا الجنس الانساني مطبوعاً بطابع الازدواجية. انه غريزة ويتجاوز الغريزة بآن. لذا تتجاذبه نزعة الى الاستهلاك ونزعة الى المشاركة[٧٨]. هذا ما يتضح لنا بشكل بارز اذا عدنا الى أصول الجنس في حياة الفرد الانساني كما وصفها لنا فرويد. معلوم ان احد الاكتشافات الرئيسية التي حققها رائد التحليل النفسي هذا هو ان الجنس لا يظهر فجأة في الانسان عند المراهقة ولكنه موجود منذ بدء الحياة ويتطور ماراً بمراحل مختلفة عبر الطفولة والمراهقة الى ان يتخذ شكله النهائي المعهود[٧٩]. اولى تلك المراحل هي تلك التي يتميز بها الطفل في السنة الاولى من عمره، وهي ما سمي بالمرحلة الفمية لان النزعة الجنسية فيها، وهي لا تزال مبهمة، مركّزة على الفم الذي يشكل المصدر الاساسي للمتعة عند الطفل في ذلك العمر (والجدير بالذكر ان تلك المرحلة البدائية ستترك أثرها في الجنس عندما يتخذ شكله النهائي، وما أهمية القبلة في النشاط الجنسي عند الراشد سوى دليل اندماج النزعة الفمية في الجنس المكتمل). قلنا ان الجنس في أول عهده يتخذ فم الطفل مرتكزاً له، ولكن الفم هو ايضاً مركز الوظيفة الغذائية[٨٠]، به يتناول الطفل حليب الأم ليغتذي منه. وهكذا يبدو الجنس في أول عهده مرتبطاً بالطعام ومتجاوزاً له بآن[٨١]. النشوة « الجنسية » الاولى يختبرها الطفل عندما يرضع ثدي أمه، كما بيّن فرويد في نص شهير[٨٢]. ولكن ما هو سر تلك النشوة؟ أهو في استهلاك الحليب؟ بديهي ان الامر يتعدى ذلك الصعيد الغذائي. فان ما يرتاح اليه الطفل ليس مجرد حليب الأم الذي يسد

جوعه ، بل ما يناله مع هذا الحليب ومن خلاله ، ألا وهو « حليب العطف الانساني » على حد تعبير شكسبير[٨٣]. ما يطلبه الرضيع لا شعورياً عندما ينهل الحليب من ثدي أمه هو ان يلفه حضورها الدافىء[٨٤] لكي يتحد بها كما كانت الحال عندما كان جنيناً . وبعبارة أخرى ما يطلبه الرضيع ليس مجرد حليب الوالدة ، انما الوالدة نفسها[٨٥]. هذا ما يتضح ليس فقط من الآثار التي يتركها ذلك الوضع الاول في العقل الباطن عند الراشد ويظهر في التحليل النفسي[٨٦]، بل من ملاحظة سلوك الرضيع نفسه . فمثلاً نجده ، بعد ان يكون قد ارتوى من حليب الأم ، يمصّ اصبعه او يرضع لسانه ، وكأنه بذلك يجد في جسده (الذي لا يستطيع بعد تمييزه عن جسد الأم) بديلاً لذلك الاتحاد بالأم الذي كان يتمتع به أثناء الرضاعة[٨٧]. ومن هذا الباب ايضاً هذه الظاهرة التي يلاحظها المرء بسهولة والتي يشير اليها الدكتور دونجيه[٨٨] ، ألا وهي ان الطفل فيما يرضع يحدّق في وجه الوالدة (والوجه ، كما هو معلوم ، هو ذلك المكان المفضل لحضور الشخص) ، وكأنه فيما يتناول حليب الأم ، « يلتهم » وجهها بعينيه[٨٩]. لذا فالوجه الانساني هو من اول الاشياء التي يتعلم الطفل ان يميزها ، كما بيّن العالم الكبير الدكتور رينه شبيتز بملاحظات واختبارات شهيرة ، معبراً عن هذا التمييز بالابتسامة التي يجيب بها على الوجوه الباسمة حوله منذ شهره الثاني أو الثالث[٩٠]. ومما يوضح ايضاً ان اتصال الرضيع بأمه يتعدى العلاقة الغذائية هو ما أثبتته دراسات الدكتور شبيتز نفسه وغيره من الباحثين من ان الطفل اذا حُرم من حنان الوالدة يذبل جسدياً ونفسياً ولو كانت جميع حاجاته البيولوجية ، من غذائية وصحية ، متممة على أكمل وجه[٩١] .

انطلاقاً من هنا نفهم أهمية الفطام بالنسبة لنفسية الطفل ، انه ليس مجرد انقطاع حليب الأم عنه ، بل « تبدل ذو معنى في علاقات الأم والطفل »[٩٢]، انه انسلاخ عن الام يعيد نوعاً ما انسلاخ الولادة[٩٣] ، لذا تدعوه قبيلة اليوروك الهندية « نسيان الام »[٩٤].

أهمية هذه المرحلة بالنسبة لموضـــوعنا هي انها ، كما قلنا ، تظهر بشكل جلي الالتباس الكامن في صميم الجنس عند الانسان . فالطفل يود الاتحاد بوالدته ، ولكنه ، نظراً لعدم نضجه ، لا يسعه ان يحقق هذا الاتحاد الا على طريقة اشباع الغريزة الغذائية ، انه يحاول ان يلتهم أمه ، ان يستهلكها كما يُستهلك الحليب ، انه « يحب بمعدته » على حد تعبير آنا فرويـــد[٩٥] . ولكن لا بدّ له ان يفشل في مسعاه هذا . فالشخص لا يُستهلك كما قلنا ، والمشاركة المرجوّة لا تتم عـــن طريق الاستهلاك . لذا رأينا الطفل يفتش في جسده عن بديل للام بعد رضاعة ارتوى فيها من حليبها . ولذا يترك زمن الرضاعة ، مهما طال ، فراغاً في النفس ، كما بيّن فرويد[٩٦] ، تبقى آثاره أبداً في العقل الباطن ، كأن هناك غاية لم تُبلَغ ، وكأن أحداً لم يحقق ذلــك المثال الذي يعبر عنه المثل السائر « ان يشبع من حليب أمـــه » ، لأن المقصود من خلال الحليب لم يُنـَل[٩٧] .

د - إخفاق الجنس

تلك الازدواجية التي يتميز بها الجنس الانساني الذي تتنازعه ، كما رأينا ، رغبة في الاستهلاك ورغبة في الاتحاد ، لا تنحصر في بدء تاريخ الجنس عند الرضيع ، انما تمتد الى الجنس في شكله النهائي عند الراشد .

فالراشد ، رغم كونه قادراً ، اكثر بكثير من الرضيع على تميز شخص الآخر ككيان قائم بذاته ، لا يزال يحتفظ ، بشكل لا شعوري الى حد بعيد ، بتلك النزعة التي رأيناها تدفع الرضيع الى « استهلاك » الآخر[98]. هذا ما يطبع العلاقة الجنسية بطابع استهلاكي يُعبّر عنه في المواقف وتترجمه عبارات اللغة . فكثيراً ما تعتبر المرأة نوعاً من الفاكهة ويشبه اعضاء جسمها بفواكه متنوعة (والامثلة على ذلك كثيرة في الأدب والفولكلور : « والخدان تفاحة بتغار من تفاحة » مثلاً)[99]. وفي لغة الفلسفة وعلم النفس ، كثيراً ما يُسمى الميل الجنسي بالفرنسية « appétit sexuel » اي « الشهية الجنسية » ، مما يظهر موضوع هذا الميل بمثابة فريسة تؤخذ وتؤكل[100]. هذا ما يتحقق على اكمل وجه في عمل الاغتصاب الذي يتنكر لحرية المرأة كشخص « ويستهلكها »

كأنها شيء ، ولذا يقال بحق ان المغتصب « افترس » ضحيته[101]. الموقف الاستهلاكي في العلاقة الجنسية هو دائماً هدّام للآخر لانه يزيل كيانه الشخصي ليعتبره مجرد شيء[102]، وهكذا فهو يؤدي في الحالات القصوى الى السادية اي الى التلذذ الجنسي بتهديم الآخر معنوياً ومادياً . هذا التهديم قد يذهب الى آخر الحدود فيؤول الى ازالة الآخر من الوجود ، هذا ما يحدث في الجرائم السادية[103] او في سلوك « ملكة من ملكات فرنسا كانت تأمر بالقاء عاشقيها في النهر بعد استعمالهم »[104]. هذه الحالات القصوى انما هي تضخيم يظهر بجلاء جوهر النزعة الاستهلاكية في الجنس ، الا وهي اعتبار الآخر شيئاً يُستمتع به ثم يُنبذ نبذ النواة[105]، انه ليس هنا « سوى اداة ، السكين التي تُرمى بعد استخدامها ، الصدفة التي يتركها المرء على الرمل بعد ان يذوقها »[106].

قلنا ان تلك النزعة الاستهلاكية تنبع من الطبيعة الغريزية للجنس . ولكنها تزداد شدة وخطورة بسبب ميزة انسانية سنحاول الآن تبيينها . ان في العمل الجنسي لذة شبيهة بتلك التي ترافق ممارسة سائر الغرائز لا بل هي تفوقها قوة وحدّة بالنظر كما قلنا لتلك الحاجة الصميمية الى الآخر التي تعبّر عنها النزعة الجنسية عند الانسان . واللذة بحد ذاتها أمر حسن وايجابي[107]، انها، كما سبق واوضح ارسطو ، الدليل على أن النشاط الانساني يجري وفق نواميسه الطبيعية ، انها ، كما بيّن الفيلسوف المعاصر موريس برادين ، علامة على سير الانسان في خط اكتمال كيانه ، انها ايضاً ، اذ ترافق الوظائف الطبيعية عند الانسان ، حافز على ممارسة تلك الوظائف التي مَن شأنها إن تؤمّن حفظ وانطلاق الفرد من جهة واستمرار النوع من جهة اخرى . ولكن الانسان

يتميز عن سائر المخلوقات بادراكه . انه لا يكتفي بأن يعيش اختباراته المختلفة ، بل هو يعي ما يعيشه . الحيوان يشعر باللذة . ولكن الانسان وحده يُدرك هذا الشعور ، يعرف لذته . هذا الوعي للذّة يضاعف اللذة من جهة ، ومن جهة اخرى فقد يقود الانسان الى السعي الى اللذة من اجل ذاتها ، الى اتخاذها غاية .

ان سلوكاً كهذا مختص بالانسان ، نابع من طبيعته المتفوقة ، ولكنه كغيره من المسالك الانسانية محفوف بالمخاطر . لم تعد النواميس الطبيعية تسيّر الانسان بشكل حتمي كما هي الحال عند الحيوان الذي تقنن الغرائز سلوكه ، انما تُرك الانسان الى حد بعيد لنفسه ، لاختياره الحر النابع من وعيه لنفسه وللاشياء ، واصبح بمقدوره ان يستخدم هذا السلطان ليرتقي او ينحدر ، ليحرر نفسه او يستعبدها . فاذا عدنا الى ذلك السلوك الذي يتفرد به الانسان ، الا وهو اتخاذ اللذة غاية ، رأيناه سلاحاً ذا حدّين : فقد يكون مصدر غنى للوجود الانساني او بالعكس مصدر انحراف وتهور . فلنأخذ على سبيل المثل مجال الحاجة الى الطعام . لقد كان سعي الانسان الى اللذة من اجل ذاتها في هذا المجال دافعاً له على ابتكار الوان متنوعة من الاطعمة ، وهكذا وُجد الفن المطبخي بكل غناه ، ذلك الفن الذي هو ولا شك كسب حضاري لا يُستهان به[8:1] ولكن هذا السعي نفسه قاد الانسان الى مسالك مضرة له ومحطة لكرامته الانسانية . فقد اصبح الانسان يأكل فوق حاجته لمجرد التمتع بلذة الطعام ، فاستقل هكذا السعي الى اللذة تماماً عن الحاجة الغريزية التي هو ملازم ، طبيعياً ، لها ، وبهذا الفصل انقلب هذا السعي على نفسه اذ قاد الى آلام التخمة واوجاع الامراض الناتجة عنها . ومن

جهة اخرى اصبح للطعام عند الكثيرين اهمية بالغة تفوق بكثير دوره الطبيعي حتى انه صار للبعض شغلهم الشاغل محولاً اياهم عن اهتمامات انبل وارقى وعن مهمات انسانية ملحة : هذا ما نرى نموذجاً عنه في ذلك السلوك المحطّ الذي كان يسلكه رومان عصر الانحطاط عندما كانوا يعمدون الى لفظ ما تناولوه من طعام ليعودوا فيجددوا الاكل[١٠٩].

هكذا فالسعي الى اللذة من اجل ذاتها يصبح شاذاً اذا طغى على حاجات الانسان الحقيقية وجعله يهملها وينحرف عنها. عندئذ يصبح هذا السعي نوعاً من السرطان، فالسرطان في الكيان الانساني كما هو معلوم عبارة عن خلايا طبيعية تتكاثر بشكل مفرط فيختلّ من جراء هذا التكاثر توازن الجسم فيعتلّ ويسير نحو الهلاك، وكأن جزءاً من الجسم، باتخاذه اهمية مفرطة، انقلب على الجسم ككل ليدمّره. هكذا فالسعي الى اللذة من اجل ذاتها امر طبيعي عند الانسان، ولكنه، اذا تضخّم وتجاوز الحدود، انقلب على نفسه وعلى الكيان الانساني.

ولنرَ الآن كيف يمكن للسعي الى اللذة اذا تضخم، ان يتنكر لاصالة الجنس الانساني. قلنا ان الجنس عند الانسان يتفرد بكونه، في جوهره، سعياً الى الآخر بغية اكتمال كل من الشريكين في لقاء صميمي بين شخصيهما. في هذا اللقاء لذة، ولكن اللقاء ابعد من اللذة واعمق، لان اللذة فردية بطبيعتها، اما اللقاء فانه ينشىء وحدة جديدة يتجاوز فيها كل من الشريكين فرديته، فيندمج «الأنا» و«الانت» في كيان جديد، هو «النحن»، الذي فيه يكتملان دون ان يذوب او يمّحي احدهما. ولكن اذا اصبحت اللذة غاية الجنس

الاساسية (لا اقول اذا اصبحت غاية من غاياته ، فهذا امـر طبيعي ، ولكن اذا اصبحت الغاية بـأل التعريف) ، لم يعد للآخر من اهمية سوى لكونه اداة لبلوغ اللذة . هكذا لم يعد الآخر غاية بل وسيلة ،وبعبارة اخرى لم يعدشخصاً بل شيئاً . وهكذا يتضح ان طغيان السعي الى اللذة من اجل ذاتها يقوي في الجنس تلك النزعة الاستهلاكية التي رأيناها ملازمة له مـن حيث كونه حاجة غريزية ، فيلتقي وعي الانسان – الذي هو اساس تمييز اللذة واتخاذها غاية – مع كثافة الغريزة ، ليحولا الجنس عن خطّه الانساني الاصيل ، الا وهو السعي الى الشخص الآخر .

ولكن لا بد لهذا التحوير ان يأتي بنتيجته المنطقية ، الا وهي اخفاق الجنس . ذلك ان هدف الجنس عند الانسان هـو اللقاء ، المشاركة . ولكن اللقاء ، كما قلنا ، لا يـتم الا بين شخص وشخص . الشيء يُستهلك ولكن لا يُتحد به ، يذوب فيّ ولكنه يبقيني في عزلتي . انا لا اكتمل الا اذا تجاوزت ذاتي للقـاء الآخر ، ولكن هذا الآخر يغيب اذا اصبح شيئاً يستمتع به ، وأبقى انا فريسة فراغي!!! هكذا فانحراف الجنس نحو اعتبـار الآخر مجرد متعة يجعله مخطئاً لمرمـاه الاتحادي وبذلك يحـكم عليه بالفشل . هذا الفشل يتجلى في الخيبة التي يُصاب بها المرء اذا سلك هذا الطريق المسدود . قـد يحاول اخفاء هذه الخيبة حتى عـن نفسه ، لكنها لا محالة حاصلة . ذلك ان الانسان ، اذا توقف عند المتعـة الجنسية ، ينتظر منها الملء كل الملء ، ولكنه بعد انتظار متوتر لغبطة خارقـة ، لا يحصل الا على لحظة من النشوة تتركه فارغـاً كما كان!!! هذا هو سر الحزن الذي كثيراً ما يعتري المرء بعد الجمـاع والذي عبّر عنـه

الاقدمون بمثل لاتيني شهير . تلك الخيبة يسهل فهمها على ضوء ما ذكرنا . فالملء الذي تعد به النزعة الجنسية ملء ينتج عن اللقاء بالآخر . ولكن اللذة ، مهما عظمت ، تترك الانسان وحده ، محصوراً ضمن جسده ، اسير عزلته . فاذا كان التركيز عليها ، استحال اللقاء وتبدد بالتالي حلم الاكتمال كأنه سراب وامتدت من جديد صحراء الوحدة المريرة[112]! الجنس ، اذا انحرف عن خطه الاصيل ، فاشل لا محالة ، لانه عوض الشريك الذي ينشده في قرارة ذاته ، لا يجد سوى جسد لا يروي غليله . هذا ما عبّر عنه الشاعر الكبير طاغور في مقطع رائع :

« امسك بيديها واضمها الى قلبي .
« احاول ان املأ ذراعيّ من سحرها ،
« وأن انهب بقبلاتي عذوبة ابتسامتها ،
« وأن اشرب بعينيّ لحظاتها القاتمة .
« ولكن اواه أين ذلك كله ؟ من يقدر ان يفصل عن السماء زرقتها اللازوردية ؟

« أحاول ان أمسك الجمال . ولكنه يفلت مني ،
« تاركاً جسداً فقط بين يدي
« فأتراجع خائباً ، تعباً :
« كيف يمكن للجسد ان يلمس الزهرة
« التي تطالها الروح وحدها ؟ »[113]

فلنلاحظ في هذا النص استخدام عبارات الاستيلاء والاستهلاك (امسك ، املأ ذراعيّ ، أنهب ، أشرب) التي تشير الى

تلك النزعة الاستهلاكية التي تحوّل الآخر الى شيء وبالتالي تحول دون اللقاء (أحاول ان أمسك الجمال . ولكنه يفلت مني ...)

يعبّر عن المعنى نفسه هذا الحوار بين امرأة ورجل في رواية « انشودة الكون » للكاتب المعاصر جان جيونو . تقول المرأة لعشيقها :

« — لم يكن لك يوماً نظرة تكفيك حدتها لتدخل فيّ ، الى ما هو أبعد من جلدى .

« — نعم ، قال لها باسّون

« — قالت : اتمنى لو ان ذلك صحيح ، ولكن يكفيني ان أنظر الى عينيك لأدري ان ذلك ليس بصحيح . ماذا يمكنك ان تبصر بتلك العينين ؟ لا شيء . لحماً دافئاً ترغب بوضع يدك عليه . هذا كل شيء . ما الذي يدخل فيك عندما تلمسني ؟ هذا الدفء ، جلدي الناعم ، هذا كل شيء . هل تعتقد انك سوف تتمكن يوماً من ان تسمع قليلاً صوت دمي ؟ هذا لن يحدث قط . انك اصمّ ، اصمّ ، اصمّ . بقيت لحظة دون كلام . ثم قالت :

« — وانانيّ ايضاً ...

« — اناني ، أنا ؟

« — قالت : نعم . أذناك وعيناك ويداك أنانية . انك ترى لنفسك ، تسمع لنفسك ، تلمس وتأخذ لنفسك . انك تنظر . ماذا ترى ؟ انك لا ترى شيئاً . انك ترى لنفسك . ترى كل ما يمكن ان يجلب لك ذلك من لذة . لا أكثر من ذلك . »[١١٤]

هـ - بعض مظاهر اخفاق الجنس

ولنستعرض الآن بعض مظاهر اخفاق الجنس هذا بسبب طغيان النزعة الاستهلاكية والسعي الى اللذة .

١ - الاستمناء

ولنرَ أولاً ما يحصل في حال ممارسة الاستمناء ، أي العبث بالاعضاء التناسلية بغية الحصول على اللذة . هنا نرى الجنس ينطوي على نفسه ، مستغنياً بالكلية عن الآخر (على الأقل عن الآخر ككائن حقيقي ، لان صورة الآخر قد تراود الخيال وتساهم في الاثارة الجنسية) . هنا ينحرف الجنس بشكل قطعي عن مرماه الاتحادي اذ يبقى محصوراً ضمن قوقعة الفرد ولذته عوض ان ينطلق نحو الآخر . لذا دُعي الاستمناء بحق باللغة الفرنسية « لذة انعزالية » satisfaction solitaire لان الفرد يحاول ان يحصل به منعزلاً على لذة تنشأ طبيعياً من اللقاء الجنسي[١١٥].

ولكن سبق ان قلنا ان تلك الممارسة تخلّف شعوراً بعدم الارتياح ، انها تنشىء انقباضاً وحزناً ، ذلك لانها تترك الفرد

اسير الفراغ الذي كان يحاول ان ينجو منه[116]. من هنا ينبغي الانطلاق من اجل تقييم الاستمناء وليس من تلك الخرافات التي روّجها البعض والتي لا تزال شائعة بين الناس، من ان الاستمناء يهدّم صحة الجسد او يسبب الامراض العقلية[117]!

٢ – الاتصال الجنسي الخالي من أي رباط عاطفي

وقد يمارس المرء نشاطاً جنسياً يبدو لأول وهلة كاملاً لانه اتصال بشريك من الجنس الآخر، الا ان هذا الشريك يُعتبر أداة لبلوغ اللذة دون ان يقام أي وزن لشخصه او تقام أية علاقة وجدانية معه. هذا ما يتحقق بشكل بارز في الاتصال ببغي تعتبر مجرد جسد يُشترى وسلعة تُستهلك[118]! ولكنه يتحقق ايضاً في كل اتصال جنسي يتم بمعزل عن علاقة عاطفية بين الشريكين[119] لذة كل منهما هي اذاً في تلك الحال لذة انطوائية تبقي على عزلة الواحد والآخر. هذا ما صوره لنا الروائي الكبير المعاصر اندره مالرو في شخص فيّرال، أحد أبطال روايته «الوضع البشري»، ذاك الماجن الذي لم يكن يرى في المرأة التي يتصل بها جنسياً سوى «القطب الثاني للذته الخاصة»، والذي يقول عنه الكاتب: «مجمل الكلام انه لم يكن يضاجع أبداً سوى ذاته، ولكنه لم يكن يتمكن من ذلك الا شرط الا يكون وحده»[120]! ان اتصالاً كهذا لا يتعدى كونه استمناءً مزدوجاً[121]. فلا غرو، والحالة هذه، ان يخلف هو ايضاً خيبة وعدم رضى[122]. هنا قد تنشأ حلقة مفرغة. اذ ان الذين لم يتوصلوا الى اقامة علاقات انسانية اصيلة كثيراً ما يشعرون بحاجة جنسية

ملحة[١٢٣]. يلجأون الى الجنس لجوءهم الى الكحول او المخدرات لينجوا من ألم العزلة . ولكن الاتصالات الجنسية التي يمارسونها ليست مبنية على علاقة انسانية أصيلة ، لذا ليس بمقدورها ان تزيل قلقهم « اذ ان العمل الجنسي بمعزل عن الحب لا يزيل ابداً المسافة بين كائنين بشريين ، الا للحظة فقط »[١٢٤]. لذا يشتد شعورهم بالعزلة مما يدفع الى تجديد المحاولة الفاشلة وهكذا دواليك[١٢٥]!

نذكر هنا على سبيل المثل ملاحظة المحللة النفسية الكبرى هيلين دوتش ، المديرة السابقة لمعهد التحليل النفسي في ڤيينا ، حول فئة من المراهقات اللواتي لم ينضجن على الصعيد العاطفي بل بقين متوقفات عند ذلك الصعيد الاستهلاكي الذي يتميز به الطفل الرضيع . فقد بيّنت ان تلك المراهقات سرعان ما ينقدن الى الاغراء الجنسي بسبب « جوعهن الى اللذة » وليس بدافع ميل حقيقي الى الآخر . أما نتيجة ذلك فهي انهن « فيما يشعرن بالفعل برغبة آكلة ، يبقين باردات اثناء العمل الجنسي . انهن يتمنين بشكل يائس الاتحاد ، ولكنهن يبقين ابداً وحيدات »[١٢٦]

٣ – الاتصال الجنسي المبني على شهوة طاغية

وقد يوجد بين الشريكين شيء من الرباط الوجداني ، ولكن الشهوة تطغى عليه . لذا يحاولان ان يلتقيا ، لكنهما لا يتوصلان الى تحقيق هذا الهدف لان همّ كل منهما ان يستولي على الآخر ليستمتع به ، والاستيلاء يتنافى مع اللقاء[١٢٧]. لذا يبقيان « غريبين أحدهما عن الآخر ، منعزلين كما في السابق ، وقد يخلّف ذلك في نفسيهما شعوراً بالخجل وحتى بالحقد لان الوهم تبدد واذ

بشعورهما بالتباعد قد ازداد حدة عما سبق »[١٢٨]. هذا و شيء منه قد يحصل حتى في الزواج[١٢٩]! فقد بيّن الدكتور لومير في كتابه عن « الخلافات الزوجية » كيف ان العلاقات الجنسية بين زوجين شابين كثيراً ما تكون لأول وهلة شبيهة الى حد ما بنشاط استمنائي يُعتبر فيه الآخر ، لا شعورياً الى حد ما ، مجرد مصدر للذة ، وانها بالتالي لا تؤول سوى الى مجرد انفراج وقتي وغير كامل . اما اذا تطورت تلك العلاقات واصبحت أكثر نضوجاً واعتبر فيها الآخر شخصاً حراً مستقلاً فان النشاط الجنسي يصبح أكثر انعاشاً وأقل الحاحاً ، حتى ان الامتناع عنه متى تفرضه الظروف لا يعود مصدراً للجزع ، وكأن النوعية تغني الى حد ما عن الكمية[١٣٠].

و- إخفاق الجنس في المجون المعاصر

اما اذا انتقلنا من الصعيد الفردي الى الصعيد الجماعي فاننا نجد عن اخفاق الجنس نماذج صارخة في المجتمع الحديث . فقد اراد هذا المجتمع ان « يحرّر » الجنس . وبالواقع حرّره من قيود التزمت الخانقة ، من الصمت والجهل والخوف ، واعاد له اعتباره[١٣١] لقد شاء الانسان الحديث بحق ان يتعهد طاقته الجنسية بوعي عوض ان يسلم زمامها للتقاليد والعادات المألوفة . بهذا المعنى كتب الدكتور شوشار : « ان الانسانية ، وقد اصبحت راشدة ، تسلمت زمام مصيرها واخذت تتساءل لاول مرة ، متجاوزة العادات المألوفة ، كيف يجب ان يكون جنس انساني . »[١٣٢] ولكن تحرير الجنس لا يكون اصيلاً الا اذا كان الانسان نفسه حراً في اعماقه[١٣٣]، والا انتقل الجنس من عبودية الى عبودية ، فاستعبد للغريزة الغاشمة[١٣٤] بعد ان كان مستعبداً لتقاليد اجتماعية خانقة . الا ان الانسان الحديث – ذاك الذي شاء بحق ان يحرر الجنس – بعيد هو نفسه ، في كثير من الاحيان ، عن الحرية . ذلك انه قد تحول في كثير من الاحيان ، كما بيّن ماركوز مثلاً ، الى اداة انتاج واستهلاك[١٣٥]، تتحكّم فيه مصالح الرأسمالية وبوروقراطية الدول والاحزاب[١٣٦]، وقد سُخر عمله لمقتضيات الآلة فأصبح آلياً ،

مجزء"[36] ، لا طعم له ولا معنى ، واخضع هــو للدعاية تقولب فكره وحاجاته بما اوتيت من وسائل قــوية صحفية واذاعية وتلفزيونية وسينمائية وغيرها"[37]. وهو الى ذلـك اسير العزلة التي اوجدها تضخم المدن في المجتمع الصناعي ، تلك المدن التي يشكو فيها المرء من العزلة وسط الجماهير كما بيّن ريسمان في كتابه الشهير « الجمهور الوحيد » (The Lonely Crowd)[38]. وفوق ذلك، كله فأن تقلص الايمان الحي بالله وبالقيم عند الكثيرين اغلــق عليهم في دوامة الفراغ واللامعنى[39]! تلك العوامل كلها ادت الى اغتراب انسان المجتمع الصناعي الحديث عـن حقيقته الانسانية aliénation[40]. فكان لا بد لهذا الاغتراب من ان يعبر عنه على صعيد الجنس نفسه ، نظراً للارتباط الصميمي الذي اشرنا اليه بين الجنس والشخص الانساني ككل". ان اغتراب الانسان عن حقيقته الانسانية يقود الى اغتراب الجنس عن معناه الانساني . فالانسان الذي طبعته الآليّة كيف لا يحوّل الجنس الى عمـل آلي"[41]؟ والانسان الذي يعاني من الشعور باللامعنى كيف يستطيع ان يعطي معنى للاتصال الجنسي ؟ انه ينزع بالاحرى الى اعتباره « ملهاة » ينسى فيها ولو للحظات اللامعنى الــذي يكتنف حياته وموته[42]! من تحكم به الجزع يتقهقر انفعالياً الى وضع الطفل ويحاول عبثاً ان يداوي جزعه على طريقة الطفل . فكما ان الطفل كان ينجو من جزعه برضاعة ثدي الام ، هكذا يحاول الراشد الجزِع دون جدوى ان « يستهلك » ما امكنه ليخرج من دوامة الجزع . ولنا نموذج على ذلك سبق وذكرناه ، وهو السلوك الشائـع الذي يسلكه الكثيرون اذ يقبلون بنهم على الطعام اذا اصيبوا بصدمة عاطفية قوية . شيء مماثل يجري عــلى صعيد الجنس . فالانسان الحديث يقبل على الاستهلاك بشتى انواعه ،

بما فيه استهلاك الجنس ، محاولاً بذلك ان يداوي جزعه[143] .
لقد كتبت اوديت تيبو في مقال لها في جريدة « الشهادة المسيحية » الفرنسية ، ما يلي : « الواقع ان في مجتمعنا المدعو بحق مجتمع « استهلاك » ... الجنس ايضاً ، الجنس خاصة ، يُستهلك ، والناس يقبلون على بيعه وشرائه . اننا في حضارة « فمّية » ، الناس فيها يبتلعون ، خاصة بعيونهم[144]... »[145]. هذا الموقف « الاستهلاكي » في الجنس يثبته التلازم الشائع في الدعاية الحديثة بين الدعوة الى استهلاك هذا او ذاك من منتوجات الصناعة ، من المواد الغذائية الى السيارات ، وصور الاغراء الجنسي[146].

هكذا بُتر الجنس عند الكثيرين من بُعده الاتحادي واعتبر مادة تُستهلك كما تُستهلك الكحول ومتعة تُقصد من اجل ذاتها بغية تخدير الشعور بالجزع والفراغ . ولكن هذا الموقف كانت له نتائج مفجعة على الصعيد الجنسي نفسه . فقد اصبح الاتصال الجنسي سهلاً للغاية ولكنه اصبح تافهاً بآن ، لا معنى له[147]، اذ أُفرغ من معناه الانساني العميق ، معنى اللقاء بالآخر[148]. ولكن هذه التفاهة جرّدت العمل الجنسي من كثافته ، افقدته زخمه العاطفي[149]، حولته الى مجرد انتفاضة اجساد ، لا فرح فيها وحتى لا لذة حقيقية[150]، اذ ان اللذة الجنسية نفسها ليست عند الانسان مجرد نتيجة لنشاط بيولوجي انما هي نابعة من المشاركة الوجدانية[151]. بهذا المعنى كتب المحلل النفسي المعاصر الدكتور جيرار منديل : « ان المجون ... يسمح ... بشيء من اللذة اثناء العمل الجنسي ولكنه يحصر هزة الجماع بمجرد اطلاق للطاقة وتخفيض للتوتر النفسي الداخلي ، مما هو بعيد جداً عن المتعة الجنسية الحقيقية »[152]. هكذا ينقلب المجون على الجنس نفسه فيهدده بالانحلال[153]. لقد لاحظ المحللون النفسيون الاميركيون ان

الهوس الجنسي الناتج عن الكبت هو في طريـق الاضمحلال الا ان عوارض أخرى اخذت تبرز وتحتل مكانه ، فان زبائنهم يشكون أكثر فأكثر من عجزهم عن المشاركة العاطفيـة الصميمية في العمل الجنسي[١٥٤]. تلك هي النتيجة الطبيعة لتفاهـة العمل الجنسي اذا بُتر من بعده الاتحادي . ان المجون المعاصر ، وقد قُصد به الهروب من الفراغ والعزلة ، لا يزيلها انما هـو على العكس يؤكـدهما . لذا فالسأم يلازم ممارسته كما يتضح لنا من مطالعة روايات معاصرة كروايات فرنسواز ساغان او باميلامور او البيرتو موراڤيا[١٥٥]. والسأم عبارة « جهنمية » ، على حد تعبير الفيلسوف واللاهوتي المعاصر بول اڤدوكيموف ، عـن سطحية الوجود . انه ، يقول المحللون النفسيون ، نتيجة انعدام الالتزام العاطفي[١٥٦]. الجنس المركّز على المتعة وحدها كما هـو شائع في العالم الحديث ، هو لا محالة قائد الى السأم لانه لا يفسح المجال أمام هذا الالتزام[١٥٧]! لذا فقد يملّ المرء منه ويسعى الى مثيرات اخرى علّه يجد فيها وسيلة انجع للهروب .

هكذا تفسر تلك الظاهرة التي روتها الصحف منـذ بضع سنوات . فقد أثبت تحقيق أجراه فريق من الاخصائيين النفسيين بين طلاب عدة جامعات من نيويورك ونيوجرسي ، ان «المخدرات تتمتع بعطف متزايد بين الطلاب وان هؤلاء يفضلونها ، على ما يبدو ، على ممارسة الملاقات الجنسية ، بغية ملء أوقات فراغهم» ، فقد عبّر الطلاب المستجوبون « عن شي من اللامبالاة تجـاه الملاقات الجنسية التي هي ، بالنسبة اليهم ، قليـلة الاثارة لانها سهلة المنال ، في متناول الجميع ، معتبرة كأمر عادي ، وقـد فقدت جاذبيتها القديمة »[١٥٨]! ومن جهة أخرى فقد وصفت هيلين دوتش السلوك الجنسي في بعض فئات المراهقـين في الولايات

المتحدة . لقد انطلق هؤلاء المراهقون في دروب « الثـــورة الجنسية » يتحدون بها المجتمع ، فاطلقوا للغريزة العنان وطرحوا جانباً العناصر العاطفية التي من شأنها ان تهذّب تلك الغريزة . ولكن نتيجة هذا الموقف كانت ، تقول هيلين دوتش ، « كارثة نفسية » : « انني لم أشاهد قط شباناً وشابات تبدو على ملامحهم التعاسة أكثر من هؤلاء ... (انهم) يتألمون بشكل واضح من الحرمان العاطفي وبالتالي من فقــدان طعم تلك الاثارة الجنسية التي يزعمون انها حرة رلا محدودة . ان حالات ادمان المخدرات بينهم — وخاصة حالات التسمم بأل.س.د. التي اتيح لي ان ألاحظها — بيّنت لي بوضوح ان الاشباع الجنسي ، وقد أصبح بالنسبة لهؤلاء الشبان في مقتبل عمرهم غاية في السهولة والتكرار، لا يجلب لهم أي اكتمال عاطفي حقيقي . ان تهالكهم في السعي وراء أساليب تسمح بزيادة اللذة في الخـبرة الجنسية يظهر دون ريب ان الحرية الجنسية عنـد مراهقينا هؤلاء لا تقدم لهم عنصر النشوة الذي هو ملازم — أو يفترض ان يكون هكذا — لأحدى الخبرات الانسانية الاكثر انعاشاً ... كون الخبرة الجنسية تبقى شيئاً ناقصاً بالنسبة لهم ، هذا ما تعـــبر عنه ليس فقط حاجتهم الى المخدرات بل اهتمامهم المتزايد بالانحرافــات الجنسية ايضاً »[١٥٩].

وقد توقع فرويد تلك الظاهرة عندما كتب في مقال له سنة ١٩١٠ ، في عهد كان يسوده الكبت الجنسي ، ما يلي : « مما يسهل ملاحظته هو ان القيمة النفسية لحاجة الحب تنخفض اذا كان اشباع هذه الحاجة سهل المنال ... هــذا صحيح بالنسبة للافراد كما هو صحيح بالنسبة للشعوب . ففي العهود التي لم يكن

فيها ارواء الحب مقيداً ، مثلاً في زمن انحطاط الحضارة القديمة ، فقد الحب كل قيمته وبدا الوجود فارغاً ... »[١٦٠]. تفسير تلك الظاهرة بموجب قاعدة « كل محجوب مرغوب » لا يبدو لنا كافياً البتة ، ذلك ان ما يلبي في الانسان رغبة أساسية قد تزداد جاذبيته اذا حُجب ولكنه لا يفقدها اذا لم يُحجَب . فالطعام يبدو أكثر شهية للمحروم منه ، ولكنه لا يزال يثير شهية من يتوفر لديه[١٦١]! كذلك قل عن الحرية التي تبدو للسجين أثمن ما في الوجود ولكنها تستهوي الطليق أيضاً . هكذا فالامر يبدو لنا أعمق من مجرد تأثير سهولة الممارسة الجنسية او صعوبتها . القضية هي بالأحرى ، ودون ان نهمل اثر العامل السابق ذكره ، قضية تشويه معنى الجنس ، هذا التشويه الذي ليست سهولة ممارسة الجنس سوى نتيجته . وبعبارة اخرى ان سر فقدان الجنس لقيمته الانفعالية يكمن خاصة في تجريده عن مرماه الاتحادي .

هكذا يتضح ان المجون المعاصر ، بتأكيده على الاستهلاك والمتعة ، لم يُبطل شخص الآخر وحسب في السعي الجنسي ، ولكنه حكم على السعي نفسه بالتفاهة ، كأن التركيز على اللذة يحكم على اللذة نفسها بسطحية مخيِّبة مملّة[١٦٢]. من هنا نشأت محاولات يائسة للخروج من دوّامة الفراغ هذه ، الا وهي التهالك على الجنس كأن كمية ممارسته تغني عن نوعيتها[١٦٣] او التفنن في اساليب الاتصال الجنسي لدرجة الانحراف احياناً كأن هناك تقنية جنسية تغني عن ضرورة اللقاء الشخصي . هكذا « يندفع الانسان في عراك مرهق ضد هزالة اللذة » ، ولكنه لا يفلح لان اللذة الجنسية ، اذا حُصرت في حدودها الغريزية ، هزيلة لا محالة ، ولا يمكن تحسينها الا بشكل محدود جداً[١٦٤]. وقد بيّن

بعض كبار الاخصائيين كفروم[3] ودويكارتس الوهم الكامن وراء الاعتقاد بأن التقنية اساس السعادة الجنسية . يقول اريك فروم[3] ان هذا الاعتقاد « جزء من الوهم العام السائد في عصرنا ، الا وهو انه يكفي استعمال الاساليب التقنية المناسبة لحل كل المشاكل ، لا مشاكل الانتاج الصناعي وحسب بل المشاكل الانسانية برمتها ... الحقيقة هي على نقيض هذا الافتراض . ليس الحب ناتجاً عن علاقات جنسية موفقة ، ولكن السعادة الجنسية ... ناتجة عن الحب »[١٦٥]، اي عن لقاء صميمي شامل بين شخصين . صحيح ان للتقنية شيئاً من الاهمية[١٦٦]، ولكن شرط ان يلهمها هذا المسعى الاتحادي ، عندئذ لم تعد تقنية بالمعنى الصحيح بل تعبير عن قصد لقاء . لان التقنية بمعناها الصحيح تسخير للاشياء ، فاذا استعملت في الجنس على هذا المنوال شيّأت الاخر وبالتالي اسرت المرء في قوقعة لذته الانعزالية . يقول الفيلسوف المعاصر جان بول شاريبه : « الجنس لغة يتصل بها الشريكان وليس تقنية يقصد منها المرء ان يستمد من جسده متعاً انعزالية تعزله اكثر فاكثر عن الاخر »[١٦٧]. وقد كتب فرانسوا شيرباز في المقال الذي سبق ان استشهدنا به ان الجنس « ينحط وينحرف عندما لا يعني شيئاً . وهو لا يعني شيئاً عندما يسعى الى ذاته ولا يستهدف سوى لذته الخاصة . اذا اصبح مجرد تفتيش عن احاسيس شخصية ، لم يعد سوى تقنية جوفاء لا تتجاوز ذاتها نحو اي شيء لانها لا تتوجه الى احد . انه لا يتوجه الى احد لأن كيان الاخر لا يهمه : كيان الاخر لا وجود حقيقي له بالنسبة اليه ، ليس الآخر الا في جسده ومن اجلي انا ، حجة ومناسبة للذتي »[١٦٨].

مجمل الكلام ان محاولات المجون المعاصر مداراة اخفاقه باللجوء الى الكمية والتقنية محكوم عليها بالفشل لانها تتغاضى عن اساس

المشكلة ، الا وهو ان الجنس لا حظ له بتحقيق ما يعد به من سعادة الا اذا كان بالفعل متجهاً الى الآخر .

لنا في احدى الروايات المعاصرة ، وهي « راحة المحارب » لكريستيان روشفور ، نموذج بليغ عن اخفاق الجنس الذي نحن بصدده . نرى رينو يتهالك على ممارسة الجنس مع جنفياف التي اغواها . يعتبرها مأكلاً « يستهلكه » بتواتر ونهم[١٦٩]. ولكنه يبقى في عزلة مريرة[١٧٠] يحاول ان ينساها بالشرب المتواصل . وقد عبّر عن فشله الذريع بقوله : « المهم في المجون انما هو الاله ، وليس اللذة ، ولكن الاله لم يزل غائباً »[١٧١]. تلك العبارات تعبّر تمام التعبير عن مأساة الجنس اذا تركّز على المتعة : فالرغبة العميقة الكامنة في الجنس تتجاوز اللذة لانها ، من خلال اللذة ، تصبو الى ملء لا يوصف (هذا ما عبّر عنه رينو بقوله ان المقصود في المجون هو « الاله ») ، ولكن التركيز على اللذة يفقد هذه الاخيرة عمقها ، يجعلها غير مطلّة على شيء ، وبذلك يحولها الى خيبة وسأم . هذا ما عبّر عنه فرانسوا شيرباز في مقال هام جداً له نُشر في مجلة Etudes ، عدد آذار ١٩٦٩ ، بعنوان « ابعاد الجنس »[١٧٢]. قال متحدثاً عن « الثورة الجنسية الحديثة » : « انها ترد واقع الجنس الى دائرة اللذة وحسب ولكن اللذة ليست المعنى كله . ما يعطي اللذة معنى ، ما يقيمها في معناها ، هو اللقاء الذي تدعو اللذة اليه وتستدعيه . لذا فرفضنا اعتبار اللذة ارواءً كافياً للرغبة ليس هو اطلاقاً رفض اللذة بحد ذاتها ، انما هو تأكيد على ان الرغبة تستهدف ، ما وراء اللذة ، ملء لا يؤسس الا على لقاء آخر في كيانه الشخصي »[١٧٣].

حواشي الفصل الأول

١ — راجع :

Yvon Brès : L'Ethique devant la sexualite, in «Esprit», novembre 1960, pp. 1826-1827.

٢ — تلك الثنائية كثيرا ما تلهم التزمت على الصعيد الجنسي ، ولكنها قد تبرر الاباحية ايضا . هــذا ما يتضــح من رواية خليل تقي الدين : « العائد » . فسلمــان ، بطل هذه الــرواية ، يؤمن بالتقمص ، وقد اقنعته ظواهر غريبة بأن شخصا قد تقمص فيه ، وبالتالي بأن جسده الحالي ليس سوى قميص ترتديه روحه لفترة من الزمن ، كما ارتدت قبله سابقا ، الى ان تخلعه بدوره وترتدي سواه . من هنا استنتج انه ، طالما ان جسده هذا ليس سوى معبر تمر به الروح برهة لتتخذ بعدئذ غيره ، فهو يستطيع ان يتصرف به كما يشاء وان يستنفد كل ما يمكن ان يحويه هــذا الجســد من ملذات :

« قال سلمان لنفسه : لاسلبن جسدي ذخره قبــل ان ييبس ويشيخ ! واستنفدن عصارة الحياة منه ! فما دامت روحي ستخلعه عندما يصبح عاجزا عن القيام باعبائها ، واشباع رغباتها ، فلتكن حياتي « هذه » سباقا بين جسدي وروحي ، ولذاذات الجسد هي الرهان ... » .

« سأفعل بجسدي ما أريد ، ما دام سيؤول الى التــراب . وتبقى نفسي ، او روحي ، او ما شاء ان يسميها الناس ، ملكا لمن سيأتون بعدي » .

خليل تقي الدين : العائد ، ص ٦٠ و ٦٦ ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٣ — تقول مفكرة بلجيكية معاصرة :

« للجسد الانساني قيمة بحد ذاته ، الا وهي التعبيرية . انه **الشخص المظهر** وبهذا المعنى الراقي ينبغي ملاحظته وفهمه واحترامه وتقييمه ... انه ... « داخلية مبانة » ... » .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, p. 131, Ed. Casterman, Tournai, 1966.

راجع ايضا :

Claude Tresmontant : Le Problème de l'Ame.
Ernest Eil : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 11-13.

٤ ــ راجع :

Dr. André Arthus : Adolescence, pp. 80-81, 179-180, Les Editions Ouvrières, Paris, 1967.

٥ ــ راجع :

Francis Jeanson : Sartre par lui-même, p. 186, note 1, Ed. du Seuil, Paris ,1964.

Jean-Paul Sartre : Les Mains Sales, «Le livre de poche».

وفي الخط نفسه ، بين العالم الاجتماعي الشهير مالينوفسكي ، في دراسته لسلوك شعب جزيرة تروبريان ، كيف ان الجوع يتخذ في نظر هذا الشعب طابعا مخجلا . راجع :

B. Malinowski : La Vie Sexuelle des sauvages du Nord-Ouest de la Mélanésie, pp. 315-316, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1970.

٦ ــ لقد صور لنا الروائيون من جهتهم هذه الظاهرة الشائعة . وهاك نموذجان عن ذلك . احدهما مأخوذ من روايـــة « سافو » لالفونس دوديه ، يصف لنا فيه الكاتب امرأة شابة تركها عشيقها ، واذا بها تعبر عن يأسها على النمط التالي : دعاها زوجان صديقان الى مائدتهما وفيما كانا ينتظران منها بقلق تعبيرا عنيفا جديدا عن حزنها ، « دهشا جدا لمشاهدتها تنقض بنهم ، دون ان تنبس بكلمة ، على الاطباق ، كانها غريق ، تسد فجوة حزنها ، وحدة صراخها بكل ما تجده في متناولها ... انها تأكل وتأكل ... » .

Alphonse Daudet : Sapho, p. 215, Les meilleurs livres français, 1950.

وهاك صورة اخرى رسمها روجيه مرتان دي غار عن امرأة تعوض بشراهتها عن تعاسة زواجها وتحطيم حياتها العاطفية :

«لقد كان لشراهتها طابعا ملحاحا ، مشبوبا ، كانت بسببه تكاد ان لا تكون منفرة : لقد كان هذا النهم يبدو وكانه الثأر والملجأ لكل اشواق امرأة ... » .

Roger Martin du Gard : Confidence africaine, p. 41, «La Petite Ourse», La Guilde du Livre, Lausanne, 1964.

٧ ــ يقول المحلل النفسي الدكتور اندره برج عن السعاري ، وهو المصاب بجوع مرضي ، انه « يملأ معدته ليسد فراغ قلبه » .

Dr. André Berge : Le Métier de Parent, p. 106, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1956.

وفي كتاب آخر له ، يقول :

« أن اضطرابات الشهية كثيرا ما لها علاقات بالشعور العميق. لقد قيل ان البعض يحشون معدتهم « ليملأوا فراغ قلبهم » ، وهذا

صحيح » .

Dr. André Berge : Les Défauts de l'Enfant, p. 126, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1968.

راجع ايضا :

Gérard-Philippe Guasch : La Mort du Père, p. 55, in L'Ecole des Parents, avril 1969.

٨ — راجع :

Dr. Karen Horney : L'Auto-analyse, pp. 136-137, Ed. Gonthier, Paris, 1966.

Franz Alexander : La Médecine psychosomatique, pp. 68-96, Petite Bibliothèque Payot, 1962.

٩ — راجع :

Maurice Merleau-Ponty : Phénoménologie de la perception, pp. 180-202, NRF, Gallimard ، Paris, 1952.

١٠ — هذا صحيح حتى بالنسبة للشعوب التي تسمى «بدائية». فقد بين مالينوفسكي مثلا ان الجنس ، عند « بدائيي » جزر المحيط الهادىء ، ليس مجرد قضية فيزيولوجية ، بل ان له ابعادا روحية واجتماعية وحضارية . راجع :

B. Malinowski : La Vie Sexuelle des Sauvages du Nord-Ouest de la Mélanésie, pp. 11-12.

١١ — « ان النشاط الجنسي الانساني يتميز عما هو عليه عند الحيوان بكونه مرتبط بالعاطفة اكثر من ارتباطه بفعل الهرمونات ، ذلك الفعل الذي يبدو ، حتى حين ممارسة العلاقة الجنسية ، خاضعا للحياة العاطفية . اما جذور هذه الاخيرة فهي في الطفولة ».

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, La Femme et sa Psychanalyse, p. 56, Le Centurion, Paris, 1973.

١٢ — يقول احد الاخصائيين المعاصرين في الجنس ، الدكتور جيلبير تورجمان : « لقد توصل الرجل الراشد ، الى حد ما ، الى التحرر من الوصاية الهورمونية » ، وفي موضع آخر يقول : « في فترة البلوغ هذه ، وبالاحرى في سن الرشد ، يظهر تأثير الهورمونات على السلوك الجنسي شيئا لا يذكر اذا قيس بالشروط النفسية وبالمؤثرات الاجتماعية والحضارية » . راجع :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 97-98, Ed. Seghers, Paris, 1972.

١٣ — راجع :

Dr. Paul Chauchard : La Vie Sexuelle, 5e édition revue, p. 30, P.U.F., Paris, 1966.

« في الغريزة الجنسية الانسانية ، تلعب العوامل النفسية دورا اكبر من العوامل البيولوجية » (بوهلر) .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 305.

Ed. Robert Laffont, Paris, 1970.

وقد اوضح فرويد هذا البعد النفسي الهام في الجنس الانساني، قائلا في مقال كتبه سنة ١٩١٠ :

« ... نفضل ان نتكلم عن الجنس النفسي psycho-sexualité، لنؤكد انه لا يجب اهمال العامل النفسي او ان نبخس قيمته . اننا نستخدم كلمة « جنس » ناسبين لها المعنى الواسع الـذي للكلمة الالمانية lieben (احب) ، ونعرف منذ زمن طويل ان نقصا في الاشباع النفسي ، مع كل ما يتبعه من نتائج ، يمكن ان يوجد حتى في الحالات التي تتوفر فيها العلاقات الجنسية الطبيعية » .

S. Freud : A propos de la psychanalyse dite «sauvage», p. 37, in La Technique Psychanalytique, P.U.F. Paris, 1970.

هذا ما نجد صدى له عند المحلل النفسي المعاصر ، كريستيان دافيد ، اذ يقول في دراسة له عن الحب من منظار التحليل النفسي :

« ان جنسا مفتقرا ومبتورا من مقوماته النفسية انما هو ... جنس محدود بالضرورة من جهة امكانياته المتعية كما ومن جهة قيمته الوظائفية (...) ان الجنس الانساني ، من حيث نـزعته ، رصين وعميق ... » .

Christian David :. L'Etat Amoureux. Essais Psychanalytiques, pp. 170-171, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1971.

ولا عجب في ذلك . فان التكوين البيولوجي نفسه ، الذي ينفرد به الانسان ، يخضع الغريزة للمراكز العصبيـة العليا ، وبالتـالي للعوامل النفسية التي ترتكز الى هذه المراكز . هذا ما تـوضحه اخصائية معاصرة في علم الحياة ، اوديت تيبو ، اذ تقول :

« كلما ارتقينا في السلم الحيوانية ، شاهدنا نـوعا من انحلال الغريزة لصالح نمو المراكز العصبية » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple Aujourd'hui, pp. 15-17, Casterman, Tournai, 1971.

١٤ — راجع :

Dr. P. Chauchard, op. eit., pp. 29-30.

من اجل تدقيق اوفر في هذا الموضوع ، راجع :

C.S. Ford et F.A. Beach : Le Comportement sexuel chez l'Homme et l'Animal, pp. 285-301, Robert Laffont, Paris, 1970.

١٥ — راجع :

Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, p. 63, Ed. du Seuil, Paris, 1966.

« عند الحيوانات الراقية ، تظهـر عنـد الانثـى ، في لحظة

نضج البويضة ، افرازات جنسية . هذه الافرازات تثير الاندفـــاع الجنسي عند الذكر ونشاطه الفاتح وفي هذه الفترات وحدها تظهر الانثى متقبلة لرغبة الذكر ... » .

Hélène Deutsch : La Psychologie des Femmes, tome I, Enfance et Adolescence, p. 192, PUF, Paris, 1959.

من اجل تدقيق اوفر في هذا الموضوع ، راجع :

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., pp. 261-272.

١٦ — راجع :

Oswalt Kolle : Ton mari cet inconnu, p. 170, Ed. Casterman, Paris, 1969.

١٧ — راجع :

Marc Oraison : Le Célibat, deuxième édition, pp. 33-34, Ed. du Centurion, 1966.

يقول الكاتب نفسه في مؤلف آخر :

« ليست الاثارة وليدة تراكم المني ، بل العكس هو الصحيح » . راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, p. 12, Les Editions Ouvrières, Paris, 1968.

وبالمعنى نفسه يقول جورج موكو :

« ان تكوين المني عند الانسان مرتبط بالاثارة المغذاة ... » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, p. 17, Aubier-Montaigne, Paris, 1973.

ويقول الدكتور بول له مول :

« ... ان الاثارة الجنسية هي ، في الاكثرية الســـاحقة من الحالات ، قضية عوامل نفسية اكثر بكثير مما هي قضية هورمون » .

Dr. Paul Le Moal : La Morale sexuelle contestée, p. 48, in «L'Ecole des Parents», décembre 1969.

١٨ — راجع :

Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, p. 63.

في كتاب شهير وضعاه عن « السلوك الجنسي عند الانســـان والحيوان » ، يستعرض فورد وبيتش نتائج ابحاث اجريت حـــول ارتباط الميل الجنسي بالعوامل الهورمونية عند انثى الحيوان وانثى الانسان . فيذكران اولا بحثا قام به البحاثان يركس والدر عـــلى اناث الشنبنزي ، اذ شجعا مزاوجة ثلاثة من الذكـــور وتسع من الاناث في كل مراحل الدورة الجنسية للانثى . وقد حصلا هكذا على ١٧٤ مزاوجة لم تتوزع بالتعادل على المراحل الخمس التي تتكون منها هذه الدورة . فبالعكس جرت ٨،٤٣ ٪ فقط من المزاوجات في المرحلة السابقة للحيض و ١٢،٢ ٪ منها اثناء الحيض او بعـــده

فورا . اما الحد الاعلى من المزاوجات فقد تم عنـــدما كان اطلاق البويضة وشيكا .

ثم يستشهد المؤلفـــان ببحثين علميين اجـــريا عن النســـاء الاميركيات ، احدهما اجرته كاترين دافيس التي استجـــوبت ٢٨٧ امراة والثاني اجراه تيرمان وشمل ٦١٩ زوجة . وقد اظهرت هاتان الدراستان ان ذروة الرغبة الجنسية تحصل في اغلب الاحوال يوما قبل او يوما بعد فترة الحيض ، وفي اقل الاحوال في الفترة التي يكون فيها اطلاق البويضة وشيكا والتي يفرز فيها المبيضان الحد الاعلى من الهرمون الجنسية .

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., pp. 267-368.

ويذكر الكاتب الالماني اوسفالت كوله ان الباحثين الاميركيين بنديك وروبنستين . بعد ان قاما بدراسة واسعة لسلوك المراة ، واحلامها . وحالتها النفسية وحاجاتها ، بالمقارنة مع مراحل دورتها الجنسية ، لاحظا ان الحاجة الجنسية عند المـــراة بارزة في الفترة التي تسبق الحيض اكثر منها في اي وقت آخر من الدورة .

Oswalt Kolle : Ta femme cette inconnuc, pp. 100-102, Casterman, Tournai, 1970.

راجع ايضا :

Hélène Deutsch : Psychologie des Femmes, tome I, p. 192.

١٩ — راجع :

M. Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, p 63.

يقول فورد وبيتش في كتابهما السابق ذكره :

« ان اهمية العوامل غير الفيزيولوجية ، المتزايـــدة تطويريا ، والتي اصبحت بديهية عند القرود وما يشبه منهـــا الانسان ، تنمو بشكل كبير في النوع البشري » . وايضا :

« ان الارتباط بين الخصب وقابلية التقبل الجنسي اقل وضوحا عند المقدمات primates الادنى من الانسان (مما هو عند اناث الثدييات الدنيا) وقد تلاشى بالكلية عند المـــراة . مما يـــدعو الى الاعتقاد بارتخاء . يتزايد تدريجيا مع التطور ، للسيطرة الهورومونية على الميل الجنسي الانثوي » .

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., pp. 267 et 281.

ويقول الدكتور توردجمان في الموضوع نفسه :

« ... ان العوامل النفسية العاطفية ... تتجاوز ، في النوع البشري ، الوظيفة البيولوجية » .

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 115.

راجع ايضا :

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle,

pp. 179-182, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1969.

٢٠ — راجع :

Jean Lacroix : Force et Faiblesses de la famille, p. 95, note 2, Ed. du Seuil, Paris, 1957.

٢١ — راجع :

François Duyckaerts : La Formation du lien sexuel, cinquième édition, p 315, Editions Charles Dessart, Bruxelles, 1964.

يقول فرويد عن النزعة الجنسية انها « اكثر استمرارية عند الانسان اذ انها انتصرت عنده بشكل شبه كلي على الدورية التي يبدو انها خاضعة لها عند الحيوانات » .

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la maladie nerveuse des temps modernes, p. 33, in La Vie Sexuelle, P.U.F., Paris, 1970.

ومما يثبت ذلك — الى جانب الشواهد التي سبق وذكرناها (راجع الحاشية ١٨) — الظاهرتان التاليتان :

١ — ان فترة الحمل تتميز بانخفاض في افراز الهورمونات الجنسية عند المرأة ، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة انتقاصا للميل الجنسي عندها . لا بل قد لاحظ الاخصائي الاميركي في الجنس ، وليم ماسترس ، في دراسة اجراها على ١١١ امراة حامل ، ان الميل الجنسي تنخفض حدته عند اكثرهن في الاشهر الثلاثة الاولى والاشهر الثلاثة الاخيرة من الحمل ، ولكنه ، عند ٩٢ امراة من اصل ١١١ ، يزداد قوه ، في الثلث الثاني ، بالنسبة لما كان عليه قبل الحمل . وعلى وجه العموم يمكن ان نقول مع اوسفالت كوله — وهو كاتب الماني ذو خبرة واسعة جدا في الارشاد الزوجي — الذي يستشهد بدراسة ماسترس المذكورة اعلاه :

« لا يمكن ان نفسر من وجهة نظر طبية بحتة كون بعض النساء يرفضن كل نشاط جنسي اثناء فترة الحمل بينما تبدي نساء اخريات اندفاعا جنسيا اكبر وتشتقين عندما لا يقدر ازواجهن أو لا يريدون ان يستجيبوا له ... »

« أن انخفاض الحاجات الجنسية ، او حتى تلاشيها ، مرتبط صميميا بموقف المراة النفسي . ويتاثر ذلك الموقف بقوى واعية ولا واعية ، منها مثلا تأثر المراة براي اجتماعي لا يرى للعلاقة الجنسية من مبرر سوى الانجاب ، او رفض خفي للجنس عند المراة يجعلها « تستخدم » الرجل بقصد الانجاب فقط ثم ترفضه بعد تحقيق امنيتها هذه ... » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 167-171.

٢ — ان فترة الاياس ménopause عند المـــراة ، التي يتوقف فيها افراز الهورمونات الجنسية ، ليست بالضرورة فتـــرة تضاؤل للرغبة الجنسية . يقول الدكتور توردجمان :

« ... ان المراة في فترة الاياس ... بامكانها ان تحتفظ بذات الفاعلية الجنسية شرط ان تقبل بتصورها الجسدي schéma corporel الجديد وان ترفض الاسطورة التي تنـــزع ، حتى في ايامنا هذه ، الى المحافظة على الاختلاط بين الامومة والانوثة » .

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 98.

لا بل يقول اوسفالت كوله :

« يروى ان كثيرا من النساء لا يعرفن ذروة النشوة الجنسية الا في نهاية فترة الاياس ، فتستمر عندهن حتى سن متقدم ... » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 369.

وقد يكون هذا عائدا الى ان المراة ، في فتـــرة الخصب ، كانت تكبت رغبتها الجنسية خوفا من الحمل . فاذا زال مبرر هذا الخوف بانقطاع القدرة على الانجـــاب ، انطلقت الـــرغبة المكبوتة على سجيتها . هذا ما يصوره لنا الروائي الاميركي المعاصر تنسي وليمز عند سيدة اميركية ، مسز ستون :

« تلك الرغبة التي كانت تهزها اليوم لم تعد تخشى الاخطـــار الكامنة سابقا . لم يعد من شيء يهددها . لم يبق سوى رغبتهـــا واشباعها الممكن ... » .

Tennessee Williams : Le Printemps romain de Mrs Stone, pp. 89-90, La Guilde du Livre, Lausanne.

راجع ايضا :

Oswalt Kolle : Ta femme cette inconnue, p. 163.

٢٢ — راجع :

F. Duyckaerts, op. cit., pp. 16-17.

يقول فورد وبيتش في كتابهما المذكور آنفا انـــه « لمن المتفـــق عليه ان افراز الهورمون الخصوية ينخفض كثيرا في مراحـــل الحياة الاخيرة » . هذا بالطبع يؤثر في النشـــاط الجنسي . وقد بينت دراســـة كينسي واعوانه ان معدل بلوغ ذروة النشوة الجنسية عند الرجال الذين بلغوا السبعين من العمر هو فقط ٠،٩ بالاسبـــوع . الا ان كينسي نفسه يذكر انه استجوب رجلا سبعينيا صرح له بان معـــدل بلوغه ذروة النشوة الجنسية يزيد على ٧ في الاسبوع . راجع :

C.S. Ford et F.A. Beach : Le Comportement sexuel chez l'Homme et l'Animal, pp. 291-293.

ويقول الدكتور توردجمان في هذا الموضوع :

« ان الدوافع الحقيقية للعدول عن الجنس (عند المسنين) انما هي نفسية » . راجع :

Gilbert Tordjman : op. cit., pp. 243-246.

٢٣ — راجع :

C.S. Ford et F.A. Beach : Le Comportement sexuel chez l'Homme et l'Animal, pp. 301-302.

من اجل موقف اكثر دقة من الموضوع ، راجع :

Gilbert Tordjman : op. cit., pp. 101-104.

٢٤ — راجع :

Dr. André Arthus : Adolescence, p. 102, Les Editions Ouvrières, Paris, 1967.

٢٥ — راجع :

Homosexualité, in Manuel alphabétique de psychiatrie, p. 260, col. 2, par. 3, P.U.F., 2ème édition, 1960.

٢٦ — راجع :

Paul Chauchard : La Vie sexuelle, pp. 115-116 et Odette Thibault : L'homophilie est-elle un «fléau social» ? in Témoignage chrétien, No. 1360, 30 juillet 1970, pp. 12-13.

٢٧ — راجع :

S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, p. 469, P.U.F., Paris, 1970.

Nicole Fabre : Education sexuelle, Education sexuée, pp. 277-278, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, t. 17, avril 1970, pp. 273-279.

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, pp. 33-34, Casterman, Tournai, 1972.

ان اثر العوامل النفسية في تحديد الهوية الجنسية تثبته الابحاث التي اجريت حول مختلف حالات التخنث والاسترجال . يقول فرويد بهذا الصدد :

« ان درجة الخنثية النفسية hermaphrodisme psychique عند الجنسين انما هي الى حد بعيد مستقلة عن درجة الخنثية الجسدية » .

S. Freud : Sur la psychogenèse d'un cas d'homosexualité féminine (1920), p. 252, in Névrose, Psychose et Perversion, P.U.F., Paris, 1973.

ويذكر الدكتور توردجمان حالة خنثية نسائية كاذبة pseudo-hermaphrodisme féminin ، تكشف تسلط الجنس النفسي على الجنس البيولوجي . راجع :

G. Tordjman : op. cit., pp. 118-121.

وتتحدث اوديت تيبو عن الظاهرة التي يسمونها اليوم gender-role ، فتقول : « عندما لا يعرف جنس ولد ما على حقيقته عند الولادة ، فيربى خطأ بموجب جنس مضاد لجنسه

الوراثي الحقيقي (اي ذلك المسجل في تكوين خلاياه) ، فانه يحتفظ لا محالة بشيء من جنسه « الاجتماعي » (اي الذي تربى بموجبه) في سلوكه اذا لم يعرف جنسه الحقيقي قبل الثالثة من عمره ، مما يشير الى قوة التكييفات التربوية وضيق مجال معكوسيتها (اي قابليتها للانقلاب) » .

وتقول الكاتبة نفسها ان رفض المرء لجنسه الحقيقي وارادته بأن تنطبق على جنسه الجسدي خصائص الجنس الاخر ، مما قد يعبر عنه بتبني لباس الجنس الاخر وعاداته travestisme ، يصادف عند اناس طبيعيين على الصعيد التشريحي والفيزيولوجي ، وانه اضطراب ذات مصدر نفسي وحسب .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 82-83, Casterman, Tournai, 1971.

راجع ايضا :

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., p. 175.

٢٨ — يقول فورد وبيتش :

« على الارجح ، ليس مغلوطا القول بأن الاكثرية الساحقة من النساء « الباردات جنسيا » او اللواتي لا يبدين ردود فعل جنسية ، انما هن وليدات تكييف انفعالي معاكس للجنس اكثر مما يعانين من تكوين فيزيولوجي غير طبيعي » .

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., p. 288.

كما انهما يتحدثان عن عجز جنسي عند الرجال لا ترافقه عوامل هورمونية ، فيقولان مثلا :

« ان توبر يذكر تقريرا عياديا عن حالة عدة رجال عاجزين جنسيا ... كانوا قد طلبوا استشارة طبيب لكونهم مقتنعين بأنهم يعانون من نقص في نسبة الهورمون الخصوية . وعندما اعلم هؤلاء ان الفحص كشف مستويات هورمونية عادية ، اصبح عدة افراد منهم قادرين فجاة على القيام بالعمل الجنسي » .

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., pp. 296-297.

راجع ايضا :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 226-238.

وردا على توهم الكثيرين من المصابين بالعجز الجنسي بين الرجال وبالبرودة الجنسية بين النساء ، بأن اضطراباتهم يمكن ان تشفى اذا حقنوا بالهورمونات ، يؤكد اوسفالت كوله ، استنادا الى المعطيات العلمية ، على وجود علاقة متبادلة ، على صعيد الجنس ، بين الموقف النفسي من جهة والنشاط الهورموني من جهة اخرى ، اذ يؤثر كل منهما في الآخر . فيقول :

« يجمع العلم على انه ، كما ان الهورمونات الجنسية تؤثر في

الرغبة وفي القدرة على اشباعها ، كذلك فالموقف النفسي من الجنس يؤثر ، بالعكس ، في النشاط الهورموني .

« وبعبارات اخرى ، فان الشخص المنفتح على الصعيد الجنسي يقبل الاثارة بطيبة خاطر ، فينشط هذا التقبل انتاج الهورمونات الجنسية ، وهذه ، بدورها ، تزيد الاثارة . وبالعكس ، فان الفرد الذي يتخذ من الجنس موقفا سلبيا ، يغلق على نفسه دون الاثارة ، يحتمي منها ، ولهذا السبب ، فان غدده لا تنشط ، هي ايضا ، وهكذا قد تتولد حلقة مفرغة . . . » .

Oswalt Kolle : op. cit., p. 183.

ويورد فورد وبيتش ملاحظة عن رجل مصاب بعجز جنسي كامل (اي انعدام ، لا القدرة على القيام بالجماع وحسب ، بل الرغبة ايضا) عولج باعطائه كميات كبيرة من الهورمونات ، فأصبح قادرا على العمل الجنسي ولكن رغبته بقيت خامدة . يقول المؤلفان :

« لقد عالج دانيالس وتوبر رجلا كان عجزه الجنسي يعيق اتفاقه الزوجي . ان اعطاءه كميات ضخمة من الهورمون جعل الرجل قادرا على فترات طويلة من النعوظ (انتصاب القضيب) وعلى مجامعات متكررة . ولكنها لم تزد رغبته في الجماع ، فكل ما كان يرغب به هذا المعالج كان ان يتخلص من قساحته (اي نعوظه المستمر المؤلم) بواسطة الجماع » .

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., p. 300.

٢٩ — راجع :

Dr. Jean-G. Lemaire : Les conflits conjugaux, p. 172. 2ème éd., Les Editions sociales françaises, Paris, 1967

« ان المحللين النفسيين يفكرون اكثر فاكثر ان الاضطرابات المسماة « جنسية » ، انما هي ، في العمق ، اضطرابات علائقية » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 18.

وبصدد تعليل البرودة الجنسية عند النساء ، يبين اوسفالت كوله كيف ان الخوف يعكر علاقة الجماع ويمنع المراة من ان تجد فيها انشراحا تاما :

« انه اولا الخوف من الجنس الآثم (اي المعتبر كذلك بفعل التربية) ، الخوف من عدم التمكن من تلبية انتظار الآخر ، الخوف من هبة الذات الكلية لشريك الحب ، للأنت . « هبة الذات » تعني الانفتاح الداخلي والجسدي للآخر ، دون اي تحفظ ، انفتاحا يشمل الكيان كله ، هذا لا تتوصل اليه المراة الا بتأثير حب عميق واذا كان عندها يقين داخلي بأن شريكها لن يجرحها .

« كثيرا ما يحدث ان نساء باردات مع زوجهن ، رغم كل الفن الجنسي الذي يتمتع به ، يجدن فجاة الاشباع الجنسي اثناء مغامرة

عابرة مع شريك تنقصه المهارة . هذا يثبت ان تلك المراة ليست لها اية ثقة بزوجها وترفضه داخليا . ربما جرحها يوما ، جرحا لم تنسه البتة ، ربما كانت تعاني من مركب نقص تجاهه مما يحملها على الانتقام منه لا شعوريا على هذه الصورة ، ولسان حالها يقول : رغم كل صفاتك الرجولية ، لن تتوصل ابدا الى امتلاكي كليا » .

Oswalt Kolle : Ta femme cette inconnue, pp. 156-157,

ويعرض المؤلف نفسه ، في كتاب آخر له ، حالة عجز جنسي مرده الخوف من الالتزام العاطفي، رواها له الطبيب النفسي البرليني هانس فون هتنبرغ . فقد اتى رجل يوما لاستشارته وكان « نشيطا . ديناميكيا ، في شرح الشباب (٤٠ عاما) ومعتادا ، في الحب ، ان يأخذ ما يشتهيه . واذا به يجد نفسه فجأة مصابا بالعجز . كان عازبا ويسافر باستمرار وكان ، على حد قوله . قد عاشر ما يقارب المائة امراة ، ولم تمنى هذه المعاشرة بالفشل الجنسي الا ثلاث مرات فقط . ولكن جسده فقط كان معنيا في تلك المغامرات كلها .

« واذا برجلنا يلتقي بفتاة ويقع فورا في حبها . عرف الحب عند ذاك لاول مرة في حياته . الا انه عندما اتت ساعة الجماع . بقي هذا الذكر الطافح قوة جامدا . وقد افضى للطبيب قائلا : « شعرت فجأة باضطراب كلي » .

« فلكي يطمئن نفسه قصد احدى صديقاته القديمات ، وكان هذه المرة النجاح كاملا ، بالضبط لأن الرجل لم يكن يحب هذه المراة ولم يكن يبغي منها سوى اشباع جسدي .

« وسرعان ما برهن الطبيب النفسي لمعالجه هذا ان عجزه كان وليد الخوف من التزام دائم . قال له : « أنك تخشى ان يؤول بك الامر الى الزواج من هذه الفتاة ، فتجد هكذا نفسك مرتبطا » .

« وبالفعل اضطر هذا الرجل ان يفرض اولا على نفسه قبول هذا الرباط العاطفي — وبعد ذلك استعاد قدرته الجنسية » .

Oswalt Kolle : Ton mari cet inconnu, pp. 177-178.

عن الاسباب النفسية العميقة للعجز والبرودة الجنسيين وعلاقتها بمشاكل الطفولة ، كما بينها التحليل النفسي ، راجع مثلا :

S. Freud : Sur le plus général des rabaissements de la vie amoureuse, pp. 55-59, p. 62, in La Vie Sexuelle, P.U.F., Paris, 1970.

S. Freud : Le Tabou de la virginité, pp. 73-80, in La Vie Sexuelle.

Dr. René Laforgue : Clinique psychanalytique, pp. 138-148, Ed. du Mont-Blanc, Genève, 1964.

Hélène Deutsch : La Signification du masochisme dans la vie mentale féminine, pp. 34-36, in J. Chasseguet-

Smirgel et als : La Sexualité féminine, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1970.

Dr. René Held : Psychothérapie et Psychanalyse, pp. 211-212, pp. 217-218, p. 245, pp. 255-257, pp. 271-272, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1968.

٣٠ ــ راجع :

Erich Fromm : L'Art d'aimer, p. 109, Ed. de l'Epi, Paris, 1968.

Dr. René Held : op. cit., p. 245.

Oswalt Kolle : Ton mari cet inconnu, pp. 172-174 et 183-191.

٣١ ــ راجع :

Yvon Brès : op. cit. p. 1827.

٣٢ ــ راجع :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 193, Casterman, Tournai, 1970.

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, pp. 18 et 20, Casterman, Tournai, 1970.

Anne-Marie Rocheblave-Spenlé : L'Adolescent et son Monde, pp. 49-53, Ed. Universitaires, Paris, 1969.

٣٣ ــ يقول جان بول شارييه بهذا الصدد :

« فلنلاحظ بصورة عابرة ان كل الذين نظروا الى الجنس الانساني بشيء من العمق رفضوا الا يروا فيه سوى وظيفة يمكن ردها الى تشنج غددي . فلينين ، الذي لا يمكن بحال من الاحوال ان يتهم بالمثالية المترمتة ، كان يحتج على الذين يعتبرون الزواج الاحادي على انه مؤسسة عفا عليها الزمن ويعتبرون الرغبة الجنسية مجرد عطش يمكن ارواؤه بنفس البساطة التي يتناول بها المرء « قدح ماء » ... (يقول لينين) « يبدو لي ان هذه الوفرة من النظريات الجنسية ، التي ليس معظمها سوى افتراضات كثيرا ما تكون كيفية ، انما هي نابعة من حاجات شخصية بحتة ، اي من حاجة المرء الى ان يبرر ، في نظر الاخلاق البورجوازية ، حياته الشاذة او غرائزه المفرطة ، ويدعو الى التساهل معها ... ان يعرف الانسان كيف يضبط وينظم اعماله ، هذا ليس العبودية ، انما هو ضروري للحب » .

Jean-Paul Charrier : La sexualité : fonction ou conduite ? p. 194, note 3, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17, avril 1970.

٣٤ ــ راجع :

P. Tesson : Cahiers Laennec, 1946, No. 2, pp. 33-53, cité par R.H. Barbe : Humanisme et chasteté, in Ma joie

terrestre où donc es-tu ? Ed. Desclée de Brouwer, Paris, 1951, p. 151.

٣٥ ــ راجع :

François Duyckaerts : La Formation du lien sexuel, p. 37.

Bronislaw Malinowski : La Sexualité et sa répression dans les sociétés primitives, p. 163, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1967.

يقول فرويد بهذا الصدد :

« ... ان لدينا حججا دامغة تدفعنا الى الشك في الحرية الجنسية المزعومة عند المتوحشين : صحيح ان الحرية الجنسية عند البدائيين لا يردعها ، في بعض الحالات ، اي رادع ؛ ولكنها تبدو عادة مقيدة بتحريمات اقوى من التي توجد في المراحل الاكثر تحضرا » .

S. Freud : Le Tabou de la Virginité, p. 71, in La Vie Sexuelle, P.U.F., Paris, 1970.

ويقول الاخصائي الكبير بشؤون الشعوب « البدائية » ، مالينوفسكي ، في احدى دراساته :

« ان حرية كبيرة ويسرا كاملا يسودان في العلاقات الجنسية بين اهالي جزر تروبرياند . وقد يستنتج ملاحظ سطحي من هذه الظاهرة غياب كل رادع وكل قيد . ولكن هذا الاستنتاج مغلوط ، لأن حريتهم لها حدود محددة بوضوح » .

B. Malinowski : La Vie sexuelle des sauvages du Nord-Ouest de la Mélanésie, p. 52, Petite Bibliothèque Payot, 1970, cf. aussi : op. cit., pp. 312-378.

راجع ايضا :

B. Malinowski : La Sexualité et sa répression dans les sociétés primitives, p. 163.

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 190.

C.S. Ford et F.A. Beach : Le Comportement sexuel chez l'Homme et l'Animal, pp. 141-161.

James K. Garfield : La Vie sexuelle, p. 109, in L'Aventure humaine, Encyclopédie des Sciences de l'Homme, tome 4 : L'Homme et les Autres, Ed. La Grange-Batelière, Paris et Kister, Genève, 1967.

Marc Daniel : Histoire et Sexualité, p. 15, in Sexualité et Civilisation, «Le Groupe familial», No. 61, Octobre 1973.

٣٦ ــ يقول كريستيان ده لاكمباني بهذا الصدد :

« ان هذا ليكفي لقلب افتراض عصر ذهبي ، حالة بدائية كان يتمتع فيها الجنس بالاشباع الكلي » ، كما يرد مثلا عند انجلز او

رايش .

Christian Delacampagne : Antipsychiatrie. Les Voies du sacré, pp. 98-100, Ed. Grasset, Paris, 1974.

٣٧ — راجع :

F. Duyckaerts, La Formation du lien sexuel, p. 27.

C.S. Ford et F.A. Beach : op. cit., pp. 147-149.

٣٨ — راجع :

Claude Lévi-Strauss : Les Structures élémentaires de la parenté, P.U.F., 1949, cité par Abel Jeannière : Anthropologie sexuelle, p. 56, note 1, Editions Aubier-Montaigne, 1964.

٣٩ — راجع :

Claude Lévi-Strauss : op. cit., p. 612, cité in Abel Jeannière : op. cit., p. 56, note 1.

٤٠ — يقول هربرت مركوز :

« ان تحريم نساء العشيرة يقود الى الامتداد والى الاندماج بالعشائر الاخرى ، ان الجنس المنظم يقوم بهذا التكوين « لوحدات اوسع » الذي كان فرويد يرى فيه وظيفة الجنس Eros في الحضارة » .

Herbert Marcuse : Eros et Civilisation, p. 69, Collection «Points», Ed. du Seuil, Paris, 1971.

بصدد معالجة هذا الموضوع من منظار ماركسي ، راجع :

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, pp. 65-72.

٤١ — راجع :

François Duyckaerts, op. cit., pp. 26-27, 263-267.

Abel Jeannière, op. cit., p. 56.

Michel Richard et coll. : La Psychologie et ses domaines, pp. 185-190, Chronique sociale de France, 1971.

٤٢ — راجع :

François Chirpaz : L'Intention de rencontre, in la Sexualité, numéro spécial d'«Esprit», pp. 1834-1835.

Dr. A. Hesnard : Psychanalyse du lien interhumain, p. 84, P.U.F., Paris, 1957.

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, pp. 89-91, Mame-Fayard, Paris, 1971.

٤٣ — راجع :

Dr. Angel Garma : Les Maux de tête, pp. 29-30, PUF, Paris, 1962.

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, p. 69, Ed. du Scarabée, Paris, 1964.

ولكن لذة الجماع نفسها ليست وليدة عوامل عضوية وحسب ،

بل تتأثر الى حد بعيد بالعوامل النفسية ، خاصة عند المرأة . يقول اوسفالت كوله بهذا الصدد :

« كثيرا من النساء يصلن الى الارضاء الجنسي في الجماع حتى اذا لم تحدث لهن هزة الجماع orgasme ودون ان يعانين من غيابها . يقول الاستاذ جيزه Giese بهذا الصدد : « بعض النساء ليس لهن هزات جماع وهن مع ذلك راضيات ، وبعضهن له هزات جماع ويبقين غير راضيات » . حتى عند الرجل لا تؤول هزة الجماع بالضرورة الى ارضاء كامل : فبموجب موقفه من شريكته او من الجنس ، قد يشعر بهزة الجماع على انها شيء غير سار او مزعج او منفر » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 127.

ويوضح الدكتور جيلبير توردجمان ان العلامات الموضوعية لهزة الجماع المسجلة اليوم في المختبرات لا تكفي للاستدلال على درجة اللذة التي شعر بها بالفعل . فمثلا كانت هزة الجماع مناسبة لنوبة جزع لا يوصف لدى امرأة كان نظام القيم عندها يرفض الوظيفة الجنسية على انها لا معنى لها وخطيئة . ويضيف هذا الكاتب : « ان اللذة . . . لا يمكن ردها الى استواء عملية فيزيولوجية . فاننا نقارب كل يوم نساء لا تكفي هزة الجماع لارضائهن . ينبغي اذا فك هزة الجماع عن الارتياح اللاحق للجماع و ، بالنسبة للمرأة ، حتى عن الاشباع . كثيرا من النساء اللواتي يأتين للاستشارة الطبية يعانين ، بعد الجماع ، من شعور بالمرارة وعدم الاكتمال وعدم الاشباع ، ورغم حدوث هزة جماع لا شك فيها ، يبقى عند تلك النساء شعور بأنهن لم يستنفدن قدرتهن على التمتع » .

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 252-254.

وتقول اوديت تيبو :

« ان الجنس عند المرأة اكثر انتشارا ودقة مما هو عند الرجل. اعتقد انه يجب ان يعزى اليها عدة اشكال من النشوة الجنسية : ليس فقط من النمط الكلاسيكي « المهبلي » vaginal ، او « البظري » clitoridien ، بل ربما ايضا نشوة جنسية « نفسية » ، اذا صح التعبير . ذلك ان مشاركة النفسية في العمل الجنسي انما هي اكبر بكثير عندها ، ويمكنها تماما ان تنتظر ارضاء عاطفيا كافيا لمنحها شعورا بالاكتمال والسعادة دون ان ينتابها احساس بمتعة حادة وممركزة » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 92.

٤٤ — « ان الجنس يعطي للكائن البشري شعورا حادا بعدم اكتماله وبحاجته الى الآخر » .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, p. 12, Casterman, Tournai, 1966.

ان الطابع المأساوي الذي كثيرا ما تتخـــذه خيبات الحب عنــد المراهقين ، حتى انها لتقودهم احيانا الى الانتحار ، يوضح جيدا ان الشخص بكامله يلتزم في الجنس . راجع :

Denise Stagnara : Qui nous répondra ? pp. 85-86, Ed. du Chalet, Lyon, 1971.

راجع ايضا :

Christian David : L'état amoureux. Essais psychanalytiques, pp. 182-183, P.B.P., Paris, 1971.

٤٥ — ان الذي يتجه في الجنس اتجاها مثليـــا homosexuel لا يذهب ، في سعيه نحو الآخر ، الى آخر المطاف ، لانه يفتش في هذا الآخر عن صورة لذاته . يقول الدكتور توردجمان : « انه في شريكه يفتش عن مرآة يعكس فيها صورته الذاتية اكثـــر ممـــا يفتش عن مكمل » .

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 78.

انه يتجنب مجازفة الخروج من ذاته والتغرب عنها للقاء من هو حقيقة آخر . في رواية غادة السمان ، بيروت ٧٥ ، يقول اللواطي نيشان :

« مع الرجولة احس بالالفة . معهن (اي مع النساء) احس بالغربة » .

غادة السمان : بيروت ٧٥ ، ص ٦٥ ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى ، اذار ١٩٧٥ .

راجع ايضا :

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, pp. 129-130, Casterman, Tournai, 1972.

٤٦ — يقول افلاطون في « الوليمة » ، بصدد عرضه لهـــذه الاسطورة :

« ان ما يفسر هذا الشعور ، انما هو طبيعتنا الاولى . . . وكوننا كنا من قطعة واحدة : لذا فان اشتهاء هذه الوحـــدة والسعي الـــى نيلها ، هو ما يسمى بالحب » .

راجع النص في :

Marie Bonaparte : Introduction à la théorie des instincts, p. 84, P.U.F., Paris, 1951.

راجع ايضا بصدد الاسطورة نفسها :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 76-79.

هناك اسطورة هندية مماثلة واردة في « الاوبنيشاد » وايضـــا اسطورة اشورية من هذا النوع . راجع :

Karl Stern : Refus de la femme, pp. 16-17, Ed. Mame,

Paris, 1969.

٤٧ ــ راجع :

André Dumas, recension de l'ouvrage de Claude Tresmontant : Essai sur la pensée hébraïque, Cerf, 1953, in «Esprit», juillet 1954, pp. 141 à 145.

Xavier Léon-Dufour : Présence de Jésus ressuscité, p. 598, in «Etudes», avril 1970, pp. 593-614.

Claude Tresmontant : Le Problème de l'Ame.

٤٨ ــ تقول جاكلين برجريه ، معلقة على النص الكتابي :

« لحم من لحمي ، عظم من عظامي » ، هذا ما كان يهتف بــه آدم مبتهجا ، هو الأول ، امام من كانت مختلفة عنه ، محببــة ، مشتهاة لأنها لم تكن صورته ، بل محتفظــة بشيء مــن التميــز والاستقلال والاختلاف ، ولكنها كانت طبعا من العنصر نفسه ، قادرة على الاجابة على حبه بحب مماثل ، قادرة على مقــاسمته الافراح نفسها ومشاركة اياه في لغته . تلك « الاخرى » ، كان بوسعه اخيرا ان يبتسم لها ، ونحوها كانت تنطلــق رغبته ، وبروعة كــان يجد نفسه . وهي ايضا » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, p. 36, Le Centurion, Paris, 1973.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 260, Le Centurion, Paris, 1971.

٤٩ ــ راجع :

S. Freud : Neurasthénie et «Névrose d'angoisse» (1895), pp. 31-32, in Névrose, Psychose et Perversion, P.U.F., Paris, 1973.

٥٠ ــ يقول فرويد في كتابه : « محاضرات جديــدة في التحليل النفسي » (١٩٣٢) :

« نقبل بوجود نوعين ، مختلفين جوهريا ، من الغرائز : الغرائز الجنسية ، وتؤخذ عبارة « جنسيــة » هنــا باوســع معانيهــا ، العشق Eros ، اذا شئتم ، وغرائز العــدوان التــي تستهــدف التدمير » .

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 36, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1971.

هذا المعنى الجديد الذي اعطاه فرويد للجنس ، حــدا بتلميذين له ، الدكتور لافورغ والدكتور بيشون ، أن يقترحا ، منذ العشرينات ، استبدال كلمة « ليبيدو » التي يشار بها الى الطاقة الجنسيــة في النظرية الفرويدية ، بكلمة aimance التي تشير الى طاقة حب :

« ان الدكتور بيشون وانا كنا قد اقترحنا ، منذ اكثر من خمسة

وعشرين سنة ، استبدالها (اي استبدال عبارة ليبيدو) بعبارة «aimance» . لا يجب ان ننسى ، بهذا الصدد ، العشق Eros عند افلاطون » .

Dr. René Laforgue : Le Contact affectif du point de vue psychanalytique (1951), p. 19, in Au-delà du Scientisme, Ed. du Mont-Blanc, Genève, 1963.

٥١ — راجع :

S. Freud : Psychologie collective et analyse du moi, in Essais de Psychanalyse, pp. 109-110, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1963.

R. Osborn : Marxisme et Psychanalyse, p. 22, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1967.

G. Zilboorg, in Foi, Raison et Psychiatrie moderne, pp. 130-131, p. 137, Cerf, Paris, 1957.

٥٢ — راجع :

S. Freud : Malaise dans la Civilisation, cité par Jean-Michel Palmier : Présentation d'Herbert Marcuse, pp. 66 et 85, Coll. «10-18», Union générale d'éditions, 1969.

« ... ان وظيفته (اي وظيفة الحب) ... هي جمع عدد اكبر من الكائنات البشرية بعضها الى بعض وتوحيدها بشكل امتن مما تستطيع ان تفعله مصلحة شركة مبنية على العمل » .

S. Freud : Malaise dans la civilisation, p. 43, in Revue française de Psychanalyse, 1, t. 34, janvier 1970, pp. 9-80.

٥٣ — راجع :

Erich Fromm : L'Art d'aimer, pp. 45-55, Ed. de l'Epi, Paris, 1968.

٥٤ — راجع

Erich Fromm : op. cit., pp. 72-73.

هذه النزعة الى الاتحاد ، الملازمة للجنس ، تستند ، بنظر فرويد ، من جهة ، الى طبيعة الحياة نفسها :

« ... ان الميول الجنسية pulsions érotiques ... تنزع الى تجميع كمية متزايدة من المادة الحية لتكون منها وحدات اكبر ... » .

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 141.

ومن جهة اخرى ، الى الجزع النابع من انفصام الرباط الاول في حياة الانسان ، الا وهو رباط الرضيع بأمه (ذلك الانفصام الذي يترسخ بشكل نهائي في المرحلة الاوديبية ، عند تحقق الطفل من انتمائه الى احد الجنسين وعدم مقدرته على الجمع بينهما) ، والى الحاجة الى العودة الى وحدة هذا الحب الاندماجي الاول . راجع :

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, pp. 206-207.

راجع ايضا :

Ernest Jones : La Vie et l'Oeuvre de Sigmund Freud, tome III, pp. 314-315, P.U.F., Paris, 1969.

٥٥ — يقول العالم الفيلسوف الاب تيار دي شاردين :

« الحب وحده ، لكونه يتناول الكائنات ويجمعها في الاعماق ، قادر — هذا واقع من الخبرة اليومية — ان يكمل الكائنات ، من حيث هي كائنات ، بجمعها معا . اذ ما هي اللحظة التي يبلغ فيها عاشقان ذروة امتلاك كل منهما لذاته ؟ اليست تلك التي يقولان ان كلا منهما ضاع بها في الآخر ؟ » .

Pierre Teilhard de Chardin : Le Phénomène humain, pp. 266-267, Coll. «Points», Seuil, Paris, 1970.

هذا يلتقي مع ملاحظات لمحللين نفسيين واخصائيين في الجنس . تقول جاكلين بارجريه :

« ... كثير من الاحداث شبوا ... يرافقهم هذا الاعتقاد الراسخ بأن فعل الحب انما هو قضية فيزيولوجية ، ودون ان يعرفوا شيئا من التداخل العميق بين حياتهم الشعورية وامكانياتهم الجنسية . ومع ذلك فليس من حب ، حتى اكثره زيفا وزوالا ، يمكن اعتباره قضية جسدية بحتة » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa psychanalyse, p. 213.

ويقول نايل ، مؤسس مدرسة سومرهيل الشهيرة بتحررها :

« ان ممارسة الجنس في الحب هي اسمى اشكال النشوة لانها الشكل الاسمى لهبة الذات وقبول الآخر » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 191, Maspéro, Paris, 1973.

٥٦ — راجع :

B. Malinowski : La Sexualité et sa répression dans les sociétés primitives, pp. 161-172, 186-188, 189-190, 191, 193.

٥٧ — راجع :

Dr. Paul Chauchard : Connaissance et Maîtrise de la Mémoire, pp. 47-48, Bibliothèque Marabout, Ed. Gérard et Co., Verviers, 1970.

Jacques Cosnier : Clefs pour la Psychologie, p. 74, Seghers, Paris, 1971.

٥٨ — راجع :

Dr. Paul Chauchard : La vie sexuelle, p. 49.

٥٩ — راجع :

Rémy Chauvin : Conduites sexuelles de l'animal, Individus et sociétés, p. 20, in Centre d'études Laennec : Sexualité humaine, Ed. Lethielleux, Paris, 1966.

هاك مثلا آخر مصدره تينبرغن :

« يروي تينبرغن ان الوضع المقرفص الذي تتخذه الانثى عندما تكون مستعدة للعلاقات الجنسية هو الاشارة الحافزة stimulus-signal الاهم بالنسبة للطير المدعو Bonasa Umbellus فان ذكور هذا النوع تميز جيدا الجنسين احدهما عن الآخر ، ولكنها ، فيما يتعلق بالعمل الذي نحن بصدده ، تتفاعل مع خصوصية في السلوك عوض تفاعلها مع فوارق الاشكال او الالوان . لذا فأن ذكرا آخرا مقرفصا ، او جثة في هذا الوضع ، يطلقان ارتكاس réaction المزاوجة ، فقط لأن الذكر لا يستطيع مقاومة اشارة حافزة قوية » .

Roger Mucchielli : Introduction à la Psychologie structurale, p. 82, Charles Dessart, Bruxelles, 1966.

٦٠ ــ راجع :

Max de Ceccatty : Essai d'énoncé biologique, in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960, p. 1720.

٦١ ــ انها « السرعوفة » او « الراهبة » .

٦٢ ــ راجع وصف العالم الاختصاصي في الحشرات فابر Fabre لهذا السلوك ، كما ورد في :

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, p. 32.

٦٣ ــ راجع :

Max de Ceccatty : La vie de la cellule à l'homme, p. 120, Ed. du Seuil, Paris, 1962.

حول العدوان الجنسي في عالم الحيوان ، راجع مثلا :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 6.

٦٤ ــ راجع :

Abel Jeannière : op. cit, p. 52.

٦٥ ــ راجع :

Rémy Chauvin : op. cit., pp. 30-31.

Dr. Paul Chauchard : La vie sexuelle, p. 61 et pp. 76-78.

Dr. Paul Chauchard : Des animaux à l'homme, pp. 136-139, P.U.F. Paris, 1961.

تقول المحللة النفسية ماريز شوازي :

« عندما كنت سابقا اعير قطي السيامي بقصد التناسل ، كان يستقبل عند عودته بصفعة من القطة التي كانت تشم رائحة المنافسة التي فرضتها انا ، فتتذمر من هذه الخيانة الزوجية . . . ان وسترمرك يبرز امانة الطيور التي لا غبار عليها . . . » .

Maryse Choisy : Moïse, p. 98, Ed. du Mont-Blanc, Genève, 1966.

راجع ما يقوله فورد وبيتش عن الذئب والثعلب (ص ١٤٦ — ١٤٧) وعن الشقgibbon (ص ١٤٥) وعن الشنبنزي (ص ٢٦٤ — ٢٦٥ و ص ٣٣٢) .

C.S. Ford et F.A. Beach : Le Comportement sexuel chez l'Homme et l'Animal.

راجع ايضا ما يقوله العالم الكبير في سلـوك الحيوان كونراد لورنز عن غربان الزرع والاوز الرمادي :

Konrad Lorenz : Il parlait avec les mammifères, les oiseaux et les poissons, pp. 87-88 et p. 93.

Konrad Lorenz : L'Agression, Flammarion, 1977, pp. 189-199.

٦٦ — راجع :

Dr Paul Chauchard : La vie sexuelle, p. 61.

٦٧ — راجع :

Paul Balvet, in La sexualité, «Esprit» novembre 1960, p. 1867.

٦٨ — راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 51.

٦٩ — راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 36.

٧٠ — راجع :

Dr. Paul Chauchard : La vie sexuelle, p. 38.

٧١ — راجع :

Dr. Paul Chauchard : op. cit., p. 61.

يقول جورج موكو :

« بينما الجنس ، عند الحيوان ، يخضع خاصة لغريزة ولحاجة فيزيولوجية ، فهو عند الانسان ، وبشكل خاص ، حاجة الى الاتصال والحب . عند الحيوان ، لا تظهر الـرغبة الجنسية عامة الا بفعل الحاجة التي تثيرها فترة النزو rut (...) . اما عند الانسان ، فالرغبة بالعكس دائمة وتتخطى مجرد اشباع غريزة بيولوجية (...) ذلك ان الرغبة الجنسية عند الانسان هي طلب علاقة عاطفية ، اي حاجة الى الحوار والتبادل » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, pp. 11-12.

راجع ايضا :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 103-104, p. 105.

٧٢ — راجع :

Paul Evdokimov : Sacrement de l'Amour, p. 166. Ed. de l'Epi, Paris, 1962.

٧٣ ــ يقول اوسفالت كوله :

« الكائنات البشرية ، وحدها دون سائر الخلائق ، تتجامع وجها لوجه . هذا النمط في الجماع هو الذي يعطي ، بشكل عام ، أوفر لذة (...) ان تتبع مراحل الاثارة على وجه الشريك يعمق الرباط النفسي ، اذ يستطيع المحبان ان يشارك كل منهما الآخر بالنظرات .

« ومن جهة اخرى ، فان طريقة الجماع هذه تميز العمل الجنسي البشري عن المزاوجة الحيوانية التي هي محض ارتكاسية ولا تستهدف سوى التناسل » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 268

٧٤ ــ يقول هنري تافواللو :

« يجب ان نقبل بأن الوظيفة الجنسية ليست وظيفة شبيهة بسواها ، لأنها تفترض في جوهرها علاقة بالآخر » .

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, p. 39, note 1.

لقد اوضحت مدرسة جاك لاكان في التحليل النفسي ، الاختلاف القائم بين « الحاجة » besoin و « الرغبة » désir .

« فالحاجة » تستهدف امتلاك شيء . اما « الرغبة » ، التي هي جوهر الجنس عند الانسان ، فهي « رغبة في رغبة الآخر » ، اي رغبة المرء بأن يكون مرغوبا من الآخر ، انها بالتالي تستهدف الآخر كشخص وتبغي الاتحاد به .

يقول المحلل النفسي جورج موكو بهذا الصدد :

« الجوع ، الذي هو حاجة ، يستهدف شيئا ، اما الحب ، الذي هو رغبة ، فيستهدف رغبة آخر . انه يطلب رغبة تتجاوب مع رغبته ... » .

Georges Mauco : Psychanalyse et Education, p. 30, Aubier-Montaigne, Paris, 1967.

راجع ايضا :

Christian David : L'état amoureux, pp. 182-183.

Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, p. 186, P.U.F., 1970.

ويصور لنا الروائي الايطالي المعاصر البرتو مورافيا بشكل بليغ موقف الرغبة هذا في روايته « الاحتقار » . يعاني بطل الرواية من ابتعاد زوجته عنه عاطفيا لاسباب غامضة . وذات يوم يغافلها عارية ، فتستيقظ رغبته ، فيصورها لنا على الشكل الآتي :

« كانت رغبة نفسية اكثر منها جسدية ــ رغم عفويتها وعنفها ــ رغبة بأن اتحد بها ، لا بجسدها ، او في جسدها ، ولكن من خلال

جسدها . لقد كنت حقيقة جائعا اليها وكان اشباع هذا الجوع مرتبطا لا بي ، بل بها وحدها ، بقبولها يلاقي رغبتي . اواه ! كنت احس بأنها ترفض هذا القبول ، رغم ان النظر كان يوهمني بأنهـــا ، في عريها ، تقدم ذاتها لي » .

Alberto Moravia : Le Mépris, p. 202, Le Livre de poche, Paris, 1967.

٧٥ ــ كانت الكاتبة الفرنسية الشهيرة جورج صاند تدرك ذلك تماما رغم ان حياتها العاطفية قد تبدو لأول وهلة اباحية . فبعد ان استفحل الخلاف بينها وبين زوجها ، نصحها وكيل دعواها ان تتصالح مع زوجها بأن « تصبح خليلته » ، وذلك حفاظا عـــلى مصالحهـــا ومصالح اولادها . ولكن اورور (هذا هـــو الاسم الحقيقي لجورج ساند) رفضت هذا الحل رفضا باتا كما يروي لنا اندره موروا في ترجمته لحياة جورج ساند . يقول : « لقد استفظعت هذا المشروع : « ان المزاوجات دون حب انما هي شيء دنيء . فالمرأة التي تبغي الجماع مع زوجها بقصد الاستيلاء على ارادته تقوم بعمل يضاهي ما تصنعه البغايا طمعا بمال او ترف » (...) كانت تعتقد انه لا يمكن للمرأة ان تهب ذاتها وكأنها شيء من الاشياء : « اننا جسد وروح معا ... فاذا كان للجسد وظائف لا تتدخل الروح فيهـــا ، كالأكل والهضم ، هل يمكن مقارنة اتحاد كائنين في الحب بتلك الوظائف ؟ مجرد التفكير بذلك امر مغضب » .

André Maurois : Lélia ou La Vie de George Sand, pp. 246-247, Ed. Rencontre, Lausanne.

٧٦ ــ راجع :

François Duyckaerts : op. cit., pp. 299-300.

٧٧ ــ راجع :

Edmond Ortigues : Sur la théorie psychologique et la réflexion morale, in Psychologie moderne et réflexion chrétienne, pp. 160-161, Ed. Arthème Fayard, Paris, 1953.

٧٨ ــ راجع :

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 40, Seuil, Paris, 1969.

٧٩ ــ راجع :

S. Freud : Trois Essais sur la théorie de la sexualité, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1962.

S. Freud : Ma vie et la psychanalyse, pp. 47 et 48, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1968.

S. Freud : Introduction à la psychanalyse, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1962.

Denise Saada : L'héritage de Freud, pp. 57-58, Ed. Aubier-Montaigne, 1966.

Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, pp. 115-116, P.U.F., Paris, 1970.

Georges Philippe Brabant : Clefs pour la Psychanalyse, p. 34, pp. 41-42, Seghers, Paris, 1971.

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, pp. 129-130, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1971

٨٠ ـــ راجع :

S. Freud : Abrégé de psychanalyse, p. 14, P.U.F., Paris, 1967.

٨١ ـــ راجع :

S. Freud : Cinq Psychanalyses, pp. 407-408, P.U.F Paris, 1954.

٨٢ ـــ راجع :

S. Freud : Trois Essais sur la théorie de la sexualité pp. 74-75.

٨٣ ـــ راجع :

Mélánie Klein et Joan Rivière : L'Amour et la Haine. Etude psychanalytique, p. 114-115, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1968.

Denise Saada : L'Héritage de Freud, pp. 57-58.

Marianne Roland-Michel : Attendre un enfant. pp. 161-162, Casterman, 1969.

يقول الدكتور اندره مورالي دانينوس :

« عندما نتحدث عن الفطام ، فاننا لا نتحدث عن غذاء مادي وحسب ، بل عن غذاء نفسي من حب ، وطمأنينة ، وتقبل ، وتفاؤل ... » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 139, Casterman, Tournai, 1972.

راجع ايضا :

Dr. Jean-Pierre Lauzel : L'Enfant voleur, p. 93, P.U.F., Paris, 1966.

٨٤ ـــ راجع :

Irène Lézine : Psychopédagogie du premier âge, pp. 53-54, P.U.F., Paris, 1964.

٨٥ ـــ ولذا فقد يرفض الطفل الحليب اذا احس ان الام غائبة عاطفيا ، كما يتضح مثلا من ملاحظة طفل له ستة اسابيع من العمر ادخل المستشفى لانه كان يعاني من تشنجات في فم المعدة .

راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, p. 93, Le Centurion, Paris, 1971.

ان التماس الرضيع للأم نفسها يقابله ، عند الوالدة ، شعورا

بأنها تعطي ذاتها لطفلها عندما ترضعه . وهـناك شهادة احـدى الامهات توردها بياتريس ماربو ـــ كليرنس :

« كنت احس بأنني احبيه بماهيتي ، وبأن جسـدي ينتقل الى جسده (. . .) كنت اشعر بشفتيه تعضان لحمي واسمع حليبي ينزل في جسده ، وكأن حياتي تنتقل اليه ؛ كنت اعطي هذا السائل الابيض كل معنى ماهيتي الجسدية والروحية . . . » .

Béatrice Marbeau-Cleirens : Psychologie des Mères, p. 49, Editions Universitaires, Paris, 1967.

لذا فالمحلل النفسي الشهير ، الدكتور وينيكوت يقول بحق :

« . . . ان الارضاع قضية علاقة بين الام والطفل ، انه ممارسة علاقة حب بين كائنين بشريين » .

Dr. D.W. Winnicott : L'Enfant et sa famille. Les premières relations, p. 29, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1971.

٨٦ ــ مثلا ، يبين المحلل النفسي السويسري الدكتور شـارل اوديه ، في تأويله لحلم احد معالجيه ، العلاقة الرمزية بين العبارات التالية : تقبل الطعام وتقبل الحب ، الطعام والحضور ، الحرمان من الطعام والافتراق والغياب . راجع :

Dr. Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée magique, pp. 232-234, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel et Paris, 1966.

وقد بين ارنست ديشتر ، الاخصائي في علم النفس الاجتماعي ، من خلال سلسلة من المقابلات ، المعنى الانفعالي الذي يحتفظ بـه الحليب عند الراشدين . راجع :

Ernest Dichter : La Stratégie du désir, pp. 64-65, Fayard, Paris, 1970.

٨٧ ــ يقول الدكتور توردجمان :

« ان مص الابهام يرمز الى الاتحاد بالأم الغائبة : فالابهام هو ، على هذا النحو ، بديلا للحلمة » .

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 178.

راجع ايضا :

Denis Vasse : La Présence réelle ou l'effet d'une Parole dans le lieu de la mort, p. 277, in Mort et Présence, Ed. de Lumen Vitae, Bruxelles, 1971.

٨٨ ــ راجع :

Dr. Maurice Dongier : Névroses et Troubles psychosomatiques, p. 115, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1966.

Selma H. Fraiberg : Les années magiques, p. 42, P.U.F., Paris, 1967.

٨٩ ــ يقول المحلل النفسي والبحاثة الشهير الاميركي ، الدكتور رينه شبيتز ، نتيجة لملاحظاته الدقيقة ، المرتكــزة الى التصويــر السينمائي ، للعديد من الاطفال الرضع :

« لقد تحققنا بواسطة ملاحظاتنا ان الطفل الذي يرضع ، يركز ، في كل الاحوال ، عينيه على وجه امه طيلة فترة الرضاعة ، دون ان يحول عينيه ، حتى يأخذه النوم » .

René A. Spitz : La Première année de la vie de l'enfant, p. 17, P.U.F., Paris, 1958.

ويعلق المحلل النفسي كريستيان دافيد على هــذه الظاهــرة بقوله :

« ان عيني الرضيع ... منذ انفتاحهما اذا صح التعبير ، تتركزان بشكل ثابت على نظر الام ، « فتشربانها » وتمتصانها فيمــا يمتص الفم الحليب ويشربه ... » .

Christian David : L'état amoureux, p. 191.

راجع ايضا :

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 22.

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 132.

٩٠ ــ راجع :

Dr. René Spitz : La Première année de la vie de l'enfant.

Irène Lézine : op. cit., pp. 126-128.

٩١ ــ راجع :

Dr. Maurice Porot : L'Enfant et les Relations familiales, P.U.F., Paris, 1954; aussi l'article «Hospitalisme» in Dr. Robert Lafon : Vocabulaire de Psychopédagogie et de Psychiatrie de l'Enfant, pp. 292-295, P.U.F., Paris. 1963.

جون بولبي : رعاية الطفل وتطور الحب (دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩) .

S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, pp. 368-420, P.U.F., Paris, 1970.

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile. pp. 200-201, Hachette, Paris, 1970.

Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés pp. 48-52, Bloud et Gay, 1969.

ويقول ميشال زلوتوويكز :

« ... ان حضور الآخرين الشخصي هــو ، بالنسبــة للطفل الصغير ، عنصر حيوي لا يقل من حيث الاهمية الجوهرية عن العناية التي يقدمونها له » .

Michel Zlotowicz : Les Peurs enfantines, p. 42, P.U.F..

Paris, 1974.

٩٢ ــ راجع :

Dr. Serge Leclaire : L'Inconscient et le corps, in L'Ame et le Corps, Ed. Arthème Fayard, Paris, 1961, p. 104.

٩٣ ــ راجع :

Charles Baudouin : L'Ame enfantine et la psychanalyse, t. 1, p. 108, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, Paris, 1954.

Hans Zulliger : op. cit., p. 87.

٩٤ ــ راجع :

Erikson : Enfance et Société, p. 116, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel et Paris, 1959.

٩٥ ــ راجع :

Anna Freud : Initiation à la Psychanalyse pour éducateurs, Ed. Privat, Toulouse, 1968, p. 104.

يقول المحلل النفسي السويسري هانس زوليغر :

« انني آكل ماما » ، كان يقول صبي في الثانية والنصف من عمره كان لا يزال يرضع ، واعتقد اننا ، كلنا ، في الاصل ، « نأكل » امنا ... » .

Hans Zulliger : op. cit., pp. 58-59.

ويقول ارنست ال بصدد الحلمة ، وهي اول شيء يميزه الطفل :

« ... بالنسبة للرضيع ، فالعالم المحيط يتركز كله في الحلمة . ولكن الحلمة تسمى في اللاتينية «mamma» : وقد اصبحت هذه الكلمة ، وبقيت تقريبا في كل مكان ، العبارة التي ينادي بها الاطفال امهم » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 132.

راجع ايضا :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 81, Casterman, 1970.

٩٦ ــ راجع :

Sigmund Freud : Abrégé de psychanalyse, p. 61.

S. Freud : Sur la sexualité féminine (1931), p. 147, in La Vie Sexuelle, P.U.F., Paris, 1970.

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse (1932), p. 160.

٩٧ ــ راجع :

Victor Smirnoff : La Psychanalyse de l'Enfant, pp. 196-197, P.U.F., Paris, 1966.

François Chirpaz : Le Corps, pp. 71-75, P.U.F., Paris, 1963.

Dr. Jean-Pierre Lauzel : L'Enfant voleur, p. 86.

وعن النهم الفمي عند الرضيع ، راجع :

St. Augustin : Confessions, p. 27, «Le Livre de poche». Paris, 1962.

٩٨ — عن استمرار الموقف الاستهلاكي من الكون عند الراشد ، نجد هذا الشاهد المستمد من مذكرات سيمون دي بوفوار :

« . . . لقد استفدت بشغف من امتياز الطفولة ألتي ترى الجمال والترف والسعادة اشياء تؤكل (. . .) هذا الكون الذي نسكنه ، لو كان كله يؤكل ، كم تكون سيطرتنا عليه كبيرة ! كنت ، وانا راشدة، اود لو ارعى شجر اللوز المزهرة ، لو اعض ملبس المغيب . في سماء نيويورك ، كانت لافتات النيون تبدو وكأنها حلويات عملاقة ، فأحسست نفسي محرومة » .

Simone de Beauvoir : Mémoires d'une jeune fille rangée, pp. 7-8, Le Livre de poche, Paris, 1964.

ويلقي جورج فيليب برابان أضواء التحليل النفسي على هذه الظاهرة ، فيقول :

« ان النشاط المميز لكل مرحلة من (مراحل النمو العاطفي) (الاندماج بالنسبة للمرحلة الفمية ، الامساك أو التغوط بالنسبة للمرحلة الشرجية) يحدد نمطا من العلاقة مع مواضيع العالم الخارجي يمكن نقله ألى نشاطات اخرى ، نفسية او جسدية ، فيشكل بالنسبة اليها نوعا من النموذج او المرجع الخيالي » .

راجع :

Georges Philippe Brabant : Clefs pour la Psychanalyse, pp. 40-41, Seghers, 1971.

٩٩ — راجع :

Simone de Beauvoir : Le Deuxième Sexe, t. I, pp. 213-214, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1968.

١٠٠ — راجع :

François Duyckaerts : op. cit., pp. 83-84.

١٠١ — يقول هانس زولليغر :

« فلنلاحظ عبورا ان الزنجي الاسترالي كان احيانا يقتل المراة المحبوبة ويأكلها » .

Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, p. 58.

في قصة للروائية الفرنسية الشهيرة كوليت بعنوان « الموعد » ، يقول برنار عن روز ، المراة التي يشتهيها :

« آه ! هذه تحتاج الى متسع من الوقت لكي تفهم . . . ولكنها قد جعلت كلها ، وبشكل رائع ، من اجل الاستهلاك » .

Colette : Le Rendez-vous, in Bella Vista, suivi de

Trois, Six, Neuf, p. 133, Le Livre de poche, Paris, 1974.

يقابل ذلك عند المرأة نزعة الى « امتصاص » الرجل المحبوب ، الى تغييبه وتذويبه فيها ، مما يعيد الى الذاكرة السلوك الذي نوهنا به سابقا ، سلوك بعض اناث الحيوان اللواتي يفترسن ذكرهن اثناء المضاجعة . هذا ما عبرت عنه غادة السمان في روايتها « بيروت ٧٥ » ، اذ قالت متحدثة عن بطلتها ياسمينه وعن حبها لنمر السكيني :

« نمر ... جسد نمر ... انها تزداد شهية اليه ، تمتصه كنملة تريد قتل ذكرها ... تفترسه كل ليلة كمخلوقات الطبيعة التي تلتهم ذكرها اثناء مضاجعته ... » .

غادة السمان : بيروت ٧٥ ، ص ٥٠ — ٥١ ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى ، آذار ١٩٧٥ .

لذا فلا عجب اذا ارتاع المحبوب من هذا الحب « الآكل » ، كما تلاحظ ياسمينه نفسها اذ تقول :

« ... ها انا اخيفه بشهيتي اليه ... » المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

١٠٢ — في روايته الشهيرة « جناح السرطان » ، يقدم لنا الكاتب الروسي الكسندر سولجنتسين نموذجا عن هذا الموقف مجسدا في شخص افرام بوددوييف عندما يتذكر مغامراته التي لا تعد مع النساء :

« كم من النساء استطاع ان يتناول ! (...) لم يكن دوما يسألهن عن اسمهن ، مكتفيا بأن يدفع لهن ما اتفق عليه . والآن ، فقد اختلط كل شيء في ذاكرته ، الوجوه ، وانماط السلوك ، والظروف ، فلم يكن يتذكر الا ما خرج عن المألوف (...) صحيح ان الجميع كانوا يتحدثون عن « المساواة » ، ولم يكن افرام يرفض ذلك ، ولكنه ، في قرارة نفسه ، لم يعتبر في يوم من الايام ان النساء كائنات كاملة ... » . راجع :

Alexandre Soljénitsyne : Le Pavillon des cancéreux, pp. 149-151, Le Livre de poche, Paris, 1971.

وفي كتابه « أرخبيل الغولاغ » . يروي الكاتب نفسه كيف تعرف في زنزانته ، عندما كان معتقلا في عهد ستالين ، بمهندس كان يبلغ السادسة والثلاثين من العمر ، القي القبض عليه لأسباب سياسية بعد ان عاش حياة مترفة انفق فيها دون حساب وراكم الغزوات بين النساء :

« لم يكن يحصي سوى النساء اللواتي كان يحصل عليهن وخاصة تلك اللواتي كان يزيل بكارتهن . وكان هذا الحساب بمثابة الرياضة التي يمارسها . وقد اكد لنا في زنزانتنا ، ان توقيفه قاطعه

عند رقم المائتين وتسعين ونيف ، قبل ان يبلـــغ — وهــذا ما كان يكده — الثلاثمائة (...) كان قد استولى على تلك النساء بصورة منهجية ، وقشرهن ، ثم رماهن بعيدا . كما يفعل المرء اذا جلس امام طبق من الاربيان (القريدس) ، اذ يمسك بواحدة منها ويقضمها ويمصها لينتقل فورا الى التالية » .

Alexandre Soljénitsyne : L'Archipel du Goulag, p. 149 Seuil, Paris, 1974.

هذا النمط ذاته من السلوك ، تشير اليه ياسمينه ، بطلة رواية بيروت ٧٥ » لغادة السمان ، عندما تقول متحدثة عن عشيقها نمر لسكيني الذي تعلقت به بملء جوارحهـــا ، ان « نمـــر يمتصهـــا وسيبصقها قريبا وهي تعرف ذلك جيدا في اعماقهـــا » . (غـــادة السمان : بيروت ٧٥ ، ص ٥٢) .

وعلى المنوال نفسه ، نرى احد ابطـــال هنري دي مونترلان ، الاباحي بيار كوستال ، يكتب باستخفاف وقح لاحدى النساء اللواتي وقعن في حبائله :

« ارجو ان يكون آخر مستعمليك وسيم وطيب . عودي الي وانت على احسن ما يرام في نهاية الشهر » .

Henry de Montherlant : Les Jeunes filles, p. 37, Gallimard, Paris, 1954.

تقول اوديت تيبو :

« ... ان الدوافع الغريزية الجنسية هدامة جزئيا ، من حيث ميلها الى امتلاك موضوعها (فالاستهلاك يهدم الشيء المستهلك) » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 54.

لذا فان الرغبة الجنسية ، عندما تستهدف الآخر وكأنه مجرد شيء ، قد تكون تعبيرا ، واعيا اكثر او اقل ، عن الكره . هذا مـــا يصوره لنا فرنسيس كاركو في روايته « الرجل المطارد » ، حيث نرى أن حقد لامبيور على المومس لاونتين التي كانت ، بداعي الصدفة ، شاهدا غير مباشر لجريمة ارتكبها ، يغذي فيه ، من حيث لا يدري ، رغبة شرسة تدفعه الى مضاجعتها بشكل مذل :

« ربما كان هذا الحقد الدافـــع الـــذي حـــدا بلامبيور الى « الاستيلاء » على لاونتين واذلالها . صحيح انه كان يجهل ذلك ، ولكن حدة رغبته لم يكن لها تفسير آخر . لقد فرض عليه حقده على لاونتين ان يشتهيها ... ولكنه لم يكن يدرك ذلك » .

Francis Carco : L'Homme traqué, pp. 93-94, Le Livre de poche, Paris, 1968.

هذا المزيج من الشهوة والحقد يصوره لنـــا ايضـــا الروائي جوزيف كاسيل عند ضابطين طيارين شابين . يقول احدهما :

« لقد كانت المراة فريسة من حقنا ان نستولي عليهـــا (...

لا ادري ان لم نكن ، في ارتكاساتنا ، نشبع حاجة خفية الى الثأر ، ان لم تكن كل تلك الليالي الجائعة التي تضيناهــا في الجبهة تطالبنا بذلك النوع من الانتقام ، وان لم تكن شهوتنا المتواصلة شهورا بعد شهور للأجساد الثمينة والمتموجة بنعومة قد دفعتنا الى كرهها » .

Joseph Kessel : La Rose de Java, p. 17, «Folio», 1972.

١٠٣ — راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 146.

١٠٤ — راجع :

Violette Morin et Joseph Majault : Un Mythe moderne : l'Erotisme, p. 121, Casterman, Tournai, 1964.

يقول المحلل النفسي برونو كاستي :

« ان وجهة نظر ساد كانت ضرورة تهديم الآخر الذي ليست وظيفته سوى ان يكون شيئا تجاه من اراد ان يكون ذاتا . ان كل الادب السادي او الذي يستلهم السادية يؤول الى هذا التحويل للآخر الى شيء » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, p. 144, Fleurus, Paris, 1971.

ويحدثنا الدكتور توردجمان عن قســـوة طقوس العربدة التي كانت تقام قديما احتفالا بالآلـــه ديونيسيوس ، والتي كان الشبان الذين يمثلون فيها دور ديونيسيوس ، يفتك بهم في الاصل ، عـــلى الارجح ، ويفترسون . راجع :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 32-33.

١٠٥ — اليك شاهدا بليغا على « اختفاء » الآخر هذا بعـــد « الاستهلاك » . لقد وهبت ناديا ذاتها لبيير — ويبلـــغ كل منهما العشرين عاما — لتستجيب لرغبة صديقها الملحاحة . « كان بيار ... يبدو راضيا . نظرت اليه وهو يشعل سيكارة . لم يعد يعيرها اقل انتباه . لو كان همس ببعض عبارات الحنان ، لكان اختلف كل شيء . ولكنه كان قد نال ما اشتهاه ، وبدا عليه وكأنه نسي حتى وجود صديقته » .

Eustace Chesser : Les Relations sexuelles des 15-20 ans, p. 13, Ed. Marabout, Verviers, 1969.

يقول ارنست ال :

« ان هذا النهم الجسدي يمنع العمل الجنسي من ان يصبح « فعل حب جسدي » : فلن يكـــون الحب المبـــدأ الموجـــه للخبرة الجسدية ، لأن المستعبد لهذا النهم الجســـدي لا يهتـــم الا بالخبرة الجسدية نفسها ، فالتراكم وحده ، و « الاستهـــلاك » الجسدي يقدران فقط ان يشبعا حاجته » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 49.

١٠٦ ـ راجع :

V. Morin et J. Majault, op. cit., p. 121.

١٠٧ ـ راجع :

Ernest Ell : op. cit., pp. 85-92.

١٠٨ ـ راجع :

Gaston Bachelard : La Psychanalyse du feu, p. 34 Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1965.

Denis Vasse : Le Temps du désir, pp. 10-11.

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 37.

١٠٩ ـ يقول الدكتور جيلبير توردجمان :

« في الولائم المترفة ، التي يقدم لنا كتاب الساتيريكون نموذجا عنها ، كان النبلاء يحملون انفسهم الى القيء ليتخموا من جديد » .

١١٠ ـ « ان الشخص يتوغل في العزلة اذا « استخدم » الآخر من اجل ذاته وحوله الى شيء » .

Augustinus Wucherer-Huldenfeld : Contribution à la théologie de l'espérance, p. 186, in Personnalisation. Etudes sur la Psychologie d'Igor Caruso, Desclée, Paris, 1971.

ويقول دنيس فاس :

« ... ان التقوقع في اشباع الحاجة البحتة مأزق يمكن الوقوع فيه ابدا . حالما يعتقد المرء انه ملك شيئا ، فهذا يعني ان هذا الشيء لم يعد ما كان يبتغيه . وكما ينشد براسنس Brassens ، « عندما يعتقد انه يشد اليه سعادته ، فانه يسحقها » .

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 40.

راجع ايضا :

Michel Richard et coll. : La Psychologie et ses domaines, p. 178, Chronique sociale de France, 1971.

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 88.

١١١ ـ راجع :

Dr. Bernard Muldworf : op. cit., p. 84.

Roger Vercel : Au large de l'Eden, p. 120, Ed. Rencontre, Lausanne.

١١٢ ـ يقول الشاعر الفرنسي الكبير بودلير ، منطلقا من معاناة شخصية مريرة :

« بعد الفسق ، يزداد دوما شعور المرء بالعزلة والتخلي » .

Baudelaire : Journaux intimes, cité in Baudelaire, Coll. «Les Géants», p. 88, Ed. Paris-Match, 1970.

في روايته الاخيرة ، « مراهق من الماضي » ، يروي لنا فرنسوا مورياك كيف عاش الان كاجاك فترة المراهقة في مطلع هذا القرن . لقد عاش الان ليلة حب مثيرة مع فتاة تدعى ماري . ثم واصل الشاب

والفتاة علاقتهما الغرامية ، ولكن الان لم تعد تدفعه الى ماري سوى شهوة كانت تستبد به دون ان تستطيع منحه ذلك الملء الذي ذاقه فيما مضى :

« كنا نتساءل : لماذا لم يعد الامر كما كان سابقا ؟ (. . .) لماذا كان الشبه قليلا الى هذا الحد بين معاودات الخطيئة هذه وبين حلم ليلتنا الصينية حيث انكشفت لي في لحظة واحدة كل سعادة الكون — كأنه سمح لروحينا في ذلك المساء ، وفيه وحده ، ان تتحدا في الوقت الذي كان يتحد فيه جسدانا ؟ اما الآن ، فكان محكوما علي بالقرف من جديد . . . » .

François Mauriac : Un Adolescent d'autrefois, p. 222, Ed. «J'ai lu», 1972.

١١٣ — راجع :

Tagore : La Fugitive, NRF, cité par Dr. Jouvenroux : Témoignage sur l'Amour humain, p. 75, Les Editions Ouvrières, Paris, 1949.

١١٤ — راجع :

Jean Giono : Le Chant du monde, cité in «Ensemble», 6ème série, fiche No. 7, p. 1.

١١٥ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, p. 62, Ed. Casterman, Tournai, 1969.

في كتابهما القيم « معرفة الطفل بواسطة التحليل النفسي » ، يحدد المحللان النفسيان لوبوفيسي وسوليه الاستمناء على الشكل التالي :

« الاستمناء نشاط شهوي ذاتي يقصي الآخر ، ويتخذ ايضا معنى انسحاب من الواقع وعودة الى الاشباعات الرخيصة باستعمال الصور الخيالية » .

S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, p. 482, P.U.F., Paris, 1970.

راجع ايضا :

op. cit., p. 474.

١١٦ — راجع :

François Duyckaerts : op. cit., pp. 295-296

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, p. 69, 6ème édition, Ed. du Scarabée, Paris, 1964.

من هنا تتولد الحاجة الى التكرار ، كما يبين الدكتور غارا . راجع :

Dr. L. Garat : La Masturbation, p. 264, in La Sexualité, tome I, Bibliothèque Marabout, Verviers, 1964.

١١٧ ــ كذلك تقييم الجنس المثلي يجب ان ينطلــق من كونــه بشكل ، على حد تعبير مارك اوريزون ، « عجزا جذريا عن الاتصال بمن هو حقيقة آخر » .

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 90, Mame-Fayard, Paris, 1971.

١١٨ ــ في رواية روبير ميرل « نهاية اسبوع في زويدكوت » ، يقول احد اشخاص الرواية ، فيريل ، لآخر يدعى مايا ، متحدثا عن النساء :

« كن اكيدا بأن تلك النساء لسن احدا ! وانهن لا يستأهلن حتى مجرد الحديث عنهن ! » .

Robert Merle : Week-end à Zuydcoote, p. 20, «Folio» 1972.

١١٩ ــ يذكر اوسفالت كوله في كتابه «زوجتك ، تلك المجهولة »، هذه الكلمات وقد افضت بها اليه احدى المراهقات :

« كثيرا جدا ما يطالبني الشبان بان امنحهم كل شيء ، دون ان يسألوني عن اسمي . انهم لا يعرفون لا اين اسكن ولا عمــري . لست اذا سوى شيء بالنسبة اليهم ! » .

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, p. 67, Casterman, 1970.

١٢٠ ــ راجع :

André Malraux : La Condition humaine, pp. 101-102, pp. 193-194, «Le Livre de poche», 1954.

١٢١ ــ راجع :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 99.

١٢٢ ــ راجع :

François Duyckaerts : op. cit., p. 261, pp. 295-296.

Ignace Lepp . Psychanalyse de l'Amour, p. 147, Ed Grasset, Paris, 1959.

Simone de Beauvoir : Les mandarins, tome I, pp. 37-38, 117-127, Le Livre de poche, 1968.

تقول ماري تيريز فان ايكوت :

« ان علاقات جنسية من هذا النوع ، فقيرة بهذا المقدار عــلى الصعيد العاطفي ، شبه عاجزة على ان تعطــي المــرء الشعــور بالاكتمال .

« انه لا يجد السعــادة الا في الحب الحقيقي . عندما يساهم كيانه كله في العمل الجنسي ويجد في الآخر تجاوبا وتناغما معه » .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, p. 147, Casterman, Tournai, 1966.

ويقول الدكتور اندره مورالي ــ دانينوس :

« ان هذا الجنس (...) الذي يقتل الحنان ، يجلب في نهاية العمل شعورا بالضياع وباللامعنى وعدم الرضى ، مبررا هكذا المثل الرهيب : « الحيوان حزين بعد الجماع » . فبالضبط عندما يجامع الانسان على منوال الحيوان يحس بالكآبة بعد العناق » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, pp. 141-142, Casterman, 1972.

١٢٣ — راجع :

Marc Oraison : Le Célibat. p. 32.

يبين ارنست ال مثلا كيف ان عدم اشباع الحاجة الى الاتصالات العاطفية في سني الطفولة الاولى قد يسبب سعيا لا ينقطع وراء اتصالات عابرة وبالتالي مخيبة ، لانعدام القدرة على الارتباط بشريك بشكل عميق ودائم . مما قد يترجم بسعر (هيجان) جنسي حقيقي . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, p. 148.

١٢٤ — راجع :

Erich Fromm : op. cit., p. 28.

١٢٥ — راجع :

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, p. 174, Les Editions Ouvrières, Paris, 1967.

١٢٦ — راجع :

Hélène Deutsch : Problèmes de l'adolescence, pp. 122-123, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1970.

في روايته « جناح السرطان » ، يروى لنا الكسندر سولجنيتسين ان زويي ، وهي طالبة طب روسية ، عاشت ، بموجب الآراء الشائعة في محيطها ، سلسلة من المغامرات الجنسية العابرة ، ويصور الانطباعات التي تركتها فيها تلك المغامرات ، فيقول :

« وبالفعل ظهر لها ذلك على انه احساس قوي ، واقلتت زويي نهائيا ، منذ الصف الاول ثانوي ، من فئة العوانس ، ولكنها ، رغم كل شيء ، لم تنل بالحقيقة ما كانت تنتظره . ما كان ناقصا في كل ذلك ، انما كان دواما مثابرا وواعيا يعطي الحياة استقرارا ، وكان الحياة نفسها كانت تعوزها ، اذا صح التعبير ... » .

ويضيف الكاتب في مكان لاحق انه في كل مرة « كان كل شيء ينتهي بالتقاط كئيب للثياب المبعثرة في الغرفة » .

Alexandre Soljénitsyne : Le Pavillon des Cancéreux, pp. 223, 329, Le Livre de poche, Paris, 1971.

١٢٧ — كثيرا ما يكون ذلك صحيحا بالنسبة للرجل ، بينما تنتظر المراة المزيد من التعاطف الوجداني ، فتصدم الى حد ان العلاقة الجنسية تفقد كل قيمتها او اكثرها بالنسبة اليها .

تقول جاكلين برجرية ان المـــراة هي دومـــا التي تنادي الحب وتنتظره ، وان ذلك معبر عنه حتى في المشهد الهيبي الاباحي « هير »، حيث توجد اغنية تعبر عن مرارة المراة عندما تجد ان شهوة الرجل لا تريد ان تسلك درب الحب . راجع :

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, pp. 86-87.

وتذكر لنا مرشدة زوجية ، مارغريت لامبير ، شهادتين نسائيتين بهذا الصدد . راجع :

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, p. 45, Resma, 1973.

ويقول اسفالت كوله :

« ان مزيجا من الحب والجنس يستطيع وحده ان يقود المراة الى تحقيق ذاتها بالفعل على الصعيد الجنسي . ما عدا ذلك ، فالكل ناقص ويترك شعورا بالفشل والخيبة . انطلاقا من هذه الاعتبارات بثور بحق الاستاذ نيدرماير ، الاختصاصي بالامراض النسائية في فيينا ، قائلا : « عندنا ، لسوء الحظ ، المزيد من الحالات التي يجد فيها اطباء انفسهم امام اضطرابات عصبيـــة بسيطة ، فيوصون فتيات لم يكدن يتجاوزن فترة البلوغ بممارسة العلاقات الجنسية ، غير واعين للمسؤوليات التي ترتبها توصية كهذه » .

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, p. 60.

ويذكر الكاتب عدة شهادات دراماتيكية تظهر مـــدى الشعور بالفشل والخيبة الذي انتاب نساء اثنـــاء اول اتصال جنسي ، في الزواج او خارجه ، عندما ضاجعهن شريكهن بعنف دون ان يبدي لهن حنانا كفيلا بأن يوقظهن الى الحب ويثير فيهن الرغبة في الجماع . وهاك احدى تلك الخبرات الاليمة :

« اليكم القصة التي روتها لي امراة شابة عن ليلـــة زفافها : « كان لي حينذاك تسعة عشر سنة من العمر ، وكنت قـــد شربت كمية لا بأس بها من الكحول لاتغلب على خوفي . لم يبق لي من تلك الليلة سوى تذكار اقصى حد من القرف (. . .) واذ لم استطع ان اتغلب على نفوري ، طلقت زوجي بعد خمسة اعوام » .

ويعلق الكاتب قائلا :

« ان خبرات اولى من هذا النوع كثيرا ما تتلف عند المراة طاقات ثمينة ، وان الصدمة التي تحدثها فيها يمكنها ان تقـــود الى برودة جنسية دائمة » .

ويضيف :

« ان الرجال . . . لا يفهمون ان النساء لا يردن ان يؤخذن بل ان يجذبن » .

ويبين الكاتب كيف ان الموقف العنيف وغير المتفهم الذي يتخذه

الرجل عندما يستسلم لصخب شهوته دون مراعاة لمشاعر شريكته ، ان هذا الموقف قد يبلور المخاوف التي ترافق يقظة الجنس عند المرأة (الخوف من تسليم جسدها لولوج الرجل ، الخوف من الالم والحمل) :

« يكفي ... هجوم مفاجيء ، موقف عنيف وغير متفهم من قبل الرجل لكي تتحول هذه المخاوف الى واقع قاس . في لا وعي المرأة يتمركز عندئذ شعور بأنها كانت ضحية عمل كانت تتوقع فظاعته ».

راجع :

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, pp. 59-60.

راجع ايضا :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 236, Robert Laffont, Paris, 1970.

واذا شئنا شواهد ادبية على تلك الظاهرة ، فلنأخذ مثلا رواية « طواحين بيروت » ، لتوفيق يوسف عواد . يصور لنا الكاتب كيف ان بطلة الرواية ، تميمة ، أحبت الصحفي رمزي رعد من خلال كتاباته ووهبته ذاتها . ولكنها اكتشفت انه لا يبغي منها سوى اشباع شهوته ، فمات حبها ، وبعد ان منحته ذاتها للمرة الثانية ، كتبت في مذكراتها :

« أحسست اليوم للمرة الاولى بصقيع الموت . رايت الحب ممددا على السرير بلا روح . بشع الحب بعد موته ، ككل الجثث ، وله رائحتها » .

توفيق يوسف عواد : طواحين بيروت ، ص ١١٥ ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٢ .

١٢٨ — راجع :

Erich Fromm : op. cit., p. 73.

Norman Mailer : Les Nus et les Morts, tome 1, pp. 532-533, Ed. Rencontre.

١٢٩ — راجع :

Eustace Chesser : Les Relations sexuelles des 15-20 ans, pp. 147-148.

١٣٠ — راجع :

Dr. Jean G. Lemaire : op. cit., p. 65.

راجع بهذا الصدد شهادة زوج couple طلابي شاب ، كما يثبته مارك اوريزون في كتابه : « من اجل تربية اخلاقية ديناميكية ».

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, pp. 101-102.

راجع ايضا :

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 79.

١٣١ — راجع :

Odette Thibault : Sexualité aujcurd'hui = Sexualité libérée, in Témoignage Chrétien, No. 1359, 23 Juillet 1970 pp. 20-21.

يقول الدكتور غواش :

« عندما يتحدثون عن انفلات الجنس المعاصر ، هل يفكرون بأن حدوث الانفلات يفترض وجود قيود سابقة ؟ » .

« ان العهد الفيكتوري والقـرن التاسـع عشر البورجوازي الصغير كبلا الجنس بطهريتهما المرائية والمفرطة . الجنس الاباحي اليوم يتحدى هذه الطهرية المتزمتة . انه ، على الارجح ، لا يخلو من الغلو . ولكن لا يمكن ان ننسى ان قوة التمرد انما هي بنسبة قوة القمع » .

G.-Ph. Guasch : Adolescence et Sexualité, p. 23, in «Le Groupe familial», No. 54, janvier 1972, pp. 17-24.

١٣٢ — راجع :

Dr. Paul Chauchard : op. cit., p. 83.

١٣٣ — راجع :

Paul Minelli : La liberté sexuelle, c'est d'abord la liberté, in Témoignage Chrétien, No. 1336, 12 février 1970, pp. 16-17.

١٣٤ — راجع :

Joachim Bodamer : Sexualité, Amour et Névrose, p. 7, Labor et Fides, Genève, 1970.

١٣٥ — يقول يواكيم بودامير :

« يخيم على هذه الحضارة (الحديثـة) نـوع من الضرورة المأساوية : فالانسان الحاضر يعمل ليستطيع ان يستهلك ويجب ان يستهلك ليحافظ على تواتر فرص العمل » .

Joachim Bodamer : op. cit., p. 38.

١٣٦ — راجع :

Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, pp. 276-277, 384-387, Ed. Payot, Paris, 1969.

Jean-Michel Palmier : Présentation d'Herbert Marcuse, Coll. «10-18», Union générale d'éditions, Paris, 1969.

Herbert Marcuse : Eros et Civilisation, Coll. «Point», Seuil, Paris, 1971, pp. 80-103.

١٣٧ — راجع :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, pp. 67-68.

١٣٨ — راجع :

Dr. Jacques Cosnier : Clefs pour la Psychologie, pp. 164-165, Seghers, Paris, 1971.

Jacques Duquesne : Dieu pour l'homme d'aujourd'hui,

pp. 71-86, Grasset, Paris, 1970.
Rolande Dupont : Le Conseil conjugal et familial, pp. 11-12, Casterman, Tournai, 1972.

١٣٩ — اضف الى ذلك شبح الفناء الجماعي بالحرب الذرية والاسلحة الفتاكة الاخرى التي تملكها البشرية اليوم . راجع :

Ignace Lepp : La Mort et ses Mystères, pp. 87-91, Grasset, Paris, 1966.

عن غياب المعنى ، راجع ايضا :

Rolande Dupont : op. cit., p. 12.

١٤٠ — راجع :

Joachim Bodamer : op. cit., pp. 49-61.

١٤١ — يقول يواكيم بودامير :

« ان الحب ... يحيا ايضا من الوقت الذي يمنح له لكي يظهر . ولكن الوقت اصبح اندر سلعة في زمننا ، زمن التدافع ، وحلول الاستحقاقات ، والانتاج ... » .

Joachim Bodamer : op. cit., p. 40.

مما يذكر بكلمات الثعلب للامير الصغير في رائعة انطوان دي سان اكسوبري :

« لا يعرف المرء الا ما يدجنه . لم يعد للناس وقت ليعرفوا اي شيء . فانهم يشترون الاشياء جاهزة عند الباعة . وبما انه لا يوجد باعة اصدقاء ، فلم يعد للناس اصدقاء . ان كنت تريد صديقا ، دجنني » .

Antoine de Saint-Exupéry : Le Petit Prince, p. 69, Gallimard, Paris, 1948.

ومن ظواهر المجتمع الصناعي الحديث ، تلك النزعة الى تولبة البشر في قالب واحد مغفل . هذا ، من شأنه ان يعيق الحب كما يبين المحلل النفسي كريستيان دافيد . يقول ان من شان هذه التولبة « ان تزيل الطابع الفريد للنفسيات دون ان تزيل بالحقيقة الحواجز التي تحول دون تبادل العلاقات بينها (...) ان الفوارق ، عند الاكثرين ، في تناقص تدريجي (...) ولكن حالة الحب تعيش من الفوارق ... » . راجع :

Christian David : L'état amoureux, pp. 199-200.

واليكم شاهدا يقدمه لنا اسفالت كوله عن اضفاء الطابع الآلي الذي يتميز به المجتمع الصناعي الحديث على الجنس نفسه :

انها شهادة فتاة تدعى برباره اقامت علاقة مع شاب كان يعتز بجمع الاختبارات النسائية . ولشدة ثقته بمعلوماته « التقنية » الواسعة جدا ، اراد هذا الشاب ان يغوي برباره دون حب ، ولكنه لم يتوصل الى مأربه :

« كان يدعي انه يعرف كيف يغوي النساء ، وكنت الوحيدة التي لم يستطع اغواءها . كنت اشعر بنفسي وكأنني (بنظره) موزع آلي يناسب كل زر فيه نتيجة محددة » .

اخيرا وهبته ذاتها ، لأنها لم تفقد الامل بأن تكتشف فيه الرجل الذي كانت تفتش عنه .

« لقد سبب له قراري ارتياحا لا يصدق . قام بالعمل بدقة علمية خالصة . كنت احس وكأنني في عيادة طبيب اسنان . فقد اتيح اخيرا للذكر المعتز بنفسه ان يظهر لي كل سعة علمه . منذ ذلك اليوم ، انتهى كل شيء بالنسبة لي . كتبت له ذلك . فلم يفهم ... »

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, pp. 66-67.

١٤٢ — يقول الدكتور غواش بهذا الصدد :

« ان المطالبة باللذة دون قيد او كابح هي من ثوابت هذه المتطلبات الجديدة (...) فالانسان المضطر ان يعيش ويعمل في شروط تصبح لا انسانية اكثر فأكثر ، يحس نفسه مسحوقا . فيحاول ان يهرب من هذا الواقع الضاغط بلذة ، يريدها حادة بقدر ما يعرف انها عابرة (...) ان اعلان المرء لحقه باللذة ... كثيرا ما يكون ايضا تعبيرا عن الاحتجاج ضد واقع لا يمكن القبول به » .

G.-Ph. Guasch : op. cit., p. 23.

١٤٣ — راجع :

Erich Fromm : op. cit., pp. 106-107, p. 112, p. 133.

يقول دنيس فاس :

« في هذه الغفلية : كل لقاء (...) يبقى مستحيلا . وهذه الاستحالة تضاعف الحاجة الى الاستهلاك التي (...) تحمل في طياتها الرغبة في الحضور » .

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 104.

وقد كتبت كلير جبيلي :

« ... ان مطاردة اللذة تصبح هذا النوع من الافيون الذي « يحرر » الانسان القلق الساعي الى جاذب يقدر ان ينسيه سامه » .

Claire Gebeyli : Beyrouth, capitale de la vertu ? (L'Orient-Le Jour, Vie Moderne, Culture, Jeunes, du 12 au 18 février 1972, p. 9).

١٤٤ — راجع :

Odette Thibault : Hairotisme et pornocratie, in Témoignage Chrétien, No. 1325, 5 février 1970, p. 18.

١٤٥ — يقول المحلل النفسي كارل ستارن :

« ان التحرر من الاخلاق الطهرية كان يمكن ان يكون حميدا لو قاد الى ممارسة جنسية سليمة . عوض ذلك ، لا نغالي اطلاقا اذا

توقعنا ان مؤرخي المستقبل سوف يحكمون على الحضارة الشعبية السائدة في ايامنا على انها حضـــارة متلصصين voyeurs ذات طابع فمي » .

Karl Stern : Refus de la femme, p. 249, Mame, Paris, 1969

١٤٦ — راجع :

Violette Morin et Joseph Majault : op. cit., p. 16.
Joachim Bodamer : op. cit., p. 37.

١٤٧ — راجع :

Paul Ricœur : La Merveille, l'Errance, l'Enigme, in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960, p. 1672.
Abel Jeannière : op. cit., p. 35, pp. 156-157

تقول تيريز كيفال في مقال لها عن التربية الجنسية للمراهقين :

« بما ان الشاب هو مستهلك مثالي ، لذا فهو معرض بأن يرى غريزته الجنسية موظفة في الشيء القابل للاستهلاك ، لذا فان خطر الاثارة الجنسية الذي يبدو انه يخشى منه كثيرا عليه قد يكون بالفعل خطرا آخر : خطر انحلال النزعة الجنسية .

« لذا سنحاول ، اذا توجهنا اليه ، ان نسمح له باعادة الاعتبار الى الجنس » .

Thérèse Queval : l'Education sexuelle des adolescents, p. 6, in «Vers l'Education nouvelle», No. 253, juin 1971.

١٤٨ — راجع :

Majault et Morin : op. cit., pp. 48-49, 51, 97.
Jean-Michel Palmier : Présentation d'Herbert Marcuse, pp. 128-129.

١٤٩ — راجع :

Bannister et als. : Problèmes du mariage, pp. 202-203, P.U.F., Paris, 1959.

١٥٠ — راجع :

Jean Brun : Aliénation et Sexualité, in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960, p. 1812.
Paul Evdokimov : op. cit., p. 220.

١٥١ — يقول احد الشعراء :

« تعتقدين ...

« ان الحواس وحدها تنشيء النشوات ....

« ولكنني كنت اتثاءب في وسط ملاطفاتك ... » .

Villiers de l'Isle-Adam : Rencontre, cité in Baudelaire, Coll. «Les Géants», Ed. Paris-Match, 1970, p. 104.

١٥٢ — راجع :

Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, p. 112
Payot, Paris, 1969.

١٥٣ ــ راجع :

Paul Evdokimov : op. cit., p. 221.

١٥٤ ــ راجع :

Paul Ricœur : op. cit., p. 1672.

يقول الدكتور دنيس ڤاللون :

« عندما كان مضغوطا في عهد فرويد ، كان الجنس علة الكثير من الامراض العصبية . اما اليوم وقد ابتذل ، فهو علة الكثير من الانهيارات العصبية . . . » .

Dr. Denis Wallon : Les Ages de l'Enfant, tome 2, 3 à 11 ans, p. 151, Editions Universitaires, Paris, 1971.

ويقول الدكتور اندره مورالي ــ دانينوس :

« لا يستقبل الاطباء اليوم هذا النوع من المرضى المكبوتين الذين كان بوسع فرويد ان يعالجهم . بالعكس ، يتحدثون اليوم كثيرا عن الجنس ويمارسونه كثيرا ، ولكن ذلك لا يجلب للناس سعادة اوفر . هناك نوع من الحزن والخمول يلازم حرية الاشباع الجنسي المطلقة على صعيد الكلام والعمل » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, pp. 131-132, Casterman, 1972.

١٥٥ ــ راجع :

P. Evdokimov : op. cit., pp. 220-223.

Françoise Sagan : Bonjour tristesse, Le Livre de poche, 1964.

Françoise Sagan : Un certain sourire, Ed. René Julliard, Paris, 1956.

Dr. Louis Le Guillant : Jeunes «difficiles» ou temps difficiles ? 2ème édition, pp. 29-33, Scarabée, Paris, 1969.

١٥٦ ــ راجع :

André Stéphane : l'Univers contestationnaire, p. 214, p. 246, en note, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1969.

يقول المحلل النفسي الدكتور اندره برج :

« ان السأم هو . . . عدم الاهلية على توظيف شحنة انفعالية في الاشياء الخارجية كافية لأن تجعلها مشوقة ومرغوبة . وبعبارات اخرى ، فالسأم هو الشعور بالفراغ العاطفي » .

Dr. André Berge : Les Défauts de l'Enfant, p. 131, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1968.

هذا ما يتلاقى مع تحليل الفيلسوف جان لاكروا :

« انه (اي السأم) يولد من فقر داخلي : انني اضجر عندما اسلم الى ذاتي ولا اجد فيها ما يرضيني . انه نداء لا يلقى جوابا ،

اي انه سرعان ما يصبح قلقا : بين الضجر والقلق خطوة واحدة سرعان ما تجتاز . فالقلق هو دوما نوع من الدوار الماورائي يعاني منه المرء اذا جابه عدمه الداخلي ... » .

Jean Lacroix : Le Sens du Dialogue, p. 18, La Baconnière, Neuchâtel, 1965.

١٥٧ — يقول يواكيم بودامير معلقا على روايات هنري ميللر :

« ان حالات الهياج الجنسي عند الاميركي هنري ميللر (...) ليست في اعماقها سوى صرخة واحدة من اليأس ، يأس نابع من انه لم يعد موجودا سوى الجنس ومن ان الشهوة البحتة هي اكثر ما ينشىء اليأس والسأم في حياة الانسان الذي تخلى الحب عنه ، عندما يحاول ان ينجو من هذا التخلي » .

Joachim Bodamer : Sexualité, Amour et Névrose, pp. 36-37.

ويبين الدكتور اندره برج العلاقة القائمة بين السأم من جهة وبين نزعة طفولية الى الأخذ دون القدرة على العطاء ، من جهة اخرى . راجع :

Dr. André Berge : Les Défauts de l'enfant, pp. 129-136.

١٥٨ — راجع :

L'Orient, 28 novembre 1967.

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 189.

١٥٩ — راجع :

Hélène Deutsch : Problèmes de l'adolescence, pp. 109-113, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1970.

ويتحدث شارل كومبالوزييه عن كآبة « فئة من الشباب مغمورة بكل شيء ما عدا بالحب ، لأنها « تفعله » (اي تحصره في مظهره الجسدي) عوض أن تعيشه » .

Charles Combaluzier : Dieu demain, pp. 171-172, Seuil, Paris, 1972.

١٦٠ — راجع :

S. Freud : Contribution à la psychologie de la vie amoureuse, cité par Albert Plé : Freud et la morale, p. 133.

« يدعي برتراند راسل ... ان الافراط الجنسي يسبب التعب والقرف اللذين يمهدان الطريق للزهد » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 120.

١٦١ — ان فرويد يعترف بتلك الظاهرة فيما يتعلق بحب الخمر عند الشارب . راجع :

S. Freud : Sur le plus général des rabaissements de la vie amoureuse (1912), pp. 63-64, in La Vie sexuelle,

P.U.F., Paris, 1970.

١٦٢ — راجع :

Louis Millet : l'Agressivité, p. 82, Ed. Universitaires Paris, 1970.

يقول جان لاكروا :

« ان المجون ... يحاول ان يتمتع بالجنس بحد ذاته . انــه يستخدم الآخر لمجرد الاثارة الجنسية . انه يتشبث بالمتعة . ولهذا سبب بعينه لا يبلغها الا فيما ندر (...) فالجنس يدور فيه حول نفسه » . راجع :

Jean Lacroix : Le Sens du Dialogue, pp. 101-102 pp. 114-115.

هذا ما يؤكده العديد من الدراسات النفسية والاجتماعية التي تتناول انسان المجتمع الصناعي الحديث .

يقول يواكيم بودامير :

« ان كل الدراسات الاجتماعية الرصينة تؤول اليوم الى النتيجة نفسها ، الا وهي ان سلوكنا الجنسي قد هبط ، بشكــل لا يحتمل الجدل ، الى مستوى بدائي ، لأنــه ، وقد تحــرر من كل مشاركة عاطفية ، فقد انحصر ، الى حد بعيد ، فيما هو ملمــوس وتافه . فاللذة الجنسية البحتة تبقى في الاعماق غير مرضية (...) وتثير دوما جوعا جديدا ، حاجة جديدة الى الاثارة ... » .

ويضيف :

« ان الجنس ايضا تشمله تلك الظاهرة من الاستهلاك المعمم التي تجعل اللذة عابرة بهذا المقدار حتى انه لا يسعها ان تؤدي ابدا الى الاشباع » .

Joachim Bodamer : op. cit., pp. 35, 38.

ويقول المحلل النفسي جورج موكو متحــدثا عن الاختبـــارات المعاصرة في الممارسة الجنسية الجماعية :

« ان السعي الحصري الى اللذة الجنسية في التهتك الجماعي كثيرا ما يؤول الى شعور بعدم الرضى العاطفي وبالقرف ... » .

وعن الاباحية في الكتابة والصور ، يقول :

« ... ان الحرية الكاملة التي اطلقت لتلك الابـــاحية في الدانيمارك كان لها الفضل في انزال قيمتها وفي ابراز طابعها غير المرضي والكئيب . ذلك ان انواع التحريم المتزمت tabou والكبت هي التي تغذي السعي الى الاباحية في الكتابة والصور ، ذلك السعي الذي وظيفته الاساسية هي ان يحجب النقص في الحب » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, pp. 197, 198, Aubier-Montaigne, Paris, 1973.

ويبين الفيلسوف الشـــاب كريستيان دلاكامباني ان الاباحية

المعاصرة تؤول ، وراء ستار التحرر الجنسي ، الى قمع للجنس لا يقل خطورة عن قمع التزمت الطهري له :

« ان الاباحية التي يعاش فيها الجنس بالفعل اليوم ، بالنسبة لبعض الفئات الاجتماعية ، تبدو لنا احد شكل للقمع الذي مورس حتى الآن ضده (...) بهذا المعنى فاننا مخدوعون جداً ، نحن نزيلو الخداع في القرن العشرين : اذ اننا لا نرى ان تشجيع الناس على ان لا يأخذوا الجنس على محمل الجد ، انما يقود الى تجريده من كل قدرته كي يسهل قمعه (...) ان الروح البورجوازية (...) تبقى — سواء في عهد الطهرية او في عهد التحرر الجنسي — امينة لتلك النظرية التي ترفض ان تمنح الجنس قيمته الحقيقية — التي هي قيمة قدسية — ولا تحتمله الا بشرط ان يبقى عالميا profane اي بشرط ان لا يعني شيئا . ذلك ان نظرية التحرر الجنسي والاخلاق الطهرية يؤديان كلاهما الى تهديم الجنس dé-sexualisation (...) كلاهما قمعي بالدرجة نفسها » .

Christian Delacampagne : Antipsychiatrie. Les voies du sacré, pp. 124-125, p. 128, Grasset, Paris, 1974.

هذا ما يتلاقى مع ملاحظة المحلل النفسي الالماني الكبير الكسندر ميتشرليش في كتابه « فكرة السلام والعدوانية البشرية » ، اذ يقول ان المجتمع التكنولوجي الحديث قد اوجد « نمطا جديدا من استلاب الانسان بالنسبة لامكانياته الجنسية » ، ذلك « ان الخبرة الجنسية اصبحت محصورة حاليا في حاجة الى الاستهلاك ، تلك الحاجة التي ، وان قلدت الحاجة الجنسية ، الا انها تكبت انسنة علاقات الحب » .

Alexander Mitscherlich : L'Idée de paix et l'Agressivité humaine, p. 180, «Idées», Gallimard, 1970.

راجع ايضا :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 84.

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, pp. 162-163, Casterman, Tournai, 1970.

١٦٣ — يقول احد النقاد السينمائيين معلقا على فيلم اميركي حديث :

« بمقدار ما يغمر التطور الاجتماعي الانسان بالمنافع المادية ، فانه يخترع لنفسه حاجات ، يرتبك بوسائل الترف والسيارات ، ويركز على حياته الجنسية : كلما تناقصت قدرة الحب فيه ، كلما اراد ان « يفعل الحب » ... »

Goux-Pelletan : «Carnal Knowledge» ou l'Obsession américaine vue par Mike Nichols (L'Orient-Le Jour, Cinéma, Femme, Loisirs, du 6 au 12 mai 1972, p. 4).

وقد كتب الشاعر المعاصر الكبيـر لويس اراغـون ، مخاطبا لحبيبة :

« لقد اخذت بيدي في هذا الجحيم الحديث

« الذي لم يعد يعرف فيه المرء كيف يتواجد اثنان » .

Louis Aragon : Prose du Bonheur et d'Elsa, in Poésies, pp. 218-219, cité par Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 170, Desclée, Paris, 1971.

هذا ما عبر عنه المفكر جان بران بكلمات اخرى قائلا :

« في هذا العالم الذي لا تؤدي فيه الاحتكاكات الى لقاءات ، في هذا الكون الذي لم يعد فيه الآخر سوى شريـك يمكن بسهولة ابداله ، لم يعد من مكان لعبارة « احبك » . . . » .

Jean Brun : La Nudité humaine, p. 55, Ed. Fayard, Paris, 1973.

راجع ايضا :

Josette Mélèze : Les Fragilités du Couple, p. 178, Centurion-Grasset, Paris, 1972.

١٦٤ — راجع :

Paul Ricœur : op. cit., p. 1674.

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, pp. 94-95, p. 101, pp. 131-132.

١٦٥ — راجع :

Erich Fromm : op. cit., pp. 108-109.
François Duyckaerts : op. cit., pp. 282-285.
Simone de Beauvoir : Les Mandarins, tome I, p. 123.

« ان « ظاهرة الحنان » ، يعتبرها الاستاذ غيزه Giese من اهم عناصر الحياة الجنسية » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 272.

ويقول اوسفالت كوله في مكان آخر من كتابه هـذا « اختبار الحب الحديث » :

« . . . المهم في لعبة الحب ليس بهذا المقدار استعمال اساليب تقنية تكون على اكثر ما يمكن من التفنن والطرافة . ففي العلاقات الجنسية ، القضية هي خاصة قضية مشاعر . ليست التقنية بشيء ان لم ترتكز على الحب ، على محاولة الشريك بأن يضع نفسه مكان الآخر ، وبأن يمنحه لذة ويستمد من ذلك لذته الخاصة » .

Oswalt Kolle : op. cit., pp. 260-261, p. 227.

ويقول اوستاس شيسر :

« ان الخبرة الجنسية لا ترد الى مظهر « آلي » ، لا بل تتجاوزه الى حد بعيد . ما يفوق اهمية بكثير على المهارة ، انما هـو الحالة النفسية . وما يجب ان يغلب في هذا الموقف النفسي ، هو الرغبة

الصادقة في اسعاد الآخر » .

Eustace Chesser : Les Relations sexuelles des 15-20 ans, p. 147.

وقد اشارت اوديت تيبو الى ما قد يتستر وراء المغالاة في اهمية التقنية الجنسية ، من هرب امام الالتزام العاطفي :

« أنه لخطأ مأساوي ان يحاول رد النجاح في الحب الى مسألة « تقنية » . يخشى من ان يكون السعي الى الأهلية التقنية احيانا علامة على نوع من الهرب امام الالتزام العاطفي ، على خوف من العطاء الكلي ... كما لو كان بوسع المــرء ان يعوض عن نقص الحب بمآثر تقنية ! هذا ، اذا صح التعبير ، نوع آخر من العجز الجنسي ، ذات نمط نفسي » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 32.

١٦٦ ــ راجع :

François Duyckaerts : op. cit., p. 282.

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 373 et passim.

١٦٧ ــ راجع :

Jean-Paul Charrier : L'Inconscient et la Psychanalyse, p. 68, P.U.F., Paris, 1968.

١٦٨ ــ راجع :

François Chirpaz : L'Intention de rencontre, in «La Sexualité», p. 1835.

تقول مرغريت لامبير في كتاب تستند فيه الى خبرتها كمرشدة زوجية :

« اعتقد ان عصرنا قد اهتدى بالفعل الى ان الجسد لغة ، اداة تعبير . ففي كل مكان نرى وصفا لموارده ولتوزيع مناطق اللذة فيه ، حتى في المجلات المعدة للمراهقين ترسم المنحنيــات البيانية لذروة النشوة الجنسية . ويتساءل المرء : الا تؤدي تلك الارادة في كشف كل شيء الى تناسي معنى الجسد والاتحاد ؟ » .

وتضيف مشبهة الجسد بآلة موسيقية :

« لقد اصبح الكمان معروفا بشكل افضل .

« وقد شرحت كيفية استعماله .

« ولكن من الذي سوف يعزف عليه ؟ وبأي « الهام » ؟ هذا ما لا يتحدثون عنه (...) .

« وبعبارة اخرى ، المهم هــو بآن واحــد نوعيــة الآلة وفن استعمالها ، ولكن ، اكثر من ذلك ، حقيقة ونوعية ما يريد الشريكان ان يعبر كل منهما عنه للآخر .

« وقد يعود لهذه الاسباب كون الانسجام الجنسي هو ، كما

يتضح ، مشروع قلما يتحقق ، بالفعل ، بشكل مرضي » .

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, p. 82, Resma, 1973.

١٦٩ ــ راجع :

Christiane Rochefort : Le Repos du Guerrier, p. 52, p. 201, Le Livre de poche, Paris, 1965.

١٧٠ ــ راجع :

Christiane Rochefort : op. cit., p. 114.

١٧١ ــ راجع :

C. Rochefort : op. cit., p. 136.

١٧٢ ــ راجع :

François Chirpaz : Dimensions de la sexualité, in «Etudes», mars 1969, pp. 409-423.

١٧٣ ــ راجع :

F. Chirpaz : op. cit., p. 420.

الفصل الثاني

الحب كتحقيق لمرمى الجنس الاتحادي

هكذا فالوعد الذي يحمله الجنس ولا يفي به اذا عيش على صعيد الحاجة الغريزية وحسب ، لا سبيل لتحقيقه الا عن طريق اللقاء الصميمي بين شخصين ، وهذا اللقاء هو الحب[1]. الحبّ وحده يحقق وعد الجنس ، لانه وحده يوفّق بين ما فيه من متناقضات ، « بين الجسد والروح ، الأنا والآخر ، الحاجة الى الآخر وسخاء بذل الذات ... »[2] . بالحب تتحقق الرغبة الجنسية ولكنها تتحول بآن لانها تكتشف ان الآخر الذي تسعى اليه لا يُمتلك كما تمتلك الاشياء ولكنه شخص حرّ يعطي ذاته اذا شاء[3] . انه حركة يتجاوز بها الجنس ذاته باتجاه الآخر ، وبهذا التجاوز وبه وحده يتحقق ما كان الجنس ، في ممارسته النرجسية (أي التي يسيطر عليها السعي الأناني الى اللذة) ، يصبو اليه دون ان يدركه ، الا وهو اللقاء بالآخر ، ذلك اللقاء الذي هو ، كما رأينا ، هدف الجنس بأعماقه . بالحب وحده يصل الجنس الانسان بالآخر مع المحافظة على استقلال كل من الشريكين ، لان التمييز ضمن الوحدة لا بد منه لكي يتم هناك تبادل وبالتالي لقاء : « مفارقة الحب تكمن ، يقول اريك فرّوم ، في ان كائنين يصبحان واحداً ومع ذلك يلبثان اثنين »[4] . ليس فيه اذاً تغييب للآخر كما في الشهوة بل تأكيد له ككائن آخر مستقل .

هذا الحب لا يبطل اهمية العلاقة الجنسية ولكنه وحده يجعل منها « وصالاً » ، لا احتكاكاً خارجياً (« احتكاك جلدين ») بين عزلتين متقابلتين[5]. انه لا يبطل اللذة ولكنه يعطيها كل ابعادها اذ يجعلها منفتحة على ما هو اعمق منها وأبعد[6]. بالحب اذاً يدرك الجنس حقيقته في حركة تجاوز لذاته اي لطبيعته الغريزية[7] . انه خلاص الجنس الذي لولاه ينقلب على نفسه وكأنه

يأكل ذاته حاكماً على ذاته بالفشل[8] . هذه هي « طريق الاكتمال حيث يتحقق الحب بالجسد فيما يتجاوز الجسد ذاته بالحنان »[9] .

اكتمال وتجاوز بآن : هذا هو الحب بالنسبة الى الجنس . لنا على تلك العلاقة نموذج رائع في رواية للكاتبة المعاصرة فرنسواز ماللیه ـ جوريس . بطلا الرواية نقولا ومارسيل تجمعها لأول وهلة علاقة مركّزة على المتعة الجنسية ، يحاولان بها دون جدوى ان ينسيا فراغهما . ولكن الحب يشق طريقه في قلبيهما ، واذا بهما اخيراً يلتقيان[10] : « ... لقد أحسّ (نقولا) بأن هذا الحرمان الدائم ، هذه الكآبة اللذين كان يثيرهما فيه جمال (مارسيل) منذ اليوم الاول قد سكنا . وانتابه شعور بأن هـذا الجمال الهارب قد حطّ منذ قليل كطير قريباً جداً منه ، أقرب من أي وقت مضى ، وانه كان ينبغي الا يتحرك لئلا يخيفه » . واذا بنوعية اتصالهما الجنسي تتحـول[11] لان الجسد تحرر من محدوديته واصبح مكان حضور شخصين ولقائهما : « لقد كان هذا الجسد الساكن يُشعّ حضوراً عذباً ... »[12] . واذا باللذة تصبح مدخلاً الى ما هو أعمق منها وابعد : « ... لقد كانت الـلذة بعيداً ، بعيداً جداً وراءهما ، يسمعانها كموسيقى خافتة ... »[13] . واذا بالاستهلاك يزول ليحلّ مكانه اتصال بالآخر ومن خـلاله بالوجود قاطبة : لقد احسّ نقولا « بقوة لم يكن له عهد بها من قبل ، لا الطعام الثقيل الذي كان يشبعه ويثير اشمـئزازه بآن ، بل الدنو من جمال وتأمله ، جمال يسامه وينصهر هو فيه ، عند ذاك ينظر الواحد الى الآخر بقدر ما يملكه ، واذا بالعالم كـــله في تلك النظرة ، استدارة التلال وطعم الارض القوي والبارد عندما يحفر المرء عميقاً ، هذا السرّ ، المعادن المطمورة التي يحس الانسان بوجودها دون ان يراها . . »[14] .

ذلك الاتصال بالكون من خلال المحبوب ، عبّر عنه الشاعر الفرنسي المعاصر بول الوار بتلك الأبيات :

« لقد أتيتِ ...
« فتغيّر معنى الارض والبشر ...
« أتيتِ ، كنتُ كئيباً ، قلتُ نعم
« انطلاقاً منكِ ،قلتُ نعم للكون »[١٥]

في رواية سهيل ادريس « الحي اللاتيني » نجد ايضاً وصفاً لهذا اللقاء الذي يتم اذا تجاوز الجنس ذاته بالحب . فان بطل الرواية ، بعد ان عاش مغامرات جنسية صرفة عادت بالخيبة عليه ، صادف الحب اخيراً في شخص جانين مونرو . واذا به يختبر في الرغبة ما يتجاوز الرغبة ويعيش ما عبّر عنه نيتشه بقوله : « في الحب الحقيقي ، الروح تغلّف الجسد . »[١٦] :

« ... ونهض عن كرسيه ، فجذب جانين اليه ، وهمهم باسمها مغمض العينين ، فيما كانت شفتاه تطبقان على شفتيها .

« وأحس من نشوة هذه القبلة بمثل الخدر . شعر بأن كيانه كله تجمّع في شفتيه ، فالتصق بشفتي جانين كأنما ينزع الى الفناء فيها . لا ، لم يكن ينبض فيه عرق من شهوة ولا احساس من اهتياج . كأن روحاً تعانق روحاً »[١٧] .

هكذا بالحب وحده تتخذ العلاقة الجنسية كل ابعادها ، لانها تصبح لغة تخاطب[١٨] . قد يبدو لأول وهلة ان الاتصال الجنسي هو هو في الحب وخارج الحب . ولكن هذا وهم . فالكلمة ، اذا حلّلناها فيزيائياً ، هي مجموعة أصوات وحسب ، ولكن فرادتها ، ما يميزها قطعياً عن أي صوت ، هي في كونها صوتاً

ذا معنى . هكذا بالحب تتحول العلاقة الجنسية بالكلية لانها تتخذ معنى ، تصبح لغة يتصل بها كائنان بشريان على صعيد أكثر صميمية من مستوى « لغة الكلام » . وكما ان الكلام الاصيل يتميز عن الثرثرة في كونه ينقل معنى فيما الثرثرة « كلام من اجل الكلام » ، كلام فارغ ، هكذا يتميز الجنس الذي يلهمه ويسكنه الحب عن ذاك الذي يتخذ ذاته غاية فيفقد معناه واصالته[19].

هذا الحب الذي به يحقق الجنس مرماه الانساني الاتحادي هو ما يعطي الجنس قيمته الخلقية بآن[20]. هنا نعود الى السؤال الذي طرحناه في مقدمة هذا الكتاب ، الا وهو ما هي أسس مناقبية الجنس . لقد بيّن فرنسوا شيرباز ان الاخلاق لا تُضاف الى الجنس لتنظمه بموجب نواميس خارجية ، انما تنبع المقتضيات الخلقية من طبيعة الجنس الانساني نفسها . لذا فالمدافع عن الاخلاق والمنادي بالاباحية مخطئان كلاهما اذ ينظران الى الجنس على انه مجرد نزعة غريزية ذاتية لا تتجاوز حدود الفرد ، فيطلق لها الثاني العنان فيما يخضعها الاول لقواعد غريبة عنها . ولكن كلاهما ينسى ان تلك النزعة الجنسية توق في الانسان للانفتاح الى آخر . فاذا انطلقنا من هنا ، لم تعد الاخلاق مجموعة شرائع تُفرض على الانسان بصورة كيفية ، وبالتالي يكون رفضها تحرراً من قيود ، انما الاخلاق هي التعبير عما ينبغي للانسان ان يتبعه من قواعد اذا شاء ان يحقق اصالته الانسانية ، وبالتالي يكون رفضها تنكراً لتلك الاصالة واجرام للانسان بحق نفسه . لذا فالهاجس الخلقي فيما يخص الجنس ، انما هو تحقيق اصالة الجنس الانسانية وحسب . يقول فرنسوا شيرباز : « جوهر الهاجس الخلقي هو المحافظة ، في العمل الجنسي ، على الحضور الانساني ، هو افساح المجال

لظهور ما يريد ان يعبّر عن ذاته من خلال ذلك العمل . ليس للهاجس الخلقي ان يضاف الى الجنس ليعطيه طابعاً خلقياً : انما له ان يفسح المجال لظهور المعنى الانساني الذي يسكن في الجنس ، بجعل الكلام ان عليه ان يجعل اللقاء الأصيل بين الواحد والآخر ممكناً »[21]. ويصل بيار انطوان الى النتيجة نفسها عندما يقول : « بتقييمنا الجنس على هذا المنوال ، علينا ان نقرّ اذاً ان متطلبات مناقبية الجنس هي اساساً متطلبات الحب نفسه وانه لا يمكن ان يكون هناك متطلبات أخرى »[22].

مناقبية الجنس كائنة اذاً في ارتقائه الى صعيد الحب ، في التأليف بين الحب والغريزة ، حسب تعبير الفيلسوف الشخصاني المعاصر جان لاكروا : « الحب دون الغريزة طوباوي ، الغريزة دون الحب أباحية »[23]. بهذا المعنى ايضاً كتب فيلسوف شخصاني معاصر آخر ، دنيس دي روجمون : « ان العمل الجنسي ليس بحد ذاته خيراً ولا شراً . ان درجة الحب الحقيقي وحدها (الحب المشخّص ، المرتبط بالشخص) تمكن من تقييم العمل الجنسي . واني لا أرى مقياساً آخر لا يرتبط بهذا المقياس أو لا يُردّ اليه »[24].

آ- ميزات الحبّ[٢٥]

فلنحاول الآن ايجاز ميزات هذا الحب الذي بـه يصبح الجنس مكاناً للقاء . برأينا ان من أبرز هـذه الميزات اولاً ان الحب يعتبر الآخر مهماً بحد ذاته ثم انـه يكتشف الآخر في فرادته ويتعهده في بعده الزمني :

١ – انه يعتبر الآخر مهماً بحد ذاته :

ذلك ان اعتبار الآخر مجرد اداة او ذريعة للمتعة الذاتيـة تغييب لشخص الآخر وبالتالي انعـدام للقاء . يقول فرنسوا شيرباز ان الجنس يدعو « الى لقاء الآخر في كيانه الشامل والى الرفض القطعي بأن يُعتبر الآخر مجرد حجة مغفلة للذتي . فاذا انكرت الرغبة محدوديتها ... لم تعد مجرد سعي الى الذات . لم تعد مجرد انتظار اللذة الذاتية . انها انتظار لقاء في اللذة ، لقاء في لذة هذا الآخر . واذا بهذا الجسد يكشف عن ذاته ، تحت نظر الرغبة ، على انه حضور . ان الآخر هو الحاضر وليس

جسد من الاجساد ، فالعلاقة اذاً دنو" لا ينتهي من هذا الآخر ...»[26]

٢ – انه يكتشف الآخر في فرادته :

هكذا فاعتبار الآخر مهماً بحد ذاتــه يقتضي اعتباره كائناً فريداً . اذا كان التركيز على الاستهلاك والمتعة فسيّان بين هذا الموضوع الجنسي او ذاك اذا كانت المتعة واحدة ، كما انه سيان بين لفافة تبغ واخرى اذا كانت اللذة واحدة . اما اذا اعتبر الآخر مهماً بحد ذاته ، وهذا شرط للقاء كما قلنا ، فـلم يعد ممكناً ان يُقاس بالمتعة وحدها وان يصنف مع غيره تحت قاسم المتعة المشترك . هذا هو الفرق بين المجون والحب . فالماجــن يسعى الى « الانوثة الابدية » فيجدها في نساء عديدات ، لانه لا ينظر الى كل منهن كالى شخص فريد بل كممثلة للجنس الذي يهواه ، كمناسبة لبلوغ النشوة التي يقصدها ، لانه بالفعل لا يهوى الا نشوته ، الا ذاته . انــه عاشق كبير ، ولكنه كبطل الاسطورة القديمة نرجس ، عاشق لذاته[27]. وقد يعبّر عــن هذا العشق النرجسي بتغزل سافر بنفسه على طريقة عمر بن ابي ربيعة :

« قــالت الصغرى ، وقــد تيمتها :
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟ » .

النساء اللواتي تتألف منهن « مجموعاته » لسنَ سوى صور تعكس كلها ، باشكال متنوعة ، رغبته ، انهــن مجرد اجساد يمكن استبدال احداهنّ بأخرى كما تُستبدل تفاحة بتفاحة مع اختلاف بالنكهة فقط . من نظرة كهذه كانت تشكو ڤاليري ،

احدى بطلات اندره مالرو ، عندما قالت لعشيقها : « انـني ايضاً هذا الجسد الذي شئتني ان أكونه فقط »[28]. امـا الحب فهو على نقيض هذا الموقف . في نظر المجون الآخر مجرد جسد ، اما في نظر الحب فالآخر وجه أي مـا يعطي الجسد طابعاً شخصياً[29]. انه ذات حسب تعبير الفيلسوف المعاصر كـبريال مادينييه : « ان نحب هو ان نريد الاخر ذاتاً » . في نظر المجون سيان بين نساء عديدات لأن السعي هو الى الجنس مـن حيث هو ، من خلال تعدد اشكاله . اما في الحب فالجنس كله ينحصر في شخص فريد حسب قول الشاعر : « ايتها المـرأة الفريدة انك بالنسبة لي النوع كله »[30] لذا فالحب بطبيعته واحد ، لا يقبـل التعدد[31].

٣ – انه يتعهد الآخر في بعده الزمني[32]:

ومن جهة أخرى اذا كان الحب سعياً الى شخص الاخر ، فلا بد له ان يتعهد هذا الاخر في بعده الزمني ، التاريخي ، لان الشخص يحيا ويستمر ويتحقق في الزمن . لذا فـالحب يتطلع بطبيعته الى المستقبل ، ينزع الى الديمومة[33]، لا بل ان رغبة الحب العميقة هي معايشة الاخر الى الابـد ، حسب تعبـير الفيلسوف الوجودي المعاصر كبريال مارسيل : « ان يحب المرء كائناً هو ان يقول له : انت لن تموت »[34] ، ذلك التعبير الذي ينطبق على الحب بمعناه العام كما ينطبق عليه بمعناه المحصـور ، معناه الجنسي ، الذي نحن بصدده . هـذا الحب بـين رجل وامرأة ، حتى اذا ظهر بأشكال هزيلة ، سريعة الزوال ، ينزع في انطلاقته الى الابدية[35] ، فيخطط للمستقبل[36] ويملل نفسه بسعادة

لا تنتهي . هذا ما تعبر عنه الهدايا التي يتبادلها المحبان ، وهي من مواد ثمينة كالذهب واللؤلؤ تصمد في وجه الزمن وترمز الى ديمومة الحب[٣٧] .

هنا ايضاً يتجلى الفرق بين الحب والمجون . « فالحب يرتسم في الزمن ، اما المجون ففي اللحظة »[٣٨] . الماجن لا يرى في الآخر سوى ظرف للمتعة ، ولذا فأنه لا يقيم معه سوى علاقة عابرة كفيلة بأن تمنحه تلك اللحظات الممتعة التي ينشدها . فاذا قضى منه وطره ، أهمله وتحول الى غيره . هذه شيمة النزعة الجنسية اذا لم تتجاوز عنصرها النرجسي . اذا كان الآخر غير موجود بنظري بحد ذاته بل بالاضافة الى حاجتي وحسب ، فمن الطبيعي ان اتجاهل وجوده بعد ان اقضي حاجتي منه[٣٩] . اذا كان الآخر مجرد شيء يُستهلك ، فمن الطبيعي ان يتخلى المرء عنه بعد حين ، لانه أمر طبيعي ان يسعى المرء الى التنوع في ما يستهلكه . ان القول الشعبي معبر جداً عن هذه المعادلة التي يجعلها المجون بين الجنس والاستهلاك . فيقال عن فلان انه شاء ان « يغيّر على ضرسه » وانه لم يشأ « ان يأكل مجدرة كل يوم » . هكذا يُعتبر الشخص الآخر مادة استهلاك ويُنحدر بالجنس الى مستوى حاجة غريزية بحتة كالحاجة الى الطعام ، مما يشكل احتقاراً للآخر وتشويهاً للجنس بآن . ولكن الماجن يبقى أسير عزلته رغم مغامراته العديدة ، لانه مهما تعددت المغامرات لا يجد في كل واحدة منها سوى نفسه[٤٠] وحدود لذته الذاتية ، واذا يجزع الفراغ ينتابه بعد نشوة عابرة (هذا اذا لم يخدّر حاجته العميقة الى الملء والمعنى) فيعيد الكرة وكأنه بتعدد المغامرات يستطيع ان يحطّم الدوامة التي هو أسيرها[٤١] . عن هذا الفراغ يعبّر احد ابطال الروائي المعاصر هنري فرنسوا

راي ، اذ يقول ان أعمق رغباته هي ان يذوب ويضيع لكي يجنّب نفسه مشقة التفكير في تفاهة وجوده ، وان اتصالاته الجنسية انما هي الوسيلة التي يعتمدها ليجد الضياع المنشود[٤٢]. ولكن هذا الضياع الوقتي في النشوة تتبعه يقظة مريرة وشعور بالعزلة مقيم[٤٣]. اما الحب الحقيقي فشيمته الاستمرار لانه تركيز على اللقاء لا على اللذة ، واللقاء لا يتم الا اذا التزم الشريكان البعد الزمني الملازم لهما كشخصين . لحظة الجماع لا تحقق اللقاء الا اذا كانت جزءاً من تاريخ مشترك يمتد ، حسب رغبة الحب العميقة ، على العمر كله . الحب ، في اصالته ، علاقة بالآخر لا تنفصم . صحيح انه في الوضع الانساني الراهن لا يسعه ان يحافظ بشكل دائم على مستواه . كل حب ، مهما عمق ، يعرف لحظات فتور وملل وعداء ، ولكن ارادة الانسان تلعب دورها هنا لتجبر عثرات الشعور وتساعد الحب على تحقيق قصده العميق رغم نزوات العاطفة[٤٤]. في هذا التعاون الوثيق بين شعور يغذي الارادة وارادة تضبط المشاعر للمحافظة على استمرار الحب ، في هذا التعاون والتناغم يكمن الحب الانساني الأصيل . هذا هو معنى الوعد الذي يتبادله المحبان ، ذلك الوعد الذي يتفرد به النوع الانساني ، لان الانسان ، كما قال نيتشه ، يمكن تحديده بقدرته على ان يعد[٤٥].

ب - نشوء الحبّ

هذا الحب الذي به يتحقق معنى الجنس العميق هو بآن غاية تطور الجنس في النمو الانساني . هكـذا يلتقي المنظار الظواهري phénoménologique الذي يتقصى القصد الكامن في السلوك الجنسي ، بالمنظار التكويني (génétique) الذي يتتبع مراحل هذا السلوك كما تظهر تباعـــاً اثناء نمو الفرد . لقد كشف لنا فرويد ان للجنس تاريخاً اذ يبدأ في مطلع الحياة ويتطور ماراً بمراحل مختلفة الى ان يبلغ شكله الراشد . فمن تتبع هـذا التطور كما وصفه فرويد ومدرسته وجد ان الجنس في سيره من الوضـــع الطفلي الى الوضع الراشد يتحرر شيئاً فشيئاً من النرجسية ، اي التركيز المفرط على الذات ، وينفتح بالتالي الى الحوار مع الآخر متجاوزاً شيئاً فشيئاً طابعه الغريزي الاستهلاكي ليصبح « لغة » يتخاطب بها كائنان شخصيان . وبعبارة اخرى يتحرر تدريجياً من اعتبار الاخر شيئاً ليعتبره ذاتاً ، واذا شئنا استخدام تعابير الفيلسوف المعاصر كبريال مارسيل ، قلنا انـه يتجاوز اعتبار الاخر « غائباً » (« هو ») ليقيمه « مخاطباً » (« انت »)[٤٦].

تلك المسيرة التي ، كما قلنا ، تبدأ منذ اول العمر ، تبلغ مرحلة حاسمة عند انتهاء المراهقة ، ولكنها بالواقع تدوم الحياة

كلها لأن « الرشد » بمعناه الكامل حدٌّ مثالي يتقرب منه المرء بدرجات متفاوتة ولكن ما من احد يبلغه كلياً[٤٧]. هذا وان الانسان ، في تقدمه نحو الرشد لا يسير دوماً في خط مستقيم ، انما كثيراً ما يتوقف عن المسير الى آن او نهائياً وقد يعود في كثير من الحالات القهقرى . طريق النضج الجنسي طريق معقد اذاً ومحفوف بالمصاعب والاخطار ، ولكن خطّه العام واضح كما بيّن التحليل النفسي المعاصر : انه انتقال من التركيز المطلق على الذات الى الاعتراف بالاخر كشخص مستقل ، مهم بحد ذاته ، والى اعتباره لا مادة استهلاك بل شريكاً . لقد كتب فرويد بهذا الصدد : « اننا نعزو للفرد طاقــة التقدم من النرجسية الى الحب الموضــوعي »[٤٨]. وعبارة « الحب الموضــوعي » amour objectal تعني في لغة فرويــد ، كما هـــو معلوم ، حب « الموضوع » objet أي الشخص الآخر من حيث انه آخر ، وبعبارة أخرى حب الشخص الآخر من أجل نفسه وليس فقط من أجل الأنا . وفي مكان آخر أشار فرويد الى « نمو الغريزة الجنسية ، كما وصفناه أعلاه ، من الشهوة الذاتية auto-érotisme الى الحب الموضوعي ... »[٤٩].

يتضح اذاً ان طريق النضج العاطفي ، الذي يتميز عـــن النضج العقلي والثقافي[٥٠] ، هو الطريق الذي ينتقل فيــه المرء من نرجسية الشهوة الطفلية الى اصالة الحب الراشد[٥١]، ذلــك الحبّ الذي عرّف عنه محللو النفس المعاصرون على انــه اهتمام بالآخر من اجل ذاته[٥٢]. فقد قارن الدكتور شارل نوديه بين « حب » الطفل وحب الراشد ، فقال ان موضــوع حب الطفل « ليس محبوباً من اجل فرادته الشخصية ، بل من اجــل الوظيفة التي يؤمّنها » (وظيفة الأمان والتقييم والتهدئة ...)[٥٣]، اما الراشد

فيمتاز بكونه « قادراً ان يحب انساناً من اجل فرادته الشخصية ، وليس من اجل الوظائف التي يمكنه ان يقوم بها . في هـــذه الحال يمكن لحبه ان يكون هبة عفوية وليس تقدمة ذات طابع نفعي ... »[٥٤] واضاف الكاتب نفسه ان الراشد هو من استطاع ان يحب الآخر كنفسه[٥٥] .

أما اريك فروّم فقد كتب مؤكداً على طابع الايثار الذي يتميز به الحب الراشد : « ان الحب هـو في الاساس عطاء وليس أخذاً »[٥٦] . وقال مستشهداً بمحلل نفسي اميركي آخر : « يصرح سوليفان ... بأن الحب يبدأ عندمـــا يشعر شخص بحاجات شخص آخر على انها مهمة بمقدار حاجاته هو »[٥٧] .

وفي الخط نفسه كتب الدكتور اندره برج المحلـــل النفسي والمدير الطبي للمركز النفسي التربوي الشهير التابع لثانوية كلود بيرنار الرسمية في باريس : « انه لنمط جد بدائي من الحب أن يحب الانسان فقط من اجل لذته الخاصة ، دون أي اهتمام حقيقي بالشخص الذي اختاره كموضوع حب . امـــا من نضج شعوره بشكل سليم ، فأنه لا يحترم حظ الآخر بالسعادة وحسب بل يتوق الى منحه اكبر سعادة ممكنة ...

« ... ان نضج الفرد الجنسي يتلاقى ليس فقط مع خيره الخاص بل مع خير المجتمع ايضاً »[٥٨] .

لقد قال فرويد بأن ما يميز الطفل عن الراشد هو ان الاول مسيّر « بمبدأ اللذة » فقط بينما الثاني يقوّم « مبدأ اللذة » هذا باخضاعه « لمبدأ الواقع »[٥٩] . ولكن مبدأ الواقع يقتضي ، كما يذكّرنا المحلل النفسي الكبير شارل بودوان ، ان يقيم الانسان

حساباً للآخرين[٦٠] . لذا يقترح الطبيب النفسي الدكتور اندره ارتوس ان يعتبر « راشداً » من استطاع ان يكون « مسؤولاً » تجاه نفسه وتجاه الآخرين ، من استطاع ان ينفتح للآخر بغية الاتصال به[٦١] .

من هنا نفهم كيف ان علم النفس الحديث يعتبر مقدرة الانسان على الحب الاصيل الذي يقيم للآخر وزناً كأحد المقاييس الهامة لنضجه العاطفي ، وبعبارة أخرى يرى ان الطابع « الحواري » للسلوك الجنسي هو احدى علامات الشخصية الراشدة[٦٢]. انه بذلك يسير على منوال فرويد الذي سُئل في آخر حياته ما هي مقاييس النضج ، فأجاب : « الحب والعمل »[٦٣]. لذا فمن كان عاجزاً عن الثبات في سلوكه الجنسي اعتبر ، من هذا المنظار النفسي ، غير راشد بالفعل . تلك هي حال الدون الجوان الذي قال عنه الدكتور نوديه : « ان حياة الدون جوان ، قبل ان تكون مخالفة للاخلاق ، هي مخالفة للتوازن الراشد »[٦٤] وكتب عنه الدكتور اندره برج : « ان دون جوان ، رغم كل نجاحاته ، ليس في قرارة الامر سوى انسان منكود الحظ لا يكتمل نضجه ابداً »[٦٥] .

مقياس النضج هذا هو ما يفسر حكم المحللين النفسيين على كثير من مظاهر المجون المعاصر على انها اشكال للسلوك الجنسي غير راشدة فعلاً . هذا ما أكده الدكتور هسنار[٦٦] والدكتور جيرار منديل[٦٧] والمحللان النفسيان اللذان درسا ثورة أيار ١٩٦٨ الطلابية من زاوية التحليل النفسي[٦٨] .

والآن حان لنا ان نصف بتفصيل ذلك النمو الذي يؤول تدريجياً بالجنس الى شكله الراشد . لقد بيّن فرويد ان عملية

النضج الجنسي تتم عند الانسان على دفعتين تفصل بينهما فترة يخبو فيها النشاط الجنسي الى حد ما[69]: الاولى تمتد من الولادة الى نحو السادسة والثانية تمتد من بدء المراهقة حتى بلوغ الرشد. في كل من هاتين المرحلتين يمكن ان نتابع خطاً عاماً يتدرج فيه الجنس بموجب اتجاهات ثلاثة متوازية، متكاملة: من عشق الذات الى عشق الآخر، من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر، من الاستيلاء الى العطاء.

١ – المرحلة الاولى

فالمرحلة الاولى الممتدة على الاعوام الستة الاولى من حياة الطفل أساسية لتكوين الشخصية وبالتالي لتوجيه السلوك الجنسي المستقبل. فاذا سارت الأمور حسب مجراها الطبيعي – وهذا يعود الى حد بعيد الى نوعية العلاقات التي تتوفر للطفل مع محيطه العائلي – كانت هذه المرحلة مجالاً لقيام أسس النضج الجنسي وذلك بموجب الخطوط المتكاملة الثلاثة المذكورة آنفاً:

اولا – انتقال من عشق الذات الى عشق الاخر

شهوة الطفل مركّزة أولاً على جسده وبنوع خاص على بعض من مناطق هذا الجسد تختلف مع العمر (zones érogènes). فهو يجد لذته اولاً في الفم، فيتمتع بامتصاص ثدي أمه او اصبعه او شفتيه او لسانه (érotisme oral)[70]. ثم يجد تلك المتعة في اعضاء الافراز (érotisme anal et uréthral). ثم

يكتشف عضوه التناسلي ويستمد لذة من العبث بـــه واثارته (érotisme phallique) . في تلك المراحل كلها يتعشق الطفل جسده محاولاً ان يستمد منه ما أمكن من أحاسيس المتعـة . ولكنه عندما يبلغ المرحلة الاخيرة من التي ذكرناها يقفز قفزة حاسمة اذ يدخل في الوضع الاوديبي حيث يتحول موضوع عشقه من جسده الخاص الى كائن آخر هو الأم بالنسبة للصبي والأب بالنسبة للبنت . هكذا يصبح الولد قادراً ان يتجاوز في عشقه دائرة جسده وان يتجه الى الآخر . ولكن لكي يكون هـذا الاتجاه أصيلاً وجب ان يكتشف هذا الآخر على انـه آخر . ذلك هو هدف الحركة الثانية التي ترافق وتكـمل الاولى ، ألا وهي الانتقال من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر .

ثانياً – انتقال من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر[٧١]

فالطفل يعيش بادىء ذي بدء في وضع لا تمييز فيه بـــين العالم الخارجي وأحاسيسه الذاتية ، وكأن ذاتـه تشمل الكون كله . هذا ما دُعي « بالشعور المحيطي » (sentiment océanique) ، كأن الطفل نقطة لا يسعها ان تميز نفسها عن المحيط بل تشعر وكأنها المحيط كله[٧٢]. ينتج عن هذا الشعور احساس وهمي عند الطفل بأن رغبته كلية الاقتدار وان كل شيء في متناولها وانه يكفيـه بالتالي ان يرغب لكي تتحقق له رغبته . جذور هـذا الوضع متأصلة في حياة الطفل قبل الولادة ، اذ يكون عند ذاك جنيناً غير متميز عن جسد والدته . تأتي الولادة فتقـيم التمييز الاول بين الطفل والأم ، هذا التمييز الذي يعـبّر عنه بقطع رباط الصرة . ولكن قطع رباط الصرة العضوي يبقي على

رباط صـــرة آخر نفسي . فالطفل الرضيع يعيش لأول وهلة هذا « الشعور الاوقياني » الذي تحدثنا عنه ، كأن « أناه » لا حدود له وكأن أمه (التي تمثل بالنسبة اليه الكون) امتداد لذاته[٧٣]. وهو بالرضاعة يحاول ان يلتهم أمه ، ان يعيدهـا الى ذاته ، ملغياً هكذا « صدمة الولادة »[٧٤] .

ولكن الواقع يفرض ذاته عليه شيئاً فشيئاً[٧٥] ، وذلـك من خلال اختباره لحاجات فيه لا تُلبى او لا تلبى فوراً . الطفل الذي يبكي لانه جائع ، فيما تستعد أمه لارضاعه ، يبدأ باكتشاف حدوده وبادراك هذه الحقيقة ألا وهي ان أمه متميـزة عنه ، انها آخر[٧٦]. يقول فرويد بهذا الصدد : « ان ثدي الأم المغذي هو بالنسبة للطفل اول موضوع عشق . في البدء من المؤكد ان الطفل لا يميز عن جسده الخاص الثدي المقدم اليه[٧٧]. واذ يلاحظ ان هذا الثدي كثيراً ما يعوزه ، يتعلم ان يضعه خارج ذاتـه وان يعتبره بالتالي « موضوعاً » ... يكتمل فيما بعد اذ يصبح شخص الأم »[٧٨] . ولكن الطفل باكتشافه ان أمـه « آخر » يكتشف بأن « أناه » متميز عن هـــذا الاخر . انـــه باكتشاف حدوده يكتشف اذاً « الأنا » و « الاخر » في حركة واحدة[٧٩] ، على انهما متقابلان . هذا هو الشرط الأساسي ليصبح الحب ممكناً[٨٠] : ان يكون هناك ذاتان في وضعين متميـزين ومتقابلين .

ولكن هذا الاكتشاف للآخر (وبالتالي للأنا) يتزايد مـع نمو الرضيع[٨١] . ففي بادىء الأمر لا ينظر هذا الاخير الى الأم الا من خلال حاجته فيراها بمجرد ثدي[٨٢] ، ولكن نمو اجهزتـه العصبية والحسية وما يرافق ذلك من نمو عقلي يجعله شيئاً فشيئاً

يرى فيها اكثر من مجرد ثدي يُرضعه ، انــه يرى فيها وجهاً (وهذا اساسي لأن الوجه ، كما رأينا ، مكان تجلي الشخص). لذا يبتسم حوالى الشهر الثالث ، كما بيّن الدكتور رينه شبيتز ، لكل وجه باسم او متحرك أمامه . ولكنه لا يميز لأول وهلة بين وجه ووجه ، بل يبتسم لكل الوجوه — اذا أبصرها ضمن شروط معينة — كأن كل وجــه يمكنه ان يقوم مقام وجه آخر . الا انه لا يقف عند هذا الحد ، بل يبدأ منذ بلوغــه منتصف السنة الاولى من حياته باكتشاف فرادة الأم[٨٣]، ويتبلور هذا الاكتشاف نحو الشهر الثامن فيما دعاه شبيتز « بجزع الثمانية أشهر » حيث يجزع الطفل اذا رأى غريباً أثناء غياب أمه ، مما يشكل دليلاً على تمييزه التام للأم عن الغريب ويُعتبر مرحلة حاسمة في طريق اكتشافه للآخر كشخص فريد[٨٤].

هذا الاكتشاف للآخر كآخر وتمييزه عن الأنا يجتاز شوطــاً الى الامام من خلال خبرة الفطام التي يعيشها الطفل ليس كحرمان من حليب الام وحسب (كما يتصور الراشدون في كثـــير من الاحيان) بل كحرمان من الام نفسها . لذا فالفطام مرحــلة دقيقة قد تجر نتائج وخيمة اذا لم تحرص الام على تتميمها بتفهم وتأنٍّ ، ولكنها بحد ذاتها مرحلة هامة من مراحل ذلك النضج الذي نحن بصدده . انها تشكل ، على صعيد نفسي ، شيئاً مما شكلته الولادة على صعيد عضوي ، أي انها تفصل ثانية الطفل عن أمه وبذلك تسمح له بأن يزداد وعياً لذاته ولأمه ككائنين متميزين[٨٥]. (هذا وسوف يلعب الدخول الى المدرسة دوراً مماثلاً للفطام فيما بعد)[٨٦] .

ثم ، بين الواحدة والثالثة من العمر ، يتقدم الطفل خطوات واسعة في هــذه الطريق . ففي أواخر العام الأول من عمره

يكتسب المقدرة على المشي ، وهذا حدث أساسي في حياته النفسية لانه يحوله من « شيء » ينقل من هنا الى هناك حسب مشيئة الراشدين الى كائن مستقل ، مقتدر ، يذهب الى حيث يشاء ويبدأ باكتشاف العالم الواسع[٨٧] . ويرافق ظهور المشي عند الولد نمو في جهازه العضلي يجعله قادراً على القيام بحركات متعددة تزداد مع الزمن دقة وقوة ، فيتوصل الى استخدام الاشياء باتقان وينقلها ويقذف بها ويحطمها ، اما هو فيعلو ويهبط ويركض ويقفز ويزحف ويقوم بحركات بهلوانية متنوعة . زد على ذلك اكتسابه النطق في تلك الآونة بالذات ، مما يعطيه قدرة جديدة من جهة اذ يمكنه من التعبير عن رغباته ، ومن جهة أخرى يساعده على التمييز بينه وبين الآخر اذ يفترض الكلام ازدواجية المتكلم والمخاطب[٨٨] . كل تلك المكاسب تُشعر الطفل بوجوده المستقل وتقيم بينه وبين الام مسافة[٨٩] تثير فيه شعوراً مزدوجاً، اذ يتجاذبه الفخر باستقلاله الجديد من جهة والجزع من ابتعاده عن الام من جهة أخرى . لذا كثيراً ما نراه في عامه الثاني يرتمي في أحضان الوالدة ويتعلق باهدابها وكأنه يخاف من هذا النموّ الذي يبعده عنها ويحنّ الى استعادة الاختلاط الاول الذي كان قائماً بينه وبينها قبل الفطام . الا ان هذه الطريق مسدودة لحسن الحظ أمامه ، ولذا يضطر الى السير قدماً في حركة التمييز بين الذات والآخر ، ذلك التمييز الذي لا يمكن بدونه للحب ان يقوم .

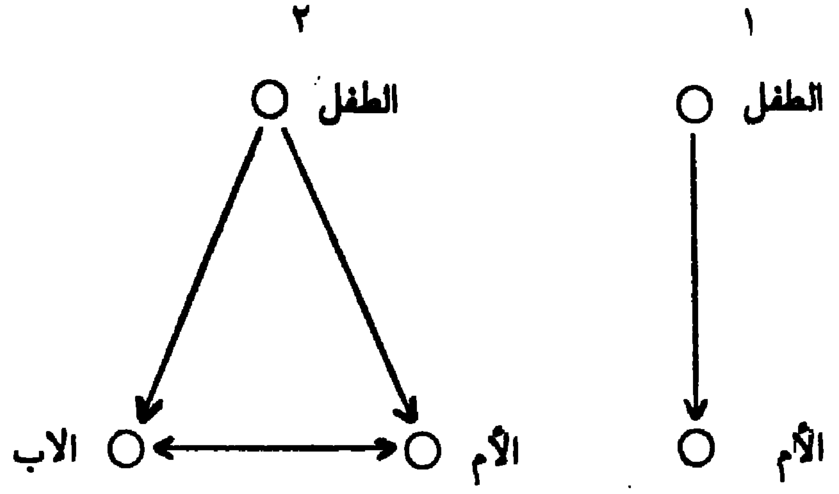
ويدفعه في هذه الطريق التقدمية الاصطدام الذي لا بد له ن يبرز ويشتد بينه وبين والدته في تلك المرحلة . من مظاهر هذا الاصطدام ان الولد اهوج في حركاته الناتجة عن حيوية فاضة ولكنها لا تزال فوضوية ، ولا بد للأم ، من أجل سلامة

الولد وراحـة البيت وترتيبه ، ان تتصدى من وقت الى آخر لهذه الحركة الدائمة وتضع لها حدوداً (هذا أمر لا بدّ منه ، شرط ان يتمّ هو أيضاً بتفهم وتأنٍّ) . كثيراً اذاً ما تجابـه الولد « بلا » قولاً او ايماءً ، والولد ، كما بيّن الدكتور شبيتز ، يتبنى هذه « اللا » ويرتد بها ضد الام في ذلك العام الثاني من العمر الذي دُعي « سن اللا » . ولكن هذا الصراع بين « لا » و « لا » ، اذا لم يصبح مأساوياً بسبب عدم نضوج الام ، مهمّ ليدفـع بالطفل في طريـــق اكتشاف الذات والآخر كـكائنين متميزين ، متقابلين . ويبلغ هذا الصراع ذروته نحو الثالثة من العمر ، فيما سمّاه الدكتور هنري ڤاللون « بأزمة السنة الثالثة »[٦٠] ، وهي مرحلة هامة في تجاوز الطفل للاحتلاطية الاولى بينه وبين عالمه (syncrétisme) ، اذ انه بمخالفته وعناده يؤكد ذاته تجاه المحيط العائلي ، مبلوراً هكذا وعيه لذاته وللآخرين بآن ، في اختباره الصراع بين ارادتهم وارادته .

وبين الثانية والخامسة من العمر ، يكتشف الطفل الفرق بين الجنسين[٦١] ، مما له أثر هام فيما نحن بصدده . ذلك ان ادراك الولد لوجود فئتين من البشر ، هما الذكور والأناث ، يحول بينه وبين نزعته الى ردّ كل شيء الى ذاته . انه يدرك وجـود من يختلف عنه وهذه مرحلة من مراحل اكتشافه الآخر والاعتراف بوجوده[٦٢] .

ومن جهة أخرى فنحو الثالثة من العمر يدخـل الطفل في المرحلة الاوديبية التي تلعب دوراً أساسياً في تجاوزه لمركزية الأنا نحو الاعتراف بالآخر . ان ما سبق هذه المرحـلة من انفصال وصراع بين الطفل والام كان لا بد له ، كما رأينا ، ان ينمي

تدريجياً شعور الطفل بأن أمه ليست مجرد امتداد له ، امتداد لأنا لا حدود له ، بل ان هذا الأنا محدود بوجود الآخر المستقل عن وجوده هو . ولكن هذا الوعي لا يكتمل الا اذا عاش الولد هذه الخبرة الانفعالية الحاسمة التي يتعمق بها الانفصال عن الام الذي بدأ بالولادة وتوسع بالفطام . تلك الخبرة هي الخبرة الاوديبية . يعيشها الصبي والبنت بشكل مختلف ولكن نتيجتها عند كليهما متشابهة فيما نحن بصدده . فلنتوقف عند وضع الصبي لانه أبسط . عندما يبلغ الصبي المرحلة الاوديبية ، فأنه في أعماق شعوره ، اللاواعي الى حد بعيد ، لا يزال يعتقد ان أمه هي امتداد له . هذا رغم تكذيب الواقع المتكرر لهذا الاعتقاد ، هذا التكذيب الذي سبق ورأينا بعض اشكاله ، يُضاف اليها ما يحدث كثيراً في السنين الثلاث الاولى من العمر ، من بروز منافس للطفل بشكل أخ وأخت يولدان بعده فينافسانه على حب الوالدة ويزعزان اعتقاده بأنه مركز الكون . رغم تكذيب الواقع هذا لا يزال يبدو لشعور الطفل العميق ، هذا الشعور الذي لم يزل أسير « مبدأ اللذة » ولم يخضع « لمبدأ الواقع » ، حسب تمييز فرويد ، انه يكفيه ان يشتهي الام ليمتلكها ويستأثر بها . ولكنه ، عند خوضه الصراع الاوديبي ، لا يلبث ان يرتطم بصخرة الواقع فيرتد خائباً . ليس لأن الام ترفض ان تستجيب لرغبة الطفل في امتلاكها وحسب ، بل لان عاملاً جديداً بالغ الأهمية يلعب دوره هنا ، وهو بروز الأب الذي كان الى حد ما محتجباً وراء الام ، في نظر الطفل ، الى ذلك الحين . أما الآن فالعلاقة لم تعد ثنائية ، بل مثلثة : هذا هو « المثلث الاوديبي » الشهير .



المرحلة السابقة للاوديب

« المثلث الاوديبي »

ذلك ان رغبة الولد في امتلاك الام تصطدم بوجـــود الأب الذي هو حسب تصور الطفل « مالكاً » للأم (لان الطفل لا يمكنه بعد في هذه الفترة ان يعي العلاقة بين الاشخاص الا على صورة الامتلاك)[٩٣] . هكذا يرى الطفل نفسه مضطراً ان يقيم الحساب لهذا الحاجز المنتصب بينه وبين امتلاك الام[٩٤]. انه يودّ ان يزيح من دربه هذا المنافس له على حب امه ، ولكنه بآن يحب هذا المنافس ويُعجب به ويرهبه . لذا تتجاذبه مشاعر متناقضة يشكل اجتماعها تلك « العقدة » التي هي « عقـــدة اوديب » . ويصبح الولد مسرحاً لصراع داخلي لا واع الى حد بعيد لانه يجري في اعماق الشعور (ولو انـــه يتجلى بكلمات وتصرفات معبّرة يلاحظها المرء بسهولة عند الاطفال) ولكنه حاسم بالنسبة لمستقبل النمو . في النهاية يتحقق الطفـل من أن الام لها مرجع غيره وهو الأب ، وانه لا يمكنه ان يستهين بهذا المرجع وأن يجعله كأنه غير موجود ، فيتخلى اذاً عـن رغبته

بامتلاك الام . ولكن ما يهمنا بنوع خاص فيما نحن بصدده ان اكتشاف الولد بأن للأم مرجعاً غيره يعني وعيه بأن للام شخصية قائمة بذاتها ، مستقلة عن هواه[95]. وهذا كسب عظيم يتوّج تلك المسيرة التي حاولنا تتبعها عند الطفل ، نحو اكتشاف الآخر كآخر[96].

ثالثا – انتقال من الاستيلاء الى العطاء[97]

هذا الاكتشاف التدريجي للآخر كذات مستقلة يرافقه تحول مما دعاه الدكتور بيشون Pichon الموقف الاستيلائي (Captatif) الى ما دعاه الموقف المعطائي (oblatif) . فالطفل بادىء ذي بدء لا يسعه الا ان يأخذ[98]. حياته الانفعالية مركّزة في البدء على الفم ، كما رأينا ، وكأنه بجملته فم يبتلع الاشياء ، يستهلكها ، يمتص حليب الام ودفئها وحنانها بآن ، في حركة متجهة من الخارج الى الداخل (centripète) لا تقابلها حركة معاكسة من الداخل الى الخارج (centrifuge)[99]. وفي المرحلة التالية المركّزة على الافراز (stade sadique anal) لا يزال موقف الاخذ مسيطراً ، ويتخذ عند ذاك شكل التملك ، شكل الرغبة في استعباد الامّ وأسرها والسيطرة عليها[100]. لذا نقول بالعامية عندما نشاهد طفلاً يتعلق باهداب امه قصد تقييدها اليه واحتكارها ، انه « يتسلط » عليها والكلمة هذه معبّرة عن نزعة التملك التي نحن بصددها[101]. ولكن حركة النمو تدفع الطفل الى ان يتجاوز تدريجياً موقف الأخذ هذا المعبّر عنه بالابتلاع اولاً ثم بالتملك . فأنه على قدر اكتشافه شخص الآخر كمتميز عنه يصبح قادراً على المبادلة ، يتمرس على العطاء . يبادل الام ابتسامتها اولاً ثم يتوصل في اواخر السنة الاولى من عمره الى مبادلتها تعابير الحنان

من قبل وغيرها[١٠٢]! وعندما يكتشف ، بين الواحدة والثالثة ، ان ارادة الأم متميزة عن ارادته ورغباتها عن رغباته ، يكتشف بالتالي ان لا بد له ان يضحي بشيء من رغباته ، في سبيل ارضاء الام والمحافظة على عطفها[١٠٣]! هكذا يتمرس على التضحية[١٠٤]! صحيح ان تضحيته غير خالصة بعد في هذه المرحلة لانها ناتجة الى حد بعيد عن خوفه من فقدان عطف الام ، ولكنها ، على ذلك ، بذار كل تضحية . هكذا نراه مثلاً يقبل رغم غيرته ان يشارك أمه حبها للمولود الجديد ، مرتضياً ان يحب هذا المنافس المكروه في الأساس ، انسجاماً مع حب الأم له . هذا الموقف عينه يتجلى في ذلك المجال الذي كثيراً ما يحتدم فيه الصراع بين الطفل ووالدته ، الا وهو مجال تربية النظافة أي تربية وظائف الافراز وجعلها خاضعة لأوقات وقواعد[١٠٥]. هنا تتعارض ارادة الام المربية مع رغبات الطفل الذي يود ان يتصرف بجسده كما يحلو له فيفرز كيفما يشاء وحين يشاء غير خاضع لقاعدة أخرى سوى لذته وارادته الناشئة . ألا انه يتوصل ، اذا سارت الأمور سيرها الطبيعي ، الى قبول النظام الذي تريده الام ان يخضع له ، وذلك من أجل الحفاظ على محبتها وعطفها ، « فيعطيها » افرازات جسده كأثمن شيء لديه في هذا العمر لانها « عمله » وامتداد لشخصه وموضوع اهتمام أمه[١٠٦] (ولم تصبح بعد بالنسبة اليه موضوع اشمئزاز كما هي الحال فيما بعد)[١٠٧]. ان من شاهد طفلاً او طفلة حوالى الثانية من عمرهما « يقدمان » للوالدة باعتزاز وفرح ما « صنعاه » في « الأرضية » يدرك قيمة هذه « التقدمة » بالنسبة لهما (تلك القيمة التي يحافظ عليها العقل الباطن حتى عند الراشدين اذ يجعل توازياً – يعبّر عنه مثلاً التفسير الشعبي للأحلام – بين افرازات

الجسد والفنى) ويعي كيف ان الطفل يبلـــغ هنا ، كما بيّن الدكتور ولفريد دام[108]، مرحلة هامة في الانتقال من الأخذ الى العطاء وفي التمرس على التضحية[109].

ولكن عندما يبلغ اكتشاف الآخر كآخر احدى ذرواته عند حلّ المشكلة الاودوبية ، حوالى السادسة من العمر ، عند ذاك تنمو ايضاً النزعة المعطائية نمواً ملموساً[110]. فالطفل الذي كان بوده ان يتملك والدته ، ان يستولي عليها ، يتخلى عن هذا الحلم ، انه يرتضي بأن لا تكون أمه « له » ويكتفي بأن يكون تعلقه بها تعلق رقة واخلاص وانعطاف[111]. هكذا يبدأ باكتساب الصفات التي سوف يتميـــز بها الحب الراشد (stade génital) الذي لا يقوم الا اذا اقترن الحنان بالشهوة وهـذبها ، وأصبح المحبوب « موضوع اعتبار » حسب تعبير فرويد ومهماً بحد ذاته[112].

هذا الاعتبار للآخر الذي بـــدأ الطفل يسمو اليه في حبّه نتيجة لنموه العاطفي في هذه المرحلة ، قـد يتجلى في نوع من العلاقات الغرامية الخالية من الشهوة يعيشها الصبية مع رفيقات من عمرهم في المرحلة اللاحقة ، الممتدة من السادسة الى المراهقة ، تلك المرحلة التي يزهر فيها ما دعـــاه الشاعر « فردوس الحب الطفولي الاخضر » («le vert paradis des amours enfantines»)[113]

ذلك انه بعد عواصف المرحلة الأودوبية ، تمتد فترة هادئة نسبياً يخمد فيها الى حد ما تأجج الغرائز . انها فترة الكـــون (période de latence) التي ينصرف فيها الولد الى بناء شخصيته والى الاستعداد لقفزة المراهقة . في هذه الفترة ينضج عقل الولد ، فيصبح قادراً على المنطق والموضوعية ، وكذلك تنمو وتتبلور حاسته الاجتماعية فيصبح قادراً على الاندماج في جماعـــات من اترابه ومشاركتها حياتها ونشاطها . هذان العاملان ، أي النضوج

العقلي ونمو الحاسة الاجتماعية يُضعفان في الولد مركزية الأنا وبذا يساعدانه على متابعة الخط الذي رأينا حياته الانفعاليـة تسلكه حتى الآن ، بانتظار المرحلة الثانية لنضوج الجنس التي سنتعرض لها الآن ، تلك المرحلة الممتدة بين أول المراهقة وبلوغ الرشد .

٢ - المرحلة الثانية

في هذه المرحلة التي يتكوّن فيها رجل او امـرأة الغد في طفل او طفلة الامس ، والتي دعاها روسّو لهذا السبب « ولادة جديدة » ، تلك الحقبة التي تبلغ فيها عملية النضج ، البادئـة مع الحياة ، مرحلتها الحاسمة[١١٤]، تتخذ النزعة الجنسية ايضـاً ، المستقيظة بتأثير النشاط الهورموني[١١٥]، وجهها النهائي ، وجههـا الراشد[١١٦](هذا على قدر مايصبح الانسان راشداً ، لأن الرشد حد مثالي يقترب منه اكثر او اقل ولكنه لا يُبلغ بالكلية) . ويتخذ هذا التطور الحاسم للنزعة الجنسية الاتجاهات الثلاثـة المتكاملة التي وصفناها في المرحلة الاولى[١١٧]: اي انه ، هنا ايضاً ، لكن على صعيد ارقى ، يسير من عشق الذات الى عشق الآخر، ومن مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخـر ، ومن الاستيلاء الى العطاء .

اولا - انتقال من عشق الذات الى عشق الآخر[١١٨]

ان نضوج الاعضاء التناسلية في هـذا العمر ، والافرازات الهورمونية التي تشيعها غددها في الجسم وتؤثر بهـا على الجهاز العصبي ، توقظ عند المراهق او المراهقة النزعة الجنسية التي كانت كما رأينا ، راقدة الى حد ما منذ تجاوز المرحلة الاوديبية . ألا

ان هناك تفاوتاً بين نضج الاعضاء التناسلية الذي سرعان ما يجعل من المراهق رجلاً ومن المراهقة امرأة على الصعيد البيولوجي وبين وضع النزعة الجنسية التي تبقى الى حد بعيد مرتبكة برواسب الطفولة[119]. فنضوج الاعضاء التناسلية سرعان ما يجعل المراهق قابلاً لاتصال جنسي بالغ بالاخر ، ولكن نزعته الجنسية متأخرة عن ركب نموه الجسدي اذ لا تزال الى حد ما عالقة بعشق الذات ، غير متجهة كلياً الى الاخر . لذا نرى المراهق يمارس بنسبة كبيرة ، حسب الاحصاءات[120]، العادة السرية او الاستمناء التي هي شكل من التلذذ الطفلي بالجسد الذاتي (auto - érotisme) رأينا الطفل يمارسه حوالى الثالثة من عمره[121]. اما المراهقات فيمارسن العادة السرية بمعناها المعروف بنسبة اقل[122] ولكنهنّ كثيراً ما يستعضن عنها بنوع من الاستمناء العاطفي[123]، وهو ذلك التمتع النرجسي بالاعجاب الذي تثيره مفاتنهنّ عند الجنس الاخر ، ذلك التلذذ بصورتهن كما يرينها منعكسة في انظار الآخرين او في المرآة[124]، ذلك اللهو بمشاعرهن الجديدة . انهن يعبثن بقلوبهن ، حسب تعبير دوكونشي ، كما يعبث المراهقون باجسادهم ، وفي كلتا الحالتين عشق طفلي للذات وتلذذ بها[125].

ولكن كل حركة نمو المراهق ، إن على الصعيد البيولوجي او على الصعيد النفسي ، تدفعه الى تجاوز هذا الوضع الطفلي في حياته الجنسية والى الاتجاه صوب الآخر[126]. صحيح ان المراهق نرجسي بنوع خاص[127]. انه بمعنى ما نرجسي اكثر من الطفل لأن الطفل لم يميز بعد أناه عن الخارج او لم يميزه كفاية ، اما المراهق فقد اكتشفه وتعشقه بوعي . لذا كان نرجس في الاسطورة مراهقاً[128]. ولكن المراهق ، من جهة ثانية ، يتألم من عزلته

ويود ان يخرج منها بلقاء الآخر ، ذلك الآخر الذي أصبح مؤهلاً لاكتشافه كشخص كما اكتشف ذاته[١٢٩]. الا انه في حركته هذه يبدو وكأنه لا يجسر ان ينتقل فجأة من ذاته الى هذا الآخر. واذا به يسعى الى موضوع انتقالي يكون بمثابة صلة بينه وبين الجنس الآخر[١٣٠]. انه ، كما يقول العالم النفسي الكبير اوسفالد شوارز في كتابه « سيكولوجية الجنس » ، شبيه بانسان لم يجسر على اجتياز نهر عريض بالقفز من ضفة الى أخرى ، فألقى حجراً في وسط النهر كي يعبر بواسطته الى الضفة المقابلة[١٣١]. هذا الموضوع الانتقالي هو كائن من الجنس نفسه ، ذلك الكائن الذي هو آخر بالنسبة للمراهق (لانه شخص آخر) ولكنه شبيه به (لانه من جنسه) . وكأن المراهق يشاهد فيه صورته ، فيتعشق فيه هذه الصورة ويوفّر على نفسه مشقة ومجازفة تجاوز ذاته بالكلية باتجاه آخر يكون آخراً جذرياً[١٣٢]. لذا ينتشر في المراهقة الميل الى الجنس نفسه ، الذي لا يتخذ الا نادراً شكل الاتصال الجنسي الفعلي ولكنه في معظم الاحيان ، وخاصة عند المراهقات ، عبارة عن مجرد علاقات عاطفية تتخذ شكل العشق ، وقد تعبر تلك العلاقات عن ذاتها ، خاصة عند المراهقين ، بمظاهر جسدية[١٣٣].

ولكن هذا الوضع محكوم عليه ، بداعي طبيعته الانتقالية ، ان لا يستمر ، هذا اذا سارت الامور في مجراها الطبيعي[١٣٤]، فلا يلبث ان يزول ليفسح المجال امام الانجذاب نحو الجنس الاخر والرغبة في الاتصال به . وبالطبع تلعب ظروف الحياة دوراً كبيراً في هذا التطور ، فتحدد الى حد بعيد سرعة ومقدار تجاوز المراهق لهذه المرحلة الانتقالية . فاذا لم يُتح للمراهق او للمراهقة سوى معاشرة أفراد جنسه ، كما يجري مثلاً في بعض

المدارس الداخلية التي يكون فيها اتصال الطلاب او الطالبات بالخارج شبه معدوم ، او في بعض المجتمعات التي تحتم تقاليدها الفصل القطعي بين الجنسين ، يصعب على المراهق تجاوز مرحلة الجنس المثلي وتؤكّد فيه النزعة الجنسية المثلية الى حد انها قد تترك فيه رواسب قوية مدى الحياة او قد تدفعه الى الشذوذ الجنسي[١٣٥]. هنا تبدو أهمية الاختلاط بين الجنسين – شرط ان يكون هذا الاختلاط واعياً – لمساعدة المراهق على السير قدماً في نموه العاطفي متجاوزاً الجنس الذاتي الطفلي (auto-érotisme) ، والجنس المثلي الذي هو امتداد للاول لانه لا يتجه الى الاخر الا من حيث انه صورة للذات (allo-érotisme homosexuel) ، ليبلغ الميل الناضج الى الجنس الاخر (allo-érotisme hétérosexuel)[١٣٦]. ومما يجدر ملاحظته ان هذا الاختلاط لا يساعد المراهق او المراهقة على اكتشاف الجنس الآخر وحسب ، بل وبالحركة نفسها ، على اكتشاف الآخر كآخر[١٣٧]، هذا الاكتشاف الاساسي لاكتمال الشخصية الانسانية بخروجها من قوقعتها ، وبالتالي لاكتمال الحب الذي لا يقوم الا اذا تجاوز المرء ذاته الى آخر . يقول جان كلود بارّو بهذا الصدد في مذكراته : « بالنسبة للرجل ، المرأة هي « الآخر » ، « المختلف » ؛ اما رفاقه من جنسه ،... فليسوا سوى « امثاله » ويضيف : « رغم نزوات المراهقة ، فقد ساعدتني الفتيات ، اذ كشفن ذواتهن لي كأشخاص ، على ادراك حقيقة وجود اشخاص غيري في الكون »[١٣٨].

هذا ما يقودنا الى المظهر الثاني من مظاهر نمو الجنس في المراهقة ، ألا وهو لانتقال من مركزية الأنا الى الاعتراف بالآخر .

ثانياً ـ انتقال من مركزية الانا الى الاعتراف بالآخر[١٣٩]

ان اكتشاف المراهق للجنس وانجذابه اليه لا يعني بحد ذاته انه اصبح قادراً على اقامة علاقــة حقيقية صحيحة بين شخصه وشخص الآخر . فامام هذه العلاقة تنتصب عقبة مركزية الأنا، تلك المركزية التي ورثها المراهق عن الطفل ولكنها اتخذت عنده شكلا اكثر حدة . فالطفل يعيش أناه دون ان يعيه او دون ان يعيه تماماً ، اما المراهق فقد اكتشف أناه وُشغف بـــه . ولكنه ، بقدر وعيه لأناه المتميز ، وعـــى عزلته ، كما سبق واشرنا ، وبالتالي شعر بحاجة الى الخروج منها بلقاء الآخـــر . ومن جهة اخرى ، فأن وعيه لفرادته جعله اكثر قابلية لاكتشاف فرادة الآخرين[١٤٠]. من هنا ينشأ صراع بين النرجسية المنغلقة التي لا تقيم وزناً للآخر كآخر بل تراه غذاءً لهــا ليس الا ، وبين الاعتراف بالآخر كشخص فريد ، مهم بحد ذاته . هذا الصراع يتخذ النزعة الجنسية مسرحاً خاصاً له ويؤول في احسن الاحوال الى انتصار الاعتراف بالآخر ، في العلاقة الجنسية ، كشريك فريد[١٤١].

فلأول وهلة ينزع المراهق الى الاتصال بالجنس الآخر مـــن حيث هو ، دون اقامة وزن للاشخاص . لذا « ينقـّـل فؤاده حيث شاء من الهوى » ، غير مكترث سوى للذته سيّان ان جناها هنا او هناك ، كما ان الفراشة تنتقل من زهرة الى زهرة لا يهمها من كل زهرة سوى رحيقها . هكذا ينتقل المراهق في حبه من هذه الى تلك من الفتيات ، لا يهمه في كل منهن سوى تلك الانوثة التي تثير فضوله وتوقظ نشوته[١٤٢] في سلوك المغــازلة

(flirt) هذا ، في تلك العلاقات الغرامية العابرة ، لا يُعتبر الاخر الا كوسيلة لقضاء حاجة وبلوغ اللذة واثارة المشاعر[143]. يقول دوكونشي : « ما يطلب من الاخر ، اياً كان ، هو ان يكون وسيلة لقلب وجسد يسعيان الى الاثارة ، الآخر يستخدم من اجل الاثارة » . ويقول اوريزون « ان الآخر يعاش (في منظار كهذا) كوسيلة لتهدئة توتر او اشباع رغبة » . الاخر ، في هذا المنظار ، يُعتبر الى حد بعيد شيئاً يُستهلك ، هذا ما يُعبّر عنه في كثير من التعابير الشائعة التي يذكر دوكونشي بعضاً منها ، مثلاً : « لقد فقدت واحدة ، لكنني ساستعيض عنها بعشرة غيرها »[144] . هكذا فان هذا السلوك ، وان اتجه الى الآخر ، لا يستهدفه من اجل نفسه ، يقول دوكونشي : « الآخر يُستهدَف ولكنه لم يُستهدف بعد من حيث انه آخر ولأنه الآخر » . لذا فمغازلة المراهقين تعتبر بحق ، كما يقول دوكونشي واوريزون ، سلوكاً ذا طابع استمنائي الى حد ما ، لأنها سعي الى لذة انعزالية وسعي يحتجب فيه الآخر كآخر وبالتالي لا يمكنه ان يؤول الى مشاركة حقة . انه بالتالي سلوك غير ناضج ، ذا طابع طفلي .

ان المراهق الذي ينصرف بافراط الى سلوك كهذا يتعرض لخطر التوقف عنده[145] وتخليد مرحلة هي بطبيعتها مرحلة انتقالية ليس الا ، تدفع حركة النمو الى تجاوزها . فالمراهق يشعر في قرارة نفسه بالفراغ الذي تحمله تلك العلاقات العابرة السطحية التي تستهويه[146] ، لذا ينزع الى علاقات اكثر اصالة وعمقاً . هاجس الآخر من حيث هو آخر يزداد تدريجياً عنده ، كما بيّن اوريزون ، وبالتالي يخفّ تدريجياً ذلك الطابع الاستمنائي الذي تتسم به مغامراته ، فيما يشتد سعيه الى لقاء حقيقي بالآخر .

اما تتويج حركة النضج هـذه فهو ظهور الحب لشخص واحد ، معين ، من الجنس الاخر ، شخص يبدو ليس مجرد ممثل لهذا الجنس وحامل لصفاته بل كشخص كامل وفريـد ، يتسم بطابع جنسه ولكنه يتجاوز وظيفته الجنسية . عند ذاك « يتخذ الجنس ، كما يقول اوريزون ، معناه كتعبير عن علاقة عميقة مـن شخص لشخص ولا يعود يظهر ، الا بشكل ضعيف ، بالاستقلال عن هذه العلاقة » . « هذا هو ، يقول دوكونشي حب الاخر ومن اجل الاخر ... الجنس يصبح مكاناً ممتازاً لهذا العطاء وهذه المقدرة على التقبل اللذين هما ملازمان للمعطائية التي تتميز بها الشخصية الراشدة » . يتوصل المراهـق في احسن الاحوال ، الى تلك المرحلة الناضجة التي يعده لها نموه العاطفي ، يساعده في تطوره هذا تمرسه على الانفتاح الى الاخرين عامة ، على الانتباه اليهم وتبني حاجاتهم ومشاكلهم ، كما بيّن ميشال كواست في كتاب تعرض فيه بشكل واقعي لنمو المراهـق ومشاكله بصورة يوميات مراهق وهمي سماه « داني »[١٤٧]. وقد بين مارك اوريزون انه غالباً ، على ما يبدو ، يستعجل تطور المراهق نحو الحب الناضج لقاؤه بشخص من الجنس الاخر تتبلور حوله مشاعره[١٤٨].

ثالثاً – انتقال من الاستيلاء الى العطاء

هذا التركيز المتزايد على شخص الآخر لا بدّ وان يرافقه تحول تدريجي من موقف الاستيلاء الى موقف العطاء . فبقـدر ما يبدو الآخر مهماً بحد ذاته ، بقدر ذلك يصبح هاجس المرء لا ان يأخذ منه وحسب بل ان يمنحه من جهته ما استطاع ،

ان يوفّر له السعادة والرضا . هذا هو موقف المراهق اذا بلغ مرحلة التعلق بشخص من الجنس الآخر من اجل نفسه . انه يسعى لارضائه بشتى الوسائل وفي هذا السبيل يتعلم ، كما يقول هادفيلد ، التهذيب والاناقة والذوق ويسعى الى تثقيف نفسه[149]. انه يبدي تجاهه شتى معاني الصداقة من اخلاص وحنان وحماية[150].

كثيراً ما يصطدم موقف الحب المعطائي هذا عند المراهقين بنزعة جنسية لا تزال الاستيلائية مسيطرة عليها ، مما يؤول الى فصم مؤقت بين الحب والشهوة[151]. هذا ما نرى نموذجاً عنه في نص لبيار سورا وهو مربٍّ فرنسي شاء ان ينقذ المراهقين الجانحين فعاش معهم وفيما بينهم وروى لنا خبرته الخطرة والمثيرة هذه في كتاب عنوانه « لما هذا الغضب كله ؟ » . يحدثنا الكاتب عن الاتصالات الجنسية بين هؤلاء المراهقين الذين عايشهم ، وعن السطحية التي تجعل منها احتكاكات لا لذة حقيقية فيها لانها لا تحمل أي اتصال شخصي[152]. هؤلاء لا يعرفون الحب لان احداً لم يحبهم[153]، ولذا فاتصالاتهم الجنسية مجرد تخدير لشعورهم بالعزلة يلجأون اليه اذا اصبح السأم لا يُطاق . ولكن ها أن احدهم ، ماركو ، وقد كان مشهوراً بمغامراته الغرامية ، « اهتدى » الى الحب أثر لقائه بفتاة من نوع لم يعهده : « لقد حاول ماركو ان يغازلها ، ولكنه أدرك ، لأول مرة في حياته ، ان هناك فتيات يستطعن التفكير بغير اللذة دون ان يفقدن شيئاً من أنوثتهن ولطفهنّ ، بل بالعكس . ان بول تجذبه اليها . لا شك انه يكتشف الحب .

« لقد اقر أمامي : « انها هائلة ، هذه الفتاة . انها المرة الأولى التي أرى فيها واحدة مثلها . أمر غريب ، لا أرغب في

تقبيلها . ان أكون معها ، هذا يكفيني » .

« ميركا ونينيت وكثيرات غيرهن أصبحن بعيدات جداً عن فكره الان . لقد فاجئته أكثر من ليلة وحده ، وكان يبدو سعيداً بذلك »[١٥٤].

الا ان اكتمال النضج لا يتم الا اذا تجاوز المراهق هذه المرحلة التي تشوبها رومنطيقية تنظر الى الآخر لا حسب واقعه بل كما يصوره الخيال . في آخر المطاف يجب ان تندمج الشهوة بالحنان ، الرغبة بالصداقة . يقول فرويد بهذا الصدد : « ان ما يؤمّن للحياة الجنسية صفتها الطبيعية هــو اجتماع ... تيارين : تيار الحنان وتيار الشهوة »[١٥٥]. هكذا يكتمل الجنس بتصعيده في الحب ، كما يتحقق الحب بتجسده في الجنس .

مجمل الكلام ان المراهق ، بعد ان يتجه نحو الانوثة بشكل عام ، منقـّلاً هواه من فتاة الى أخرى ، سعياً وراء الاحاسيس المثيرة ، « عاشقاً العشق » ، حسب تعبير اوغسطينوس المغبوط في « اعترافاته »[١٥٦]، يستطيع ، اذا بلغ النضج الكافي ، ان يتوقف عند فتاة معينة تصبح بالنسبة اليه كائناً فريداً يستقطب قلبه وغريزته بآن ، فيتآلف في حبه لها الشهوة والحنان ، الرغبة في الأخـــذ والرغبة في العطاء ، ويحسّ ان اسعادها ضروري لسعادته وان مصيرها مهم كمصيره[١٥٧]. هكذا يبلغ الجنس بالحب حقبته الراشدة[١٥٨].

جـ - الـزواج والحبّ

هذا الحب الراشد الذي بـه يتحقق مرمى الجنس الاتحادي وتتوج به حركة النمو ، يجد مكانه الطبيعي وتعبيره الكامل في مؤسسة اجتماعية تنسجم مع طبيعته ومتطلباته . تلك المؤسسة هي الزواج . يجدر بنا ان نتوقف الآن عنـدها لنبحث بها لا من حيث هي مؤسسة لها نواميسها الخاصة بل من جهة ارتباطها بذلك الحب الذي به يبلغ الجنس غايته الانسانية . من هذا المنظار يمكننا ان نقول ان الزواج هو اطار الحب مضيفين بان هذا الاطار لا يمكن بحال من الاحوال ان يغني عن المضمون[١٥٩].

١ – الزواج اطار الحب

الزواج إطار الحب لانه وعد يُكرّس امام الملأ صفات الحب الاساسية ، ولأنه مكان نمو الحب وتعميقه ، اخيراً لأنه مـكان خصب الحب[١٦٠] .

اولا – الزواج وعد يكرس امام الملأ صفات الحب الاساسية

قلنا ان الحب الاصيل هو اكتشاف للآخر في فرادته وتعهده في بعده الزمني . قلنا ايضاً ان هاتين الصفتين تحتاجان ، لـكي تثبتا ، التزاماً كلياً من الشخص تجاه الشخص الآخر ، التزاماً تتناغم فيه الارادة والشعور ، وان هذا الالتزام يتم بوعـــد .

ولكن الزواج هو ، في جوهره ، ذلك الوعد الذي يكرّس صفات الحب الكامل . انه وعد بأن يكون الحب واحداً ، هذا ما يقتضيه اكتشاف الاخر كشخص فريد ، وبان يكون رباط الحب غير منفصم ، هذا ما يتطلبه تعهد الآخر في بعده الزمني[161] بدون هذا الوعد لا يمكن لالتزام المحب تجاه محبوبه ان يكون كاملاً ، وبالتالي لا يمكن لاتجاه الشخص نحو الشخص الآخر ان يبلغ منتهى الاصالة ، وبعبارة اخرى لا يمكن للحب ان يكتمل ويحقق جوهره العميق . الحب دون وعد لا يزال عرضة لتقلبات الهوى ، بالوعد فقط يتجاوز الهوى ليصبح حباً بكل ما في الكلمة من معنى : « ان وعد الامانة ، في الزواج ، يحوّل الهوى الى حب »[162].

وعد الزواج علني ، احتفالي ، يتلفظ المحبان به امام ممثلي المجتمع (المجتمع المدني او الجماعة الدينية او كليهما) وبحضور شهود . ذلك لأن الانسان بطبيعته كائن اجتماعي ، ولذا لا يتخذ وعده ملء قوته ورسوخه الا اذا أعلن امام الجماعة . بوعد كهذا تكتمل في الجنس الصفة الاجتماعية التي يتميز بها عند الانسان ، اذ يرتبط المرء صميمياً بآخر ، امام الآخرين ، طالباً من الجماعة البشرية ان تشهد على هذا الارتباط وان تعترف به[163].

ثانياً – الزواج مكان نمو الحب وتعميقه

هناك اعتقاد شائع الا وهو ان الزواج عدوّ الحب اللدود ، انه قتّال للحبّ . هذا يصح بالنسبة لبعض مفاهيم الزواج كما سوف نوضح فيما بعد . الا انه مردود اذا فهمنا الرباط الزوجي في اصالته[164]. فالزواج ، في هذا المنظار ، ليس مكرساً لصفات الحب الاساسية وحسب ، كما راينا ، بل انه مكان نمو الحب وتعميقه .

ذلك انه المكان الذي يُكتشف الآخر فيه على حقيقته وبالتالي يُحبّ من أجل نفسه[١٦٥]. فالحب قبل الزواج مشوب دوماً ، الى حد ما ، بالخيال . كل المحبين يتعشق صورة يرسمها في ذاته عن الآخر ، صورة تنبع الى حد ما من خياله وتتبلور فيها ، كما بيّن ستاندال في كتابه الشهير عن الحب ، رغباته واحلامه . نه ، الى حد ما ، واياً كان اخلاصه ، يحب في الآخر صور هواه ، انعكاس رغبته[١٦٦]. ولكن الزوجين يعيشان جنباً الى جنب مدى العمر ، لذا لا بد للصورة التي نسجها خيال كل منهما عن الآخر ان تصطدم عاجلاً او آجلاً بحقيقة هذا الآخر ، لا بدّ لكل منهما ان يدرك ان الآخر ليس ذلك الكائن الشبه الهي الذي « يملأ القلب » ويسكب لمحبه سعادة لا تُحدّ ، انما هو كائن بشري محدود ومصدر خيبة لمن كان ينتظر منه أكثر مما بوسعه ان يعطي . تلك الخيبة لا بد لها من أجل تنقية الحبّ من عنصر الهوى . ذلك ان الهوى لا يحب الآخر على حقيقته ، انما يتعشق فيه « حلم خيال » يثير نشوته[١٦٧]. الهوى مركّز على هذه النشوة وليس على الآخر ، انه نرجسي بطبيعته . لذا لا يحب الآخر الا عن بعد ، لان هذا البعد يفسح المجال لفعل الخيال . هذا ما عبّرت عنه أسطورة الاميرة البعيدة . أما الزواج فهو المكان الذي يُحبّ فيه « القريب » ، ذلك القريب الذي بدا معرّى من ذلك الجلباب الساطع الذي كساه به سراب الخيال . هو المكان الذي يُضطر المرء فيه ان ينقي حبه لكي يدوم ، فيحبّ الآخر من أجل نفسه لا من أجل الاحلام التي جلببه بها[١٦٨]. هكذا ينمو الحبّ ويتعمق من خلال امتحان الحياة المشتركة في الزواج وتأزمها . هذا ما بيّنه ببلاغة وعمق الفيلسوف الشخصاني المعاصر دنيس دي روجون في كتابه الشهير :

« الحب والغرب » ، يقول : « تلك هي الامانة : هي قبول نهائي لكائن بحد ذاته ، محدود وواقعي ، يختاره المرء لا كذريعة لنشوته او موضوع لتأمله ، بل كوجود فريـــد ومستقل الى جانبه ... »[١٦٩] وأيضاً : « ان يختار المرء امرأة ليجعـل منها زوجته ، هو ان يقول للآنسة فلانة : « أريد ان أعيش معك كما أنت »[١٧٠].

هذا يعني ان الزواج يجابه كلاً من المحبين بنقائص الآخر . تلك النقائص ، التي لا يخلو منها كائن بشري ، كانت غائبة عن أنظار الحب في عهد الهوى ، او ، في حال ظهورها ، كانت تبدو لطيفة ، محببة . فالهوى ، كما هو معلوم ، يحوّل العيوب نفسها الى كمالات كما بيّن موليير في مشهد شهير من مسرحية له[١٧١]. ولكن الحياة المشتركة في الزواج تسلّط الاضـــواء على تلك النقائص ، لا بل تضخّمها بالاحتكاك المستمر[١٧٢]. عند ذاك يمرّ المحبّان بتجربة قد تكون قاسية : فأمـا رفض الآخر بسبب عيوبه ، مما يؤول الى خمـود الحب وحتى الى فصم الزواج[١٧٣]، وأما ان « يقبل أحدهما الآخر بحرارة وتفهم »[١٧٤] على عـــلاته[١٧٥] (هذا لا يعني بالطبع الموافقة على هذه العلات)[١٧٦]، ممـا يدفع بالحب الى الامام اذ يجعله أكثر تجرداً . هنا ايضاً نرى ان الحياة المشتركة في الزواج هي بمثابة تحدٍ للحب : فأما ان يخمد او يموت واما ان يتقدم وينمو[١٧٧].

من جهة أخرى الحياة الزوجية محك للحب ومدعاة لنموه لانها دعوة دائمة الى تحقيق وحدة حقّة بين المحبّين . ذلك ان لكل من هذين ، قبل ان يتعايشا ، أناه الذاتي المستقل . صحيح ان كلاً من الذاتين كان متجهاً الى الاخر ، تائقاً اليه ، الا انه كان يملك خطّ رجعة يستطيع ان ينطوي اليـه اذا شاء . الا

ان الحياة المشتركة تقطع الطريق أمام خط الرجعة هذا[178]، وتدفع الذاتين الى الاندماج في ذات جديـــدة تجمعهما كليهما متجاوزة فردية كل منهما . هذا الأنا وذاك يجب ان يلتقيا في « النحن » الزوجي[179]. هذا لا يعني بالطبع ان تزول الفوارق بين الزوجين ، ان يبطل كل تمييز بينهما[180]. ان حلاً كهذا – على افتراض انــه ممكن – يعني بالعكس موت الحب ، لان الحب لا يقوم الا على اتحاد شخصين متميزين[181]، اذ ان هذا التمييز وحــده يبقي على حركة العطاء المتبادل . لذا يقول جــان لاكروا : « ان حباً يريد نفسه خالياً من صراع ليس سوى حب للذات متنكراً »[182]. ان الابحاث الحديثة في الحياة الزوجية تشدد على الدور الايجابي الذي تلعبه ليس فقط الفوارق بين الزوجين لا بل التوتر بينهما أيضاً ، شرط ان يتجاوز المحبان هــذا التوتر باستمرار دون الغائه[183]. فالخلافات نفسها التي تعكر الى حد مــا صفو اتفاق الزوجين قد تعبّر عن سعي عميق الى تكامل يغتني به كل منهما بتجاوزه لذاته وقبوله اختلاف الآخر عنه[184]. هذا يعني ان الوحدة الزوجية ليست وحدة جامدة ، انما هي وحدة متحركة ديناميكية ، يتحقق فيها الحب في صيرورة دائمــة يتجاوز بها باستمرار مواقفه السابقة فينمو في الاصالة والعمق[185].

ثالثاً – الزواج مكان خصب الحبّ

اخيراً الزواج هو مكان خصب الحب ، المكان الذي يرتضي فيه المحبان ان يتجسد حبهما في كائن جديد هو ثمـــرة لقائهما العميق المعبّر عنه باتصال جسديهما . هذا يعني ان الانجاب الذرية الذي هو هدف الجنس الحيواني الوحيد ، لا يأتي ، رغم اهميته،

بالنسبة للجنس الانساني ، الا في المرتبة الثانية . غاية الزواج الأساسية انما هي تحقيق الحب[١٨٦]، اما الطفل فهو ثمرة هذا التحقيق ، امتداد وانعكاس للملء الزوجي[١٨٧]. على كل اذا كان انجاب الطفل لا يعني دفعه الى الوجود وحسب بل تأمين الشروط التي توفّر له امكانية تحقيق انسانيته الى ابعد حد ، فمن الثابت الآن ، على ضوء علم النفس الحديث ، ان حب الوالدين احدهما للآخر يؤمّن وحده لولدهما المناخ الصالح لمثل هذا النمو[١٨٨]!

هذا لا يعني بالطبع اننا نقلل من اهمية الولد بالنسبة لمصير الحب نفسه[١٨٩]. فالولد يجسد الحب الزوجي كما قلنا وبذلك يشكل رابطاً جديداً يجمع بين الزوجين[١٩٠]: هذا ما عبّرت عنه تلك المرأة الشابة بقولها للرجل الذي تهواه دون ان يكون لها امل بالزواج منه : « انني لا اريد ولداً منك ، بل ولداً معك[١٩١]» . ومن جهة اخرى ينقذ الولد الحب الزوجي من خطر الانطوائية التي هي ، في النهاية ، عدوة لدودة للحب ، لانها تحول الزواج الى قوقعة يَنشد فيها كل من الزوجين رفاهيته ويتوصل تدريجياً الى اعتبار الآخر مجرد مصدر لهذه الرفاهية . الحب الزوجي لا يحتفظ باصالته الا اذا تجاوز نفسه بحركة مستمرة ينفتح بها الزوجان الى ما هو خارج عنهما وبالتالي يحافظان على حقيقة اللقاء بينهما[١٩٢]. لقد قال سان اكسوبري بحق ان الحب يقتضي ان يتطلع المحبان معاً في اتجاه واحد[١٩٣]. هذا التجاوز الذي يحفظ للحب الزوجي اصالته يتم خاصة باتجاه الاولاد ، ولكنه لا ينحصر عند هذا الحد ، لان الزوجين يستمدان من حبهما زخماً يتجهان به صوب الناس[١٩٤] متعهدين آمالهم وآلامهم ، مجاهدين معهم في سبيل مجتمع اكثر انسانية وغد افضل[١٩٥]!

٢ – الاطار الزوجي لا يُغني عن المضمون

ولكن الزواج لا يحافظ على اصالته الا اذا بقي اطـــاراً لحب وتعبيراً عنه . اما اذا غابت عنه هذه المعاني ، فأنـــه يتنكر لجوهره وينقلب على نفسه . قلنا ان المؤسسة الزوجية اطار الحب ، ولكن الاطار لا يستمد قيمته الا من المضمون ، ولا دور له سوى ابراز هذا المضمون والمحافظة عليه . اما اذا وفقد المضمون ، فالاطار يصبح فارغاً ويفقد مبرر وجــوده . هكذا فاعتبار المؤسسة الزوجية غاية بحد ذاتها ، بالاستقلال عن العلاقة الشخصية الصميمية التي تعطي وحدها للمؤسسة معناهـــا العميق ، من شأنه ان يودي بالحب وان يشوه الزواج نفسه . هذا ما هو حاصل لسؤ الحظ في كثير من الاحوال ، مما يفسر الى حد بعيد الموقف السلبي الذي يتخذه الكثيرون من المؤسسة الزوجية من جهة وحالات التفسخ الزوجي الشائعة من جهة اخرى سواء تجلى هـــذا التفسخ بنسبة الطلاق والانفصال المرتفعة التي تثبتها الاحصاءات[١٩٦]، او بتلك الحالات الاكثر انتشاراً الـتي يحتجب فيها التباعد الوجداني بين الزوجين وراء واجهة من الحياة المشتركة والتعاون[١٩٧].

كيف يتم هذا الفصم بين الاطار والمضمون ؟[١٩٨] انه قد يحدث في منطلق الحياة الزوجية[١٩٩]. تلك هي حال الزيجات المبنية على اسس مزيفة[٢٠٠]، كتلك التي تلعب الدور الاساسي في عقدهـا الاعتبارات العائلية او المصالح المادية وتلك التي تبنى على الشهوة وحدها . ويجدر بنا هنا ان ننوّه ان من يقدم على الزواج مدفوعاً خاصة برغبته في التنفيس عن حاجة جنسية غـريزية ،

لاعتباره ان الزواج هو الطريق الوحيدة لاشباع تلك الغريزة كون السبل الاخرى مسدودة بداعي العرف والتقاليد ، قلت ان من يقدم على الزواج بمثل هذا المنظار قد فصل منذ الاساس بين الزواج وما يعطي الزواج معناه الاصيل الا وهو اللقاء الصميمي الحرّ بين شخصين[201].

ولكن فلنذهب الى ابعد من هذا ولنفترض ان الزواج بُني في الاساس على حب اصيل . ان هذا الاساس الصحيح لا يجنبه بالضرورة خطر الانحراف . ذلك ان الانسان مهدد دوماً ، كما بيّن مونييه ، بالضياع في تلك الاشكال والمؤسسات التي يحتاج اليها ليسكب مواقفه ويعبّر عنها ، فيصبح أسير بُنى أفرغت من معناها وقوالب جامدة هجرتها الحياة .

فقد كان الحبان قبل الزواج يجتهدان دوماً لكي يرضي احدهما الآخر ، فيعبّر هكذا عن حبه له ويستميله اليه بآن . لقد كانت تعابير الحب المستمرة المتبادلة تغذي العلاقة الوجدانية العميقة القائمة بينهما . اما بعد الزواج فكثيراً ما يرتاح أحدهما أو كلاهما الى المؤسسة الزوجية ، الى الرباط الاجتماعي الذي يشدهما الآن ، فلا يرى لزوماً لمتابعة تلك الحركة التي كان يتجه بها باستمرار الى الآخر[202]. يعتبر أحد الزوجين او كلاهما ان الزواج وضع نقطة الختام لتلك الحركة ، التي هي جوهر الحب ، وانه لم يبق للمحبين سوى ان يستريحا مطمئنين في ظل المؤسسة التي أحاطت حبهما بسور منيع . وبعبارة أخرى يعتقدان ان الرباط الاجتماعي الخارجي الذي اصبح الآن قائماً بينهما كفيل بحد ذاته ان يبقي على الوحدة بين شخصيهما[203].

هذا بالطبع خطأ فادح[204]، لان الأمانة الزوجية الحقة لا يمكن ان تكون نتيجة عقد اجتماعي وحسب[205]. لا يمكن لهذا العقد ان يحمي وعد المحبين الا اذا اقترن بفعل مستمر من كليهما ، فعل يحافظان به على الحب وينميانه[206]. يقول فرنسوا دويكارتس ان وعد الأمانة العلني يشكل « دخولاً احتفالياً في الحياة المشتركة ، ولكنه لا يشكل ضمانة عصماء »[207]. ويضيف انه ينبغي تحويل الرباط الاحتفالي الى رباط نفسي[208]. ان العلاقات الجنسية بين الزوجين حرية بأن تساهم في تكوين هذا الرباط[209]، شرط ان لا تتم بشكل آلي يجردها من دورها التعبيري ويفقدها بالتالي طعمها تدريجياً[210]. يبين اندره الستانس في كتابه « الحوار والجنس » ان الاتصال الجنسي هو المكان الذي يجد فيه الحب الزوجي حقيقته وغذاءه بآن ، ولكنه يضيف بأن ذلك اللقاء الجنسي بين الزوجين « انما هو ثمرة علاقتهما كلها قبل ان يصبح غذاءها الجديد » ، وان الانسجام الجنسي ، وهو ثمرة علاقة اصيلة ، يتحقق من خلال مسيرة بطيئة تتطلب النفس الطويل[211]. بهذا المعنى أيضاً يحذر الدكتور لومير من تلك التفاهة التي قد تتسرب الى العلاقات الجنسية الزوجية ، فتزيل عنها طابعها الحواري ، تفقدها معنى التبادل والمشاركة وتحولها الى عملية روتينية لا هدف لها وبالتالي لا جاذبية[212]. عند ذاك يقول فرنسوا دويكارتس، يتضاءل الاتحاد الزوجي شيئاً فشيئاً . فأما يؤول الى الانفصال ، او يتحول الى مجرد واجهة ومظاهر . وقد يحاول الزوجان الابقاء عليه بفعل مجهود الارادة وحسب ، عند ذاك يتحول الزواج الى قيد لغياب غنى الحياة العاطفية عنه ويصبح العالم الخارجي ، الذي لا بد من الاطلال عليه ، مصدراً لتجارب دائمة . اما اذا سهر الزوجان على تغذية العلاقة الوجدانية التي

تجمع بينهما[٢١٣]، اذا حرصا على جعل اتصالهما الجنسي وسيلة للقاء حقيقي ، عند ذاك لن تسحرهما النداءات الخارجية ولو انهما لا يستطيعان ان يبقيا تجاهها غـير مبالين[٢١٤]. انهما ، بتعمقهما في خبرتهما الفريدة ، يجدان فيها ملء الحياة الشاملة . ذلك هو ، يقول دويكارتس ، الفارق بين الدون جوان والقلب الامـين : فالأول يطارد دون جدوى الانوثة الابدية ، أما الثاني فأنه ، باقامته مع امرأة معينة علاقة فريدة ، « تزاد له الانوثة بجـد ذاتها دون ان يسعى اليها »[٢١٥].

ان الخطر الذي يهـدد الزواج بالزوال او بفقدان فحواه العميق هو اعتباره عقداً يعطي كلاً من الزوجين حق الملكية على الآخر[٢١٦]. لقد تصدى ماركس بحق للمفهوم الشائع في الزواج البورجوازي الا وهو ان المرأة هي ملك لزوجها[٢١٧]. الا ان القضية اعمق من ان ترد الى مجرد انعكاس لنظام اقتصادي معيّن[٢١٨]. هناك نزعة عميقة للتملك ، لا تقيم وزناً للشخص الآخر ، كامنة في أعماق النفس الانسانية وهي التي تفسر ، في آخر المطاف — دون ان يقلل ذلك من شأن العوامـل الاقتصادية — كل أنواع الاستئثار والاستغلال ، أكان ذلك على صعيد تكديس الرساميل[٢١٩]، او على صعيد العائلة . تلك النزعة هـدامة للزواج لانها بالواقع تنكر للحب الذي ليس الزواج سوى تكريسه . اذا اعتبرت الآخر ملكاً لي ، فقد شيّئته وبذلـك أزلت بيني وبينه تلك العلاقة الشخصية التي هي شرط الحب الاصيل[٢٢٠]. عن مثل هذا الانحراف ، نجد مثلاً مفجعاً في رسالة زوجة نشرت بين رسائل أخرى في كتاب صدر حديثاً . تقول تلك المرأة متحدثة عن زوجها : « لم يكن يحبني . كان يحب فيّ المرأة ، او بصورة أصحّ الانوثة التي كانت تناسبه . ولكنه عندما وجد انني كنت

شخصاً ، عندما صادف « أناي » ، وجد نفسه منزعجاً ، اذ لم يكن محتاجاً الى « أنا » ، الى شخص حيّ . منذ ذلك الحين أصبح في حياته شيء زائد ، لا مكان له . شيء او بالاحرى شخص كان ينكر عليه الحق بأن يكون وحده ، وحده مع شيء له ؛ شخص كان يبرز حقوقاً ، وقبل كل شيء الحق بأن يعترف به شخصاً فريداً ، متميزاً . لم يكن ذلك في طاقته . فابتعد ، وكأنه كان يشعر بأنه مهدد في ملكه . اصبحت بالنسبة اليه دخيلة : ذلك انني كنت اسمح لنفسي بأن أكون شخصاً فيما كان يطلب مني ان اكون شيئاً ، نموذجاً من الانوثة ، حلواً ومريحاً . لقد ابتعد ؛ حوّل نظره في اتجاه آخر ؛ وذات يوم وجد امرأة اخرى قبلت ، على ما يعتقد ، ان تكون شيئاً يملكه »[221].

هكذا فان اعتبار الزواج صك ملكية ، هذا الاعتبار الذي قد يتسرب بشكل لا شعوري حتى الى قلب زوجين محبين ، يفسد الحب ويفرغ الزواج من معناه الحقيقي[222] ويحول الامانة الزوجية الى مجرد قيد خارجي يجمع الاجسام عنوة ولكنه لا يستطيع الحؤول دون تباعد القلوب[223].

يقول احد ابطال رواية بول اندره ليسور « الكلى والقلوب » لزوجته : « كونك لي لا يمكن ان يمنعك من ان تكوني لنفسك ، وإلاّ اصبحت مجرد شيء . ولو استسلمت لغيرتي ، لأنكرتُ عليك صفة الكائن البشري . ولكنني احب كائناً بشرياً . لا اتصورك مقيدة ، بل حرة ومرددة لي في كل لحظة « نعم » زواجنا . الغيرة تطالب كأنها مباشر محكمة ، انها تبرز عقوداً ووعوداً ، تطالب بحقوق . ان كل ما تعطيني اياه مجانيّ »[224].

أن الامانــة الزوجية الحقة هي اذاً داخلية وليس فقط خارجية ، انها موقف يتخذه المرء بحرية ولا يفرض عليه كثيره[٢٢٥]. ليست أسراً انمــا موقف ايجابي ، خلاق . يقول دنيس دي روجمون : « ان الامانة في الزواج لا يمكن ان تكون ذلك الموقف السلبي الذي يتخيلونه عادة . لا يمكن ان تكون سوى فعل . الاكتفاء بعدم خيانة الزوجة دليل فقر لا دليل حب »[٢٢٦]. هذا يفترض ان حركة اللقاء ، التي هي كما قلنا فحوى الجنس الانساني ، لم تتوقف عند عتبة الزواج بل تابعت مسيرهـا ضمن المؤسسة الزوجية لتحفظ لتلك المؤسسة معناها الاصيل . هـذا يعني اذاً ان الزواج ليس ، كما يعتقد الكثيرون ، نهاية (كما في القصص التي تنتهي بزواج البطلين ثم يُسدل الستار) ، انما هو بالواقع بداية الطريق الطويلة التي ينبغي للحب أن يسلكها لكي يحقق ذاته قدر المستطاع[٢٢٧]. الحب ، كما يقول الدكتور اندره برج ، هو في الزواج خَلق مستمر[٢٢٨].

حواشي الفصل الثاني

١ — يقول الدكتور اندره مورالي — دانينوس :

« . . . يبدو بوضوح ان أسمى و اسعد تحقيق للجنس يوجد في الحب المتبادل » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 133, Casterman, 1972.

وتحدد جاكلين برجريه هذا الحب بقولها :

« الحب هو استقبال « شخص » من قبل آخر ، ولكنه الاستقبال الاكثر حقيقة واكتمالا » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa Psychanalyse, p. 215, Le Centurion, 1973.

٢ — راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 197.

يقول ارنست ال بهذا الصدد :

« ان الحب الاول ، الذي موضـوعه الأنـا ، يجب ان ينضج ويتحول الى حب الأنت . ولكون هذا الأنت الجديد مهما بهذا المقدار لخيري انا ، لكونه « كل شيء » في خبرتي المعاشة . لذا فانه ينبغي ان يهمني خيره بمقدار ما يهمني خيري الخاص . انني بسعيي الى خير الآخر ، اضمن بآن واحد خيري الذاتي . صحيح ان هذا الحب للآخر لا يزال مطبوعا بحب الذات ، انما بمعنى ليس سلبيا وانانيا » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, p. 228, Le Centurion, 1971.

ويقول الكاتب نفسه في مكان آخر :

« ان الحب اكثر بكثير من الحاجة ، لأن الحاجة تبغي الأخذ ، بينما الحب يبغي العطاء . ولكن سر تلك المعجزة الطبيعية ، ان المرء يعطي في اللحظة نفسها التي يعتقد فيها انـه يأخـذ . في الحب ، العطاء والأخذ لا ينفصلان . فحاجة الواحد ، اي في الظاهر انانيته ، تصبح مصدر سعادة للآخر ، لأن الواحد لا يستطيع ان يعطي الا لأن الآخر بحاجة الى هباته . فلا احد منهما يأخذ وحده او يعطي وحده . كل منهما يعطي ويأخذ بآن واحد ، وذلك بكامل انسانيته ، على كل اصعدة كيانه » .

op. cit., p. 61.

٣ — راجع :

Pierre Antoine : Sens de la sexualité et recherche d'une éthique, in Sexualité humaine, pp. 330-331.

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, p. 333, Ed. Casterman, Tournai, 1969.

٤ — راجع :

Erich Fromm : op. cit., p. 38.

Abel Jeannière : op. cit., p. 180.

Louis Millet : l'Agressivité, pp. 160-161, p. 189, Ed. Universitaires, Paris, 1970.

يقول دنيس فاس :

« ... الحب هو تلك القوة التي تتحد الكائنين في الفعل نفسه الذي يؤكد الفارق الجذري بينهما » .

وايضا :

« ... الحب حياة ، حياة تجمع المتفارقات فيما يفرق بينها » .

Denis Vasse : Le Temps du désir, pp. 63-64, Seuil, 1969.

٥ — يذكر اوسفالت كوله هذا الاعتراف لشاب خبر سطحية المجون :

« عند ذاك تبينت ان سلوكي الماضي كان بمثابة سلوك عالم طبيعي يتنقل من موضوع بحث الى آخر دون ان يقوم في حال من الاحوال بدراسة عميقة للاشياء » . راجع :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 242-243, Robert Laffont, 1970.

٦ — كثيرا ما يتصور المرء تضاربا بين الحب واللذة . ولكن الفكر العلمي الحديث اثبت عكس ذلك ، مبينا ان اللذة لا تتخذ كل عمقها ومداها الا بالحب . واليكم بعض الشواهد عن ذلك .

يقول كارل غوستاف يونغ :

« ... ان الحياة الجنسية لا تكتمل الا عندما يوجد تناغم موفق بين النفس والغريزة » .

C.-G. Jung : Psychologie de l'Inconscient, p. 61, Georg, Genève, 1973.

ويقول الاخصائي الكبير في شؤون الجنس ، اوسوالد شوارز :

« عندما يكتمل الاتحاد بين رجل وامرأة ، عند ذاك يهب الجسد بالمقابل بسخاء ملوكي » .

Oswald Schwarz : Psychologie sexuelle, p. 100, P.U.F., Paris, 1952.

ويقول ارنست ال :

« ... ان الاتحاد الجنسي ، عندما يكون فعل حب بالجسد ، يصبح عند ذاك اقوى رمز لوحدة الزوج العميقة ، ويمثل احدى قمم

الوجود البشري ، في اتحاد الاجساد والنفوس ، في وحدة كاملة بين انا وانت » .

ويضيف في مكان آخر :

« ليست اللذة مصدر الحب . ولكنها ، اذا اشبعت بالحب وعيشت معا ، تسمح باختبار اعمق اتحاد ، في النشوة ، ذلك الاتحاد الذي هو ينبوع دائم التجدد للسعادة والفرح » .

وايضا :

« ان النشوة النفسية تتطلب الانتعاظ (هزة الجماع) الحيواني . والخبرة الجسدية ، من جهتها ، لا تتخذ كل معناها الا اذا احيتها النشوة الداخلية » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 17, p. 246, p. 248.

وتوضح اوديت تيبو ان الانتعاظ الحقيقي انما هو نابع من مشاركة الحواس والعاطفة . وتذكرنا بما قاله رايش من ان لا اهلية حقيقية للانتعاظ دون نضج نفسي عاطفي . ولكن مقياس النضج النفسي العاطفي انما هو القدرة على التأليف بين العاطفة والرغبة . لذا تقول الكاتبة بأن الحب هو الذي « يعطي العمل الجنسي كل معناه ، وحظه بأن يؤول الى اعلى حد من الانشراح . يمكن القول بأن افضل مثير جنسي انما هو الحب » . وتضيف اوديت تيبو : « ان « طعم الرماد » الشهير الذي يصفه الادب ، تلك المرارة المزعومة التي تتبع العناق ، تبدو لي الاشارة الصحيحة الى وجود تفكك بين الرغبة والحب » . هذا صحيح خاصة بالنسبة للمراة ، اذ ان « الرغبة واللذة الجسدية مرتبطان بشكل اوثق بعاطفة الحب عندها مما هي الحال عند الرجل . ومعلوم ان كثيرا من حالات البرودة الجنسية النسائية تعود الى كون المراة غير راضية على الصعيد العاطفي » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 32-34, Casterman, 1971.

اورد اخيرا هذه الشهادة لنايل ، مؤسس مدرسة سومرهيل ، وهو ابعد الناس عن التزمت الخلقي :

« ان الدون جوان يحقق في الظاهر عنصر اللذة في الجنس فيما يرفض عنصر الحب (...) اما الانسان الخلوق الجديد ، فانه سيكتشف ان عليه ان يحقق وظيفتي الجنس الاثنتين ، اي انه ، ان لم يحب ، فلن يجد اللذه الاقصى في العمل الجنسي » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 198, Maspéro, 1973.

٧ — راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 199.

٨ — راجع :

Abel Jeannière : op. cit., p. 170.

٩ — راجع :

Pierre-Henri Simon : Le Monde, supplément au No. 7098, 8 novembre 1967, p. 1.

Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 188-189.

١٠ — راجع :

Françoise Mallet-Joris : Les Signes et les Prodiges, p. 185, Ed. Grasset, Paris, 1966.

١١ — راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., pp. 196-200.

١٢ — راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., p. 197.

١٣ — راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., p. 196.

١٤ — راجع :

F. Mallet-Joris : op. cit., p. 198-199.

١٥ — راجع :

Paul Eluard : Dominique aujourd'hui présente, cité par François Chirpaz : Dimensions de la sexualité, p. 421.

يخاطب أراغون المحبوبة قائلا :

« من اكون بدونك يا من اتيت للقائي . . .
« من اكون بدونك سوى قلب في الغاب النائم . . .
« لقد تعلمت منك كل شيء عن الامور البشرية
« واخذت منذئذ ارى الكون على طريقتك
« لقد تعلمت كل شيء منك كما يشرب المرء من الينابيع
« كما تقرأ في السماء النجوم البعيدة . . . » .

Louis Aragon : Prose du bonheur et d'Elsa, in Poésies, pp. 218-219, cité par Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 170, Desclée, 1971.

١٦ — راجع :

Frédéric Nietzsche : Par delà le bien et le mal, p. 136, Coll. «10-18», Union générale d'éditions, Paris, 1962.

١٧ — راجع : سهيل ادريس — الحي اللاتيني — منشورات دار الآداب ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، نيسان ١٩٦٥ ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

يقول الروائي الايطالي الكبير البرتو مورافيا :

« الحب هو بالتأكيد وقبل كل شيء عاطفة ، ولكنه ايضا اتحاد اجساد لا يوصف وشبه روحي . . . » .

Alberto Moravia : Le Mépris, p. 32, «Le Livre de poche», Paris, 1967.

١٨ ــ راجع :

Lettres d'amour de François et d'Antoinette, p. 120.

١٩ ــ تقول ماري تيريز فان ايكوت :

« في هذا المنظار السليم والانساني بالحقيقة ، يفقد الاتحاد الجنسي التباسه ليصبح بالحب نمطا خاصا من التعبير ، لحظة لقاء خارق ، يحاول بفضله الأنا والأنت ان يقتربا احدهما من الآخر الى اقصى حد : « في الحب ، الجسد شفافية ، شفافية الأنت » (بينسونغر) .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, pp. 12-13, Casterman, 1966.

ويقول المحلل النفسي الكندي ميشال دنسرو :

« في علاقة بين الجنسين متطورة ، تتخذ حركات الجسد معنى روحيا : انها تنطق بالحب (...) يتجاوز الجسد التباسه ليصبح انفتاحا الى الكون » .

ويضيف في مكان آخر :

« يصبح الجسد ... مندمجا في الروح ، تتم اخيرا المصالحة بينهما » .

Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 148, p. 170.

لذا صح قول الكاتب الفرنسي جاك دي بوربون ــ بوسيه :

«لا علاقة البتة بين فعل الحب دون حب وفعل الحب بحب » .

Jacques de Bourbon-Busset : Radioscopie du bonheur, p. 81, in Oui au bonheur, Semaine des Intellectuels Catholiques, 1970, Desclée de Brouwer, 1970.

عن تفاهة الجنس المفرغ من معناه ، يقدم لنا البرتو مورافيا شهادة قوية في روايته « الاحتقار » ، حيث يصور لنا ، في صفحات رائعة ، كيف أدرك المتحدث ، بطل الرواية ، ذات يوم ، ان زوجته لم تعد تحبه .

في ذلك اليوم ابدت الزوجة استعدادها لمضاجعته اذا شاء ، وتأهبت بالفعل لعناقه ، ولكنه امام جسدها العاري المقدم لم يعد يشعر بأية رغبة ، لأن كل ذلك فقد بنظره معناه العميق :

« لم اعد ارى نفسي امام المراة التي كانت تحبني وكنت احبها ، بل امام بغي بدا عليها شيء من قلة الخبرة وفراغ الصبر ، بغي كانت تتأهب للخضوع السلبي لعناقي راجية أن يكون قصيرا وغير متعب (...) فنهضت فجأة دون ان التفت الى الوراء : « آسف ، قلت ، لم يعد ذلك يعني لي شيئا ... سأذهب لانام في الغرفة المجاورة ... » .

Alberto Moravia : Le Mépris, pp. 35-38.

٢٠ — راجع :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 91, Mame-Fayard, 1971.

٢١ — راجع :

François Chirpaz : L'Intention de rencontre, pp. 1834, 1838.

٢٢ — راجع :

Pierre Antoine : op. cit., p. 332.

٢٣ — راجع :

Jean Lacroix : Force et Faiblesses de la famille, p. 98, Ed. du Seuil, Paris, 1957.

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 136, Casterman, Tournai, 1970.

٢٤ — راجع :

Denis de Rougemont ; Comme toi-même, pp. 250-253, Ed. Albin Michel, Paris, 1961.

٢٥ — راجع :

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 63-66.

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, pp. 182-185.

٢٦ — راجع :

François Chirpaz : Dimensions de la sexualité, p. 422.

٢٧ — في رواية جوزيف كيسيل ، « وردة جاوا » ، يصور لنا الكاتب ملازما طيارا فرنسيا شابا ، زير نساء ، متأجج الشهوة ، وقد استطاع ان يستميل فتاة اوراسية رائعة الجمال ، تدعى فلورنس ؛ فوهبت نفسها له وامتلكها بجنون . يقول الشاب راويا تلك الليلة المسعورة :

« ... بما انني كنت ، في تلك اللحظات ، احب نفسي لانهائيا من خلالها ، اعتقدت ، في تلك الليلة ، انني احب فلورنس » .

Joseph Kessel : La Rose de Java, p. 166, «Folio», 1972.

٢٨ — هذا الموقف ، عبر عنه الكتاب بعدة نماذج روائية . اذكر منها على سبيل المثل ما يصوره لنا جيلبير دوبه ، في روايته « مزرعة المشنوق » ، من نفسية احد ابطاله ، جان — له — روجيه ، وهو رجل شهواني يقول الكاتب عنه :

« عندما كانت سلطة الجنس تحركه ، لم يكن جان — له — روجيه يرى شيئا من المخلوقات ، سوى انها كانت تتحول كلها فجأة الى انثى واحدة ، لها نفس النهدين ، ونفس الفخذين ، ونفس الحضن . ولم يكن للراس حساب عند ذاك » .

Gilbert Dupé : La Ferme du pendu, pp. 27-28, «Collection Pourpre», 1954.

وعن اماندا ، شقيقة جان المذكور ، والشبيهة به من حيث الشبق ، يقول الكاتب واصفا احدى مغامراتها الغرامية مع احد الاحداث :

« كانت ولا شك تحب هذا المراهق ، كما سوف تحب سواه غدا . كانت تهوى الهوى الذي يحتاج الى وجه وجسد الرجال » .

op. cit., p. 39.

وفي رواية « الفتيات » لهنري ده مونترلان ، نرى الاباحي بيار ده كوستال ، بطل الرواية ، يفضي بوقاحة بما يلي :

« لست ممن يصرون امام ممانعة امراة ، فاذا فقدت واحدة منهن ، وجدت مائة عوضا عنها ، كل ذلك قابل للاستبدال » .

وعن آخر امراة وقعت في حبه ، يقول :

« احب ان اشعر بأنني لا احبها اكثر من ذلك ، وانني هكذا ابقى حرا ، فآخذ من هذه الملهاة ما اشاء » .

Henry de Montherlant : Les Jeunes filles, p. 208, Gallimard, Paris, 1954.

وحيث ان الرغبة الجنسية تنفك بصعوبة عند النساء عن حاجتهن الى ان يكن محبوبات ، فانهن يعانين بشكل اخص من موقف كهذا . يقول اوسفالت كوله ، في معرض حديثه عن الحجج التي يستعملها الرجال اليوم ليقنعن النساء بأن يمنحنهم ذواتهن :

« ... ان جملة تنفرهن بشكل خاص : « سأفتش عن سواك » . ليس لأنهن يخفن بالحقيقة من خسارة صديق ، بل لأنهن يشعرن بصلافة هذا التهديد (...) ويترجمنه على الوجه التالي : ما يهواه هذا الرجل ، ليس انت ، انت في كيانك الفريد . انك قابلة للاستبدال . لا يهمه من يشاركه الفراش ، شرط ان يكون شيء نسائي » .

ويضيف الكاتب :

« لماذا يحول كبرياء الرجال دون فهمهم هذه الامور ؟ لو تجرات اية فتاة على ان تكلمهم بمثل ذلك ، لنعتوها بانها بغي ... » .

Oswalt Kolle : Ta femme cette inconnue, p. 51, Casterman, 1970.

٢٩ ــ هذا ما تعبر عنه بشكل لافت كلمة رواها احدهم عن صديق له عرف المجون ثم اكتشف الحب الحقيقي ، فقال لصديقه : « لقد كنت حتى الآن احب مجرد اجساد ؛ اما الآن فقد احببت وجها » .

وبما ان موضوع الحب هو شخص ، لذا فالحب الحقيقي يتناول الآخر في جملة كيانه ، مما يشمل الصعيد الجسدي الحسي ،

والصعيد العاطفي ، والصعيد الروحي . راجع :
Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 188-189, 238.
Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 35-38.
٣٠ — راجع :
Paul Evdokimov : Sacrement de l'amour, p. 233.
هذا ما اكتشفه شاب كان يتوهم قبلا انه باستعماله الفتيات لقضاء شهوته ، يستطيع ان يعرف ماهية المراة ، فلما احب فتاة بالحقيقة انقلبت مفاهيمه وادرك انه لم يكن بوسعه ان يعرف المراة عن طريق تشييئها ، وانه بالعكس يستطيع ، عبر اكتشافه لمحبوبته كشخص فريد ، ان يطل من خلالها على النساء عامة :
« اما الآن فانا اريد ان اتعرف بفتاة واحدة هي س. وكأن بقية الفتيات غير موجودات . وبها استطيع ان اعرف بنات جنسها » .
فالتر تروبيش : احببت فتاة . مراسلات خاصة بين شاب وشابة افريقيين وراعيهما . نقلها الى العربية يوسف قسطه . الطبعة الثانية ، ص ٩٣ — ٩٤ ، دار منشورات النفير ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٣١ — يقول مارك اوريزون :
« ان الرجل الذي « يهب ذاته » لعدة نساء لا يهب ذاته البتة ، انه يأخذ ، هذا على نقيض الحب تماما ... » .
Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 51, Les Editions Ouvrières, Paris, 1968.
اما المحلل النفسي جورج موكو ، فأنه يقيم اختبارات « التحرر الجنسي » التي تنزع الى استبدال مؤسسة الزواج الاحادي « بتجمعات جنسية » تقبل بأستبدال الشركاء او بممارسة جماعية للجنس بشكل تهتك منظم ، قائلا :
« لا يوجد تزامن عاطفي . لا يمكن للمرء ان يحب كائنين بآن واحد . حتى في العربدات التي تتشابك فيها الاجساد ، يوزع الجسد ولكن النفس لا توزع . تبقى رغبة الحب مركزة على شخص رئيسي ، اما الآخرون فمجرد صور . حتى العازبون المنتمون الى « تجمع جنسي » ذات علاقات لا تحصى ، لهم تفضيل ... » .
هذا ما يفسر تلك الظاهرة التي يبينها المؤلف ، وهي انه « ان كانت هذه الاختبارات الجماعية تزداد عددا ، فهناك ايضا كثير ممن يهجرونها عن خيبة وقرف ويعودون الى الحياة التقليدية » .
لا بل « على سبيل المفارقة ، فأن تلك المحاولات التي تبغي رفض مؤسسة الزواج تؤدي في كثير من الحالات الى تثبيتها . فان ربع الممارسين لهذه الاختبارات يصرحون بانهم « انقذوا زواجهم » وثلاثون بالمائة يقولون بانهم حسنوه . يظهر اذا ان المشتركين في هذا « التحرر الجنسي » لا يستطيعون ان يلغوا تلك الحاجة الاساسية الى حب كلي وحصري الكامنة في كل كائن بشري ... » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, pp 196-197, Aubier-Montaigne, 1973.

راجع ايضا :

Ernest Ell : op. cit., pp. 195-196.

٣٢ — راجع :

Ernest Ell : op. cit., pp. 196-197.

٣٣ — « كان الشاعر ر.م. ريلكه يقول : « الحب هو ديمومة » ، مشيرا بذلك الى ان كل تعلق عميق له مشروع لاستمرار » .

Rolande Dupont : Le Conseil conjugal et familial p. 55, Casterman, 1972.

٣٤ — راجع :

Gabriel Marcel : Foi et Réalité, p. 78, Coll. «Foi Vivante», Aubier-Montaigne, Paris, 1967.

٣٥ — راجع :

Violette Morin et Joseph Majault : op. cit., p. 120.

تقول اوديت تيبو :

« ليس من باب الصدفة ان كلمة «amour» (الحب) ، في لاغنية ، ترد على قافية «toujours» (دائما) » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 22.

وعن وجود هذه النزعة الى ديمومة الحب حتى عند المتهتكين ، يقدم لنا الروائي الفونس دوديه نموذجا في شخص الاباحي ديشيليت لذي اخذ على نفسه الا يقضي اكثر من ليلة مع كل امراة يعاشرها ، لئلا تعوزه الشجاعة على هجرها . يقول :

« (قال) ما ارهب هذه القطيعات ... وبدت في صوته الهادىء والساخر نبرة من الرقة والشفقة اللامتناهية ... لقد عاش الاثنان سنوات معا ، وناما ملتصقين احدهما بالآخر ، ومزجا احلامهما وعرقهما . لقد باحا بكل شيء احدهما للآخر ، ووهبا كل شيء . لقد اتخذا عادات ، طرقا في السلوك والكلام ، واخذ كل منهما ملامح من الآخر . اصبحا متصلين من الراس الى القدمين (...) ثم فجاة اذا بهما يفترقان ، ينتزع كل منهما ذاته من الآخر ... كيف يفعلان ؟ من اين تأتيهما الشجاعة ؟... اما انا ، فلا قدرة لي على ذلك ... نعم ، ولو خدعت واهنت ولوثت بالسخرية والوحل ، ثم بكت المراة وقالت لي : « ابق » ، فلن اذهب ... ولهذا السبب ، فاذا اخترت احداهن ، لا آخذها ابدا الا لليلة فقط ... » .

Alphonse Daudet : Sapho, p. 50, «Les Meilleurs livres français», 1950.

وتشهد المرشدة الزوجية مرغريت لبير ، بأن « حاجة الى الاستقرار تظهر ، على مر الايام ، عند اكثر الناس تمسكا « بالحب

الحر » . وتقدم لنا نموذجا عن ذلك شهادة امراه تدعى كارين في الخامسة والعشرين من عمرها . هذه ، بعد ان عاشت مع صديق لها خمسة اعوام كانت في اثنائها تغازل سواه من الرجال ، حتى انها ذهبت في وقت من الاوقات مع احدهم ، صرحت : « يجب ان نتزوج ... انني اشعر بحاجة الى شيء من الاستقرار لحبنا ... لقد ربطنا الحب اكثر بكثير مما كنا نعتقد » . راجع :

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, p. 63, Resma, 1973.

راجع ايضا :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 91, pp. 179-180.

٣٦ — راجع قصة نجيب محفوظ : قبيل الرحيل ، في :

نجيب محفوظ : بيت سيء السمعة ، ص ٧ — ١٦ ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧١ .

٣٧ — راجع :

François Duyckaerts : op. cit., p. 272.

٣٨ — راجع :

Morin et Majault : op. cit., p. 120.

Denis de Rougemont : Comme toi-même, pp. 102-104, p. 115, pp. 148-150, p. 159, p. 227, Albin Michel, Paris, 1961.

٣٩ — يقول دنيس فاس :

« ان الاتحاد الجنسي لا يتحقق بصورة انسانية الا في افق مشاركة ، وحدة حياة ، في الوحدة الوحيدة التي تحقق امنية المحبين، اي الوحدة التي تدوم . ان الوحدة التي تدوم تضمن وجود الفوارق في الزمن ، اذ ان فقط ما يدوم يملك الوجود . ان الاثنين لا يصبحان واحدا الا بشرط ان يبقيا اثنين » .

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 79.

ويقول مارك اوريزون :

« في الحب ، لا يستطيع المرء ان ينظر حقيقة الى الآخر على انه شخص الا اذا التزم ان يسلك معه الطريق كلها . والا فانه — شاء او ابى ، وعى ذلك او لم يعيه — ينظر الى الآخر على انه شيء مسكر ، مرغوب ، مرضي او مريح ، وليس على انه شخص يوازي شخصه بالاهمية ، له سره الخاص ومصيره الخاص » .

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 90.

٤٠ — راجع :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 137.

٤١ — يقول المحلل النفسي كارل ستارن :

« عند الذين يبقون غير منتمين ، تتحقق العودة الابدية ،

بالعودة الرهيبة لنفس الاختبارات تحتل مكان نكران الذات . انها حلقة سيسيف المفرغة . ان رفض دون جوان وفوست ينشأ من الجزع (جزع الموت عن الذات) الذي يقودهم الى قلق الـذين لم يفتدوا » .

Karl Stern : Refus de la Femme, p. 220, Mame, 1969.

ويقول أ.س. نايل :

« ان الفوضى الجنسية ترتبط بالعصاب النفسي ، انها تبديل مستمر للشريك على امل احتمال وجود المناسب . ولكن الشريك المناسب لا يوجد ابدا ... » .

« ... ان الحب الحر هزيل لانه فسق لا حنان فيه ، ولا حرارة ، ولا تعلق حقيقي » .

« ... ان الفوضى الجنسية تؤول الى التنوع ، ولكنها نادرا ما تقود الى الانشراح ولا تؤدي ابدا الى السعادة » .

ويقدم لنا هذا الشاهد :

« قالت لي امراة شابة ذات يوم ، بعد ان عاشت فترة من الفوضى الجنسية : « انني لاول مرة ، مع بيل ، اعيش حياة جنسية منشرحة » . فسألتها لماذا للمرة الاولى . « لانني **احبه** بينما لم اكن احب الآخرين » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 210. Maspéro, 1973.

ويقدم اوسفالت كوله من جهته الشهادة التالية :

« ان احد الطلاب في ميونيخ ، الذي كـان يتبجح بفتوحاتـه الخاطفة التي لا تحصى ، صرح لي يوما ان كل ذلك لم يكن بالفعل مرضيا ... » . راجع :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 98-99.

٤٢ — راجع :

Majault et Morin : op. cit., p. 121.

٤٣ — يقول ب. غريلو :

« الحب (في المجون) يفلت من مشكلة الزمن ، يتهـرب من مسألة الامانة ، بالطريقة التي يتحقق بها . ولكنه يدفع ثمنا باهظا . فانه ببتره اللحظة العابرة عن كل التزام سـابق او مستقبل ، يفرغها من كثافتها البشرية ، في الوقت نفسه الذي يعطيها فيه قيمة مطلقة خيالية بالكلية . « يكونان جسدا واحدا » ، قـال سفر التكوين (٢ : ٢٤) ، انما ، في الحالة التي نحن بصددها فقد السلوك معناه ولم يعد سوى صورة (راجع ١ كورنثوس ٦ : ١٦) ... » .

P. Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, p. 117.

٤٤ — يقول يواكيم بودامير :

« لقد نسينا بسهولة مفرطة ان القدرة على الحب ليست شيئا نناله دون مساهمة منا ، ولكنها قصد انساني الى اعلى حد ، اداء من الارادة يجب ان نكتسبه ، عمل يتطلب تضحيات ويحتاج الى تدريب مستمر » .

Joachim Bodamer : Sexualité, Amour et Névrose, p. 44.

٤٥ — راجع :

Erich Fromm : op. cit., p. 148.
Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, pp. 187-188.

٤٦ — راجع :

Gabriel Marcel : Etre et Avoir, pp. 154-155, p. 243, Ed. Aubier-Montaigne.

٤٧ — راجع :

Marc Oraison : Niveau Psychologique nécessaire à l'engagement dans une «Vocation», in Psychologie moderne et Réflexion chrétienne, Ed. Fayard, Paris, 1953, pp. 116-124.

٤٨ — راجع :

S. Freud : Essais de Psychanalyse appliquée, cité par A. Plé : Freud et la Morale, p. 92.

٤٩ — راجع :

S. Freud : «Civilized» Sexual Morality and Modern Nervous Illness, cité par A. Plé : op. cit., p. 117.

يقول فرويد :

« أن نمو الغريزة الجنسية يتجه ... من الشهوة الذاتية الى حب الموضوع ... » . راجع :

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la maladie nerveuse des temps modernes (1908), p. 34, pp. 34-35, in La Vie sexuelle, P.U.F., 1970.

٥٠ — راجع :

Dr. Ch. H. Nodet : Psychanalyse et Sens du péché, in Revue française de Psychanalyse, t. XXI, No. 6, nov.-déc. 1957, p. 805.

يقول ج.م. بوهييه :

« ان الاتجاه الى الآخر من حيث هو آخر اكتساب عاطفي متأخر ، وهو اكثر تأخرا من اكتساب الفكر التجريدي على صعيد الذكاء ... » .

J.-M. Pohier : Psychologie et Théologie, pp. 126-127, Cerf, Paris, 1967.

راجع ايضا :

Dr. André Laforgue : Clinique Psychanalytique, p. 164, Ed. du Mont-Blanc, Genève, 1964.

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 175, Hachette, 1970.

Dr. Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée magique, p. 20, Delachaux et Niestlé, 1966.

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, p. 73, Le Centurion, 1973.

٥١ — راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 75.

٥٢ — يوضح مارك اوريزون ان مثال التوازن الراشد هــو الاعتراف بالشريك الجنسي على انه شخص . راجع :

Marc Oraison : op. cit., pp. 26-27.

راجع ايضا :

Otto Fenichel : La Théorie psychanalytique des névroses, tome I, pp. 103-104, P.U.F., 1953.

٥٣ — يقول ارنست ديشتر :

« (ان حب) الطفل يتصف جوهريا بمركزية الانــا . فالطفل يريد ان يأخذ ، يفتش عن براهين تعبر له عن حب الآخرين لــه . ينزع الى مطابقة العائلة به اكثر منه الى مطابقة ذاته بالعائلة ... »

Ernest Dichter : La Stratégie du désir, p. 214, Fayard, 1970.

ويقول جورج موكو :

« ... لا يحب الطفل الا بالاضافة الى نفسه » . راجع :

Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, p. 26, P.U.F., 1970.

ويقول ا.س. نايل :

« الطفل لا يحب ، فقط يريد ان يكون محبوبا » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 285.

٥٤ — راجع :

Michel Richard et coll. : La Psychologie et ses domaines, pp. 177-178, Chronique sociale de France, 1971.

٥٥ — راجع :

Dr. Ch. H. Nodet : Sexualité et Situation, in «Esprit», Nov. 1960, pp. 1734-1735.

٥٦ — راجع :

Erich Fromm : L'Art d'aimer, p. 39.

٥٧ — راجع :

E. Fromm : op. cit., p. 114, note 8.

٥٨ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective,

pp. 166-167, Ed. du Scarabée, Paris, 1964.
Denise Saada : L'Enfant et les grandes personnes, pp. 141-150, Aubier-Montaigne, Paris, 1968.

ان اكتساب الاستقلال الذاتي ، وهو ثمرة النضج ، شرط لبلوغ الحب المعطاء . يقول الدكتور اندره برج :

« لكي يكون حب الآخر اصيلا ، يجب الاعتراف بهذا الآخر على انه آخر ، ولكن هذا الاعتراف يقتضي ان يضطلع الفرد بغيريته الذاتية على صعيد الفكر والشعور » . راجع :

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, pp. 175-176, Hachette, 1970.

راجع ايضا بصدد المعطائية كمقياس لنضج الحب :

Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 165-166, Aubier-Montaigne, 1956.

٥٩ — راجع :

S. Freud : Essais de Psychanalyse appliquée, cité par A. Plé : Freud et la Morale, p. 139, note 49.

٦٠ — راجع :

Charles Baudouin : Y a-t-il une science de l'âme ?, p. 55, Ed. Fayard, Paris 1957.

٦١ — راجع :

Dr. André Arthus : Ceux que l'on nomme les grandes personnes, p. 6, Les Ed. Ouvrières, Paris, 1969.

٦٢ — راجع :

Dr. René Held : Psychothérapie et Psychanalyse, Petite Bibliothèque Payot, 1968.

٦٣ — راجع :

Erikson : Enfance et Société, p. 177, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, Paris, 1959.
Anna Freud : Le Normal et le Pathologique chez l'Enfant, p. 98, NRF, Gallimard, Paris, 1968.

يستشهد المحلل النفسي جورج موكو بالنص التالي لفرويد :

« ان الصراع بين الغرائز الاجتماعية والغرائز الانانية البحتة يعبر عن مجهود للتأليف يسعى الى ازالة كل ما يعارض توحيد الافراد على الصعيد الاجتماعي (. . .) ان يقبل المرء التنازلات التي لا بد منها ، ان يرتضي التضحية بما هو فردي لما هو شامل ، ان ينصاع الى التجرد من الانانية ، هذا ما يمهد له التحليل النفسي للعقل الباطن » .

Freud, cité par Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, pp. 189-190.

ويضيف الكاتب نفسه :

« الانسان ، بالنسبة لفرويد ، يكمل تطوره الطبيعي عندما يصبح قادرا ان يجرد طاقته العاطفية عن نفسه ويوظفها في الآخر » .
op. cit., p. 192.
ويقول المحلل النفسي ميشال دانسرو :
« ان ابحاث فرويد العيادية عن الحب تدور بشكل واضح في فلك المعنى الذي يعطيه الرسول بولس لهذه الكلمة . فقد كان (فرويد) يعتبر ان مثال الصحة النفسية يوجد باتجاه الابوة والامومة ، والقدرة على العمل والحب ، على حساب النزعات الشهوانية البحتة ، وليس فقط في القدرة على ممارسة العلاقات الجنسية » .
Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 109.

٦٤ — راجع :
Dr. C. H. Nodet : Brèves remarques sur la «Morale Psychologique», in Psychologie moderne et Réflexion chrétienne, p. 183, Fayard, Paris, 1953.

٦٥ — راجع :
Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, p. 43.
يقول مارك اوريزون :
« ... ان كائنا بشريا عاجزا عن تأليف زوج couple صحيح مع آخر ، اي عن بناء وحدة مستقرة ، انما هو غير مكتمل من حيث نموه العاطفي ، او غير متزن . انه لا يزال متوقفا ، بنسبة تزيد او تنقص ، عند تلك المرحلة الطفولية او المراهقة حيث يعاش الآخر كشيء اكثر منه كشخص » . راجع :
Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, pp. 89-90.

٦٦ — راجع :
Dr. A. Hesnard, in «Esprit», novembre 1960, p. 1821.

٦٧ — راجع :
Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, pp. 161 et 163, Payot, Paris, 1969.

٦٨ — راجع :
André Stéphane : L'Univers contestationnaire, pp. 239 et 282-285, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1969.
تقول اوديت تيبو :
« ... اذا كانوا فيما مضى يمجدون الحب من حيث هو عاطفة مع احتقار (ظاهري) للرغبة ، فانهم ينزعون اليوم الى اتخاذ الموقف المعاكس ، اي الى الاعتراف بقيمة الرغبة مع ريبة في العاطفة — مما يؤدي الى ذات **الانفصام** بين الرغبة والعاطفة ، اللذين لا حب حقيقي دون ارتباطهما » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 119.

٦٩ ــ يقول فرويد :

« نلاحظ ان الحياة الجنسية عند الانسان لا تنمو دفعة واحدة من البدء حتى فترة النضج ولكنها تخضع ، بعد تفتحها الاول الذي يمتد حتى الخامسة من العمر ، الى انقطاع قوي ، ثم تعود عند البلوغ وتعيد الصلة بمقدماتها الطفولية » .

S. Freud : Inhibition, Symptôme, Angoisse (1926), cité par Christian David : L'état amoureux, p. 71, PBP, 1971.

٧٠ ــ راجع مثلا :

Marlène Leist : L'Education sexuelle de votre enfant, p. 54, Bloud et Gay, Paris, 1972.

٧١ ــ راجع :

Anna Freud : Initiation à la Psychanalyse pour éducateurs, pp. 98-101, 103-105.

Anna Freud : Le Normal et le Pathologique chez l'Enfant, pp. 36, 45-46, 51, 53.

Jean Guillaumin : Origine et Développement du sentiment de la mort, in La Mort et l'Homme du XXe siècle, pp. 86-87, p. 103, Ed. Spes, Paris, 1965.

Hans Zulliger : Le Jeu de l'Enfant et sa dynamique de guérison, p. 158, Ed. Bloud et Gay, Paris, 1969.

Mélanie Klein et Joan Rivière : L'Amour et la Haine, pp. 78, 117.

Bannister et als : Problèmes du mariage, pp. 42-43, P.U.F., 1959.

Karl Stern : Refus de la femme, pp. 22-23, Mame, 1969.

Rosa Tanco Duque : Narcissisme et Personnalisation, in Personnalisation. Etudes sur la Psychologie d'Igor Caruso, pp. 129-139, Desclée, 1971.

٧٢ ــ راجع :

S. Freud : Malaise dans la Civilisation, pp. 12-13, in Revue française de Psychanalyse, tome 34, janvier 1970, pp. 9-80.

٧٣ ــ يقول المحلل النفسي وينيكوت :

« في هذه الحالة البدائية ... يعتبر الموضوع بالنسبة للذات وكأنه ليس موجودا الا حين يكون مرغوبا به ... وكأنه يختفي عندما لا يكون مرغوبا » .

Winnicott, cité par S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, pp. 256-257, PUF, 1970.

ويقول المحلل النفسي شبيتز :

« بالنسبة للطفل المولود حديثا ، فالمحيط مكــون من شخص واحد ، اذا صح التعبير ، الا وهو الام او بديلها ، وحتى هذا الشخص الوحيد لا يدركه الطفل على انه كيان متميز عنه ، بل على انه مجرد جزء من مجموعة حاجات الرضيع وارضائه » .

Spitz, cité par S. Lebovici et M. Soulé : op. cit., p. 235.

راجع ايضا :

Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 42-43, Bloud et Gay, 1969.

Karl Stern : Refus de la femme, p. 22, Mame, 1969

٧٤ — راجع :

Otto Rank : Le Traumatisme de la Naissance, Petite Bibliothèque Payot, 1968.

Denise Saada : L'Héritage de Freud, pp. 55-56, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1966.

يقول برونو كاستيه بهذا الصدد :

« ان حركة الفرد التلقائية هي بأن يعود الى تلك الحالة التي لا حاجة فيها ولا توتر ، حالة ذوبان الجنين (بالام) عندما يكون في الرحم » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, p. 230, Fleurus, 1971.

٧٥ — راجع :

Susan Isaacs : Les Premières années de l'enfant, pp. 101-104, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, 1955.

S. Freud : Malaise dans la Civilisation, pp. 11-13.

٧٦ — راجع :

Dr. Jean-Pierre Lauzel : L'Enfant voleur, p. 82.

٧٧ — يقول المحلل النفسي الانكليزي الشهير الدكتور وينيكوت :

« في البدء ، لا يعرف الاطفال ان الثديين جزء من الوالدة . في البدء ، اذا لامس وجههم الثدي ، لا يعرفون اذا كان شعور الارتياح يبدأ في الثدي او في الوجه . وبالفعــل يلعب الرضعــان بخدودهم ويخدشونها كما لو كانت اثداء ... » .

Dr. D.W. Winnicott : L'Enfant et sa famille. Les premières relations, p. 56, PBP, 1971.

ويقول ايضا :

« على صعيد نفسي ، فالطفل يرضــع ثــديا هــو جزء من ذاته ... » .

Winnicott, cité par S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, p. 241, PUF, 1970.

ويقول لوبوفيسي وسوليه بالمعنى نفسه :

« ان الرضيع ... لا يميز نفسه عن محيطه وبالتالي لا يمكنه ان يحس بثدي الأم الا وكأنه جزء من ذاته » .

S. Lebovici et M. Soulé : op. cit., p. 214.

٧٨ — راجع :

S. Freud : Abrégé de Psychanalyse, p. 60, P.U.F., Paris, 1967.

يقول برونو كاستيه :

« ... ان الآخر يبرز عند اول رضاعة يقطعها بشكل فظ صوت جرس الباب او الحليب الفائر المتدفق على النار . الآخر يبرز من النقص » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, p. 77.

٧٩ — راجع :

Berthe Reymond-Rivier : Le Développement social de l'enfant et de l'adolescent, p. 275, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1965.

٨٠ — راجع :

Selma H. Fraiberg : Les Années Magiques, p. 49.

يقول كارل ستارن :

« ... لا يصبح الانسان قادرا حقا على الحب الا اذا قطع الرباط النفسي المكون من الالتصاق بالأم . عند ذاك فقط نصبح قادرين على مجابهة الكون والآخرين » .

Karl Stern : Refus de la femme, p. 23, Mame, 1969.

راجع ايضا :

Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 40-42.

٨١ — راجع :

S.H. Fraiberg : op. cit., pp. 41-44.

٨٢ — يقول الدكتور اندره برج :

« ايستطيع الرضيع ان يحب في شخص مرضعته شيئا آخر سوى اشباعه الذاتي النهم ؟ » .

Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 35, Aubier-Montaigne, 1956.

نجد ما يوازي هذا الموقف الطفولي في كل سلوك جنسي لا ينظر فيه الى الآخر الا بمثابة شيء ، او كما يقول المحللون النفسيون بمثابة « موضوع جزئي » : حيث ينظر الى المراة مثلا كالى مجرد مهبل ، والى الرجل كالى مجرد قضيب . راجع :

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, pp. 138-151.

٨٣ ــ بصدد الانتقال من « الموضوع الجزئي » (الثدي ، اليدان ، العينان) الى « الموضوع الكلي » (الأم ككل) ، والى ما يرافق ذلك من اكتشاف الأم كشخص متميز . راجع :

Hanna Ségal : Introduction à l'œuvre de Mélanie Klein, pp. 2, 52-53, 56-57, 71, 80, 94-95, PUF, 1969.

٨٤ ــ راجع :

Dr. René Spitz : La Première année de la vie de l'enfant, P.U.F., Paris, 1958.

Anna Freud : Initiation à la Psychanalyse pour éducateurs, pp. 103-105, Ed. Privat, Toulouse, 1968.

Thérèse Gouin-Décarie : Intelligence et Affectivité chez le jeune enfant, pp. 78-112, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel et Paris, 1963.

يقول سرج لوبوفيسي وميشال سوليه :

« ان ملاحظات اطباء الاطفال وملاحظات احدنا (م. سوليه) اثبتت ان عمر السبعة اشهر اكثر مطابقة لما يحصل عند الرضعان العائشين في العائلات التي يحسن فيها المناخ العاطفي ووسائل التنشيط » .

Serge Lebovici et Michel Soulé : op. cit., p. 232.

٨٥ ــ راجع :

Maurice Debesse : Les Etapes de l'Education, p. 44, P.U.F., 1961.

٨٦ ــ راجع :

Roger Mucchielli : La Personnalité de l'enfant, p. 65, p. 67, pp. 90-91, Ed. sociales françaises, 1964.

Dr. Pierre Galimard : l'Enfant de 6 à 11 ans, p. 40, Ed. Edouard Privat, Toulouse, 1962.

٨٧ ــ راجع :

Paul Osterrieth : Introduction à la Psychologie de l'enfant, p. 87, P.U.F., Paris 1957.

Michel Richard et coll. : La Psychologie et ses domaines, p. 52, Chronique sociale de France, 1971.

٨٨ ــ راجع :

Dr. Henri Wallon : Niveaux et Fluctuations du Moi, in «Enfance», No. 1 et 2, 1963, pp. 87-98.

Michel Richard et coll. : op. cit., p. 111.

Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 150, Seuil, 1969.

٨٩ ــ راجع :

Selma H. Fraiberg : Les Années magiques, pp. 64-65.

٩٠ ــ راجع :

Dr. Henri Wallon : article cité.

Dr. Henri Wallon : Les Origines du caractère chez l'enfant, pp. 222-224, P.U.F., Paris, 1954.

٩١ — راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 24, Casterman, 1970.

٩٢ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, pp. 23, 30.

عن دور الوالدين في هذا الاكتشاف ، تقول جاكلين برجريه :

« ان الدور الرئيسي الذي يلعبه الرجل والمراة ، الى جانب ولدهما ، هو ان يمثلا شيئا فشيئا ، بالنسبة اليه ، مشكلة ، من جراء اختلافهما الجنسي . ان جنس الوالدين يضطر الطفل الى ان يختار نفسه شبيها لذاك الذي يرى ان جسده يشبهه . عوض ان يبقى مجموعة صغيرة تحوي كل شيء .

« ما سوف يكتشفه ، في الثالثة او الرابعة من عمره عند مجابهته الواقع الجنسي ، هو انه يوجد على الارض رجال ونساء وانه ليس من سبيل ليصبح المرء الاثنين معا . عند ذاك يقدم له احد الوالدين نموذجا لينمو بموجبه ، وتتاثر صورة هذا النموذج بشكل صميمي بنوعية العلاقة القائمة بين هذا الوالد والوالد الآخر » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa psychanalyse, p. 55, Le Centurion, 1973.

٩٣ — راجع :

J.-P. Deconchy : Le Développement psychologique de l'enfant et de l'adolescent, p. 83, Les Ed. Ouvrières, Paris, 1966.

٩٤ — راجع :

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 69, Hachette, 1970.

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, pp. 112-113, Casterman, 1972.

٩٥ — راجع :

Marc Oraison : L'Echec, facteur d'élaboration du psychisme humain, pp. 98-104, in l'Homme devant l'échec, Spes, Paris, 1959.

Antoine Vergote : Psychologie religieuse, pp. 193-194, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1966.

Georges Mauco : Psychanalyse et Education, pp. 107-108, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1967.

Dr. Ch. H. Nodet : Sexualité et Situation, in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960, pp. 1741-1742.

Claude Geets : Psychanalyse et Morale sexuelle,

pp. 123-132, Ed. Universitaires, Paris, 1970.
Denis Vasse : Le Temps du désir, p. 34.
يقول برونو كاستيه :
« ان الاب يمثل مناعة الأم ، جزئيا على الاقل ... انه يمثل كل ما هو ، في رغبة الأم ، موجود بمعزل عن الطفل » .
Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, pp. 44-45.
٩٦ — توضح جاكلين برجريه كيف ان كسب الطفل هذا مشروط بحب راشد يجمع الوالدين :
« ... هذا الطفل الذي كانه كل منا (...) كان متحفظا في رغبته باجتياز خطوة النمو ، ذلك ان تلك الخطوة كانت تفترض ان يبدأ بقبول نفسه كائنا مستقلا وبالتالي منفردا ، شقيــا sexué ، ومحدودا (...) كيف له ان يلج الى حدوده الذاتية ، الى محدوديته الذاتية ، وهو الذي كان يعتبر نفسه اولا محور الكون ؟ ما يلاحظ هو انه يبلغ هذا النوع من التخلي ، الحتمي والصحي ، بسهولــة اوفر بكثير (...) عندما « يحب » والداه احدهما الآخر ، اي عندما يكونان من جهتهما قد تخلصا تقريبا من مركزية الأنا الطفولية » .
Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, pp. 58-59.
٩٧ — راجع :
Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, pp. 131-132, Casterman, 1972.
٩٨ — راجع :
Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 21, Aubier-Montaigne, 1956.
٩٩ — يقول هانس زوليغر :
« ان الرضيع ، وقد استيقظ فيه الحب لوالدته ، يريد ان يمتلكها كليا لنفسه ، وبما ان اعضاءه التناسلية ليست نامية بعد ، يكتفي بامتلاك فمي . انه لا يتخلى لأحد عن امه » .
Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 86-87, Bloud et Gay, 1969.
١٠٠ — راجع :
Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, p. 162.
Dr. René Laforgue : Psychopathologie de l'Echec, pp. 45, 47, 48-49, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1969.
يقول روجيه جيلبير :
« ... الطفل يعطي غائطه او لا يعطيه : يمنحه او يرفضه ، وفقا لاختياره ، لمن يشاء ، ويصبح (هكذا) قــادرا عــلى ممارسة سلطة قد تصبح مستبدة ... » .
Roger Gilbert : Psychologie et Education de l'Enfant, p. 41, Fleurus, Paris, 1971.

١٠١ ـــ يقول الدكتور اندره برج :

« في العمر الشرجي anal ، الآخر انما هو شيء ، والمرء يعبر عن تعلقه بشيء باحتفاظه به بعناية لنفسه وبختمه بدمغة ملكيته . ينبغي ان يتابع النمو الجنسي لكي يعتبر الآخر اخيرا كشخص يحب من حيث هو شخص وليس على منوال الاشياء » .

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 37, Hachette, 1970.

١٠٢ ـــ راجع :

Berthe Reymond-Rivier : op. cit., pp. 59-60.

١٠٣ ـــ يقول برونو كاستيه بهذا الصدد :

« ان يكون (الطفل) محبوبا ، يعني ان يكون موضوع رغبة الآخر ، وهذا ما يستحق منه ان يطابق احيانا رغبته الذاتية برغبة هذا الآخر » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, p. 77.

١٠٤ ـــ راجع :

Dorothy Burlingham et Anna Freud : Enfants sans famille, p. 98, P.U.F., Paris, 1949.

Hans Zulliger : op. cit., pp. 43-44.

١٠٥ ـــ راجع :

Irène Lézine : Psychopédagogie du premier âge, pp 72-81, P.U.F., 1964.

١٠٦ ـــ يقول فرويد :

« ان الغائط هو بالضبط اول هدية ، انه جزء من جسد الرضيع لا يتخلى عنه الا بأمر من الشخص المحبوب ؛ وبواسطته يعبر له عن حنانه ... » .

S. Freud : Sur les transpositions de pulsions plus particulièrement dans l'érotisme anal (1917), p. 109, in La Vie sexuelle, P.U.F., 1970.

١٠٧ ـــ راجع :

Dr. Bernard This : La Psychanalyse, pp. 137-164, Ed. Casterman, Tournai, 1960.

١٠٨ ـــ راجع :

Dr. Wilfried Daim : Transvaluation de la Psychanalyse, pp. 215-221, Ed. Albin Michel, Paris, 1956.

١٠٩ ـــ راجع :

S. Freud : op. cit., pp. 109-110.

١١٠ ـــ يقول بيار هنري :

« ان النزعة الجنسية لا تعود استيلائية بل تصبح معطائة : منذ ذلك الحين يجد الطفل لذة في العطاء » .

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 57

Editions Universitaires, Paris, 1972.

١١١ — راجع :

S. Freud : La Disparition du complexe d'Oedipe (1923), p. 120, in La Vie sexuelle.

١١٢ — راجع :

André Stéphane : L'Univers contestationnaire, pp. 192 et 209.

Dr. René Laforgue : Psychopathologie de l'échec. p. 53, P.B.P., 1969.

Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, p. 117.

Otto Fénichel : La Théorie psychanalytique des névroses, tome I, pp. 103-104, P.U.F., Paris, 1953.

١١٣ — راجع :

Dr. Paul le Moal : L'Evolution Sexuelle, pp. 38-39, in «l'Ecole des parents», mai 1968.

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 189, Seghers, 1972.

Ecole des Parents : Cette éducation sexuelle qui vous fait peur, p. 147, Stock, Paris, 1974.

١١٤ — راجع .

Hélène Deutsch : Problèmes de l'adolescence, p. 16, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1970.

١١٥ — راجع :

Dr. André Arthus : Adolescence, pp. 45-73.

١١٦ — راجع :

Oswalt Kolle : Ton mari, cet inconnu, pp. 23-37, Casterman, 1969.

١١٧ — يقول الدكتور اندره برج :

« ان المراهق ، بعد البلوغ ، يكرر بالاجمال تطور سني الحياة الاولى ، انما بنبرة مختلفة جداً ... » .

Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 168-169.

راجع ايضا :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 163.

Oswald Schwarz : Psychologie sexuelle, pp. 27-42, pp. 60-103.

Anne-Marie Rocheblave-Spenlé : L'Adolescent et son monde, pp. 111-115, Editions Universitaires, 1969.

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, pp. 58-68, Le Centurion, 1971.

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 58.

١١٨ — راجع :

Pierre Hanry : op. cit., pp. 59-66.

١١٩ — يقول بوفيه :
« قضية الجنس كقضية علبة تصوير . فاذا اهديت علبة تصوير لفتى ، لن يكون قادرا ان يبدع فورا روائع ، بل انه سيبدا بالخربشة » .

Bovet, cité par Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 121.

ويقول برونو كاستيه ان الولد ، عند البلوغ ، « يضطلع برغبات جديدة على بنية ذهنية قديمة ، لا تزال طفولية بالحقيقة » . ويضيف :
« ربما يمكن ان نقول ان التحقيقات الجنسية اذا حدثت في تلك الفترة قد تكون من اسباب اختلال التوازن من حيث انها تدفع الولد الى الاضطلاع بدور يعجز عن القيام به لأنه يفرط باقحام الخيالات الطفولية فيه » .

Bruno Castets : La Loi, l'Enfant et la Mort, pp. 168-169.

ويقول بيار هنري :
« على الصعيد البيولوجي البحت ، يعني البلوغ الانتقال من الطفولة الى الرشد ، أي ان الطفل ، اذا بلغ ، لم يعد طفلا بفضل صيرورته قادرا على الانجاب . حاصل الكلام ان هذا الانتقال سريع اذ انه لا يدوم ، في جميع الاحوال ، سوى بضعة اشهر . وبالعكس ، على الصعيد العاطفي ، فان الانتقال من حالة الطفل الى حالة الراشد تتطلب دوما سنين طويلة . (لا بل انه احيانا لا يكتمل ابدا) . ان هذا التفاوت لهو بحد ذاته مصدر صعوبات : فالمراهق الذي له جسد راشد ، وبالتالي حاجات راشد ، يحتفظ لمدة طويلة بشعور « طفل » ، وهكذا يترتب عليه ان يضطلع بمسؤوليات راشد (خاصة على الصعيد الجنسي) بشعور طفولي — او على كل حال غير ناضج » .

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 58.

راجع ايضا :

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la maladie nerveuse des temps modernes, p. 42, in La Vie sexuelle.

Dr. Jean-Pierre Lauzel : L'Enfant voleur, p. 129.

١٢٠ — راجع :

Jean-Pierre Deconchy : Le Développement Psychologique de l'enfant et de l'adolescent, p. 220, Ed. Ouvrières, Paris, 1966.

R. Gleason et G. Hagmaier : Direction, Education et Psychopathologie, p. 104, Aubier-Montaigne, Paris, 1962.

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, pp. 74-75.

١٢١ ــ راجع :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 98.

تجدر الاشارة الى الفارق الهام الذي يميز المراهق ، في هذا الميدان ، عن الطفل في الثالثة من عمره . فالمراهق ذو النمو السليم ، وان مارس الاستمناء ، متجه برغبته نحو الجنس الآخر ، يتصل به بالتخيلات التي ترافق عملية الاستمناء ان لم يكن بالواقع ، علما بأن انطواءه على جسده مرده جزئيا ، والى حد كبير ، في الحالات السوية ، الى العوائق الاجتماعية والتربوية التي تحول بينه وبين الجنس الآخر . لذا فعلى الصعيد النفسي يمكن اعتبار استمناء المراهق ، اذا سار النمو سيره الطبيعي ، لا مجرد تكرار لاستمناء الطفولة ، بل مرحلة انتقالية نحو النضج الجنسي والعاطفي . راجع بهذا الصدد :

André Alsteens : La Masturbation chez l'Adolescent. Les Données psychologiques du problème et ses implications pédagogiques et psychothérapiques, Desclée de Brouwer, Bruges-Paris, 1967.

١٢٢ ــ انما يبدو انها الآن في تزايد ، كما تشير بعض الاحصاءات . فارنست ال يذكر مثلا نسبة ٦٠ ٪ . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 119.

وقد يكون ارتفاع النسبة هذا عائد ، على الاقل جزئيا ، الى ملاحظة اكثر موضوعية للحياة الجنسية النسائية ، كما ينوه بيار هنري . راجع :

Pierre Hanry : L'Inconscient à découvert, p. 60.

١٢٣ ــ راجع :

Jean-Pierre Deconchy : op. cit., p. 221.

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, pp. 22, 76, note 1.

١٢٤ ــ راجع :

Dr. Paul Le Moal : op. cit., pp. 40-41.

Dr. G.-Ph. Guasch : L'Adolescent, son corps et les «autres», 3, L'Adolescente et son Corps, p. 31, «L'Ecole des Parents», novembre 1971.

١٢٥ ــ راجع :

J.A. Hadfield : L'Enfance et l'Adolescence, pp. 168-173, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1966.

١٢٦ ــ يقول ارنست ال :

« حتى الفتيان الذين لا يمارس عليهم اي ضغط تربوي او ديني يشعرون ان الاستمناء ليس مرضيا بالكلية ، لأن الجنس ، بطبيعته ، متجه نحو « انت » ، مما لا يحققه الاستمناء : لذا يزداد بعده

الشعور بالعزلة » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 119.

على كل ، نذكر بان استمناء المراهق ؛ من حيث العلاقة الخيالية التي يتضمنها بمواضيع من الجنس الآخر . يمثل تقدما بالنسبة لشهوة الطفل الذاتية . راجع ايضا بهذا الصدد :

Dr. Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 194.

١٢٧ — راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., pp. 25-31.

Dr. André Berge : Les Défauts de l'Enfant, p. 118, P.B.P., 1968.

١٢٨ — حول اسطورة نرجس ؛ راجع :

Pierre Hanry : op. cit., p. 59, note 19.

١٢٩ — يقول بيار هنري :

« ان مرحلة الشهوة الذاتية ... تنتهي عموما حوالي الخامسة عشرة ، ولكنها كثيرا ما تمتد الى ابعد من ذلك بكثير ... تبدأ فترة الشهوة الغيرية عموما نحو الخامسة عشرة ... » .

P. Hanry : op. cit., pp. 59, 62.

١٣٠ — برأي فرويد ان اختيار موضوع نرجسي ؛ اي موضوع يقدم للفرد صورة عن ذاته ، انما هو « على وجه العموم اسهل منالا واقرب الى التحقيق من التحول الى الجنس الآخر » .

S. Freud : Sur quelques mécanismes névrotiques dans la jalousie, la paranoïa et l'homosexualité (1922), p. 279, in Névrose, Psychose et Perversion, PUF, 1973.

ويقول في موضع آخر :

« ... حتى عند الانسان الطبيعي ، ينبغي ان تنقضي فترة ما قبل ان يفرض قرار نهائي ذاته بشأن جنس موضوع الحب . فالفورات الجنسية المثلية والصداقات ذات القوة المفرطة والملونة بالشهوة انما هي شيء عادي تماما عند كل من الجنسين في السنوات الاولى التي تلي البلوغ » .

S. Freud : Sur la psychogenèse d'un cas d'homosexualité féminine (1920), p. 267, in Névrose, Psychose et Perversion.

وتقول مونيك غينو :

« ان المراهق النرجسي ، اذ ينطلق في تحركه ، يخرج عفويا من نرجسيته ليسير بموجب الاندفاع الذي يحركه الى التفتيش عن موضوع . ان الموضوع المكمل يخيفه ، من هنا ظهور اوالية اخرى ، الا وهي التفتيش عن الشبيه » .

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, p. 61.

١٣١ ــ راجع :

Oswald Schwarz : Psychologie sexuelle, p. 38, P.U.F. 1952.

١٣٢ ــ راجع :

Nikos Kazantzakis : Lettre au Gréco, cité par Hélène Deutsch, op. cit., p. 28.

١٣٣ ــ راجع :

Dr. Paul Le Moal : op. cit., pp. 41-45.

J.A. Hadfield : op. cit., pp. 185-188.

Drs. Claude Kohler et Paule Aimard : De l'Enfance à l'Adolescence, pp. 104-107, Ed. Casterman, Tournai, 1970.

يقول الدكتور غواش :

« ان هذه النزعة « الجنسية المثلية » تبقى في اغلب الاحــوال كامنة ، ولا يعبر عنها الا بصداقة عميقة وانجذاب عاطفي بارز نحو رفيق او راشد من الجنس نفسه . امـــا التنفيذ الفعلي والخبرة الجنسية المكتملة ، فقليلا ما يحصلان . . . » .

G.-Ph. Guasch : Trois questions d'adolescence, p. 31, in Le Groupe familial, No. 54, janvier 1972.

راجع ايضا :

C.S. Ford et F.A. Beach : Le Comportement sexuel chez l'Homme et l'Animal, pp. 167-168, Robert Laffont,

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, pp. 119-123, Casterman, 1966.

١٣٤ ــ راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 198-200.

١٣٥ ــ يقول الدكتور جيلبير توردجمان ان الاختبارات الجنسية المثلية ، اذا تكررت واتخذت طابعا شهوانيا ، تؤدي في النهـــاية الى اقتـــران conditionnement بين الجنس وهذا المنبه stimulus المثلي ، وذلك لكون المراهقة فترة قابلة للتطبع بطابع جنسي معين بتأثير نمط من الاختبار . راجع :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 195-196.

وتقول مونيك غونو :

« ان الحياة في جماعة احادية الجنس ، دون انفتاح على العالم ، انما هي اكبر ضمانة لتحقيق الجنس المثلي . وقد يكون هذا التحقيق عابرا ، ولكن التنفيذ الفعلي يترك آثارا قد تكون نهائية احيانا ، ان لم يكن الا على صعيد الشك بالنفس » .

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, p. 51, Le Centurion, 1971.

ويقول ادوار بروز في كتاب له عن التربية المختلطة في المدارس :
« ... ان كان هناك من اوضاع ماجنة ومن حالات جنس مثلي اليمة ، فانها توجد في معاهد البنات ومدارس الفتيان اكثر منها في المدارس المختلطة » .

Edouard Breuse : La Coéducation dans les écoles mixtes, P.U.F., 1970, pp. 89, 101.

١٣٦ — تقول ماري تيريز فان ايكوت :
« لكي تبلغ الحياة العاطفية عند المراهق ملء نموها ، يجب ان تتخلى عن الاهتمام النرجسي بجنسه الذاتي وان تتجه بشكل حاسم نحو العالم النسائي » .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : op. cit., p. 121.

١٣٧ — يقول ارنست ال :
« يجب ان يتعلم الشباب ان يتحرروا من التأثير الاولي الذي يحدثه الجنس الآخر فيهم ، فيذهبوا الى ابعد من مجـــرد الانجذاب الجنسي ليتحققوا من قيمة الشخص او عدم قيمته . ولذا يجب ان يتعلموا ادراك الفوارق الشخصية . ولكن لا يمكن لأية نظرية ان تقوم ، في هذا المجال ، مقام الممارسة التي تتطلب معاشرة الجنس الآخر » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 179-180.

وتقول مونيك غونو :
« اذا كان المراهق قد مارس منذ الطفولة حيـــاة اجتماعيـــة منفتحة ، فهذا ما يسمح له عادة بأن يعرف الفتيات وبأن يقيم معهن علاقات عاطفيـــة سليمـــة ، دون كبت مفـــرط ، ومميـــزة حسب الاشخاص » . راجع :

Monique Gueneau : op. cit., p. 63, p. 62.

١٣٨ — راجع :

Jean-Claude Barreau : La Foi d'un Païen, pp. 33-34, Ed. du Seuil, Paris, 1967.

١٣٩ — راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, pp. 75-76, pp. 78-81.

١٤٠ — يقول ارنست ال :
« ان هذا الاكتشاف لأعماقه الشخصية يخلق في نفسية الشاب الاعضاء التي ستسمح له بأن يفهم ايضا الكيان الداخلي لآخرين — وبادىء ذي بدء كيان الذين يماثلونه بالسن والجنس . ان الشبـــاب يشعر بعمق بتلك الحاجة الى التفهم . ان معاناته الشخصية علمته ان وراء وجه الآخر تختفي شخصية يمكن استكشافها ، لا بحب اطلاع عالم النفس ، بل بدافع حاجة عميقة الى التفهم المتبادل » .

Ernest Ell : op. cit., p. 171.

١٤١ — راجع :

Jean-Pierre Deconchy : op. cit., pp. 225-232.

J.A. Hadfield : op. cit., pp. 191-205.

Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, pp. 92-94.

١٤٢ — تقول المحللة النفسية هيلين دوتش في كتـابها الشهير عن « نفسية النساء » : ان عند الفتاة المـراهقة مـا يشبه تلك الظاهرة ، اذ انها تقوم « بصيد لقلوب الذكور » يبقى فيه الطابع الجنسي للمشاعر اقل وعيا مما هو عند الفتى . تقـول الكاتبـة المذكورة :

« ان الرغبة بأن تكون محبوبة من كثير من الرجال وبأن تجمـع « القلوب المحطمة » صفة مميزة للفتاة المراهقة » . راجع :

Hélène Deutsch : La Psychologie des femmes, tome 1, Enfance et Adolescence, p. 89, PUF, 1959.

١٤٣ — يقول الدكتور توردجمان عن هذه المرحلة :

« ... ما يثير شهوة المراهق ليس شخصية تدرك بكليتها بقدر ما هو ثيمة fétiche تحصر الاتصال بعلاقة بموضـوع جزئي . فالذكر يفتش في المراة عن شعر اشقر ، عن ساقين حسني التناسق، عن ردف او صدر ممتلئين ... » .

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 197.

راجع ايضا :

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, pp. 157-158.

١٤٤ — ويبين هنري تافواللو ، وهو اختصـاصي بالتـربية الجنسية عند المراهقين ، اهمية « الحاجات العاطفية ذات الاتجـاه الفردي (ان يكون الفرد محبوبا ، ان يثير الاعجاب ، ان يؤخذ على محمل الجد) » في حياة المراهقين العاطفية . راجع :

Henry Tavoillot : op. cit., pp. 31-32.

١٤٥ — راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., pp. 112-113.

يرى مارك اوريزون ان الاختبارات الجنسيـة الفعليـة التي يمارسها فتى في السابعة او الثامنة عشرة من عمره مع شريكات له تمثل تجميدا لتطوره النفسي الجنسي في موقف ذي نمط استمنائي ، اكثر بكثير مما تشكل تقدما . راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 25.

١٤٦ — راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., p. 23.

١٤٧ — راجع :

Michel Quoist : Aimer ou le journal de Dany, Les Ed. Ouvrières, Paris.

١٤٨ — في مجموعة رسائل تبودلت بين شاب أفريقي وقس مسيحي اتخذه هذا الشاب مرشدا له ، نرى الشاب المذكور يكتشف الحب الناضج بعد لقائه باحدى الفتيات ، واذ بنظرته الى الجنس الآخر تنقلب ، فيكتب الى راعيه واصفا خبرته الجديدة :

« نعم اننا الآن ... نكتشف بعضنا بعضا . وكل يوم يأتينا باكتشافات جديدة . والحقيقة هي ان الفتاة اقليم مجهول . والآن استطيع ان ارى لاول مرة كيف كنت اعمى حين نظرت الى الفتاة نظرتي الى فرشاة اسنان اي كأداة للاستعمال . وفوق ذلك كنت انوي ان « استعمل » واحدة لكي اعرف ماهية المراة — يا للغباوة ! »

فالتر تروبيش : احببت فتاة ، ص ٩٣ ، دار منشورات النفير ، بيروت ، ١٩٧٣ .

ان النزعة الى اختبار حب ناضج على هذا النمط ، حب يعتبر فيه الآخر كائنا فريدا ومهما بحد ذاته ، ظاهرة نجدها عند كثيرين من الشباب ، حسب شهادة العديد من المشتغلين بعلم النفس وعلم الاجتماع . واليكم شواهد عنها مستمدة من احد المجتمعات المدعوة « بدائية » من جهة ، ومن المجتمع الصناعي الغربي الحديث من جهة اخرى .

ففي مجتمع جزر تروبريان الذي يمارس فيه المراهقون الجنس بحرية كبيرة ، لاحظ مالينوفسكي عندهم ، مع ذلك ، تطورا نحو علاقة تزداد فرادتها وديمومتها تدريجيا فتمهد للزواج . يقول العالم المذكور :

« مع الزمن ، وكلما تقدم الفتيان والفتيات بالعمر ، تدوم علاقاتهم مدة اطول وتصبح الروابط التي تشدهم بعضهم الى بعض امتن واثبت . وعلى العموم ، يشاهد المرء عند ذاك نشأة ونمو تفضيل شخصي تتقهقر امامه شيئا فشيئا كل القضايا الغرامية الاخرى » .

B. Malinowski : La Vie sexuelle des sauvages du nord-ouest de la Mélanésie, p. 63, pp. 59-64, PBP, 1970.

اما المجتمعات الصناعية الغربية المعاصرة ، فقد يظن المرء لأول وهلة ، وبالاستناد الى بعض الظواهر التي تركز عليها وسائل الاعلام ، ان الشبيبة فيها منجرفة بتيار من التهتك ولا تقيم وزنا الا لاشباع الشهوة . ولكن نظرة مطلعة وموضوعية الى الامور تضطر الى اعادة النظر في مثل هذا التصور . صحيح ان عددا متزايدا من الشباب هناك يرفض التقيد بقواعد خلقية تفرضها مجرد تقاليد موروثة ، ولكن عددا كبيرا من رافضي تلك التقاليد قد اكتشفوا قاعدة خلقية جديدة ، الا وهي وجوب ممارسة العلاقة الجنسية في

اطار علاقة شخصية صميمية .

فمثلا اجرت المؤسسة الاحصائية SOFRES تحقيقا حول « الشباب والحب » تناول فئة الشباب والفتيات الفرنسيين الذين تتراوح اعمارهم بين الخامسة عشرة والعشرين ، وقد نشرت نتائج هذا التحقيق في مجلة « الاكسبرس » (عدد ٦ آلى ١٢ آذار ١٩٧٢) .

٤٠٪ من الشباب الذين استجوبوا اجابوا انه سبق لهم ان قاموا بعلاقات جنسية ، ٤٩٪ قالوا انهم لم يمارسوا تلك العلاقات و ١١٪ امتنعوا عن الاجابة . ولكن الجدير بالذكر ان ٢٢٪ فقط من هؤلاء الشباب قالوا بأن شباب هذا العمر يحق لهم ان يمارسوا علاقات جنسية دون حب . راجع :

Aimé Savard : Couple et Mariage dans le monde moderne, pp. 12-13, in «Informations Catholiques Internationales», No. 411, 1 juillet 1972.

وقد اجري حديثا تحقيق ضخم بادارة الدكتور سيمون عن السلوك الجنسي عند الفرنسيين ، فطرح ثلاثمائة سؤالا على ٢٦٢٥ شخصا يمثلون الشعب الفرنسي بكافة فئاته . وما اظهره هذا التقرير ان كثيرا من الشباب الفرنسي يمارسون علاقات جنسية سابقة للزواج ، ولكن اكثرهم يمارسها في اطار علاقة شخصية تجمع الشريكين . فبالنسبة للفئة التي تتراوح اعمارها بين ٢٠ و ١٩ سنة ، اتضح ان اكثر الشباب لم يقدموا على اول علاقة جنسية الا بعد فترة من التعارف ، وان نصفهم كانوا يعرفون شريكهم في تلك العلاقة منذ اكثر من سنة ، والعلاقة الاولى تمت ، في ٤١ ٪ من الحالات ، مع الزوج المستقبل . راجع :

Odette Thibault : Le rapport Simon sur le comportement sexuel des Français, p. 20, in Hebdo-T.C., No. 1479, 9 novembre 1972.

وقد كتب ايمه سافار معلقا على هذه النتائج ونتائج اخرى كثيرة مماثلة اعطتها التحقيقات في بلاد اخرى :

« كل شيء يجري . . . وكأن الشباب يطالبون بالحرية الجنسية لا ليمارسوها كيفما كان بل لاخضاعها للحب » .

Aimé Savard : op. cit.

يقول مارك اوريزون بهذا الصدد :

« عندما تسنح للمرء فرصة المناقشة والتفكير مع مجموعات مستمعين من الفتيان والفتيات المتراوحة اعمارهم بين ١٨ و ٢٥ سنة ، يلفت نظره فورا هاجسهم الرئيسي بأن يدركوا قيم الحب الحقيقية ويطلقوها . ما عدا بعض الشواذ ، طبعا ، يشعر المرء برغبة عميقة عند الشباب بأن يدركوا ، ابعد من التحريمات والانظمة ، المعنى الحقيقي للحياة الجنسية بالضبط في منظار بنيان

ايجابي للحب » .

ويستشهد الكاتب بهذه العبارة التي وردت في المشهد الهيبي الشهير « هير » : « لا للجنس دون حب » .

راجع :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, pp. 96-97, Mame-Fayard, 1971.

وتقول اوديت تيبو :

« ينبغي ملاحظة **النسبة المئوية الضعيفة** للعلاقات الجنسية المتعددة او الجماعية ، مما يعطي هذه الممارسات قيمة احتجاج ضد اخلاق سلبية اكثر مما تكون علامة قناعة عميقة (...) اعتقد ان اغلبية الشباب يعتبرون الحب امرا رصينا ، ولا يودون سوى ان يضفوا عليه طابع الديمومة والاختيار والحصرية ولربما كانوا فعلوا ذلك بأكثر سهولة لو كنا لهم قدوة في هذا المضمار » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 141-142.

وتعبر جاكلين برجريه عن وجهة النظر عينها ، فتقول :

« ... في هذا العصر الذي يتعالى فيه ضجيج الذين يفضلون المجون على الحب (...) في هذا العصر بالذات يترعرع ، اكثر مما في اي زمن آخر ، شباب يهتدون من جديد الى دروب الحب ... » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, p. 150.

ويقول جورج موكو بالمعنى نفسه :

« ان كانت الاجيال الشابة تعيد النظر في كثير من القيم القديمة ، الا انها ، بالعكس ، تعطي قيمة للحب . انها تؤكد الحق بالحب حتى ، اذا اقتضى الامر ، ضد القيم الاكثر مادية منه . لذا ، فبالنسبة للأجيال الصاعدة ، يبقى الزوج couple المثال المرغوب ، رمز هذا الحب السعيد ... » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, pp. 200-201.

١٤٩ ــ راجع :

J.A. Hadfield : op. cit., p. 202.

١٥٠ ــ راجع :

J.A. Hadfield : op. cit., p. 204.

١٥١ ــ هذا ما سمي « بالصراع بين البغي والعذراء » .

راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 34.

ان الجذور العميقة لهذا الفصم تعود ، كما بين التحليل النفسي ، الى كون العقدة الاوديبية تستيقظ عند المراهق مع يقظة الجنس عنده ، مما يؤدي الى فك الشهوة عن الحب ، لأن المرأة

المحبوبة (وهي بالنسبة للعقل الباطن صورة عن الأم) لا يمكن ان تشتهى ، بموجب التحريم الاوديبي ، بينما المراة المشتهاة لا يمكن ان تحب (والا اصبحت صورة عن الأم المحرمة) . راجع مثلا :

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 198.

راجع ايضا :

Anne-Marie Rocheblave-Spenlé : L'Adolescent et son monde, pp. 108-110, Ed. Universitaires, 1969.

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 24.

١٥٢ ـ راجع :

Pierre Saurat : Pourquoi tant de colère ? p. 320, Ed. Robert Laffont, Paris, 1966.

١٥٣ ـ راجع :

Pierre Saurat : op. cit., pp. 154-155.

١٥٤ ـ راجع :

Pierre Saurat : op. cit., p. 369.

١٥٥ ـ راجع :

S. Freud : Trois Essais sur la théorie de la sexualité, p. 111.

S. Freud : Contribution à la psychologie de la vie amoureuse, Revue Française de Psychanalyse, 1936, No. 1, p. 11, cité par A. Plé : Freud et la Morale, p. 125.

يقول الدكتور توردجمان :

« ان النضج النفسي الجنسي يحدد ، فيما يحدد ، بالقدرة على جمع العاطفة والرغبة على موضوع واحد . حتى ان درجة قدرة الانسان الجنسية تقاس ، حسب راي فرويد ، بهذا المقياس . الا ان الكثيرين لا يبلغونه ابدا » .

Gilbert Tordjman : op. cit., p. 264.

تلك هي حالة الدون جوان :

« ان التاكيد بأن دون جوان عاجز جنسيا ليس مفارقة الا بالظاهر . انه عاجز عن الحب ، وهو يعرف ذلك . اما ما يحاول ان يخفيه في هربه الى الامام ، من مغامرة الى مغامرة ، انما هو العجز الجنسي الذي لا بد وان يعتريه مع شريكة ما لو بدا يشعر تجاهها بعاطفة اكثر اكتمالا من مجرد اندفاع الرغبة » .

G. Tordjman : op. cit., p. 268.

راجع ايضا :

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 61.

Hans Zulliger : Bandes, Hordes et Communautés, pp. 88-89.

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 249.

١٥٦ ــ راجع :

St. Augustin : Confessions, p. 61, «Le Livre de poche chrétien», 1962.

١٥٧ ــ في روايــة « الثعلب » لدافيد ــ هربرت لــورانس ، يصور لنا الكتاب التحول الذي طرأ على الشاب هنري عندما تجلت له فجاة ، ولأول مرة ، انوثة الفتاة مارش التي احبها :

« ... يا للغرابة ، فجاة احس نفسه رجلا ، وانه لم يعــد مراهقا . احس نفسه رجلا ، مع كــل وزن مسؤوليــة رجــل . فاجتاحت نفسه طمأنينة غريبة ورصانة عجيبة . احس نفسه رجلا ، هادئا (...)

« لقد كان فستانها يجعلها رقيقة وفاتنة . فأتاه ما يشبه فكــرة مسؤولية ابدية » .

David-Herbert Lawrence : Le Renard, p. 96, «La Petite Ourse», Lausanne, 1956.

١٥٨ ــ ان تلك الحقبة تفترض مساهمة الانسان بكليتــه في الحب . يقول ارنست ال بهذا الصدد :

« عندما تقول الارادة نعم لاختيار الجسد والشعور والعقل ، عند ذلك فقط يكون الحب قد وجد اسسا له في مجموعة الانسان ، عند ذاك يكون حبا ناضجا » . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 188-190.

ويقول الدكتور اندره برج :

« ... ان التناغم والتوافق بين النزعات الجسدية والعاطفية والعقلية والروحية هو علاقــة حب كامل . كلمــا ازدادت الميول المجتمعة على المحبوب ، كلما ازداد الحظ بالسعادة » .

Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 45.

ويقول الدكتور توردجمان بالمعنى نفسه :

« يمكن اذا تحديد النضج على انه القدرة عــلى جمع الحواس والفكر والقلب على شريك واحد من الجنس الآخر » .

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 198.

ان مهمة المراهقة ، براي هيلين دوتش ، هي تحقيق هذه الحقبة التي يتخطى فيها المرء ذاته ويوحدها بان واحد :

« ان مهمة المراهقة هي قبل كل شيء الانتقــال من حقبة من النرجسية الحادة الى حقبة من العلاقات الموضوعية ، وفي تحقيق التوافق ، ضمن هذه العلاقــات ، بين مشــاعر المحبة والنزعــات الغريزية » .

Hélène Deutsch : La Psychologie des Femmes, tome 1, p. 105.

١٥٩ ــ في نهاية كتابه القيم عن « الخيانة الزوجية » ، يتصدى

المحلل النفسي الماركسي الدكتور برنارد مولدورف للذين يستلهمون افكار رايش أو ماركوز لينادوا بأن « الحرية الجنسية » لا يمكن تحقيقها الا في سعي دائم الى لقاءات جديدة . يأخذ عليهم تجاهلهم للمتطلبات النفسية العميقة التي لا يمكن للانسان الا ان يفشل في سعيه الى السعادة ان لم يأخذها بعين الاعتبار . يقول :

« من باب الديماغوجية (وقد يكون من باب الخداع) ان يقال : كل شيء ممكن طالما الرغبة تريده . انها لنفس التهريج المخيف كأن يقال لرجل يرمي نفسه من اعلى برج ايفل : « حرك يديك ، وستطير كالعصفور » .

Bernard Muldworf : L'Adultère, p. 193.

وايضا :

« الحرية الجنسية الحقة انما هي في معرفة الضرورات النفسية والعاطفية في كل لقاء حبي .

ان الوحدة المستقرة ، الطويلة الامد ، هي (حتى اشعار آخر) اقرب ما يمكن الى هذه الضرورات النفسية والعاطفية ، وهي التي تعطي افضل الامكانيات للانشراح الشخصي . ففي هذه الوحدة يجد الفرد اعلى درجة من التفهم والتضامن ، فيها يجد هذه الطمأنينة العميقة والاساسية التي لا يمكن للمجتمع ان يقدمها له على اكمل وجه . في تلك الوحدة المستقرة يحقق الحب كل امكانياته. اما المزاوجات العابرة فأنها لا تعطي شيئا . قد تروي عطشا عابرا ، ولكنها لا تحمل تلك التبادلات الانسانية الضرورية لحياتنا ضرورة الهواء الذي نستنشقه » .

B. Muldworf : op. cit., p. 192.

١٦٠ ــ يقول رينه سيمون :

« ان الوحدة ، والامانة ، والخصب ، والمؤسسة ، يجب ان تفهم ، على انها ابعاد تسمح للحب بان يتكون على حقيقته ، اكثر مما هي مبادىء او قيم قابلة للترجمة الى قواعد ونواميس » .

René Simon : La Famille se meurt... (Hebdo-T.C., No. 1463, 20 juillet 1972, p. 16).

١٦١ ــ ان هذا التوافق بين الزواج ومتطلبات الحب الاساسية، هو ما يفسر ، برايي ، ذلك التحبيذ الذي لا يزال يلقاه الزواج بين شباب المجتمعات المصنعة ، رغم الموقف الرفضي المنتشر بينهم حيال التقاليد .

واليكم بعض الشواهد على هذه الظاهرة :

يذكر روجيه موكيللي في كتابه « سيكولوجية الحياة الزوجية » ، انه « سنة ١٩٠٠ ، كان خمسة من الف من الرجال فقط يتزوجون قبل العشرين ، و ٣٥ بالألف من النساء . اما في ١٩٧٠ ، فقد اصبح هذان الرقمان ٣٥ بالألف من الرجال و ١٩١ بالألف من النساء... ».

Roger Mucchielli : Psychologie de la vie conjugale, note de la page 84, Les Editions ESF, Paris, 1973.

ويقول الدكتور مارك لاندري :

« في تقرير سيمون ، مثلا ، ٩٠٪ من الافراد المستجوبين ، حتى في فئة الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٠ و ٢٩ سنة ، يبدون مؤيدين للعلاقة الشرعية . ٥٪ فقط يحبذون العلاقة الحرة التي لا تقوم على عقد حقوقي » .

Dr. Marc Landry : La Famille en devenir, p. 24, in «Le Groupe familial», No. 61, octobre 1973.

وقد كتبت اوديت تيبو :

« الواقع ان الزواج مرغوب من اغلبية الشباب (٩٠ ٪ ، حسب تحقيق جرى سنة ١٩٦٦) ؛ وان الرغبة في الديمومة والامانة منتشرة جدا (بنسبة ٨٦٪ حسب تحقيق جرى سنة ١٩٦٩) . احادية الزواج تبقى القاعدة المثالية ... » .

Odette Thibault : L'Orientation nuptiale. La science au service du couple (Hebdo-T.C., No. 1503, 26 avril 1973, p. 11).

وكتب روجيه موكيللي في المرجع المذكور اعلاه :

« ملفت للنظر ان الأمانة ، التي أعلنها الاباحيون قيدا لا معنى له ، كان يعتبرها ، سنة ١٩٥٧ ، ٨٢٪ من الشباب اساسية في الحب بالنسبة الى كلا الشريكين . اما سنة ١٩٦٩ فقد اصبح هذا الرقم ٨٦ ٪ (حسب استقصاء اجرته جريدة الاكسبرس) » .

Roger Mucchielli : Psychologie de la vie conjugale, note de la page 84.

ويقول جورج موكو :

« حاليا ، يتزوج الاوروبيون في سن مبكرة اكثر فاكثر ، ايا كان البلد الذي نشأوا فيه ، وعدد الذين يبقون عازبين منهم في تناقص مستمر . ان هذه النزعة تلفت النظر لأنها تتواجد مع كون الشباب يتخذون بسهولة موقف الرفض ويعيدون النظر في القيم القديمة . الزواج والعائلة يبقيان اذا بالفعل ، ورغم الانتقادات الموجهة اليهما ، قيما تبقى الشبيبة متمسكة بها تمسكا قويا » .

Georges Mauco : Les Célibataires et le Célibat, p. 62, p. 65, p. 200.

ويقدم الكاتب نفسه مثلا يعبر عن هذا التواجد عند الشبيبة بين الموقف الرفضي والتمسك بالزواج . يقول مستشهدا بنتائج تحقيق جرى بين طلاب معهد فرنسي شهير :

« حتى طلاب الـ E.N.A. تلك المدرسة الوطنية للادارة التي تقدم للدولة كوادرها ... يبدون رافضين للدولة وللمجتمع وقيمه التقليدية ، وليس للزواج » .

Georges Mauco : op. cit., p. 185.

وقد كتب لويس روسيل ، وهو احد بحاثي المؤسسة الوطنية الفرنسية للدراسات الديموغرافية ، معلقا على نتائج تحقيق اجري في المانيا الغربية واظهر ان اغلبية الشباب يتمنون اختبارا جنسيا قبل الزواج ، قائلا :

« بالواقع يظهر التحقيق (المذكور) انه في اغلب الحالات (اي حالات حصول علاقة جنسية قبل الزواج) يجد المرء نفسه امام علاقات احادية ومستمرة نسبيا » ، اي امام « نمط اتحاد يقلد الزواج » .

Cité par Aimé Savard : Couple et Mariage dans le Monde moderne, p. 8.

هكذا فان تقييم الحب لدى شباب البلدان المصنعة يدفعهم ، رغم مواقفهم الرفضية ، الى تحبيذ الزواج ، مع انتقادهم لبعض مظاهره الراهنة ، لا بل الى اضفاء طابع مماثل للزواج حتى على العلاقات الجنسية التي يقيمونها قبله .

انهم بهذا يؤكدون الصلة العميقة الكامنة بين الحب والزواج ، تلك الصلة التي تؤكدها ايضا ، من جهتها ، دراسة مالينوفسكي لشعب كانت حضارته على نقيض المجتمع الاوروبي المصنع . فقد بين هذا البحاثة كيف ان الحب ، عند سكان جزر تروبريان ، من الدوافع الهامة التي تحدو بشريكين ، يساكنان احدهما الآخر جنسيا ، الى الارتباط بروابط الزواج غير القابلة للانحلال .

B. Malinowski : La Vie sexuelle des sauvages du Nord-Ouest de la Mélanésie, pp. 70-73.

١٦٢ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, p. 134, Ed. Casterman, Feuilles Familiales, Tournai, 1969.

Abel Jeannière : Anthropologie sexuelle, pp. 172-174.

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 16-17.

وتوضح اوديت تيبو الفرق بين الزواج وبين معاشرة بلا زواج مستمرة ، فتقول ان تلك المعاشرة تفترض امكانية التراجع ، تحفظ خط الرجعة ، مما يحول دون كلية العطاء وبالتالي يعارض ، منذ الاساس ، قيام رباط متين . بالعكس ، فان الالتزام الكلي تجاه الآخر ، امام الناس ، وبالنسبة للمؤمنين امام الله ، يتوافق مع تلك الحاجة الى المطلق في المكان والزمان التي هي في صميم كل حب صادق » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 128-129.

ويقول الدكتور اندره مورالي — دانينوس :

« ... الزواج وحده هو البرهان المتعذر دحضه ، العميق

والنهائي بالظاهر ، على ان شخصا ما قد اريد وقبل من الآخر . بما ان كل انسان يحمل في ذاته الجرح غير المندمل الذي سببه لـــه ما احسه من رفض الوالدة له (وهو الشعور الذي يلازم انفصـــال الوليد التدريجي عن الأم ليصبح كائنا مستقلا) ، لذا فان الزواج يظهر للعقل الباطن بمثابة الميناء الهادىء على طريق الحياة القاحلة احيانا » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 157, Casterman, 1972.

١٦٣ — راجع :

Marc Oraison : Le Célibat, pp. 17-19, p. 25, pp. 27-28.

تقول المرشدة الزوجية مرغريت لامبير :

« عندما يتشكل بنيان حب حقيقي ، ياتي وقت لا بد للفرح فيه ان ينفجر (...) فالثنائي لا يسعه أن يستمر في اخفاء سعادته . يشعر بحاجة الى الاعلام بها . هنا يكمن على الارجح اصل الاحتفال الذي يحيط بزوج جديد في كل المناطق والحضارات .

« بعض الشباب ، اليوم ، يرفضون روح الاحتفال هذا . وهذا يعود على الارجح الى التشويه الذي الحق به ، اذ جعل منه مجموعة واجبات مفرغة من معناها ، مستثمرة تجاريا ، مقولبة بموجب نماذج يستعبد لها الناس تقريبا ، وقد فقد منهـــا كل هـــاجس التعبير الشخصي وحصرت ضمن تقاليد جامده (...) » .

« ان المشاركة في الفرح تليق باتساع الكيان الذي يحققه الحب. وهنا نلتقي بمعنى الزواج ، شرط أن ننفض عنه ، هو ايضا ، الغبار الذي جمده » .

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, pp. 64-65, Resma, 1973.

راجع ايضا :

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 103, Mame-Fayard, 1971.

١٦٤ — يقول اوسفالت كوله :

« كثيرا ما تسمع العبارة : الزواج مقبرة الحب . الا ان المرء ، اذا قام بتحقيق صغير ، يلاحظ ان الذين يتلفظـــون بهذه الجملة كانوا دائما حفاري قبر حبهم » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 103.

١٦٥ — تبين اوديت تيبو ان الزوج couple انما يقدم اوفر حظ لتحول الحب النرجسي والاستيلائي الـــى حب معطـــائي .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 75.

وتصف مرغريت لامبير خبرة الزواج بقولها :

« انه تدرب بالمعنى الكامل للكلمة . انه الاكتشـــاف البطيء

والشاق للآخر من حيث هو آخر ، وللذات تجاه الآخر ، ولجنسين لا يشعران ولا يتفاعلان بالطريقة نفسها » .

Marguerite Lambert : Amour vécu, p. 68.

١٦٦ — يقول الدكتور برنار مولدورف :

« في الحب تجربة نرجسية اصلية : الا وهي ان يكون الحب عبارة عن حب الفرد لنفسه ، من خلال الآخر ، بفضل الاخر ، بفعل وجود الاخر . هي ان يفتش المرء في الاخر عن انعكاس صورته الذاتية ، كما تشهد تلك الظاهرة الا وهي انه في كثير من الحالات العصابية ، يدفع المرء شعوره بالنقص الى ان ينظر باستمرار الى ذاته في مرآة ، كأنه يشاء من وراء ذلك ان يتيقن من وجوده » .

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, p. 167.

١٦٧ — في المسرحية التي وضعها الشاعر اللبناني الكبير جورج شحاده باللغة الفرنسية ، « قصة فاسكو » ، يرينا الكاتب بطلته مرغريت تفتش عن مجهول حلمت به فوقعت في حبه . في الطريق ، تستغرق في تأملاتها ، وقد بقيت وحيدة قرب كلب مصبر ، فيديل ، وطبل . تقول :

« انني وحيدة ، مع فيديل وطبل ... وحيدة مع نفسي (...) وانا لا اعرف وجه حبي (...) » .

« ان اللواتي يعتقدن انني جننت لجريي وراء ظل ... ما الذي تعانقنه عندما يكون المحبوب الي جانبهن ؟ اليس هو حلم حبهن ؟ فما الذي تملكنه اكثر مني ؟ انني وحيدة مع طبل وفيديل ... » .

Georges Schéhadé : Histoire de Vasco, 4ème tableau, scène 5, pp. 148-149, Ed. Gallimard, Paris, 1956.

١٦٨ — تقول اوديت تيبو :

« ... من ابسط شروط احترام الآخر ان يقبل من حيث هو « آخر » ، اي ليس مختلفا عن الذات تحديدا وحسب ، بل مختلفا عما كنا ننتظر ان يكون » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 60.

وتضيف ان القدرة على الاضطلاع بالآخر على حقيقته انما هي من علامات التوازن العاطفي . وتوضح انه ينبغي ليس فقط ان نقبل الآخر دفعة واحدة ، بل ان « نختاره » من جديد كلما تطور مع الزمن وبتأثير الحياة المشتركة . راجع :

Odette Thibault : op. cit., pp. 74-75.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 187.

١٦٩ — راجع :

Denis de Rougemont : L'Amour et l'Occident, p. 241, coll. «10-18», Union générale d'éditions, Paris, 1962.
Ignace Lepp : Psychanalyse de l'Amour, pp. 198-199.

١٧٠ — راجع :

Ignace Lepp : op. cit., p. 257, p. 128, pp. 238-240, p. 301, note 5 du livre VI.
Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, p. 59, Les Editions Ouvrières, Paris, 1967.

١٧١ — راجع :

Molière : Le Misanthrope; acte II, scène 4.

١٧٢ — راجع :

André Gide : Les Faux-Monnayeurs, p. 205, Gallimard, Paris, 1963.

تقول اوديت تيبو :

« ان ظاهرة التكرار تضعف اثر الافضل وتجعل الاسوأ اقل احتمالا » . راجع :

Odette Thibault : op., cit., p. 49.

راجع ايضا :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 101-102.

١٧٣ — راجع :

Louise Despert : Enfants du divorce, pp. 211-212.
Louis Millet : L'Agressivité, p. 61.

١٧٤ — راجع :

Louise Despert : op. cit., p. 212.

١٧٥ — راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 187.

١٧٦ — تقول اوديت تيبو :

« ان جلاء النظر عامل لا يستغنى عنه من اجل دوام الحب (...) (اذ) لا يمكن ان يبنى حب حقيقي ، وبالتالي دائم ، على الوهم . ولكن رؤية الاشياء كما هي ، والآخر كما هو ، والذات في عيني الآخر ، هذا لا يعني « أن الامور حسنة كما هي » وان على الآخر « ان يقبل الاشياء هكذا او ان يرفضها » . انما يعني قبول الواقع كقاعدة انطلاق ، مع رجاء وارادة تحسينه » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 43.

١٧٧ — من هنا تبرز ، كما يوضح ارنست ال ، من جهة ضرورة اختيار شخصي حقيقي للشريك ، ومن جهة ثانية افساح فترة للحب لكي ينضج من خلالها قبل ان يؤدي الى الزواج . راجع :

Ernest Ell : op. cit., pp. 187-188.

١٧٨ — راجع :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 103.

١٧٩ — راجع :

Ernest Ell : op. cit., p. 186, p. 242, p. 260.

١٨٠ — في كتاب وضعه فريق من المرشدين الزوجيين الاميركيين، يوضحون ان قبول الفوارق الاساسية ، على الصعيد الفردي والجنسي ، شرط من شروط نجاح الزواج ، وهو يتطلب نضجا عاطفيا . راجع :

Bannister et als : Problèmes du mariage, p. 42, PUF, 1959.

ويقول المحلل النفسي جورج موكو :

« ان انسجام الزوج couple يتطلب قبول الآخر في اختلافه بعد التجرد من الخوف من هذا الآخر » .

Georges Mauco : Les Célibataires, pp. 35-36.

١٨١ — يقول الدكتور اندره مورالي — دانينوس :

« ... عندما يصل القرينان الى اتصال لا حد له ، فان احدهما دوما هو « اقوى » من الآخر : اكثر اعتبارا او علما او ديناميكية او اهمية . والخطر الكبير ، في هذه الحالة ، هو ان يبتلع الاقوى الآخر ويخفيه في ذاته بعملية شبه هضمية . اما نتيجة هذا الابتلاع فهي اختفاء الآخر من حيث هو شخص مستقل وكامل وجدير بالحب » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 136.

وتقول اوديت تيبو في مقال لها :

« لا يجب الخلط بين القرب والاختلاط . ونود ان ندخل هنا مفهوما قد اهمل بافراط مع انه اساسي . الا وهو مفهوم **المسافة المثلى** distance optimale يمكن تحديدها على انها المسافة التي ينبغي مراعاتها بين الكائنات لئلا يشعر بحضور الآخر وكأنه تدخل وعدوان فيثير ردود فعل دفاع وعدوان (...) ».

« تكوين زوج لا يقوم بتخلي المرء عن فرديته الذاتية ولا بتضحيته برقع كاملة من شخصه ليدخل في ذات قالب الآخر ، مما قد يؤخذ على هذا الآخر فيما بعد (...) ان غ. و ن. اونايل (في كتابهما « الزواج المنفتح ») يعارضان الزوج الموحد «réducteur» بالزوج المتآزر «synergique» ، حيث تغتني وتتفتق شخصية كل واحد بفضل الآخر (...) .

« مجمل الكلام ، ان على كل زوج ان يفتش عن توازنه في جدلية التباعد والتقارب ، الالتحام والانفراد . فالزوج ، مع انه مؤسس على نوع من الارتباط المتبادل بين الطرفين ، يجب ان يكون اجتماع شخصين حرين ومستقلين » . راجع :

Odette Thibault : Le couple en danger de «fusionite» (Hebdo-T.C., No. 1530, 1 novembre 1973, p. 22).

راجع ايضا :

Dr. Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée magique, pp. 188-189, Delachaux et Niestlé, 1966.

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 144.

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 114.

١٨٢ ــ راجع :

Jean Lacroix : L'Echec, p. 48, P.U.F., Paris, 1969.

١٨٣ ــ راجع :

Odette Thibault : Le couple, cette équation à deux inconnues, in Témoignage Chrétien, No. 1364, 27 Août 1970, p. 19.

تقول ايضا اوديت تيبو :

« ان الصراع ، وهو ظاهرة انسانية وجودية ، سوف يكون ابدا قاعدة الزوج وعنصرا ضروريا لحياته ونموه .فأذا كان الغلو في الصراع يقود احيانا الى القطيعة ، فأن غياب الصراع يعني الموت » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 20-21.

وفي موضع آخر تقول :

« يجب ان تكون (للشريكين) شجاعة قبول بعض المجابهات (غير العنيفة) التي من شأنها ان تكون مصدر تقدم وان تساعد على تكيف متبادل افضل ــ الا اذا ارادا ان يعيشا حياتين متوازيتين، تحديدا لن تلتقيا ابدا ! » .

Odette Thibault : op. cit., p. 44.

وايضا:

« ان السيطرة على العدوانية لا تعني كبحها او كبتها . انما تقوم خاصة على استخدامها في خط بناء » .

من هنا تنطلق الكاتبة لتبين انه يمكن استخدام الصراع داخل الزوج من اجل التقدم . وتستشهد بدراسة قام بها اخصائيان نفسيان اميركيان ، غ. واخ وب. وايدن . فقد اختارا خمسين زوجا ودرسوها بقصد تحديد « الزوج المثالي » ، فاتضح لهما « ان الزوجين الحقيقيين الوحيدين (في هذه المجموعة) كانا اللذين يتناقش افرادهما ويعتبران مفهوم الصراع طبيعيا كمفهوم الغذاء » .

وتضيف الكاتبة :

« يجب ان نرى علاقات الزوج على انها صراع مثمر ، على حد تعبير هنري ميلر » . راجع :

Odette Thibault : op. cit., p. 57, pp. 77-78.

اما المرشدة الزوجية رولاند دوبون ، فقد كتبت ، مستشهدة بدورها بدراسة واخ ووايدن (المنشورة بالفرنسية تحت عنوان « العدو الحميم ») قائلة :

« على الصعيد الزوجي ... بداوا يدركون ان « المشاجرات لا بد منها بين شريكين راشدين » (واخ ووايدن : العدو الحميم) . لا بل اكتشفوا ، اكثر من ذلك ، ان المشاجرات اذا « أحسن توجيهها » وتلتها مصالحات ، قادرة ان تساعد على انماء الالفة العميقة . ان هذا المفهوم يسمح بنزع طابع التهويل عن كثير من الصراعات التي يمكن ان تكون ، اذا نظرنا اليها من هذه الزاوية ، مفيدة للازواج couples ... » .

Rolande Dupont : Le Conseil conjugal et familial, pp. 47-48, Casterman, 1972.

وقد كتبت انغريد تروبيش ، زوجة القسيس فالتر تروبيش ، الى فتاة افريقية استشارتها بصدد علاقتها بالشاب الذي تحبه ، قائلة :

« الاختلاف في وجهات النظر ليس امرا صالحا فحسب ، بل انه ضروري . ان زوجي يتردد احيانا في تزويج شخصين لم يختلفا البتة » .

فالتر تروبيش : احببت فتاة ، ص ١١٨ ، دار منشورات النفير ، بيروت ، ١٩٧٣ .

١٨٤ — راجع :

Dr. Jacques Sarano : Connaissance de soi, Connaissance d'autrui, p. 137, Ed. du Centurion, Paris, 1967.

١٨٥ — راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 190-194.

١٨٦ — يقول فالتر تروبيش :

« ان اتحاد الرجل والمراة في جسد واحد له معنى عميق في ذاته بصرف النظر عن الاولاد » .

فالتر تروبيش : المرجع نفسه ، ص ٣٤ .

١٨٧ — راجع :

Paul Evdokimov : op. cit., p. 167.

تقول اوديت تيبو :

« اذا كان المرء يعيش جنسه بشكل منشرح ، فالرغبة في الطفل بديهية عنده (...) اذا كان الخصب سبب الحب ، على الصعيد البيولوجي ، فهو يصبح ، على الصعيد النفسي ، نتيجته ، هكذا تنعكس روابط السببية » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 105-106.

وتستشهد الكاتبة بهذه الكلمات لهنري ميلر :

« ينبغي للطفل ان يكون ثمرة الروح ، ثمرة الحب ، قبـــل ان يكون ثمرة الجسد الذي ليس سوى وسيلة لانجابه » .

كما انها توضح اهمية الرغبة بالطفل منذ قبـــل ولادته وتبين المأساة التي يعاني منها الولد غير المرغوب فيه . راجع :

Odette Thibault : op. cit., p. 108.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 262.

١٨٨ — يقول أ.س. نايل :

« ... ان ولد والدين لا يحب احدهما الآخر له حظ قليل بأن ينمو بشكل سليم ، لأن العادة الشاملة عند هذا النمط من الوالدين هي ان يحملوا الولد نتيجة حرمانهم » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 264, Maspéro, 1973.

وتقول جاكلين برجريه :

« ... ان العلاقة بالطفل تشوه اذا لم يستطع الرجل والمرأة في الزوج ان يحب احدهما الآخر » .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa psychanalyse, p. 142, Le Centurion, 1973.

١٨٩ — راجع :

Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, p. 133.

١٩٠ — تقول الاخصائية النفسية بياتريس ماربو — كليرانس في كتابها « نفسية الأمهات » :

« بما انهما (الزوجين) يحبان احدهما الآخر ، سيحبان الطفل ، الذي هو بالنسبة لكل منهما انعكاس الآخر . وبما ان العلاقـات البشرية جدلية دائمة ، فالحركة العكسية تقــوي ايضـا روابط الزوج . اذ انه في الطفل تتلاقى الاهتمامات نفسها ، والقلق نفسه ، والحنان نفسه ، أنه المكان الذي يلتقي فيه الوالدان اذا ضلا الطريق لبرهة » . راجع :

Béatrice Marbeau-Cleirens : Psychologie des mères, **pp. 65-66, Editions Universitaires, 1967.**

وعن العلاقات المتبادلة بين الحب الزوجي والحب الامومي عند المرأة ، راجع :

B. Marbeau-Cleirens : op. cit., pp. 47-48.

١٩١ —

cité par Mariane Roland Michel : Attendre un enfant, p. 54, Ed. Casterman, Tournai, 1969.

راجع ايضا :

id, ibid, pp. 162-163.

هذا صحيح بالنسبة للرجل ايضا كما يبين المحلل النفسي ، الدكتور برنار مولدورف ، في كتابه « مهنة الابوة » :

« منذ اللحظة التي يعايش فيها رجل امرأة ، ويحب هذه المرأة ، يتمنى ان يكون له طفل صادر عن هذا الحب . ان عاطفة الأبـوة تولد على ذات صعيد حب الرجل لزوجته » .

Dr. Bernard Muldworf : Le Métier de père, p. 16.

١٩٢ ــ راجع :

André et Hélène Isnard : On pourrait tellement mieux s'aimer, pp. 140-141, Ed. André Isnard, Lyon, 1972.

١٩٣ ــ راجع :

Antoine de Saint-Exupéry : Terre des Hommes, pp. 234-235, «Le livre de poche», 1959.

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, p. 184.

١٩٤ ــ في روايتها « الغرفة الحمراء » ، تصور لنا فرنسواز مالله ــ جوريس كيف ان هيلين ، بطلة الرواية ، اذ وقعت ، مغلوبة على امرها ، في حب جان ، شعرت بشفقة تستيقظ فيهـا تجـاه البؤساء ، لم يكن لها عهد بها البتة فيما قبل :

« لم أكن اريد ، لم اكن اريد ان ادخلهما في حبي ، كنت اريد ان اغلق على قلبي حول جان ، حوله وحده ، وأن اتـرك كل باقي العالم خارجا . ولكن هل كان هذا الامر ممكنا ؟ الا يفتح كل حب حقيقي ثغرة يدخل منها ، دائما وابدا ، مزيد من الحب ؟ » .

Françoise Mallet-Joris : La Chambre rouge, p. 275, Ed. «J'ai lu», Paris, 1972.

١٩٥ ــ يقول ادمون بربوتان ان على الاسرة « ان تشع الى ابعد من حدودها الذاتية ، باستقبال الغير في فرح المنزل ، بالتزام الزوجين في المجتمع البشري ... » . ويضيف قائلا :

« ... عندما تكون (الأسرة) حاصلة على نعمة الحب ،
فكيف لها ، تجاه كل هذه النداءات ، هذه الشدائد ،
هذا النقص في الحب ،
كيف لها ان تحتفظ بهذه النعمة لنفسها ؟
الا يكون ذلك ضيقا ، انطواء على الذات ،
انانية لا واعية ، تهديدا لحب الأسرة نفسه ؟
ان الحب يقود الى العطاء .
ويغتذي من هذا العطاء » .

Edmond Barbotin : Croire, pp. 147-148, Desclée, Paris, 1971.

ويقول الكاتب الفرنسي جاك ده بوربون ــ بوسيه :

« ما هو حقا معاد للمجتمع ، انما هو الانطواء النرجسي على

الذات . ولكن الحب وحده هو بالضبط ما يستطيع ان يحطم السور الذي ينزوي الفرد داخله عمدا ، وعندما اقول ذلك اتحدث عن امر عشته .

« ولكن هناك ما هو اكثر من ذلك بكثير . ان الحب المطلق (بهذه العبارة يشير الكاتب الى الحب الانساني المكتمل) يمنح قوة داخلية تسلح المرء للعمل (...) عندما يتحقق التوازن العاطفي بشكل كامل ، يحس الرجل والمراة بأنهما حران ومتفرغان لأية مهمة كانت . وبالعكس ، كم رايت من مهن سياسية عظيمة تنهدم بفعل اختلال عاطفي دائم ! ان الحياة الحميمة المنسجمة تسمح للمرء بأن يقوم بعمل اجتماعي فعال » .

Jacques de Bourbon-Busset : Radioscopie du bonheur, p. 83, in Oui au bonheur, Semaine des Intellectuels Catholiques 1970, Desclée de Brouwer, 1970.

واليكم بعض الشواهد عن خصب الحب في الميادين التي تتعدى الاسرة .

ابدأ بشاهد ادبي لا بد وانه يستلهم واقع الحياة . في رواية سهيل ادريس ، « اصابعنا التي تحترق » ، تستعيد الهام راضي تذكار رحلة قامت بها مع سامي الى مصر اثر زواجهما الذي كرس الحب الذي جمع بينهما ، فتقول :

« لقد سألتك يومذاك ، للمرة الاولى ، عما اذا كنت تحب الاولاد ، فكان جوابك انهم سيكونون فرحتك الدائمة . وبعد ان تحدثنا مليا في الامر ، صمت هنيهة لتقول :

ـــ اما اذا لم نرزق اولادا ، فسنظل نعتبر « الفكر الحر » (مجلة سامي) ابنتنا وقرة عيننا . وسنظل نعنى بها حتى تترعرع وتنمو وتملأ الدنيا .

وكان طبيعيا يا سامي ان اعاهد نفسي يومذاك ان احافظ معك على « الفكر الحر » كما كنت سأحافظ على اولادي » .

سهيل ادريس : اصابعنا التي تحترق ، ص ١٨٥ ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٧ .

وقد كتبت آن فيليب في مذكرات مؤثرة روت فيها ذكريات الحياة المشتركة القصيرة التي عاشتها مع زوجها الممثل جيرار فيليب قبل ان يختطفه الموت وهو لا يزال في شرخ الشباب ، قائلة :

« طيلة سنتين توقعنا انه سيتاح لنا ان نبني انطلاقا من حبنا . ان نبني اطفالا ، مهنة ، صداقات ، منازل ، وربما ان نساعد على بناء عالم افضل . وها ان زمن التحقيق قد اقبل . واذا بنا مهندسان منذهلان » .

Anne Philipe : Le Temps d'un soupir, p. 29, «Le Li-

vre de poche», 1970.

ومن باب اشعاع الحب الزوجي خارج دائرة الأسرة ، يذكر المفكر الارثوذكسي الفرنسي المعاصر ، اوليفيه كليمان ، الدور الذي يمكن ان يلعبه الزوج الذي يؤلفه الكاهن المتزوج مع زوجته . فقد كتب متحدثا عن زوجة الكاهن :

« انها تمارس خدمة حقيقية تحول دون انغلاق حنانها وامومتها على انانية عائلية بل توسعهما بحيث يتخذان شكل تقدمة وتضحية ... ان البعض من افضل الكهنة الذين صادفتهم كانوا قد اصبحوا كهنة في سن النضج بتأثير زوجتهم . وكانت هذه ، بتواضع خلاق ، تجعل من منزلهم مكانا يشعر فيه كل واحد بأنه مرحب به دون تضجر ، مكانا تجري فيه الحياة وتتكاثر ... » .

Olivier Clément : Dialogues avec le patriarche Athénagoras, p. 169, Fayard, Paris, 1969.

ان انفتاح الزواج ، على المنوال الذي ذكرناه ، بالاضافة الى انه يحافظ على اصالة الحب ، يمنح هذا الاخير حظا اوفر بأن يدوم ، لأنه يجنبه التورط في الروتين ويحميه من قيام روابط خانقة من الامتلاك المتبادل . يقول الطبيب النفسي الدكتور لاندري ان مستقبل الزواج مرتبط « الى حد كبير بمكانيات انفتاح العائلة النووية (اي المؤلفة من الزوجين وأولادهما) » . « بأتصالات مع رجال ونساء غير القرين » ، « بقبول واقع حاجة كل كائن بشري الى لقاءات متنوعة » . يقر لاندري ان انفتاحا كهذا يتضمن « اخطار تفكك لا يستهان بها » ؛ ولكنه يوضح ان هذا التفكك موجود الى حد بعيد في الاوضاع الراهنة وراء واجهة خداعة من الاتحاد الظاهري . يقول لاندري : « قد يحدث في المستقبل عدد اكبر من حالات فسخ الزواج الاحادي . ولكن عدد حالات الطلاق الحاصلة حاليا لا تعطي فكرة صحيحة عن درجة متانة الزواج الاحادي ، اذ كم من الأسر هي مفككة في نمط وجودها قبل ان تفسخ حقوقيا ! » .

راجع :

Dr. Marc Landry : La Famille en devenir, p. 25, in «Le Groupe familial», No. 61, octobre 1973.

راجع ايضا :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 46-47.

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 239-241.

١٩٦ — راجع :

Louise Despert : Enfants du divorce, pp. 9, 111.

لقد وضع العالم الاجتماعي الاميركي و.ج. غود Goode لائحة تثبت ارتفاع نسبة الطلاق في البلاد المصنعة من ١٩٠٠ الى

١٩٦٠ ، نثبتها فيما يلي (تشير الارقام الى عدد حالات الطـــلاق بالنسبة لكل الف زواج) :

البـلاد		١٩٠٠	١٩٦٠	
الولايات المتحدة		٧٣ر٣	٢٥٩ر٠	(١٩٥٩)
المانيـا		١٧ر٦	٨٨ر٧	
انكلترا وبلاد الوايلس	(١٩١٠)	٢ر٢	٦٩ر٥	
بلجيكـا		١١ر٩	٧٠ر٤	
النروج	(١٩٠١ — ١٩٠٥)	١٢ر٦	٨٨ر٥	(١٩٥٨)
الدانيمارك	(١٩٠١ — ١٩١٠)	٣٠ر٠	١٨٦ر١	
اســوج		١٢ر٩	١٧٤ر٦	(١٩٥٩)
فرنسا		٢٦ر١	٨٢ر٤	(١٩٥٩)
هولنــدا	(١٩١٠)	٢١ر٥	٥٧ر٧	(١٩٥٨)

راجع :

Aimé Savard : Couple et Mariage dans le Monde moderne, p. 8, I.C.I., No. 411, 1 juillet 1972.

هذا الازدياد يلاحظ ايضا في بلد نام كلبنان . راجع :

Claire Gebeyli : 1305 cas de divorce en 1971 : Les mariages libanais «cassent» de plus en plus (L'Orient-Le Jour, Vie moderne, Culture, Jeunes, du 8 au 14 avril 1972, pp. 8-9).

Mounir Chamoun : Problèmes de la famille au Liban, pp. 34-35.

الا أن فشل الزواج لا يتجلى في حالات الطلاق وحسب ، انما في الحالات الاكثر انتشاراً بكثير التي يحتجب فيها التفسخ الفعلي وراء استمرار المؤسسة الظاهري .

يقول ارنست ال بهذا المعنى :

« ... كثيرون يفشلون ، ليس فقط الذين يطلقون ، ولكن غيرهم ممن يستمرون في تحمل زواج افرغ تدريجيا من معناه » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 19, p. 256.

- ويبدو أن نسبة هذا المظهـر من الفشـل الزوجي مرتفعـة للغاية . تقول اوديت تيبو في احد مقالاتها ، مشيرة الى وضع البلاد الاوروبية المصنعة :

« اذا كانت نسبة حالات الطلاق قليلة الارتفاع (١٠ الى ١٥ ٪)، فان نسبة الزيجات الناجحة فعلا هي اضعف منها (حـوالي ١٠ ٪ حسب بعض التحقيقات) » .

Odette Thibault : La famille en mutation. Faut-il contester la monogamie ?, p. 13, Hebdo-T.C., No. 1439, 3 février 1972.

وفي مقالة اخرى ، تقول الكاتبة نفسها :

« بموجب تحقيق قام به الـ IFOP ، فبعد سنة زواج ، يصرح ٧٠٪ من الرجال و ٧٨٪ من النساء انهم خائبون او تعساء ، اما بعد سنتين ، فتبلغ هذه النسب على التوالي ٨٠ و ٨٥ ٪ ، وبعد ثلاث سنين ٨٩ و ٩٠ ٪ . هذا الفشل لا يؤدي عامة الى الطلاق الذي تبقى نسبته ضعيفة (١٠ الى ٢٠ ٪ في اوروبا) ، بل الى خلاف مقيم ، مضر جدا ليس فقط بالنسبة للزوجين بل للأولاد ايضا » .

Odette Thibault : L'Orientation nuptiale. La science au service du couple, Hebdo-T.C., No. 1503, 26 avril 1973, p. 11.

هذه الظاهرة المؤسفة ، يجدها الاخصائي النفسي الدكتور منير شمعون منتشرة في الأسر اللبنانية ايضا . يقول : « الزوج الوالدي متوتر اكثر منه مفكك ، ويعيش عامة في لامبالاة متبادلة . هذا الخلاف الخفي يهدم فرح العيش الخ . . . » ويضيف : « ان خبرتنا العيادية تسمح لنا بالقول ان الازواج الأكثر انسجاما في الظاهر تعيش كل يوم مآسي ممزقة » . راجع :

Mounir Chamoun : Problèmes de la famille au Liban, pp. 34-35, in Travaux et Jours, No. 25, octobre-décembre 1967.

ان لازدياد حالات التفكك الظاهر وانتشار حالات التفكك الباطني اسبابا عديدة ليس من شأننا ان نتوسع في ايضاحها هنا ، عائدة الى حركة التطور الاجتماعي والتكنولوجي التي تضعف سلطة التقاليد ، وتوجد حاجات واغراءات جديدة ، وتضعف الطاقة على احتمال الألم ، وتعزل العائلة النووية عن العشيرة التي كانت تحضنها وتساندها ، وتجعل الافراد اكثر تمايزا وتعقيدا مما يجعل ازواجهم اعسر ، الخ . . .

ان كثرة حالات فشل الزواج ، من فشل معلن وفشل خفي ، يقود الكثيرين في عصرنا الى التصدي لمؤسسة الزواج نفسها . ولكننا راينا الى جانب ذلك ، اقبالا كبيرا على الزواج عند شباب البلاد المصنعة عينها التي ينتشر فيها هذا الموقف الرافض . فكيف التوفيق بين هاتين الظاهرتين . الحق يقال ان معظم حالات الرفض تتناول الزواج من حيث هو مؤسسة اجتماعية وليس من حيث ارادة الاتحاد والمشاركة الدائمة التي تتجلى فيه .

يقول الباحث الاجتماعي لويس روسيل :

« ان عنصري الزواج هما العلاقات الشخصية المتبادلة من جهة ، والمؤسسة من جهة اخرى . فالعنصر الثاني يبدو اليوم منتقص القيمة جدا في نظر الشباب » .

Louis Roussel, cité par Aimé Savard : Couple et Mariage dans le monde moderne, p. 8.

ويضيف ايمه سافار ، معلقا على هذه الملاحظة :

« صحيح ان الزواج معترض عليه ، خاصة بين المثقفين الشباب ، ولكن هذا الاعتراض يتناوله من حيث تكريسه الاجتماعي وليس ، او نادرا جدا ، من حيث هو ارادة تكوين زوج ، من حيث هو سعي الى اتحاد انتقائي ، وحصري ، ودائم » .

Aimé Savard : op. cit., p. 9.

لا بل يمكن القول ان حدة الانتقادات الموجهة حاليا الى الزواج وكثرة حالات التفكك التي تحصل فيه ، تعودان الى حد ما الى الآمال الكبيرة المعقودة على المؤسسة والتي كثيرا ما يخيبها الواقع الزوجي . وبعبارة اخرى لا يرفض الزواج بهذه الحدة الا لأن الانسان المعاصر يطلب منه الشيء الكثير . يقول ايمه سافار :

« كثير من الزيجات فاشلة . ولكن وراء حالات الفشل هذه ، وراء الرفض ، نجد الامل العظيم الذي يضعه معاصرونا في الزوج . في عالم مديني urbain قاس ، مجزأ ، متوتر ، تسوده المنافسة — وبعبارة واحدة في عالم تضيع فيه الشخصية — يبدو الزوج لكل رجال ونساء اليوم تقريبا على أنه الملجأ الرئيسي ، ان لم يكن الوحيد ، لشعورهم ، والمصدر الاساسي لسعادتهم . الارجح انه لم يوجد زمان قط انتظر فيه من الزوج ما ينتظر منه اليوم » .

وايضا :

« في مؤتمر مؤسسة علوم الزواج والعائلة في زوريخ ، في تشرين الاول ١٩٧١ ، صرح اخصائي الماني ، م. غريفر بما يلي : « اذا كان الناس يلجأون الى الطلاق ، سواء تزوجوا بعد ذلك او لم يتزوجوا ، فليس مرد ذلك الى عدم تقديرهم للزواج . بالعكس ذلك يعود الى اعتبارهم الكبير له والى الاهمية الفائقة التي تتخذها الحياة المشتركة في نظرهم » .

Aimé Savard : op. cit., p. 9.

هذه الازدواجية في موقف معاصرينا من الزواج تقتضي ايضاح امر بالغ الاهمية ، الا وهو ان الزواج يستمد قيمته الاساسية ، لا من كونه مؤسسة اجتماعية تفرضها التقاليد ويحميها القانون ، بل من كونه الاطار الاجتماعي الذي يعاش فيه الحب اذا اكتملت ابعاده ، وان هذا الاطار ليس له مفعولا سحريا انما هو المكان الذي يمارس فيه الشريكان مهمة طويلة ودقيقة ومحفوفة بالمخاطر ومهددة ابدا بالفشل ، الا وهي مهمة تحقيق الحب وانمائه . يقول ارنست ال :

« ان الزواج يمثل فقط الوضع الملائم مبدئيا ، اكثر من اي وضع آخر ، للاتحاد الكامل ، ولكنه يظهر ايضا كمهمة ، يفشل فيها كثير من المتزوجين » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 208.

لذا ينبغي عدم التأكيد على المؤسسة وكأنها غاية بحد ذاتها بل تسخيرها للحب الذي وجدت في الاساس لخدمته . تقول اوديت تيبو بهذا المعنى :

« يجب أن تكون المؤسسة في خدمة الحب ، وليس الحب في خدمة المؤسسة » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 133.

ان هذا الموقف يتلاقى مع الهواجس المعاصرة ، كما عبر عنها مثلا العالم الاجتماعي لوسيان ميرونير ، احد المساهمين في التحقيق الذي اجري بادارة الدكتور بيار سيمون حول سلوك الفرنسيين الجنسي والذي نشرت نتائجه في تشرين الثاني ١٩٧٢ . يقول ميرونير في خلاصة لدراسة تصنيفية قام بها في اطار هذا التحقيق :

« ان ما تقرره التحاليل التصنيفية ينقض الاطروحة الشائعة عن انحلال متزايد في الاخلاق . انما يعبر عن التغييرات التي طرأت على القيم الجنسية . هناك نزعة الى استبدال الزواج ، من حيث هو عقد خلقي ، بالزوج ، من حيث هو تعهد متبادل مؤسس على المشاركة الجنسية والعاطفية . ان الانسجام الجنسي ومساواة الرجل والمرأة في الحق باللذة اصبحا عنصرين اساسيين لتكوين الزوج وديمومته » .

Lucien Mironer : Formations, Attitudes et Comportements sexuels des Français, p. 72, in «Le Groupe familial», No. 61, octobre 1973.

خلاصة الكلام ، كما تقول اوديت تيبو . « ان حالات فشل الزواج ، وحتى مفاسده ، تعود الى عناصر متعددة يرتبط كثير منها بمفاهيم خاطئة اكثر مما يعود الى عيب في طبيعة الزواج نفسها . لذا فانها تدعو لا الى رفضه بحد ذاته بل الى تحسينه باتجاه شيء اكثر انسانية . لأنه ينبغي ان يجعل الزواج للانسان اكثر مما يجعل الانسان للزواج » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 134.

راجع ايضا :

Joachim Bodamer : Sexualité, Amour et Névrose, p. 9.

Marc Oraison : Pour une éducation morale dynamique, p. 102.

Georges Mauco : Les Célibataires, pp. 186-187, p. 196.

١٩٧ — راجع :

Pierre Dufoyer : La vie conjugale au fil des jours, pp. 17-23, Ed. Casterman, Tournai, 1960.

١٩٨ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 134-136.

١٩٩ — يقول أرنست ال :
« لقد فقد الزواج الحديث الدعائم التي كان يستند اليها في الماضي . لذا فانه يحتاج ، ليبقى حيا ، الى مشاركة شخصية عميقة : لذا فان اختيار الشريك المناسب — الشريك الحقيقي — اصبح اكثر اهمية بما لا يقاس مما كان في الماضي » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 172.

٢٠٠ — راجع :

Oswalt Kolle : Ton mari, cet inconnu, pp. 38-41.

٢٠١ — راجع :

Odette Thibault : La morale catholique est-elle humaine ? in «Témoignage Chrétien», No. 1361, 6 Août 1970, p. 21.

في كتابها القيم « الزوج اليوم » ، تنتقد اوديت تيبو بعض الأسس الزائفة التي قد يبنى عليها الزواج . فمثلا تنتقد فهم الزواج على انه « اجازة مزاوجة » . كما تنتقد المفهوم النفعي للزواج ، كأن يكون ، في نظر المراة ، وسيلة للاستقرار ، وفي نظر الزوج ، واسطة ليحصل في منزله على كل الخدمات ، يقدمها له شخص واحد مجانا . وتتصدى ايضا لمفهوم الزواج « كتعويض » عن خطأ ارتكب ، وتقول بأن حظ تلك الزيجات الاضطرارية بالنجاح هو بنسبة ١ على ١٦ . كما انها تنتقد توهم الزواج على انه نهاية العزلة والارضاء الكامل . وتنتهي الى القول :

« ان الدافع الحقيقي والصالح الوحيد للزواج ينبغي ان يكون الرغبة في العيش مع شخص يحبه المرء حقيقة ، وفي القيام معه بعمل مشترك يدوم » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 61-66, p. 117.

ويقول اوسفالت كوله من جهته :

« ... ان امراة لم تتزوج الا لتشعر انها تخلصت من كل هم مادي يليق بها ان تفكر مليا وتتساءل اذا لم يكن زواجها في آخر المطاف ، وتحت ظواهر الشرعية ، بغاء متعلى ، على صعيد راق . انها لكلمة قاسية تناقض الاخلاق العادية ، ولكنها كلمة تجابه الوضع بصراحة ... » .

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, pp. 220-221.

٢٠٢ — تذكر جوزيت ميليز ملاحظة ابداها رجل « مصر على العزوبة » :

« ما يقلق في الحياة المشتركة هو ان كل واحد معرض لأن ينسى بسرعة كلية المراعاة التي كان يعتقد ان من واجبه ابداءها للآخر في زمن اللقاءات الاولى » .

Josette Mélèze : Les Fragilités du couple, p. 15, Ed. Centurion-Grasset, 1972.

٢٠٣ ـــ يقول الدكتور مارك لاندري :

« الاعتقاد بأن المؤسسة تكفي وحدها انما هو اعتقاد بأن للزواج قدرة سحرية على حماية الزوج » .

Dr. Marc Landry : La Famille en devenir, p. 24.

٢٠٤ ـــ تستشهد اوديت تيبو بهذه الكلمات لهنري ميلر :

« الحب هو ما يقارب بين كائنين . انما ما يبقيهما معا ، فلا يكترثان بأن يتساءلا عن ماهيته . وكأنهما يتركان للحب ان يدبر امره بنفسه . وهو نادرا ما يقصر في هذا المجال ، اما الحل الذي يعتمده فهو بأن يموت حتف انفه . أن معظم الزيجات مبنية على قبر : قبر الحب » .

Henri Miller : Le Monde du sexe, cité par Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 51.

وتضيف الكاتبة :

« ... الزواج ليس نهاية ولا راحة ، انه بدء مغامرة كبرى ! »

Odette Thibault : op. cit., p. 61.

٢٠٥ ـــ تقول اوديت تيبو :

« ... ان احادية الزواج الاصيلة ... انما هي امانة للقرين وليس للمؤسسة » .

Odette Thibault : L'Orientation nuptiale. La science au service du couple, Hebdo-T.C., No. 1503, 26 avril 1973, p. 11.

٢٠٦ ـــ راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 149-150.

تقول اوديت تيبو انه يمكن للقانون ان يحمي الزوج couple من النزوات التي هي ، على حدتها ، غير متعقلة وعابرة . انما لا يمكن اتخاذه ذريعة للاستغناء عن الجهود الضرورية لانماء قوى التماسك الداخلية في الزوج . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 44-46.

٢٠٧ ـــ راجع :

François Duykaerts : op. cit., p. 305.

٢٠٨ ـــ يقول ارنست ال انه ينبغي « اعطاء مضمون انساني مكتمل ، مضمون وحدة نفسية وجسدية ، للاتحاد الشرعي ... الذي ارتبطنا به » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 19.

٢٠٩ ـــ يقول ارنست ال :

« يظهر الاختبار ان الزوج يتعرض دوما لخطر خسارة وحدته الداخلية ان لم ينجح اتحاد الاجساد في المشاركة الجنسية او اذا

تلاشى هذا الاتحاد » .

E. Ell : op. cit., p. 31.

ويضيف :

« ان الحب الزوجي ، بأرقى اشكاله ، هو حب ممنوح من خلال الجسد ومقبول في الجسد ... » .

E. Ell : op. cit., p. 88.

وايضا :

« ... في الزواج ، يمكن ان يستخدم التفنن في الاتحاد الجنسي كحافز لتعميق مستمر للحب : ان هذه الغاية لا تبرر هـذا التفنن وحسب بل انها تجعل منه واقعا مقدسا » .

E. Ell : op. cit., p. 248.

٢١٠ — راجع :

François Duykaerts : op. cit., p. 310.

يحذر المحللون النفسيون في هذا الصـدد من ظـاهرة تجدد الفصم بين الحواس والقلب التي كثيرا ما تحصل بعد سني الزواج الاولى ، واحيانا منذ تكريس الاتحاد رسميا ، وذلك لأن الشريـك الزوجي يكتسب ، بالنسبة للعقل الباطن ، صفة بديل والدي ، مما يوقظ التحريم الاوديبي الاول . راجع مثلا :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 201-202.

٢١١ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 114-117.
Ignace Lepp : op cit., p. 241.
Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 107-108, p. 244, pp. 340-341, p. 371.

٢١٢ — راجع :

Dr. Jean-G. Lemaire : Les conflits conjugaux, p. 68.

يقول ارنست ال :

« عوض ان يكون قمة وخلاصة الانجذاب الحبي ، كثيرا مـا يصبح العمل الجنسي واقعا يوميا لا روح فيه ... » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 250.

ويبين الدكتور توردجمان ان العلاقة الجنسية ، مع انها « نواة ممتازة للاتصال » ، لا يسعها ان « تؤسس ، لوحدها ، المشاركة الزوجية » ، ذلك انها «لا تتخذ معناها الا بالاضافة الى مجموعة الخبرة المعاشة » . وبذلك فانها تشكل - كما يقول الكاتب ، « آلة التسجيل » الاكثر حساسية للمناخ الزوجي » . ويضيف : « عندما ينقطع الاتصال الزوجي ، يتحول الجماع الى مجرد استمناء متزامن ، الى مونولوج لا فائدة منه يتعب ويحرم الرفيق » . عند ذاك تحتمي الزوجة من زوجها برفضها اللذة الجنسية ، امـا الرجـل ، فان

تضايق امراته او اشمئزازها او لامبالاتها تقــوده في النهاية الى العجز الجنسي . راجع :

G. Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 270-271.

وتقول اوديت تيبو :

« ان الرباط الجنسي ، ان لم يدرج في مجموعة ، سوف ينحل بفعل العادة او السأم (...) أن انخفاض الانجذاب الجســـدي (...) شبه محتوم ان لم يتح له دفق جديد نابـــع من أصعـــده اخرى » .

وايضا :

« أن الحنان ، والانفتاح الى الآخر ، وتعابير المودة والانتباه ، والاكتشاف الذي لا ينتهي لاهتمامات او ملذات مشتركة ، انما هي مجالات يتجدد فيها دفق الرغبة » .

هكذا ينبغي للاتفاق الجنسي ان يندمج في اتفـــاق نفسي لكي يدوم . وبالعكس فان النزاعات على الصعيد النفسي قد تؤدي الى انهدامه :

« ان الخلاف يقود حتى الى اخماد الرغبة (...) فالـــزوج يحقد على زوجه ، يحترس منه ، ينغلق دونه . ولكن نجاح الجماع يتطلب عفوية وثقة » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 35-36, p. 50.

راجع ايضا :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, pp. 348-351.

٢١٣ — يقول الدكتور اندره برج ان الزواج ينبغي ان يكون « كسبا واغراء دائمين ومتبادلين بين الزوجين في صميـــم حياتهما المشتركة » .

Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 47-48.

٢١٤ — راجع :

Odette Thibault : op. cit., pp. 39-42.

٢١٥ — راجع :

François Duykaerts : op. cit., pp. 303-322.

٢١٦ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, p. 179.

Oswalt Kolle : Ton mari, cet inconnu, pp. 160-167.

في رواية مورافيا ، « الحب الزوجي » ، يقول المتحدث متكلمـــا عن هواه لزوجته :

« لأول مرة ، احسست بأنني السيـــد ، ذلك الشعـــور الذي يطبقه الرجال احيانا ، بغير تمييز ، على العلاقات الزوجية ، قائلين

« امرأتي » كما يقولون « بيتي » ، « كلبي » ، « سيارتي » ... » .

Alberto Moravia : L'Amour conjugal, p. 35, «Folio», 1972.

راجع ايضا :

Dr. André Bergé : La Sexualité aujourd'hui, p. 143.

٢١٧ — راجع :

Jean-Yves Calvez : La Pensée de Karl Marx, p. 277, Edition revue et abrégée, Seuil, Paris, 1970.

لقد كتب الفيلسوف الشخصاني المسيحي عمانوئيل مونييه ، سنة ١٩٣٣ ، في معرض وصفه « للبورجوازي » :

« اسمعوه يقول : امرأتي ، سيارتي ، اراضي ، تشعرون جيدا ان ما يقيم له الحساب ليس المرأة او السيارة او الاراضي ، انما العبارة البدينة المشيرة الى الملكية » .

وايضا :

« انه يجهز لنفسه اثاثا من الاشياء الجميلة ، اي الاشياء الممتعة ، ومن بينها زوجته ... » .

Cité in Mounier, L'Homme et son Message, p. 131, in «Planète + Plus», août 1970.

راجع ايضا :

Alexandre Soljénitsyne : Le Pavillon des cancéreux pp. 534-544, Le Livre de poche, 1971.

٢١٨ — بصدد وضع الدونية التي تعاني منه النساء ، كتبت اوديت تيبو في احدى مقالاتها :

« مع ان القضية سياسية بمعنى ان وضع المرأة ليس سوى احد الاشكال المتعددة لاستغلال الانسان للانسان ، الا انني اخشى كثيرا بأن لا يكون تغيير البنى الشرط الكافي للتطوير في هذا المجال ؛ مع انه شرط ضروري له . انه لواقع اختباري ، بأنه ، رغم الثورات ، لم تحقق المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة في اي من الانظمة الاشتراكية التي اقيمت . ان تسلط الرجل على المرأة هو من اقدم واشمل اشكال التسلط ، انه سبق قيام الراسمالية وهو باق بعد الغائها . هذا ما يبينه بوضوح تحليل شايلا رووبوثام (شايلا رووبوثام) : النسوية والثورة) » :

Odette Thibault : La «Femme-Alibi» doit disparaître (Hebdo-T.C., No. 1556, 2 mai 1974, p. 36).

٢١٩ — راجع :

J.-Y. Calvez : op. cit., pp. 187-190, pp. 313-319.

٢٢٠ — تقول اوديت تيبو :

« لا يصبح العمل الجنسي حقا لمجرد قيام الزواج ، والا كان

نوعا من الاغتصاب الشرعي ــ ولكن الا يــزال كذلك ، بالنسبة للعديد من النساء اللواتي يتحملنه ، وفي ذهن كثير من الازواج ... دون ان يعوا ذلك البتة ؟ اما يكون العمـــل الجنسي مشـــاركة ، مبادلة ، او لا يجب ان يكون ... » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 62.

٢٢١ —

cité *in* «Ecclésia», No. 258, septembre 1970, p. 6.

٢٢٢ ــ يقول المحلل النفسي الالمانــي هورست ــ ابرهارد ريشتر ، المتخصص في اضطرابات العلاقات العائلية :

« ان الحياة المشتركة المؤولة كعقد ملكية (...) كانت ولا تزال كثيراً ما تقود الى تعلقات تكافلية وثيقة بافراط يتوصل فيها الخوف من الانفصال والمراقبة الاحتياطية للأمانة المتبادلــة الــى خنــق العواطف الايجابية » .

Horst-Eberhard Richter : Psychanalyse de la famille, p. 38, Mercure de France, Paris, 1971.

٢٢٣ ــ لقد كتبت جورج ساند :

« الزواج دون الحب ، انما هو اشغال شاقة مؤبدة ... » .

George Sand : Lettre à son fils, citée par André Maurois : Lélia ou la Vie de George Sand, p. 443, Ed. Rencontre, Lausanne.

هذا ما يبرر الاعتراضات الموجهة اليوم الى تصلب المؤسسة الزوجية ، ويوضح ضرورة تليينها . راجع :

Georges Mauco : Les Célibataires, pp. 200-201.

هنا تظهر حكمة وانسانية موقف الكنيسة الارثوذكسيـــة التي تقبل بالطلاق رغم جعلها اياه صعب المنال وابداء تحفظاتها تجاهه . وقد اوضح المفكر الارثوذكسي المعاصر بول افدوكيموف هذا الموقف في كتابه « سر الحب » حيث يقول :

« ... اذا كان الحب هو مادة السر (اي سر الـــزواج) ــ ويصرح يوستنيانوس ان الزواج لا يكون حقيقياً الا بالحب وحده ــ فتبادل الوعد ليس سوى تعبير عن الحضور الفعلي للحب (..) ليس الطلاق سوى تقرير غياب الحب ، تلاشيه ، انهدامه ، وبالتالي مجرد اعلان لا وجود الزواج . انه شبيه بالحرم الكنسي ، اي انه ليس عقابا ، بل تقرير انفصال سبق فحصل (...) .

« تقر الكنيسة اذا انه توجد حالات تتفرغ فيها الحياة الزوجية من مادتها السرية وتصبح مجرد تدنيس مستمر للقدسيات قد يقود الى هلاك النفس . ان لا انفساخية الرباط قــد تضطر المــرء الى الكذب . بالمحافظة على الخير العام ، يقتل الخير الشخصي . من اجل الحفاظ على المظاهر الاجتماعية ، على وقار رب العائلة ، اقام

المجتمع البغاء بالاشتراك مع الدولة . فالبغاء يدفع نفقات احادية الزواج القائمة . ربما لهذا السبب يقول الانجيل تلك الكلمة الغامضة جدا عن البغايا اللواتي يسبقننا على طريق الملكوت . . .

« ان لا انفساخية الرباط (بحد ذاتها) لا تهم الحب البتة . السؤال يطرح حين لم يعد من شيء يحافظ عليه ، اذ ان الرباط الذي اعلن في البدء على انه غير قابل للانفساخ قد سبق وفسخ ، وليس للشريعة ما يمكنها من ان تقوم بمقام النعمة ، لا يمكنها ان تشفي او تبعث او تقول : « انهض وامش » . راجع :

Paul Evdokimov : Sacrement de l'amour, pp. 262-264, Editions de l'Epi, Paris, 1962.

٢٢٤ — راجع :

Paul-André Lesort : Les Reins et les Cœurs, pp. 168-169, Ed. Plon, Paris, 1955.

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 48-49.

٢٢٥ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, pp. 179-182.

٢٢٦ — راجع :

Denis de Rougemont : L'Amour et l'Occident, p. 261.

٢٢٧ — راجع :

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 168-176, 331, 334.

٢٢٨ — راجع :

Dr. André Berge : op. cit., pp. 179-181.

يقول مارك اوريزون بالمعنى نفسه ان الزواج « يتطلب . . . من كل واحد نوعا من الالتزام الديناميكي المتجدد كل يوم » . راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du couple humain, p. 52.

ويوضح ارنشت ال ان الزواج « فتح مستمر » ، توتر دائم نحو تحقيق الحب ، وان من هنا ايضا تنبع ضرورة احاديته وديمومته . يقول : « لن ننتهي ابدا من بناء هذا الاثر الذي هو الزواج » . ومن هنا ايضا ، يقول الكاتب ، ضرورة اعادة نظر مستمرة في الوضع الزوجي . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 228-229, p. 256.

وتقول اوديت تيبو :

« ينبغي خاصة اعتبار الحب فتحا دائما (. . .) انه انتصار يومي على الموت . من اجل انقاذ الحب من الاخماد ، يجب ان يغذى كالنار ، لانه نار » . راجع :

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, pp. 50-51.

تقول جوزيت ميليز :

« ان الذي يعرف ، او التي تعرف ان لا شيء ابـــدا يعتبـــر مكتسبا بصورة كلية ونهائية ، بل ان كـــل شيء يجب ان يكسب مجددا كل يوم ، هذا يبقى يقظا ولا يدع نفسه يفاجأ . انه يشبـــه العذارى العاقلات في الكتاب اللواتي يغذين بانتظـــام مصبـــاحهن الزيتي ليحبطن خطط الليل ، واللواتي يبقين دومـــا مستعـــدات لاستقبال المحبوب (...) ان الانتباه الرصين المستمـــر يجنب الاستنزاف والعادة والتراخي » .

وايضا :

« ليس الزواج ابدا الا ما يشاؤه الزوجان . فاذا كان يحمل في ذاته امكانية هدم الزوج ، فهو يحمل ايضا امكانيـــة تألقـــه وتحقيقه واكتماله . يعود لكل واحد ولكل واحدة أمر اختيار المعنى الذي يريد ان يضفيه عليه » .

Josette Mélèze : Les Fragilités du couple, pp. 13-14, p. 184.

وقد كتب رينه سيمون :

« ... ليس المهم مجرد الرجوع الى وعد اعطي (مع ان الوعد ليس امرا لا طائل له) او الى الضغط الموضوعي الذي يمـــارسه القانون ، بل الابداعية المستمرة لحب لا يكرر الوعد المنشيء للزوج والاسرة الا ليعيد ابتكاره من جديد ويعطيه مضمونا يتغير مع مراحل الحياة » .

René Simon : La Famille se meurt..., in Hebdo-T.C., No. 1463, 20 juillet 1972, p. 16.

الفصل الثالث

العفة لمحافظة على أصالة الجنس

البحث في الحب كتحقيق لمرمى الجنس الاتحادي يقودنا بصورة طبيعية الى طرح موضوع العفة من منظار مختلف عن ذاك الذي يُطرح منه عادة . فالعفة تُعتبر عند الكثيرين ، سواء أكانوا مناصرين لها او مضاديها ، موقفاً سلبياً في جوهره ، موقف امتناع . واللفظة المستعملة نفسها تدعم هذا التفسير وتغذيه : فعبارة « عفة » مشتقة من « عفّ » عن الشيء اي امتنع عنه . ولكن هذا المظهر السلبي — الذي هو بلا ريب من مظاهر العفة — بعيد عن ان يَستنفد معانيها او يعبر عن جوهرها الاصيل[1] . هذا الجوهر لا يتضح الا اذا نظرنا الى العفة من خلال الحب الذي هو اكتمال الجنس الانساني . فالعفة مرتبطة بالحب ارتباطاً وثيقاً ، وقد سبق ان حاولنا ايضاح ذلك في بحث كتب سنة ١٩٥٨ ونشر سنة ١٩٦٣ في مجلة « النور » البيروتية[2] . اذا شئنا ان نحدد العفة في هذا المنظار قلنا انها السلوك الذي يحفظ للجنس اصالته الانسانية[3] وذلك بالحرص على ممارسته في خط الحب وفي هذا الخط فقط . العفة اذاً ايجابية بطبيعتها ، اذ انها عملية ربط الجنس بالحب ، انها الحرص على ان يبقى الجنس محافظاً على مرماه الانساني والاتحادي . صحيح ان هذا الموقف الايجابي الاساسي يقتضي اتخاذ بعض المواقف السلبية ، ولكن هذه الاخيرة تابعة عن الاول ومترجمة له . فمن اختار طريق الحب ، عليه ان يرفض ما سواه اخلاصاً منه للحب ولطبيعة الجنس الاصيلة التي يعبر الحب عنها . ان ما ترفضه العفة انما هو ، في آخر المطاف ، نقيض الحب ، اي التملك ، اعتبار الآخر شيئاً يُستولى عليه بغية الاستمتاع . بهذا المعنى يقول جان كلود بارّو ان العفة هي « مفتاح الاستعمال الصالح للجنس لأن فيها رفض كل تملك »[4] . قد يبدو رفض التملك

هذا افتقاراً ، ولكن هذا الفقر الاختياري هو الباب الذي به وبه وحده يلج المرء الى غنى الحب . من اغلق يديه في موقف استيلاء لا يقبض الا على الريح ويبقى اسير عزلته ، اما من فتح يديه في موقف العطاء ، فهذا يدخل في خبرة المشاركة التي بها يتحقق شخصه ويكتمل . انه ينتقل من عالم التملك (avoir) المغلق الى عالم الكينونة (être) الذي لا حد له[5] . انه بتجاوزه فرديته المنكمشة ، البخيلة ، يطلق شخصه من عقالاته[6] . العفة مظهر من "مظاهر تلك القاعدة العامة التي بموجبها لا ينمو المرء الا بتضحية يبذلها ، على حد تعبير الفيلسوف المعاصر لويس لافال[7] .

ولكن العفة التي نصفها على انها اصالة وتحرر وغنى ، انما هي العفة الحقة . ليست كل عفة عفة حقة . كثيراً ما يخلط الناس بين الامتناع عن العمل الجنسي وبين العفة . والحق ان هناك ممارسة عفيفة للعمل الجنسي كما ان هناك امتناعاً عنه لا يمت الى العفة الحقة بصلة[8]. لذا اقتضى ، من اجل ايضاح معالم العفة الحقيقية ، ان نميزها عن العفة الزائفة .

اولا – العفة الزائفة

فكثيراً ما تُطلق عبارة العفة جزافاً على تصرفات غريبة بالفعل عن روح العفة الاصيلة ، تصرفات تعبر عن خوف من الجنس او تصدر عن كبت .

١ – الخوف من الجنس

كثيراً ما تُعزى الى العفة مواقف نابعة بالفعل الى حد بعيد من الخوف من الجنس[٩]. قد يبدو لأول وهلة غريباً ان نتحدث عن خوف من ميل طبيعي كالجنس . ان الاعتقاد الشائع بهذا الصدد ان خوفاً كهذا ، عندما يوجد ، انما هـــو وليد بيئة اجتماعية وتربية عائلية تحاولان خنق حيوية الفرد . ولكن هذا التفسير ، وان كان مقبولاً الى حد ما ، ليس كافياً البتة . انه على كل حال لا يبيّن لنا سبب تهالك بعض البيئات الاجتماعية والعائلية على قمع الجنس عند افرادها . الموضوع اعمق اذاً من مجرد اصطدام الفرد وميوله بمجتمع ضاغط ، خانق . فالصراع بين الانسان والمجتمع ، خاصة في هذا الميدان ، يعبر عن انقسام بين الانسان ونفسه[١٠]. يقول فرنسوا دويكارتس بحق : « ان الصراع في الكائن البشري ، خاصة من ناحية الجنس ، لا يجري فقط في منطقة الحدود بين الذات والعالم الخارجي ... انـــه يجري ايضاً في داخل الفرد »[١١]. وقـــد كتب المحلل النفسي الدكتور دلبيير : « ان ازدواجية الانسان تجاه الحياة الجنسية يعبر عنها التعايش فيه بين كراهية للجنس ورغبة عنيفة فيه »[١٢].

تلك الكراهية للجنس المتأصلة في اعماق الشعور الانساني انما هي نابعة من الخوف . ولكن ما هي دوافع هذا الخوف من الجنس الذي يعتري كل انسان في عقله الباطن ، فيتجاوزه البعض فيما يصبح عند البعض الاخر طاغياً ، مكبلاً ؟ تلك الدوافــع متعددة ومتشابكـــة ، يضيق بنا هنا المجـــال لعرضها بشكل وافٍ[١٣] ، لذا سنوجزها بما يلي :

أ – النرجسية

خط النمو كما قلنا ينطلق من النرجسية الاولى التي يتميز بها الطفل المولود حديثاً حتى يصل ، من خلال انفتاح تدريجي ، الى لقاء حقيقي بالاخر . الا ان رواسب النرجسية الأولى لا تزول بالكلية بل يبقى قسط منها ، يكثر او يقل ، في نفسية الراشد نفسه . وبما ان تلك الرواسب مدفونة في العقل الباطن بصفتها بقايا ماضٍ سحيق ، فأنها تؤثر في السلوك بصورة لا شعورية الى حد بعيد . واذا قوي تأثيرها ، فقد يشعر المرء بشكل غامض ان اتصاله بالاخر انما هو انتزاع له من تلك القوقعة التي هو مطمئن لها اطمئنان الجنين في بطن الوالدة ، وتهديد لتلك الاكتفائية التي يحسّ بموجبها انه محور الكون[14]. يشعر ان دخول الاخر في نطاق أناه خطر عليه[15] لأنه يضطره الى اقامة الحساب لهذا الآخر ويزعزع بالتالي محورية الأنا الطفلية التي لا تزال مرتكز شخصه . وبما ان الاتصال بالآخر الاكثر صميمية هو الاتصال الجنسي[16]، لذا يسود امرأ كهذا خوف غامض من الجنس يتستر بشتى الاقنعة ويجد لنفسه شتى المبررات . وقد يلجأ هذا المرء الى القيم الخلقية ، فيتذرع باجلال زائف لفضيلة العفة ليخفي ، عن نفسه اولاً ، عجزه الصميمي عن مواجهة الاخر[17].

ب – الخوف من الانوثة عند الذكور

هناك عامل آخر في العقل الباطن ، يُنشىء خوفاً من الجنس الا وهو الخوف من المرأة عند الذكور . هذا الخوف قد يتستر

على صعيد الوعي بذرائع مختلفة ، منها اعتبار المرأة خطراً على الفضيلة او على الرجولة والصاق شتى التهم بها . امـا مصدره العميق فكثيراً ما يكمن في العلاقة الاولى التي تقوم بين الطفل وأمه . ذلك ان الام ، اياً كان حنانها ، لا يمكنها ان تلبي كل حاجات الطفل وان تلبيها فوراً . لذا لا بد ان يصدر عنها حرمان لطفلها يثير عنده نزعة عدوانية تجاه والدته تختلط بحبه لها[18]. ولكن تلك النزعة العدوانية ترتـــد على الطفل نفسه . فعدوانه على الام يبدو له بمثابة عدوان الام عليه ، اذ لم يتوصل بعد الى التمييز بين شخص الام وشخصه[19]. هكذا تبدو له في شعوره مزدوجة ، « اماً طيبة » تمنحه الطعام والحنان والامان ، و « اماً شريرة »[20] (تلك التي تظهر في الاساطير بشكل ساحرة مرعبة مثلاً) معتدية وفتاكة . وبما ان صورة الام هذه ، كما تتكون في الطفولة ، تحدد لا شعورياً الى حد بعيد علاقة الرجل بالكون عامة وبالنساء بنوع خاص ، فقد ينتج عن طغيان صورة « الام الشريرة » ، خوفاً من الانوثة عامة[21] قد يدفـــع بدوره الى الامتناع عن الاتصال الجنسي ويوجـــد لنفسه شتى المبررات ، بما فيها تعلق زائف بالعفة[22].

ج – رفض الانوثة عند الاناث

اما عند الاناث ، فهناك عامل يلعب دوراً هامـاً في تغذية الخوف من الجنس ، الا وهو رفض الانوثة الذى تمتد جذوره الى الطفولة المبكرة . ذلك ان البنت عندما تكتشف حـوالى الثالثة من عمرهـــا الاختلاف بين الجنسين ، تصدم ، كما بيّن

فرويد ، لعدم وجود عضو الذكور في جسدها ، وتتوهم بالتالي ان جسدها مبتور ، ناقص[٢٣]. هذا الشعور بالنقص يتخذ بالطبع كل ابعاده بتأثير العوامل الاجتماعية التي تعطي الاولوية للرجل معتبرة المرأة « الجنس الثاني » ، حسب تعبير سيمون دي بوفوار ، ذاك الجنس الذي لا يحدد الا بالاضافة الى الرجل وحاجاته . اذا اضفنا الى ذلك الطابع العدواني الذي يتخذه الاتصال الجنسي بالنسبة للمرأة على الصعيد الجسدي[٢٤] وكونها تتحمل كل العبء البيولوجي لوظيفة التناسل ، بما في ذلك من دورة شهرية وحمل ووضع وارضاع ، ادركنا كيف انه قد ينشأ عندها رفض ، يبقى الى حد ما لاشعورياً ، لتلك الانوثة المعاشة كجرح وعبء وقيد[٢٥] (هذا ما دعاه المحلل النفسي شارل بودوان « مركب ديانا » نسبة لاسطورة الالهة ديانا ابنة جوبيتر[٢٦]) وبالتالي خوف من الجنس الذي فيه ممارسة لتلك الانوثة الساحقة . وقد تصبح العفة عند ذاك ذريعة للهروب من تلك الممارسة[٢٧].

د – مركب اوديب

سنذكر اخيراً بين الاسباب الانفعالية التي تفسر الخوف من الجنس تلك الخبرة التي اظهر فرويد على انها اساسية في تكوين الشخصية ، الا وهي خبرة مركب اوديب . هذا المركب يلعب دوراً هاماً في تمهيد الطريق امام الحب الانساني الكامل الذي سوف يصبح ممكناً بفضله فيما بعد ، ذلك انه بمثابة اختبار اول لهذا الحب وتمرس عليه[٢٨] . ولكن مركب اوديب لا يلعب هذا الدور الايجابي الا اذا كان مجرد مرحلة انتقالية يتجاوزها

النمو . اما اذا لم يتم هـذا التجاوز ، فالمركب يتحول الى « عقدة » تجمّد الى حد ما حـركة النمو العاطفي وتسبب للشخصية اضطرابات وانحرافات شتى . وقد يكون الخوف من الجنس احدى تلك النتائج الوخيمة . ذلك ان مركب اوديب يجمع بين المتناقضات : فالمعشوق الاول (الام بالنسبة للطفـل والاب بالنسبة للطفلة) هو موضوع تحريم بآن ، اما السلطة التي تحرمه فهي سلطة المنافس الوالدي ، وهي تبدو سلطة لا محدودة ومرعبة لان الولد في هذا العمر يتصور والديه على انهما كائنان شبه الهيين ، يتمتعان بكمالات لا متناهيـة[٢٩] . السبيل الطبيعي لتخطي هذا التناقض بين الحب والتحريم هو ان يتخلى الولد عن المعشوق الأوديبي ريثما يقيم فيما بعد ، اذا تم نضوجه ، علاقـة حب شبيهة بتلك التي تخلى عنها . اما اذا لم يستطع الطفل ان ينجز هـــذا التخلي ، وبعبارة اخرى اذا بقي في قرارة نفسه ، في اللاشعور ، على عشقه الأوديبي ، فسوف يعيش ميوله الجنسية فيما بعد على انها اعادة ليس الاّ لغرامه المحرّم الاول وبالتالي سوف تقع تلك الميول تحت طائلة التحريم الذي أصاب العشق الأوديبي ، مثيرة في النفس جزعاً غامضاً يحاول المرء ان يـــبرره بشتى الوسائل دون ان يعي مصدره اللاشعوري . وقـــد يقود هذا الجزع الى تجنب للجنس يتخذ أحياناً العفة ذريعة له[٣٠].

وفيما نحن في معرض الخوف من الجنس ، يجـدر بنا ان نشير الى ان هذا الخوف قد لا يقود الى عفة زائفة بـــل بالعكس الى الاباحية . هناك نوع من « الهرب الى الامام » . فقد يحاول المرء ان يعوض عن الجزع الذي يعتريه امام الجنس ، لا بل ان يقنع نفسه بأنه غير خائف ، وذلـــك بتهالكه على الجنس[٣١]. عند ذاك نجد تلك المفارقة وهي انه ، على قدر خوف

هذا الانسان ، على قدر ذلك يكون افراطه في النشاط الجنسي. هذا النمط من السلوك ، لاحظته هيلين دوتش عند المراهقين. ان يقظة الجنس في المراهقة تقترن بالجزع وذلك عائد لعدة أسباب. منها ان المراهق يجاهد من أجل الحصول على استقلاله والتحرر من تبعية الطفولة ، واذا به يُفاجأ بالجنس يبرز في جسده كوظيفة مستقلة الى حد ما عن ارادته تُشعره انه ليس سيد نفسه كما يحلم ان يكون[٣٢]. ومن جهة أخرى فالمراهقة سن يقترن فيه بروز حياة جديدة بالقلق أمام الموت[٣٣]. ولكن الجنس مرتبط لا شعورياً بالموت ، ذلك ان ظهور الجنس في تاريخ الحياة يعني ان الكائن الحي لم يعد بوسعه ان يخلد كلياً في نسله كما هي الحال عند الكائنات الحية البدائية ذوات الخلية الواحدة التي تتولد من ذاتها بانقسام الخلية الأم الى خليتين وهلم جراً ، بل أصبح مجرد حلقة في سلسلة الحياة[٣٤]. أخيراً فان يقظة الجنس في المراهقة تحرك من جديد المشكلة الأوديبية التي كانت قد خمدت حوالى السادسة من العمر ، وتوقظ بالتالي الجزع المرتبط بهذه المشكلة[٣٥]. تجاه ذلك الجزع الذي يوقظه الجنس فيه ، يتخذ المراهق مواقف دفاعية. منها ، برأي هيلين دوتش ، تلك النزعة الحديثة الى وحدة الزي بين الفتيان والفتيات ، يحاول بها المراهقون لاشعورياً ان يُغيّبوا الفارق بين الجنسين وكأنهم بذلك يختبئون من الجنس[٣٦]. ولكنها لاحظت ايضاً ان المراهق الذي يحاول لاشعورياً ان يحتمي من خطر الجنس باتخاذه شكل امرأة (بشعره الطويل)[٣٧] ، قد يحاول بآن واحد « ان يعوض بافراط عن جزعه بواسطة نشاط جنسي متحرر من كل قيد »[٣٨].

هنـاك مظهر آخر من مظاهر ارتباط الخوف من الجنس بالأباحية ، يبيّنه لنا الدكتور اندره برج في كتابه « التربية

الجنسية والعاطفية » . ذلك ان الخوف من الجنس قد يدفع الى الاكتفاء باتصال جنسي سطحي لا يتناول سوى الاجساد ، يحتمي به المرء من اتصال أعمق ينتزعه من قوقعة نرجسيته[٣٩]. هكذا فقد يؤول الجزع امام الجنس – الذي هو في هذه الحال جزع أمام الاخر الذي يطبع الجنس الحاجة اليه في صميم الكيان – الى موقف تُعتبر المرأة بموجبه مجرد وسيلة لاشباع رغبة جسدية محضة[٤٠].

أخيراً لا بدّ لنا من التنويه بظاهرة حديثة مرتبطة بالخوف من الجنس وان بصورة عكسية ، ظاهرة تلعب دوراً لا يُستهان به في حياة معاصرينا . معلوم ان الحديث عن مرض قد يوقظ عند البعض خوفاً من هذا المرض ربمـا اتخذ شكل الوسواس وبالتالي أخذ يشكل بحد ذاته ظاهرة مرضية . على هذا المنوال لقد أدى تبسيط اكتشافات التحليل النفسي حول العقدة النفسية الى ظهور ما يمكن ان يُسمى « بعقدة الخوف من العقد » ، وهي عقدة أثبتت ضررها الفادح على الصعيد التربوي اذ كانت من الأسباب التي دفعت العديد من الوالدين الى التخلي عن كل سلطة ، بخلاف مبادىء علـم النفس التحليلي الصحيح ، مما له أسوأ التأثير على نضوج الأولاد وعلى صحتهم النفسية[٤١] . هكذا كان اكتشاف الخوف من الجنس وانتشار الحديث عنه في المجتمع الحديث مدعاة لظهور ما يمكن تسميته « بخوف الخـوف من الجنس » ، اذ أصبح الكثيرون يشتبهون بكـل ضبط للنزعة الجنسية على انه « عقدة » ، وأصبحت العـذرية بالتالي عبئاً ثقيلاً ينبغي التحرر منه بأسرع ما يمكن . هكذا لم يعد التهافت على الجنس عند الكثيرين سعياً وراء هدف يستهوي بحد ذاتـه بقدر ما أصبح اثباتاً يبديه المرء لذاته وللآخرين على انـه لا

يخاف الجنس ، على انه غير « معقد »[42] .

لقد درست هيلين دوتش هذه الظاهرة عند المراهقين طلاب الجامعات في المجتمع الاميركي الحالي . وقد لاحظت ان « الحرية الجنسية » التي تمارس في جماعات هؤلاء المراهقين تمليها الى حد على الافراد حاجتهم الى الانقياد الى قواعد الجماعة ، تلك القواعد التي يُعتبر بموجبها ان السلوك الجنسي الاباحي هو التصرف السليم الوحيد وان ما عدا ذلك انما هو سلوك شاذ « يحتاج صاحبه الى تحليل نفسي » . لذا يشعر الذين لا يرغبون في الأباحية الجنسية — وهم كُثرُ — بضيق في جـو كهذا ، ويضطرون الى مجاراة بيئتهم ، وان لم يشعروا بحاجة حقيقية الى ذلك ، ليتأكدوا من صحتهم النفسية ويثبتوها امام الرفاق . وتروي لنا هيلين دوتش كيف كانت بعض الفتيات يأتين اليها قصد الاستشارة النفسية وهن مقتنعات بحكم رفاقهن عليهن بأنهن شاذات، لمجرد كونهن ، حوالى العشرين من العمر ، لم يشعرن بعد ، رغم قبولهن العقلي لمبـدأ « الثورة الجنسية » ، بأنهن مستعدات كفاية ولهن النضج الكافي للدخول في خبرة جنسية . وقد لاحظت المحللة النفسية المذكورة خوف هؤلاء الفتيات وغمّهن من جراء الصورة التي رسمنها عـن أنفسهن بتأثير البيئة ، وارتياحهن العميق عندما كانت تطمئنهن حول صحتهن النفسية . وقد لاحظت أيضاً ان تلك الفتيات كن كثيراً ما يرفضن نصيحتها بتأجيل اختباراتهـن الجنسية وفقاً لحاجاتهن ورغباتهن ، ذلك لأنهن كن يخجلن الى حـد ما من عفتهن التي لم تعد رائجة ، ويفضلن ان يُعتبرن « منفسدات » على ان يُعتبرن « عذارى »[43] .

ولنستعرض الآن المظهر الآخر لما دعـوناه بالعفة الزائفة الا

وهو الكبت .

٢ — الكبت

عبارة « الكبت » شائعة في مجتمعنا المتأثر باكتشافات علم النفس التحليلي ، ولكن استعمالها ، كاستعمال عبارات اخرى تعود الى الاصل نفسه ، كعبارة « العقدة النفسية » مثلاً ، يكتنفه شيء من الغموض والالتباس[٤٤]. لذا ارى لزاماً ان احاول اولاً توضيح المعاني المختلفة التي تكمن وراء استعمال اللفظة التي نحن بصددها .

اولا — الكبت بمعنى الانفصام بين الفكر والسلوك

فمن معاني اللفظة — وقد يكون هذا المعنى هو الاكثر رواجاً في الاستعمال العام — ان يراود هاجس الجنس الانسان فيمتلىء خياله بالصور الجنسية ويصبو بملء جوارحه الى تحقيق الاتصال الجنسي ، الا انه لا يجرؤ على الاقدام عليه بسبب الضغط الاجتماعي ، فيتراجع بدافع الخجل او خوفاً من العواقب من فقدان سمعته وما شابه ذلك . بالطبع هذا الانسان ليس عفيفاً ، لان امتناعه عن ممارسة الجنس ليس محافظة منه على اصالة الجنس الانساني ، انما هو ناتج عن تقصير في تحقيق رغباته. لذا فهو أباحي بفكره وان كان عفيفاً في تصرفه الظاهري . عفته خارجية ليس الا ، لانها ليست عفة الفكر والقلب والنية . الا ان المجتمع ، لسوء الحظ ، كثيراً ما يفسح المجال لظهور

هذا النوع من العفة الزائفة ، وذلك بتشدده فيما يخص المظاهر واهماله لتربية نقاوة القلب التي تعطي وحدها للسلوك اصالته . هذا هو الرياء الاجتماعي الذي صادفه فرويد في المجتمع الاوروبي في مطلع هذا القرن ، فتصدى له بجرأة حيّة بأن تستهوي مَن كان حافظاً في قلبه صدى شجب يسوع للفريسية[٤٥] .

ان الذي يمارس هذا النوع من العفة الزائفة لا يبتعد عن العفة الحقة وحسب ، انما يتعرض للاضطراب النفسي ، لانه شخصية ممزقة بين ما تضمره وما تعمله[٤٦] . لقد قال فرويد بهذا الصدد : « ان الاثارة التي لا تؤول الى انفراج ، الامتناع القسري ، تسببان نوبات جزع »[٤٧] .

ثانياً – الكبت بمعنى التعامي عن واقع النزعة الجنسية

بمعنى آخر ، تعبر لفظة « الكبت » عن مفهوم علمي ابتكره فرويد واغنى به علم النفس الحديث . انها تترجم عبارة فرويد الالمانية verdrangung التي نُقلت الى الفرنسية بـ refoulement والى الانكليزية بـ repression والى العربية بكبت . وفيما يلي هذا المعنى العلمي لعبارة « كبت » كما ورد في أحد المعاجم النفسية العربية :

« هو عملية لاشعورية مقتضاها منع الميول والدوافع الكائنة في اللاشعور من ان تظهر في حيز الشعور . فبدلاً من ان يقوم صراع شعوري بين الرغبة والذات ، يفر الذات فتظل الرغبة قائمة بكامل عنفوانها ولكن بعيداً من متناول الشعور .

« والكبت هو صراع نفسي عجز « الأنا » عن مواجهته

فتجاهله ، فلاذ بأعماق اللاشعور »[48].

هذا الوصف للكبت يتفق مع ما ورد في مؤلفات فرويد حول تلك الظاهرة النفسية . فقد حدد فرويد الكبت بقوله « ان جوهره كامن في هذا : ان يُبعد الشيء عن نطاق الوعي (او الشعور) »[49]. وقد وصفه بأنه محاولة للتهرب من مشكلة[50]. فعندما يحس الذات بأن نزعة ما تشكل خطراً عليه ، عندما تثير تلك النزعة جزعه لاصطدامها بنزعات اخرى في الكيان ، فقد لا يجرؤ على اعتماد الحل المنطقي الوحيد الا وهو مجابهة تلك النزعة لاتخاذ موقف محدد منها ، فأما اشباعها ضمن شروط واما شجبها عند الاقتضاء ، بل يحاول ان يهرب من وجهها ، ان يجعل مسافة بينها وبينه . ولكن الانسان يقدر ان يبتعد عن خطر خارجي ، أما اذا كان هذا الخطر كامناً في داخله ، فأنّى له ان يبتعد عنه ؟ لذا يلجأ الى حلّ وسط بين الهرب والمواجهة[51]، وهو ان يتعامى عن وجود النزعة الخطرة فيه[52]. لقد بيّن فرويد في النصوص المنوه بها اعلاه وغيرها ان ذلك الموقف انما هو طفلي في أساسه . انه موقف الذات الطفلية التي لم تكتسب بعد قوة كافية (مثلا بسبب عدم اكتمال النضوج العقلي) لمواجهة المشكلة مواجهة واعية وقول كلمة الفصل فيها[53].

الكبت بهذا المعنى الفرويدي ليس العفة ، لان النزعة الجنسية تبقى فيه على حالها[54]، غير مهذبة ، غير مصقولة ، لانها أُبعدت عن مركز الشخصية ولذا لم يعد بوسعها ان تتفاعل مع الطاقات الايجابية الكامنة في تلك الشخصية ، بل أصبحت فيها جسماً غريباً له استقلاله[55]، يتصرف بموجب نواميسه الخاصة بمعزل عن مراقبة الملكات الانسانية العليا[56] . كل ما في الأمر ان الانسان

يتجاهل وجود تلك النزعة فيه ، عملا بسياسة النعامة ، هارباً من الصراع بشكل طفلي عوض ان يجابهه مجابهة راشدة ويجد له حلاً يليق بالانسان . تبقى النزعة الجنسية مستترة في العقل الباطن ، متسمة بطابعه ، وهو الطابع الطفلي ، النرجسي ، طابع ما لا يعرف قاعدة سوى اللذة ولا يقيم وزناً للعقل والقيم والشخص الآخر . ولكن تغييبها لا يحذفها من الوجود[٥٧] ، كما ان غياب الصياد عن نظر النعامة عندما تدفن رأسها في الرمل لا يلغي وجوده الفعلي ، انما يستمر الصراع بشكل خفي[٥٨]. تحاول النزعة المكبوتة — وهي لا تزال « في كامل عنفوانها » — ان تعبّر عن ذاتها ، ان تبرز الى صعيد الشعور ، فتصطدم بالقوى الضاغطة التي تستخدمها الذات لا شعورياً للحؤول دون تسرب النزعة المكبوتة اليها . هكذا يؤول تغييب الصراع الى تخليده ، فينتج عن ذلك تجميد طاقات كبرى كان بامكانها ان تغذي وتنمي الشخصية [٥٩] . فمن جهة تذهب القوى الكابتة سدى لانها لا تحل المشكلة ، ومن جهة أخرى تضيع الطاقات الايجابية التي كان بالامكان استمدادها من النزعة المكبوتة لو تعهدها المرء عوض تغييبها[٦٠]. فالجنس يحمل في ذاته طاقة الحب ، لذا يؤول رفضه بالكبت الى تعقيم تلك الطاقة في الانسان ، مما يؤدي الى الانطوائية والشلل العاطفي[٦١]. كل ذلك يضعف الحيوية والانتاج والقدرة على الاتصال الفعلي بالآخرين ، وفي آخر المطاف ، يضر بالحياة الخلقية والروحية نفسها اذ يقطع عنها زخم الغريزة الذي يغذيها — كما تغتذي الشجرة من التربة — ويحكم عليها بالشكلية والرتابة والجفاف[٦٢] .

ان الذين يرفضون على هذا المنوال ان يواجهوا النزعة الجنسية فيهم مواجهة حية وليس مواجهة كلامية وحسب (لان مواجهة

محض عقلية وكلامية لا تفيد في هذا المضمار) ، لا يدركون وضعهم هذا ، لان الكبت عملية غريزية ، لاشعورية الى حـد بعيد . وقد يعتقدون بأن المشكلة الجنسية غير واردة بالنسبة اليهم او بأنهم حلّوها بشكل نهائي ولم يعد لها من أثر . الا ان ظواهر متنوعة تكذب تلك الطمأنينة الزائفة التي يخدرون بها أنفسهم . فأن قيام المشكلة كاملة فيهم ينكشف بسهولة لمن هم حولهم وان كان الاشخاص المعنيون غافلين ، او بالاحرى متغافلين ، عنها . فقد يرتاع مثلا هؤلاء الناس لمجرد ذكر الجنس في حديث يسمعونه او في كتاب يطالعونـه ، او يستولي عليهم اضطراب شديد اذا وقع تحت نظرهم او سمعهم شيء يمكن ان يكون له فعل اثارة جنسية . هذا الارتياع امام كل ما يمت بصلة – قد تكون بعيدة احياناً – الى الجنس ، قد يبدو للذين يحسون به ذروة العفة ، وقد يُخدع به احياناً بعض من حولهم ، فيمتدحون عفتهم المرهفة . الا ان التحليل النفسي علمنا ان كل رد فعـل مفرط قد يخفي موقفاً لا شعورياً قوياً على نقيضه . هـذا ما أدركته الحكمة الشعبية بحدسها عندما قررت ان « الزائد أخو الناقص » . على ضوء هذا المبدأ الاختباري ، الذي أيده علـم النفس التحليلي ، يظهر ارتياع بعض « الاعفاء » امام كل مـا يمت الى الجنس بصلة ، على انه تعبير عـن هوس لا يمكن لأصحابه ان يضبطوه او يتجاوزوه لانهم متعامون عن وجوده فيهم[64]. هذا الهوس الجنسي يزداد حدة لأقل اثارة جنسية ويوشك عند ذاك ان يبرز الى صعيد الوعي ، مما يُنتج شعوراً غامضاً بالخطر يعبّر عنه بهذا الارتياع الذي تحدثنا عنه .

ومن جهة أخرى يتجلى فشل الكبت في حل المشكلة التي تثيرها النزعة الجنسية ، بظهور تلك النزعة المكبوتـة بأشكال

مستترة ، ملتوية ، تتخطى بفضلها حواجز الكبت فتعبر عن ذاتها وتوجّه السلوك دون ان يدري صاحبه بأنه يعمل بوحي منها[٦٥]. تقول المحللة النفسية ماريز شوازي : « لقد تعلمت من فرويد انه بقدر ما يشتد كبت موقف ما ، تزداد تعابيره غير المباشرة قوة »[٦٦]. كثيرة هي التعابير غير المباشرة للنزعة الجنسية المكبوتة اشدها خطورة انما هي عوارض المرض النفسي[٦٧] (névrose) بأشكاله المتنوعة ، الذي يعود أصله الى صدمات الطفولة وأزماتها المستعصية ، ولكن ، حتى اذا لم تبلغ الأمور الى هذا الحد ، فهناك اضطرابات مختلفة في السلوك تشير الى « عودة ما كُبت » بشكل خفي ، مقنّع[٦٨]. منها مثلا الاهتمام الزائد بالحوادث الجنسية والمشاكل الجنسية عند الآخرين[٦٩] ، اهتمام يتذرع بشق المبررات ، كمساعدة الغير او الدفاع عن الفضيلة ؛ وفي الحالة الاخيرة كثيراً ما يتخذ هذا الدفاع طابعاً عنيفاً ، عدوانياً ، علماً بأن هذا العنف وهذا العدوان موجهان بالحقيقة ضد النزعة الجنسية الكامنة في شخص صاحبها ، تلك النزعة التي أثار تعبيرها غير المباشر نفسه شيئاً من الجزع وبالتالي استدعى ردعاً عنيفاً حُوّل صوب الآخر بعملية لا واعية (projection)[٧٠]. وكثيراً ما تتحول النزعة الجنسية المكبوتة الى عشق للذات قد يتجلى بشكل كبرياء حادة او روح تسلط خانق للغير او طمع مفرط في الكسب او بخل شديد . يحلل الاستاذ رمسيس نجيب بدقة في كتابه « أسئلة الشباب حول العفة » بعض هذه العوارض المعبرة بشكل غير مباشر عن النزعة الجنسية المكبوتة ، فيذكر منها اثارة الشغب والانشغال بالتوافه وحب السيطرة والقسوة على الآخرين[٧١] .

وقد تصل النزعة المكبوتة الى حد تحطيم الحواجز في بعض

الظروف وتبرز عند ذاك بشكل جامح ، مدمّر . عندنا صورة معبرة عن ذلك في رواية للكاتب المعاصر الكبير جوليان غرين ، يصور لنا فيها شاباً مكبوتاً يحاول قـدر استطاعته ان يتجنب مجابهة النزعة الجنسية التي أيقظتها المراهقة فيه ، وذلك بتجاهله لكل ما يمت الى الجنس بصلة ، الى ان انفجرت فيه تلك النزعة بشكل مأساوي . فقد قصدت احدى الشابات ، وهي رفيقة له في الجامعة ، أثارته بـداعي اللهو والعبث ، فاختلت معه في غرفته وأغلقت الباب وأخفت المفتاح . عند ذاك انقلب فجأة هذا الشاب رأساً على عقب ، فثارت غريزته التي لم يُتح لها ، بسبب الكبت ، ان تهذّب وتوجّه ، وانطلقت بشكل بدائي ، هدّام ، فاغتصب الفتاة ثم قتلها[٧٢] .

بمجمل الكلام ان الكبت ، بهذا المعنى الفرويدي الذي نحن بصدده ، انما هو نوع من الرياء ، ولكنه رياء لا شعوري الى حد بعيد[٧٣] ، يرفض الانسان بموجبه ان يجابه واقعه ، الذي هو واقع متوتر ، تجنباً لألم الصراع[٧٤] ومحافظة منه على صورة لذاته مثالية ترضي نرجسيته[٧٥]. ولكن انكار الواقع على هذا المنوال لا يتعدى كونه حلا رخيصاً ، زائفاً ومضراً . يقول الدكتور اندره برج بهذا الصدد : « لقد قال باسكال : « الانسان ليس ملاكاً ولا حيواناً » ، الا أنه ، اذا شاء ان يوهم نفسه بأنه ملاك ، يتصرف عند ذاك كحيوان » . لذا ، فاذا شئنا ان لا نتصرف كحيوانات ، فلنبدأ بمنح الحيوان الذي فينا مكانه المشروع وبملاحظته دون رياء . أما اذا شئنا انكاره ، فهذا اما يُعرضنا لعنف يقظاته واما يحرمنا من ميدد حيويته الذي لا غنى لنا عنه »[٧٦] .

ان موقف الكبت هذا يحدده الى حد بعيد عنـد الراشد

تاريخ طفولته . فاذا ساد تلك الطفولة جو تربوي خانق يسوده تجاهل الوالدين لغرائز الطفل ووقوفهم منها موقفاً عدوانياً (مبنياً لاشعورياً على خوفهم من الغرائز التي فيهم) نشأ الولد على اتخاذ موقف الهرب من غرائزه عوض ان يتمرس تدريجياً على تعهدها بوعي وتوجيهها بفعل ارادته . ان موقف الولد من نفسه يعينه الى حد بعيد موقف والديه منه . فاذا كان والداه يرفضان واقعه الغريزي ، يتمثل هو موقفهما فيرفض بدوره هذا الواقع ، ولا يجرؤ على مواجهته ، فينمو مجزءاً بين شخصيته الاجتماعية الواعية وشخصيته الغريزية اللاشعورية التي لا تندمج بالاولى بل تعيش على هامشها وتؤثر فيها بشكل خفي مثيرة فيها الاضطراب . وهكذا فقد يبقى طيلة حياته انساناً مكبوتاً[٧٧]. هذا لا يعني بالطبع ان التربية يجب ان تترك لغرائز الطفل العنان . فقبول واقع الغرائز لا يعني اطلاقاً موافقة الوالدين على كل ما تمليه على الطفل غرائزه . لقد أكد فرويد في مؤلفاته انه لا بد من وضع حد لاندفاع الغرائز ، والا فليس هناك من حضارة ممكنة[٧٨]. في احدى رسائله الى بفيستر ، وهو قسيس سويسري كان من أتباع فرويد ومن رواد تطبيق علم النفس التحليلي في مجال التربية ، كتب فرويد : « يجب بالطبع ان تكون هناك تربية ، وحتى ان تكون شديدة »[٧٩] . الا ان هذه الشدة يجب ان تكون مقرونة ، بنظر علم النفس التحليلي ، بالتفهم لحاجات الطفل وبمراعاة لامكاناته . هكذا تتجنب التربية الكبت وان كان لا بد لها من وقوف في وجه جموح الغرائز[٨٠] . ان التربية الصحيحة لحياة الطفل الغريزية والعاطفية يجب ان تعتمد التوعية عوض التعامي ، وان تركز على تهذيب الغرائز وتوجيهها عوض التأكيد على قمعها ، وان لا يغيب عنها ان للنضج مراحل لا بد من مراعاتها[٨١] .

ثالثاً - الكبت بمعنى القمع الاعمى لجنس غير مندمج في الشخصية

قلنا ان الكبت بمعناه الفرويدي الدقيق يعني ان النزعة الجنسية أصبحت على هامش الشخصية العاقلة ، الواعية ، تعمل وكأنها جسم غريب عن تلك الشخصية ، تحرمها من زخمها وتبث فيها الاضطراب ، دون ان تستطيع الذات ضبط وتوجيه ما هو خارج عن نطاق اشرافها .

الا ان الأمور قد لا تصل الى ذلك الحد ، فلا تغيب النزعة الجنسية في ظلمات اللاشعور كما هي الحال في الكبت بمعناه الدقيق ، الا انها رغم كونها واعية لا يسعها ان تندمج بالذات بل تبقى بالنسبة اليها كجسم غريب الى حد بعيد ، جسم يعي المرء هنا وجوده فيه ولكنه لا يستطيع ان يدمجه بذاته ، ان يؤلف بينه وبين نزعاته الاخرى ، فيبقى هكذا جزءاً ، ممزقاً ، يَنشد وحدة تفلت منه باستمرار .

هذا ما يُنتج نمطاً من العفة تعوزه الاصالة رغم اخلاص صاحبه وجهوده المريرة احياناً . فالمرء في هذه الحال يدرك وجود النزعة الجنسية فيه ويقف لها بالمرصاد ، ولكن موقفه منها سلبي بحت ، موقف قمع وصدّ وزجر ، يحاول ان يقيد بشتى الوسائل تلك الطاقة المتوثبة فيه ، فلا يسعه بالتالي ان يتخذ منها موقفاً أكثر ايجابية وصفاءً يتيح له ان يفيد من غنى تلك الطاقة لتغذية شخصيته واحياء كافة نشاطاته ويفسح أمام تلك الطاقة المجال لتتفاعل مع سائر مقومات الشخصية فتحد من

غلوائها وتتهذب وتسمو . ومن جهة أخرى فان هذا المرء يصد النزعة الجنسية الكامنة فيه دون ان يكون عنده قناعة عميقة ، وجدانية ، بما هو فاعله . يجاهد لانه يشعر ان هـــذا الجهاد « واجب » عليه ، ولكنه غير مقتنع صميمياً بهذا الواجب ، غير متبين عميقاً معناه ، وبالتالي فانه لا يقوم به مدفوعاً بتصميم شخصي راسخ ، انما يُفرض عليه هذا « الواجب » فرضـاً ، كأنه من الخارج ، فيقوم به مغلوباً على أمره ، مما يُنتج عنده ، في كثير من الاحيان ، مرارة وحزنـاً يضفيان على « عفته » وجهاً قاتماً قد يثير نفور من يشاهده ويعطيهم عن « الفضيلة » صورة كريهة .

هذا الانسان ممزق بين القوى التي تتجاذب كيانه . فمن جهة غريزة جامحة لا تعرف ناموساً آخر سوى ضرورة اشباع نهمها مهما كلف الأمر ، ومن جهة أخرى قوى رادعة تتصدى لهذه الغريزة باسم واجب أعمى لا جـــذور حقيقية له في الشخصية العاقلة ، الواعية . تلك الشخصية لا تتعدى في هذه الحال كونها مسرحاً لهذا الصراع ، ولكنها لا تلعب فيه دوراً مـوجهاً ، فعالاً ، انها تعانيه ولكنها لا تتعهده فعلا . لا يجوز لنا في هذه الحال ان نقول ان هذا الانسان يضبط غريزته ، بل ان تلك الغريزة ، وقد بقيت على هامش شخصه ، تصطدم بقوى أخرى لها ذات الطابع الغريزي الأعمى ، فيؤدي ذلـــك الى نوع من التوازن لا يعطي المشكلة سوى حل ظاهري ، سطحي . بهذا المعنى يقول الدكتور اندره برج : « ان الذي يخضـع مرتجفاً لأمر لا يصدر لا عن ايمانه ، ولا عن عقله ، ولا عن أي شيء يعرفه بوضوح ، هذا يستسلم بالفعل لقوى غـــير واعية وغير

مراقبة »[٨٢]. قد يدّعي هذا الانسان انه يمارس العفة بدافع « المبدأ » او « الاخلاق » او « الدين » ، ولكن تلك العبارات لا تعبّر عن انتماء حيّ عنده ، انما هي تغطية لتلك القوى الرادعة العمياء النابعة من عقله الباطن .

قلنا ان هذا الموقف ليس بحل حقيقي للمشكلة . فالنزعة الجنسية تبقى على شكلها البدائي ، الخام ، ولا ترقى الى الحب الذي به يتحقق مرماها الانساني . لا بل ان هذا الموقف الزجري الأعمى من الجنس كثيراً ما يحدث رد فعل يعطي هذا الأخير أهمية مفرطة ويجعل منه الشغل الشاغل للمرء ، فتتحقق تلك المفارقة الا وهي ان هذا الانسان الذي شاء نفسه « عفيفاً » أصبح ، دون ان يقصد ذلك ، متهوساً بالجنس كالأباحي ، مع هذا الفارق ان الثاني مشغول بالجنس بغية الاستسلام اليه ، أما الأول فمشغول به بهاجس محاربته[٨٣] .

أما اذا شئنا ان ندرك أصل هذه المأساة ، فعلينا ان نعود الى جذورها في الطفولة . فقد بيّن فرويد[٨٤] ان عالم الغرائز الذي سمّاه الـ « هذا » («Es», «Ça», «Id») والذي لا يعرف قاعدة أخرى سوى اللذة ، يصطدم عند الطفل بأوامر الوالدين ونواهيهم التي تتسرب شيئاً فشيئاً الى كيانه وبعبارة أخرى « تتدخلن » فتكوّن في ذلك الكيان قوة تعارض قوة الغرائز وتوجه الشخصية النامية من الداخل على طريقة توجيه الوالدين لها من الخارج ، وقد دعاها فرويد « ما يعلو الذات » («Ueber Ich», «Surmoi», «Superego»)[٨٥] . بين تلك القوتين اللتين تتجاذبان الشخصية النامية ، قوة الغرائز من جهة ومتطلبات الحضارة من جهة أخرى ، يجب ان تشق « الذات »

(Ich, Moi, Ego) طريقها . و « الذات » (او « الأنا ») ، بنظر فرويد ، طاقـة تأليف (synthèse) مهمتها ان تسعى الى التوفيق بين نـداء الغرائز ومقتضيات الحضارة[٨٦]، فتتعهد هـذه وتلك ، ملطفة ومعلية الغرائز بـموجب المقتضيات الحضارية ، ومحيية قيم الحضارة بديناميكية الغرائز[٨٧]. هكذا تندمج الغرائز بالشخصية الواعية ، العاقلة ، الهادفة ، حسب قول فرويـد المأثور : « حيث كان الهذا (Es) يجب ان تصير الذات (Ich) » (« Wo es war , soll ich werden ») . ومن جهة أخرى تصبح القيم الحضارية قيماً شخصية ، غير مفروضة من الخارج ولكنها نابعة من اختيار واعٍ ، حرّ ، يحدوه حبّ لهذه القيم يغتذي من الطاقة الغريزية ويسمو بها بآن[٨٨].

يُفرض في نمو « الذات » هذه ان يتم تدريجياً عبر مراحل الطفولة والمراهقة وان يقود الى شخصية مـتزنة ، موحّدة ، وبعبارة أخرى الى شخصية راشدة . الا ان عوائق متنوعة قد تنتصب في طريق هذا النمو وتحول دون بـلوغ الذات ملء قامتها . من هذه العوامل تربية خانقة تسحق الذات تحت عبء سلطة « ما يعلو الذات » (Superego) طاغية . عند ذاك تصبح « الذات » هزيلة ، لا يسعها ان تلعب دور الحكم في الصراع الذي يكتنفها ، انما تقف منه موقف المتفرج الجزع ، تنفعل به عوض ان توجهه[٨٩]. عند ذاك يدور الصراع على هامش الذات ، بـين قوى هي بالفعل غريبة عن الشخصية ، قوة الغرائز الغاشمة من جهة ، وقوة « ما يعلو الذات » ، من جهـة أخرى ، تلك القوه التي تخلد سلطة الوالدين بشكل خـاص والضغط الـتربوي والاجتماعي بشكل عام . هذا ما يقود الى هذا النوع من الكبت الذي نحن بصدده .

من اجل الحؤول دون هذا الانحراف الذي يضعف الشخصية ويزيّف الاخلاق ، ينبغي للتربية ان تحرص على مـــا يدعم « الذات » الناشئة عند الطفل . وبما ان « الذات » تحارب على جبهتين اذا صح التعبير (هذا تبسيط للامور لأن هناك جبهة ثالثة هي الواقع الخارجي) ، وجب السهر على تقويتها هنا وهناك . فمن جهة ينبغي ان لا يجرفها اندفاع الغرائز ، ولذا لا بد من سلطة في التربية[90]. ومن جهة اخرى يجب ان لا يسحقها « ما يعلو الذات » ، ولذا يجب ان تكون السلطة مرنـــة ، متفهمة ، تستثير بشكل متزايد وعي الطفل ومبادرته ، وتدربه تدريجياً على تعهد نفسه بنفسه[91].

اما على صعيد تربية العفة ، على وجه الخصوص ، فيجب ، كما ينبهنا الدكتور اندره برج ، ان لا نقدم هذه الفضيلة كغاية بحد ذاتها ، كنهج يفرض ذاته بشكل كيفي على السلوك[92]، فهذا ما يبقي النزعة الجنسية على وضعها الغريزي البحت ويلصق بها رادعاً خارجياً ليس الا ، مما يخلّد الصراع ويفرغه من معناه . يجب بالعكس ان تبدو العفة النتيجة الطبيعية لانـــتماء شخصي صميمي تهيّىء له التربية وسوف نحاول ايضاح معالمه فيما يلي .

ب - العفة الحقة

هذا العرض لميزات العفة الزائفة يقودنا الى مفهوم العفة الحقة التي هي على نقيض الاولى. تلك العفة الحقة لا تُبلغ بصورة مطلقة في الواقع لانها تفترض رشداً تامـــاً على الصعيد النفسي وكالاً على الصعيد الخلقي، والمعلوم انه ليس من انسان راشد تماماً او كامل خلقياً. الا انها مثال يقترب منه اكثر او اقل، وهو حري على كل حال يأن يستقطب الجهود بالنظر لكونـه شرط تحقيق الجنس لمرماه الانساني. ولكن مـا هي مميزات تلك العفة الاصيلة ؟

١ – ليست خوفاً من الجنس بل تعهداً واعياً له

العفة الحقة تفترض تخطي الخوف الغريزي الذي يلازم، كما رأينا، النزعـــة الجنسية[٩٣]. العفيف فعلاً ينظر الى الجنس – والمقصود هنا نظرة معاشة، وجدانية، وليس نظـرة عقلية صرفة – لا كالى طاقة مخيفة بل كالى طاقة ايجابيةفي جوهرها. الا انه يدرك ان تلك الطاقة، ككل الطاقات الطبيعية النابعة

من تكوين الانسان ، يجب ان يتعهدها هـــذا الاخير بحريته الواعية ، الخلاقة ، لكي « يؤنسنها » اذا صـح التعبير ، اي يوّجهها في خط تحقيق انسانيته الاصيلة . ان الخوف من الجنس يحول دون تعهده وبذلك يحكم عليه بأن يصبح قوة غريبة عـن الشخص واهدافه الانسانية ، قوة مظلمة وشريرة[٩٤]، اما تخطي الخوف فانه يمكن الانسان العنيف حقاً من تعهد الجنس « وأنسنته».

٢ – ليست انطواء بل اتجاهاً اصيلاً الى الاخر

تخطي الخوف هذا يفترض تجـاوزاً للنرجسية التي هي ، في آخر المطاف ، السبب العميق للتخوف من الجنس . هذا التجاوز للنرجسية يساهم في تحقيقه النضج النفسي من جهة والجهاد الخلقي والروحي من جهة اخرى . بدونه ليس هناك من عفة اصيلة بل تقوقع بغية الهروب من مجازفـــة الحياة . العفيف حقاً ليس بمنطوٍ على نفسه ، انما هو ذاك المتجه بالفعل الى الآخر ، يرى فيه لا طريدة تُقتنص او فاكهة تُستهلك او اداة تُستخدم او مادة تُستغل او شيئاً يُمتلك ، انما يرى فيه شخصاً حراً ، مستقلاً ، كريماً ، فيأبى ان يدخل معه في علاقـة جنسية الا على اساس اعتباره لا شيئاً بل ذاتاً ، لا فريسة بل شريكاً . العفيف حقاً لا يعوزه الحب ، انما هـــو بالعكس حريص على اصالة الحب ، تلك الاصالة المشروطة بالاحترام العميق لشخص الآخر وارادة الخير له في الصميم[٩٥] .

٣ – انها صادرة عن اقتناع لا عن تبعية

اذا كانت العفة نابعة من مثل هذا الانفتاح الى الآخـــر والاحترام لشخصه ، فهذا يعني انها ليست سلوكاً يتلبسه المرء دون ان ينفذ الى عمق كيانه ، ولا دوراً يمثله انقياداً منه لعادات البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها او لضغط التربية التي تلقاهـا . انها بالعكس وليدة قناعته لا العقلية وحسب بل الوجدانية ايضاً . انها تعبير عن التزام كياني حر[٩٦]، لذا فالعفيف حقاً يحس بأنه في سلوكه منسجم مع ذاته الاصيلة ، انه فاعـل لا منفعل ، خلاّق لا مقلّد . انه يختبر الحرية والفرح .

٤ – ليست تعامياً بل مواجهة

تلك العفة الاصيلة الصادرة عن اقتناع عميق بضرورة توجيه الجنس وفقاً لمرماه الانساني ، لا تمت بصلة الى الهرب من مشكلة يستعصي حلها ، هرب المكبوت الذي يتجاهل وجود النزعـة الجنسية فيه . العفة الحقيقية تعهد للجنس ، مواجهة واعية له[٩٧]. تلك المواجهة ، التي هي على نقيض تعامي الكبت ، تؤول الى ضبط للجنس باسم المعنى الانساني الذي ينبغي ان يتحقق فيه .

هناك خلط شائـع بين ضبط النفس هـذا والكبت بمعناه الفرويدي[٩٨]. الا ان رائد التحليل النفسي قـد ميز بوضوح بين العمليتين . فقد استعمل عبارتين ، احداهمـا (verdrangung) المترجمة الى الفرنسة بـ (refoulement) للدلالة على الكبت ، والثانية (Unterdrückung) المترجمة الى الفرنسية بـ (répression) للدلالة على ضبط النفس . فالكبت بالنسبة اليه عملية طفلية بطبيعتها ، اما ضبط النفس فصادر عن ذات ناضجة[٩٩] . وقد توسع الأدب

تنفسي الحديث في تبيان هذا التمييز[١٠٠].

لقد بيّن المحلل النفسي السويسري شارل اوديبه في كتابه « المصدران الواعي واللاواعي للحياة الخلقية » الفوارق الاساسية القائمة بين ضبط النفس والكبت بمعناه الفرويدي. فالكبت عملية غير عاقلة ، لا ارادية او نصف ارادية ، تجري على هامش الشخص ؛ انها عملية شبه ارتكاسية (quasi réflexe) غايتها الوحيدة تجنب الجزع[١٠١] ، تتم بدافع من « مبدأ اللذة » الغريزي[١٠٢]؛ لذا فليس لها من قيمة خلقية حقيقية ، اذ انها بالواقع مجرد اصطدام نزعة غريزية (الجنس مثلاً) بنزعة غريزية اخرى معاكسة (الاحتماء من الجزع) . اما ضبط النفس فهو عمل عاقل ارادي ، يساهم فيه الشخص صميمياً ، يوجهه السعي الى القيم وتحقيق مُثُل اتخذها المرء بوعي . لذا فان له قيمة خلقية فعلية .

ضبط النفس هذا لا يناقض الكبت وحسب انما لا يتحقق الا بتجاوزه . ذلك ان الكبت ، كما رأينا ، بابعاده النزعة المكبوتة من نطاق الوعي ، يحول دون امكانية مراقبتها بشكل فعّال[١٠٣]؛ لذا فعندما يعمل التحليل النفسي على ازالة الكبت بالتوعية ، فانه لا يستهدف من وراء ذلك ، بخلاف وهم شائع ، الى انفلات الغرائز بل الى تمكين الانسان من مراقبتها الفعلية وتوجيهها . انه بوضعه الطاقة الغريزية في متناول الشخص يجعل قيادتها ممكنة . ازالة الكبت ، تلك التي يسعى اليها التحليل النفسي ، شرط اذاً لقيام ضبط للنفس صحيح[١٠٤]. بهذا المعنى ايضاً يقول العالم النفسي المعاصر الكبير كارل روجرز ، صاحب الطريقة اللاموجّهة في التربية والعلاج النفسي ، ان قبول الانسان

لنفسه شرط ضروري ليتفتّر متحرراً[١٠٥] وهو يعني بذلك ان المواجهة الواعية لكوامن النفس تمكن وحدها من تعهدها وتوجيهها وفق اهداف الشخص عوض الانقياد اللاشعوري الى تأثيراتها .

هكذا فالعفة الحقة وحدها ، لانها تواجه الجنس ، يمكنها ان تضبطه وتتعهده ، بينما العفة الزائفة منقادة اليه من حيث لا تدري[١٠٦].

٥ – ليست تجزئة للكيان الانساني بل تعبيرا عن جنس مندمج بشخصية متكاملة موحّدة ؛[١٠٧]

تلك المواجهة الحرّة للجنس وذلك الموقف الايجابي الصميمي منه ، اللذان تتميز بهما العفة الحقة يجنّبان المرء ضرر التجزئة الكيانية التي رأيناها ملازمة للكبت بمختلف معانيه . فالجنس عند الانسان العفيف حقاً ليس جسماً غريباً قائماً على هامش الشخصية تقف منه هذه الاخيرة موقفاً مبنياً على التجاهل او الصدّ ، فيتسرب اليها عنوة باشكال ملتوية ويُحرم من توجيهها فيما تُحرم هي من زخمه . انما هو مندمج بالشخصية يتفاعل مع عناصرها المختلفة فيغنيها بحيويته ويتخذ منها بُعده الانساني .

لقد وصف فرويد هذا الوضع المثالي بقوله : « هذا ما يمكن ان يُسمى « باخضاع » الغريزة وهو عبارة عن اندماج النزعة الغريزية كلياً بمجموعة الذات المنسجمة . هكذا تصبح الغريزة قابلة للتأثر بميول اخرى من ميول الذات ولا تسلك فيما بعد طريقها الخاصة للوصول الى الارتواء »[١٠٨].

هذا الاندماج (intégration) لا يعني بالطبع زوال التوتر وحق الصراع . فالانسان كائن معقد ابداً لا يحقق ذاته الا من خلال توتر مستمر بين العوامل المختلفة والمتضادة التي يتألف منها كيانه ، مثلاً بين النزعة النرجسية الفريزية والمرمى الاتحادي اللذين يتجاذبان الجنس عنده . الا ان صراع العفة هو من جهة صراع واعٍ ، يجري في النور لا في ظلمة اللاشعور ، ومن جهة اخرى صراع تخوضه شخصية موحدة تسعى ، من خلال التوتر الى وحـــدة متزايدة مبنية ، لا على تجاهل احد العنصرين المتضادين او محاولة رفضه كلياً ، بل على التأليف بينهما بالاحتفاظ بالحيوية النابعة من الغريزة مع تهذيبها بالقيم الانسانية . هذا الموقف الذي يتحاشى به المرء الانفلات والسلبية المتصلبة بآن يجعل التفاعل ممكناً بين الجنس والقيم التي تدين بها الشخصية ، فيغتذي السعي الى القيم بالزخم النابع من الجنس ويتجلى الجنس من جهته بالقيم .

تجلي الجنس هذا هو ذلك « الاعـــلاء » او « التسامي » (sublimation) الذي وصفه لنا فرويد . انه عملية تتمـيز بها العفة الحقة عن العفة الزائفة الناتجة عن الكبت . فـالكبت ، بموقفه السلبي المحض ، يقصي النزعة الجنسية عن حركة الشخصية ، وبالتالي يحكم عليها ان تبقى كما هي . اما الاعلاء فتعهد صميمي للنزعة الجنسية يمكّن من تطويرها والسمو بها[١٠٩]. هذا التسامي ممكن لان النزعة الجنسية عند الانسان تمتاز ، كما بيّن فرويد ، بمرونتها[١١٠]، بمقدرتها على التحوّل دون ان تفقد شيئاً من قوتها[١١١]. لذا يمكنها ان ترتقي من صعيد الاشباع الغريزي البحت الى صعيد الحب الذي يشمل الغريزة ويتجاوزها بآن . يمكن للنزعة الجنسية ان تسمو بالحب . اما ما لم يُستخدم منها في خط الحب هذا ، أي ما سبق نشوء الحب او ما فاض عنه ، فـله سبل أخرى

متنوعة للتسامي في مختلف النشاطات الحضارية[112]. فقد أشار فرويد الى العمل العقلي كاحدى سبل تسامي الجنس هذه اذ كتب: «من المؤكد ان وجود عالم شاب ممتنع عن الممارسة الجنسية ليس بأمر نادر. ان هذا الأخير يمكنه، بواسطة كبح جماح غريزته، ان يطلق قوى يستخدمها لدراسته»[113]، وايضاً: «يمكن القول ان العمل الفكري تغذيه، بدوره، دوافع جنسية معلاة»[114].

ثم ان العلاقات العاطفية المختلفة التي تنشئها الحياة الاجتماعية من «تعاطف وصداقة وثقة» هي أيضاً، حسبما أوضح فرويد، مجالات لتصعيد النزعة الجنسية[115].

هكذا تفتح أمام الانسان العفيف فعلاً أبواب عديدة لاعلاء الجنس، ليس بأنه يقرر بأن يسمو بنزعته الجنسية في هذا وذاك من المجالات فيتم له ما أراد[116]. فالاعلاء عملية لاشعورية الى حد بعيد[117]، ولكنها تتم بصورة طبيعية في الانسان العفيف حقاً كون الجنس عنده ليس مفصولاً بحواجز الكبت عن عناصر الشخصية الأخرى ولكنه متفاعل معها لذا يسمه ان ينطلق صُعُداً في هذا او ذاك من مجالاتها[118]، منسكباً في النشاطات التي توفرها للمرء مواهبه واستعداداته الخاصة وظروف بيئته. هذه النشاطات قد تكون رياضية او فنية او فكرية او اجتماعية. قد تكون انتاج أثر يستقطب الجهود او التزام قضية انسانية باندفاع وحماس. وقد يُعلى بالجنس فيغذي الحياة الروحية بزخمه[119]. فالشاعر الفرنسي الكبير جان راسين، وقد اندفع في شبابه بنهم في المغامرات الغرامية، تحول حوالي الأربعين من عمره فغيّر سلوكه وتزوج واندفع في طريق التدين، وقد قيل عنه

انه أخذ « يحب الله كما كان يحب عشيقاته »[١٢٠]. أذكر نموذجاً آخر ، في عصرنا هذا ، وهو هذا الشاب غي دي لاريغودي ، ذو الحيوية الفياضة الذي قُتل حوالى الثلاثين في خدمة بلاده في مطلع الحرب العالمية الثانية بعد ان قاد الكشاف وعاش المجازفات المثيرة وجال العالم وتعرف على جالاته كلها ، وبقي وسط ذلك عفيفاً معبراً عن سر عفته في تلك العبارة التي وردت في أحد كتبه : « ينبغي ان يكون القلب مليئاً بالله كما ان قلب الخطيب مفعم بالمرأة التي يحبها »[١٢١]. اعلاء الجنس هذا الى صعيد الحب الالهي أمر فطن اليه الخبراء في الحياة الروحية مستبقين بذلك بحدسهم اكتشافات علم النفس التحليلي . قال أحدهم ، يوحنا السلمي ، وهو راهب توفي في منتصف القرن السابع وقد سكب خبرته الروحية الطويلة في كتاب سماه « سلم الفضائل » : « رأيت نفوساً نجسة هائمة هياماً شديداً بعشق الأجسام . ولما أخذت تحفظ التوبة استفادت من تجربة العشق اذ نقلت غرامها الى الرب وعلت فوق كل خوف وذاقت حب الله ذوقاً لا يشبع . ولهذا لم يقل ربنا للزانية انك خشيت كثيراً بل أحببت كثيراً . وهكذا تمكنت ان تدفع عشقاً بعشق »[١٢٢]. وقد تفوه روحي آخر ، هو اسحق السرياني ، بهذه الصلاة ذات الاعماق النفسية المدهشة بالنسبة لعصره : « يا رب اعطنا ان نحبك بقوة أهوائنا » . بهذا المعنى أيضاً قال مكسيموس المعترف ان « الناس الأذكياء والفاضلين يحولون هوى الرغبة الى حركة روحية ترفعهم وتجعلهم يتوقون الى الأشياء الالهية »[١٢٣]. أما غريغوريوس النيصصي فقد أكّد هو أيضاً على دور الأهواء ، قائلاً « اننا لا نتقدم نحو السماء الا اذا مددنا أشرعتنا لتهبّ فيها »[١٢٤].

من جهة أخرى يبيّن لنا لانزا دال ڤاستو ، وهو تلميذ

أوروبي لغاندي ، كيف يستخدم الروحيون الهندوقيون اعلاء الجنس هذا ، اذ يقول :

« أنه لأمر مذهل لأول وهلة ان شيف (وهو إله هندوقي) ، أمير الزهّاد ، يُرمز اليه بالجاموس وبالعضو التناسلي الذكر ...

« انه يعلمنا ... ان تلك الطاقة المولّدة والخلاّقة عينها التي تظهر كجنس على الصعيد الحيوي ، تصبح ، اذا ضبطها التقشف وضغطها وتسامى بها ، مادة الروح الصلبة وسنانها الفريد . هذا هو مبرر تلك العفة التي يحرص عليها بشدة على السواء أتباع شيف وروحيو الكثلكة الكبار »[125].

خبرة الروحيين هذه تلتقي مع الملاحظة التي يبديها الاخصائي النفسي الانكليزي الكبير هادفيلد عندما يقول : « ان عدداً كبيراً من المراهقين يُشفون من الاستمناء ، حتى اذا اتخذ هذ الأخير عندهم شكلاً مرضياً ، بتأثير اهتداء ديني يحرك كيانهم ، ويغيّر اتجاه حياتهم الانفعالية ، ويحوّل نرجسيتهم الى حب لله وللآخرين »[126].

هكذا فالانسان العفيف حقاً يستطيع ان يطلق الطاقات التي فيه فيبني بها شخصه والآخرين عوض ان يجمدها كالمكبوت في صراع عقيم او يبذرها كالماجن في لهو فارغ .

لقد تحدث العالم والمفكر الكبير تيّار دي شاردين عن الطاقة الهائلة التي يمكن للحضارة ان تستمدها من الجنس والتي غالباً ما تضيع بالكبت او العبث : « الحب هو أكثر الطاقات الكونية شمولاً وقوة وغموضاً »[127]، يقول تيّار ، وفي مكان آخر

« سيأتي يوم نتوصل فيه ، بعد تسخيرنا الاثير والرياح والمدّ والجاذبية ، ان نسخّر ، من أجل الله ، طاقات الحب . عند ذاك ، وللمرة الثانية في تاريخ العالم ، يكون الانسان قد وجد النار »[١٢٨].

ج - مظاهر العفة

تلك العفة الحقة ، التي هي قاعدة الاستعمال الانساني للجنس ، لها مظاهر مختلفة ، سنعرض منها اثنين هنا ، تاركين المظهر الثالث ، الا وهو العفة المكرسة ، للفصل الأخير من هذا الكتاب .

١ - العفة قبل الزواج

فهناك أولاً العفة قبل الزواج . انها لا تعني ، كما يُفهم خطأ من منظار شكلي بحت ، شائع لسوء الحظ ، ان الانسان يمتنع عن ممارسة الجنس بانتظار عقد شرعي ذي صفة اجتماعية او دينية يسمح له بممارسته بشكل « حلال » . هذا المنظار لا يفقه معنى الجنس العميق ، بل ينظر اليه كما الى مجرد غريزة تُكبح الى فترة ما ثم يُطلق لها العنان في ظل الشرع . عند ذاك كيف السبيل للاجابة على هذا السؤال الذي طرحه عليّ أحد الشبان والذي لا بد ان الكثيرين يطرحونه على أنفسهم : لماذا تعتبر ممارسة الجنس خطأ قبل الزواج وأمراً مستحسناً في الزواج ؟ وبعبارة أخرى : هل يكفي ان تُضفى صفة الشرعية على عمل

غريزي لكي يصبح هذا العمل حسناً فيما كان معتبراً فاسداً قبل ذلك ؟[١٢٦] بنظري ان هذا المنظار الشكلي والشرعي البحت يفرغ العفة قبل الزواج من معناها ويعرضها للتحول الى كبت عقيم ومضر كما انه بالطبع يفسد معنى الزواج نفسه .

بالواقع العفة الحقة قبل الزواج هي رفض التفريط بالجنس وذلك بالامتناع عن ممارسته خارج اطاره الانساني الكامل الا وهو الحب الحقيقي الناضج المكرّس بالزواج . في مقال سبق ان نوهت به ، عن « العفة والحب من منظار سيكولوجي » ، كتبتُ في هذا الشأن : « الانسان العفيف هو الذي يربط الجنس بالحب ويرفض ان يدنسه بتحويله الى اداة للتمتع الاناني المنعزل . انه اذاً لا يحتقر الجنس ولا يعتبره خاطئاً بحد ذاته ، كما يعتقد الكثيرون ممن يجهلون معنى العفة الحقة ، ولكنه على العكس يحترمه كثيراً ولذلك يريد ان يحافظ على معناه الانساني ، فلا يفرط به بل يؤجل ممارسته الى الوقت الذي فيه يستطيع ، وقد حصل على نضوج عقلي وعاطفي كاف ، ان يتعهد في وجوده وجوداً آخر في عطاء للنفس كامل ونهائي . ان الانسان العفيف بالحقيقة هو الذي يحفظ ذاته ، لا بداعي خوف مرضي من الحب ، ولكن بأسم الحب عينه ، ليتسنى له يوماً ان يعطي ذاته بكليته ، نفساً وجسداً ، للكائن الذي سوف يختاره ليتحد حياته به . وهكذا فالصراع الذي يخوضه من اجل حفظ نفسه والتضحيات التي يبذلها لكي لا يستسلم لنداء اللذة الانانية ، كل ذلك هو بمثابة تكريم للحب المستقبل الذي سيشتعل فيه يوماً حاراً ، نقياً . ان هذا النظام الذي يفرضه على نفسه يساعده على تحطيم انانيته شيئاً فشيئاً وعلى انتزاع حب التمتع بالذات من

كيانه ، وهذا يمهد لانبثاق حب عميق كما انه يزيد الشخص تعلقاً بذاك المحبوب الذي من اجله ، ومن قبل ان يعرفه ، جاهد هذا الجهاد القاسي . ان العفة هي اذن بالفعل استعداد للحب وتأهل له »[130].

كثيراً ما يُطرح السؤال : ماذا يفعل الشاب بتلك الطاقة الجنسية الكامنة فيه والتي لا يسعها بعد ان تنصرف في خط الحب ؟ الجواب انه ، اذا كان غير معقد بتأثير طفولته — لأن العقد النفسية تجعل ، كما بيّن فرويد[131]، الامتناع الجنسي صعب الاحتمال ، اذ ان الكبت الذي تفترضه يضعف الطاقة على « الاعلاء »[132] — واذا وفرت له البيئة الفرص المؤاتية ، يستطيع ان « يُعلي » قسطاً كبيراً من طاقته الجنسية هذه[133]. وقد بيّنت هيلين دوتش ان عملية الاعلاء هذه تلعب دوراً هاماً في نمو الشخصية حين المراهقة اذ تطلق طاقة تُستخدم في هذا النمو[134]. وقد ذكرت تلك المحللة النفسية الكبيرة ، التي حلّلها فرويد نفسه حين تدريبها ، رأياً ابداه فرويد بهذا الصدد ، قالت: « منذ سنوات في اجتماع لم يحضره سوى عدد قليل من المشتركين ، ابدى فرويد معارضته لاطروحة ويلهلم رايش الذي كان يشدد على ان يبدأ النشاط الجنسي منذ المراهقة ، اي منذ ان يسمح به للفرد تكوينه البيولوجي . اما فرويد فقد كان يعتبر ان تأجيل الاشباع الى وقت لاحق عنصر هام في عملية الاعلاء وبالتالي اساسي من اجل النمو »[135].

٢ — العفة في الزواج

ولكن مفهومنا للعفة لا كمجرد موقف سلبي بل كقاعدة

ممارسة الجنس ضمن فحواه الانسانية ، يعني ان العفة ليست محصورة في الفترة التي تسبق الزواج انما تمتد الى الزواج نفسه .
ن المفهوم الشكلي للزواج ، ذلك المفهوم الذي يتنكر ، كما رأينا ، لمعنى الجنس العميق ، يؤدي الى رأي خاطىء منتشر هو ايضاً ، لسوء الحظ ، الا وهـو ان العفة تقف عند عتبة الزواج ، وان هذه الاخيرة عبارة عـــن صك شرعي يسمح باطلاق الغريزة على سجيتها ، وبتعبير آخر ان الزواج دعارة مشروعة على نوع ما ، مما يدفع الى التساؤل كيف يمكن للشرع ان يضفي على « الدعارة » صفة « الحلال » .

الواقع ان العفة ملازمة للزواج اذا اخذناه بمفهومه الحقيقي ، لا كعقد شرعي وحسب ، بل كتكريس للحب والتزام علني به . عند ذاك تفهم العفة في الزواج محـــافظة على الرباط الزوجي كشرط لممارسة الجنس في اطاره الانساني الاصيل ، اطار الحب الواحد الدائم . هذا يفترض – اذا كان الرباط الزوجي ، كما اوضحناه ، رباطاً كيانياً وليس فقط صكاً شرعياً – من جهة الامانة الزوجية ، بمعناها العميق لا الخارجي وحسب ، ومن جهة اخرى السهر على ان يبقى الاتصال الجنسي بين الزوجين معبراً عن لقاء صميمي وان لا يصبح مجرد عادة مريحة او تعبير عن امتلاك للآخر كأنه شيء او محاولة لتسخيره للاغراض الذاتية[١٣٦]. ان تجاوز العنصر النرجسي الغريزي الكامن في الجنس عملية مستمرة ضمن الحب الزوجي نفسه وهي مجال لجهاد العفة في الزواج[١٣٧].

في المقال المذكور أعلاه ، كتبت بهـذا الخصوص : « هناك أيضاً عفة في الزواج ، عفة يقتضيها الحب . انها لا تقوم على الامتناع عن العمل الجنسي (وان كان القبـــول وقتياً بامتناع

كهذا ، سواء أفرضته الظروف أم كان اختيارياً ، واسطة لاكتسابها) ، ولكنها تقوم على المحافظة على المعنى الأصيل للحياة الجنسية ، أنها عبارة عن اخضاع الحياة الجنسية لهذا الحب الذي يجعل كلا من الزوجين يشعر ان رأي الآخر وراحته وحياته وسعادته ثمينة وهامة كحياته هو . هذه العفة هي ان يكون العمل الجنسي معبراً عن الاهتمام الكلي بالآخر ، عن الانعطاف العميق نحوه . أما الانطواء على النفس واستعمال الآخر كمجرد متعة لاشباع رغبة أنانية فهو مخالف للعفة ومدنس بالتالي للزواج[١٣٨]. فالزواج يُدنس اذا أصبح اتحاد الزوجين الجسدي مجرد اشباع غريزي حيواني لحاجة جسدية بحتة ، واذا تحول هذا الاتحاد الى عملية آلية اعتيادية افرغت من معناها العميق ، واذا أصبح السعي وراء اللذة هدف الزوجين الوحيد في جماعها ، اذا اصبحت اللذة صنماً وهوساً عوض ان تكون تعبيراً عن المحبة المتبادلة . فالزوج الذي يفرض على شريكة حياته وصالاً ليست راغبة فيه ، فيستعبدها هكذا لشهوته ، يخالف عفة الزواج ، وكذلك المرأة التي ترغب في الجماع لتتمكن من السيطرة على زوجها بهذه الواسطة ومن استعباده لارادتها ، او التي تسلم ذاتها فقط للتمتع بشعورها انها مشتهاة ، مدللة ، او لانها تريد فقط ان تثير الاعجاب »[١٣٩]. وايضاً : « ان هذه العفة الزوجية ترتكز في صميم العلاقات الجنسية بين الزوجين وتسيّرها . ولنأخذ مثلاً على ذلك : انهم كثيراً ما يتكلمون في أيامنا عن « الانسجام الجنسي » ويعتبرونه بحق من المقومات الرئيسية للسعادة الزوجية والاتحاد بين الزوجين . ولكن ، لكي يتمّ ذاك الانسجام في العلاقات الزوجية ، فيشترك الزوجان معاً في متعة اتحادهما ، يُطلب من الزوجة ان تعطي ذاتها حتى في حال عدم تجاوبها مع

اندفاع زوجها – وعدم التجاوب هذا يحدث كثيراً خاصة في أوائل الحياة الزوجية – مما يتطلب منها كثيراً من الثقة والتسليم والخضوع الحي والتواضع ، أما الزوج فيُطلب منه ان يتأنى كثيراً ويضبط غريزته الجامحة ويسيطر على حركات جسده اللاارادية ويبدي تجاه زوجته صبراً كبيراً ورقة وانعطافاً لكي يوقظ فيها شيئاً فشيئاً ذاك الشعور المتدفق فيه ويجعلها متمتعة بتلك المسرة معه في وحدة كاملة ...

وهكذا يتضح ان الانسجام الجنسي ليس هو وليد عناصر جسدية فحسب ، ولا يمكن ان يُكتسب بمجرد استخدام نوع من التقنية الآلية ، انما هو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحب الكامل وبمقتضياته المعطائية ، ورهن باخضاع الحياة الجنسية للحب ، وبعبارة أخرى رهن بعفة الزواج »[١٤٠]. لقد قال الفيلسوف المعاصر جان غيتون بهذا الشأن في كتابه « الحب البشري » : « ليست وحدة الزوجين الجسدية سبب الحب بقدر ما هي نتيجته »[١٤١].

د - تربية العفة

تلك العفة الحقة ، التي يحيد عنها المرء سواء بالأباحية او بالتزمت ، يجب ان تُربى ، أي ان يهيء لها ، منذ الطفولة ، الشروط التي تساعدها على ان تتحقق وتستقيم . واذا كانت العفة ، كما حددناها ، قاعدة استعمال الجنس في خطه الانساني ، فتربية العفة هي اسم آخر لتربية الجنس بغية مساعدته على تحقيق مرماه الانساني . تلك التربية ينبغي لها بنظري ان تسعى الى تنشئة ثلاثة مواقف أساسية : قبول للجنس ، ضبط للغرائز ، اتجاه صميمي الى الآخر .

١ - قبول الجنس

العفة لا تستقيم ان لم تنطلق من قبول صميمي للجنس ، أي اعتباره طاقة موجودة في الكيان الانساني ، لا تنفصل عنه انما تشغل فيه مركزاً هاماً لانها لا تدفع الجنسين أحدهما نحو الآخر بقوة وحسب (attrait sexuel) ، انما تغذي بزخمها النشاطات البشرية قاطبة ، حتى أسماها ، وتطبع كامل شخصية كل امرىء

بسمات جنسه المميزة (caractères sexués)[١٤٢]، طاقة هي ايجابية في صميمها وان كانت ملتبسة بطبيعتها . بدون موقف القبول هذا ، لا تعهد حقيقي للجنس ، بل كبت يجزؤ الشخصية ويزيف العفة .

قبول الانسان لجنسه رهن الى حد بعيد لموقف المربين من هذا الجنس ، وبنوع خاص بموقف الوالدين[١٤٣] فالولد يكتشف مبكراً اعضاءه التناسلية كما يكتشف سائر اعضاء جسده[١٤٤]، وسرعان ما يبدأ بطرح أسئلة تتعلق بالجنس ، أسئلة تتدرج عادة من اختلاف الجنسين الى ولادة الاطفال ووضعهم قبل هذه الولادة الى دور الأب في انجابهم[١٤٥]. فاذا كان موقف الوالدين ايجابياً في الأساس تجاه تلك الاكتشافات والتساؤلات ، اذا أحس الطفل انهم يعتبرون اعضاءه التناسلية شيئاً طبيعياً وهاماً وانهم يجيبون على اسئلته بشكل طبيعي وفق امكاناته العقلية وحاجاته ، دون ان يزجروه — كأنه مسّ مجالاً « تابو » لا يجوز الاقتراب منه — او يتهربوا من الاجابة[١٤٦] او يضللوه ، عند ذاك يتمثل موقفهم في هذا المجال كما يتمثله في سائر المجالات ، فيقبل بجنسه كجزء طبيعي وهام من شخصيته ويتسنى له بالتالي ان يتعهده وان يتفاعل واياه بحرية . أما اذا كان موقف الوالدين من مظاهر الجنس عند ولدهم سلبياً (وهذا ينتج في كثير من الأحيان عن عدم قبولهم العميق لجنسهم) ، اذا كانوا يتجاهلون اعضاءه التناسلية واسئلته الجنسية ، او يزجرون كل اكتشاف او اهتمام له في هذا المجال ، فأنه يختبر الجنس ، من خلال موقف والديه هذا ، على انه مجال مخجل ، مرعب ، مجال جزع واثم[١٤٧]، وبالتالي ينزع الى الوقوف منه موقفاً مبنياً على التجاهل والصد ، موقف الكبت الذي يجزؤ الشخصية ويعقّمها[١٤٨]. وفي حال تلقي الولد تربية دينية ، فقد يوحّد

لاشعورياً بين موقف الله وموقف والديه من الجنس ، فيحس ان وجود النزعة الجنسية فيه هو بحد ذاته خطيئة امام الله . هذا ما اوضحته مثلا ام مؤمنة هي بآن اخصائية نفسية مختصة بمعالجة الاطفال نفسياً ، مرلين لايست ، في كتابها « الطفل والله » . لقد بينت الكاتبة كيف يشوه هذا الانحراف الايمان بل يهدد بزواله . فعند المراهقة قد تدفع يقظة الجنس المراهق الى رفض ذلك الاله الذي صورته له تربية طاغية على انه يبغض هذا الجسد الذي هو خالقه ؛ وبما انه لم يتمكن من اعتبار جسده هيكلا لله فقد ينصبه صنما يتحدى الله به[149].

٢ – ضبط الغرائز[150]

قبول الجنس شرط لتمهده وبالتالي « لأنسنته » . ولكن تلك « الانسنة » تفترض ضبط النزعة الجنسية ، بغية اخضاع زخمها الغريزي للقيم الانسانية . لذا كان من مقومات تربية الجنس ، او تربية العفة ، تنشئة الطاقة على ضبط الغرائز . تلك الطاقة التي بدونها لا « يتأنسن » الجنس وبوجه اعمّ لا تتحقق انسانية الانسان ، انما هي من صميم الكيان الانساني ، مسجلة في التكوين البيولوجي الذي يتميز به الانسان .

ففي المخّ مركز سفليّ يُدعى الهيبوتالموس ، هو مركز الحياة الغريزية . هذا المركز يتمتع عند الحيوان باستقلال كبير ويسيّر بالتالي الى حد بعيد السلوك الغريزي الحيواني بشتى انواعه فيجري هذا السلوك وفقاً لنواميس محددة فطرياً ، دون ان يكون للحيوان اشراف فعلي عليه . اما عند الانسان ، فقد

تقلص الهيبوتالموس من جهة ومن جهة اخرى اصبح واقعاً تحت اشراف المركز الاعلى من المخ اي القشرة ، الذي نما عند الانسان بشكل ملحوظ[١٥١]. لذا لم يعد الهيبوتالموس يتحكم بالحياة الغريزية الانسانية ، كما هي الحال عند الحيوان ، بل بمجرد العمليات العضوية التي ترافق السلوك الغريزي . اما هذا السلوك فقد اصبح تحت سيطرة القشرة ، مركز الوعي والفكر . زد على ذلك ان القشرة نفسها هي ، مع الهيبوتالموس ، موضوعة تحت اشراف الجزء الامامي منها الكامن وراء الجبهة zone préfrontale ، ذلك الجزء النامي بشكل خاص عند الانسان والذي هو مركز السيطرة على الذات والتوازن الانفعالي والاهتمام بالمستقبل وبالآخر وبالواجب وبالقيم . نمو هذا الجزء من القشرة عند الانسان هو المرتكز العضوي لمقدرته على ضبط نفسه وفقاً للقيم التي يدركها ، انه المرتكز العضوي للحرية الانسانية التي توجه الغرائز دون ان تستسلم لحتميتها[١٥٢].

فعلى التربية اذاً ان تنمي في الكائن البشري هذه الطاقة المسجلة في تكوينه العضوي نفسه ، طاقة ضبط غرائزه وتوجيهها . هذا لا يتم باخضاعه لعوائد وتقاليد تفرض عليه من الخارج ، اذ ان هذا النوع من التربية لا ينقذ الانسان من حتمية الغرائز الا لجعله فريسة لحتمية اخرى ، هي حتمية العرف الاجتماعي . انما التربية الحقة تكون بالتوعية وايقاظ الاحساس بالمسؤولية وتدريب المرء منذ طفولته على تخطي العقبات واذلال الصعاب في سبيل هدف يستهويه .

٣ – الاتجاه الى الآخرين[١٥٣]

ضبط النزعة الجنسية ، رغم اهميته ، ليس غاية بحد ذاته ، انما هو مسخر لتوجيه الجنس وفق خطه الانساني . وبما ان هذا الخط هو ، كما رأينا ، خط اللقاء بالآخر ، وجب اذاً على التربية ان تنمي في المرء هاجس الآخر الذي به يتهذب الجنس ويتخطى ، قدر المستطاع ، نرجسيته الغريزية ، وبه ايضاً يصبح ضبط النفس لا عملية قمعية بحتة تفرضها التربية والتقاليد بل تعبير عن اقتناع عميق والتزام فعلي للمعنى الانساني للجنس .

كل ما من شأنه ان يوقظ الاهتمام بالآخرين ويفجّر طاقة المحبة الكامنة في الكائن البشري[١٥٤]، يساهم بالتالي في تربية الجنس واكتساب العفة[١٥٥]. ولنرَ كيف يمكن ان يتم ذلك على صعيد التربية العائلية والتربية المدرسية والتربية الدينية :

اولا – في التربية العائلية

فالتربية العائلية أساسية من هذا القبيل ، اذ ان الطفل يتمرس على المحبة بفضل مناخ الحب الذي يكتنفه في جوّه العائلي[١٥٦]. الطفل نرجسي في أول عمره ، كما رأينا ، ولكنه يخرج تدريجياً من قوقعة نرجسيته اذا أحسّ بأنه محبوب فعلا . حب والديه له يعطيه طمأنينة عميقة تشيع فيه ثقة بالحياة والناس وتجعله بالتالي قادراً على تخطي حدود ذاته للاتصال بالكون والآخرين . الحب الذي يكتنفه يجعله راسخاً في الوجود ويعطيه بالتالي الجرأة على ان يدخل بدوره في مجازفة الحب[١٥٧]. اما اذ

لم يحصل على تلك الطمأنينة العميقة التي يحتاج اليها نموه العاطفي ، سواء لان والديه لا يهتمان به حقيقة (وان كانا يغدقان عليه الهدايا تعويضاً عن نقص العطف هذا) وربما لم يرغبا في وجوده ، او يتطلبان منه فوق مقدوره (غير مـراعين امكانياته المحدودة كطفل او مؤهلاته الخاصة كفرد) ، او لا يراعيان حاجاته. ، او لا يؤمنان له ذلك الجو المستقر ، الآمن ، الناتج عن الاتحاد بينهما ، أو لغير ذلك من الأسباب ، فان الطفل يتمسك بنرجسيته الاولى ، محتمياً بها من هذا الكون الذي يبدو له مقلقاً ، مخيفاً ، لأنه لم يجد فيه ، في شخص والديه ، الحب المطمئن الذي كان ينشده . هذا ما عبّر عنه طفل عندما قال : « لا أحد يحبني ، لذا أحب نفسي »[158]. هكذا قد تطمر في الطفل طاقة المحبـة والعطاء ، وقد يصبح جلّ سلوكه المستقبل بما فيه سلوكه الجنسي مدفوعاً بالرغبة النرجسية في الأخذ والاستيلاء دونما مقابل[159].

هذا الحب الوالدي الذي به يتمرس الولد على الحب لا يعني بالطبع ان يلبي الوالدون رغبات أولادهم دون استثناء . هـذا الموقف ، الذي من شأنه ان يدعم النرجسية الطفلية ويخلّدها ، ليس حباً خالصاً بالفعل لانه لا يهتم كفاية بنمو الأولاد — ذلك النمو الذي لا يتم الا من خلال تجاوز تدريجي للمطاليب الغريزية الطفلية — بل يسعى لاشعورياً الى تحقيق أحلام طفولة الوالدين من خلال أولادهم[160]. الحب الوالدي الحق لا يلف الطفل الا ليدفع به الى الامام ، ليعطيه قدرة على احتمال الحرمان الذي يفرضه النمو والنضج ، ولكنه يقيس هذا الحرمان بقدرة الولد على احتماله ويقرنه بالتفهم والعطف والتقييم[161].

ثانياً – في التربية المدرسية[١٦٢]

هذا ويمكن للمدرسة ان تلعب دورها في تنمية هذا الاهتمام بالآخر الذي هو من المقومات الرئيسية لتربية العفة « وأنسنة » الجنس . ولكن ذلك يفترض ان تصبح المدرسة بالفعل مكاناً للتربية لا مصنعاً للشهادات وحسب كما هي الحال في كثير من الأحيان . هذا يفترض ان تنمي المدرسة العلاقات الانسانية بين طلابها من جهة ، وبينهم وبين المربين من جهة أخرى ، لا ان تكون هناك مجرد علاقة فردية ، عقلية ونظامية بحتة ، بين كل طالب على حدة ومدرّسه[١٦٣]. في تحقيق أجراه معي أحد طلابي حول موضوع « ادخال التربية الجنسية الى المدارس » ونشر في جريدة « نداء الشمال » الطرابلسية ، قلت ما يلي : « لا تربية جنسية صحيحة ممكنة في المدرسة ان لم تصبح غاية المدرسة لا التعليم وحسب بل التربية ، تربية العقل والقلب والروح والحاسة الاجتماعية . قلنا ان الجنس لا تكتمل انسانيته الا اذا كان يسعى الى لقاء حقيقي بالآخر . لذا وجب ان توقظ المدرسة في الشباب هاجس الآخر ، ان تساعدهم على التحرر من رواسب مركزية الأنا الطفلية ليعترفوا بوجود الآخر وباستقلاله عنهم وليهتموا به ويقيموا الوزن لآرائه وحاجاته وليدخلوا معه في حوار ويتعاونوا واياه على القيام بعمل مشترك . هذا يعني مثلاً ان تؤمّن المدرسة خارج أوقات الدوام المدرسي نشاطات متعددة من فكرية وفنية ورياضية وكشفية واجتماعية ، تساعد الشباب على انماء شخصيتهم واكتشاف الآخرين والتعاون معهم ، كما تمكنهم من تصعيد (أي اعلاء) وتهذيب الطاقة الغريزية المتأججة فيهم »[١٦٤].

هذا الاتصال المثمر بالآخرين ضمن المدرسة يمكن ان يتم ليس فقط في اطار نشاطات اضافية ، بل في صميم العمل المدرسي نفسه اذا تحول هذا العمل ، كما هي الحال في المدارس ذات النهج التربوي الحديث ، الى سعي مشترك يقوم به الطلاب بالتعاون فيما بينهم ، باشراف المعلم ومساعدته ، واذا ساهم الطلاب كجماعة في تقرير ما يتعلق بحياة الصف وعمله وفي الاشراف على محتوياته ، مع توزيع الأدوار فيما بينهم[١٦٥].

في المقال المذكور أعلاه ، قلت ايضاً : « ولكن التربية الجنسية لن تكتمل ان لم تشمل تربية الاتصال الفعلي بأفراد الجنس الآخر ، هذا الاتصال الذي يمكّن الشاب من تبديد الأوهام التي ينسجها عن الفتاة والنابعة من العقل الباطن ، فيراها لا كائناً عجيباً يسحره ويخيفه بآن ، بل شخصاً انسانياً مثله ، شخصاً ذا جنس يطبعه ولكنه لا ينحصر في جنسه بل يتجاوزه اذ يكوّن شخصية متكاملة ، فريدة . وكذلك الفتاة بالنسبة الى الشاب . هكذا يتعرف كل جنس على حقيقة الجنس الآخر ، فيمهد السبيل للقاء حقيقي بينهما ، وهذا اللقاء يمهد بدوره لاختيار واع ، ناضج ، فيما بعد ، لمن سوف يكون شريك الحياة »[١٦٦].

يمكن للمدرسة (كما يمكن أيضاً لمنظمات الشباب[١٦٧]) ان تساهم في تأمين شروط هذا الاختلاط البنّاء[١٦٨]. قد يتمّ ذلك عن طريق المدرسة المختلطة ، اذا تأمنت لها شروط تربوية صحيحة[١٦٩]. كما انه قد يتم بوسائل أخرى ضمن اطار المدرسة ايضاً : « أرى انه بوسع المدرسة ان تؤمّن لقاءات بين جماعة من الشبان وجماعة من الشابات في اطار النشاطات التي أتيت على ذكرها[١٧٠]. في هذه

المناسبات التي يجتمع فيها أفراد من الجنسين لتبادل الآراء والتخطيط المشترك والتعاون على انجاح مشروع ما ، تتسنى لكلا الطرفين فرصة التعارف والتلاقي على مستوى رفيع ، شرط ان يشرف على هذه الاجتماعات مربون من الجنسين ذوو خبرة ونضوج »[171].

ثالثاً – في التربية الدينية

هذا الاتجاه الى الآخر الذي « يؤنسن » الجنس ، يمكن للتربية الدينية ان تنميه وتعمّقه ، اذا أعطيت في اصالتها . ولكن الحق يقال انها كثيراً ما تنحرف عن هدفها الأصيل ، خاصة في مجال الجنس ، تفسدها مواقف ومفاهيم غريبة عن روح التدين الصحيح تسربت اليها بتأثير عوامل نفسية واجتماعية وتاريخية . فالتربية الدينية في أمور الجنس لا تزال ، في كثير من الأحوال ، أسيرة مفهوم شرعي بحت للأخلاق ، مفهوم يجعل من العفة فريضة قائمة بحد ذاتها ، يدعمها الخوف من العقاب الالهي[172] ويغذيها احتقار للجسد واعتباره مصدر الخطيئة والدنس . كل ذلك يُفرغ العفة من معناها الأصيل جاعلاً منها سلوكاً ناموسياً اجوف وطهرية منتفخة متزمتة ، كما أنه يتنكر لدين التجسد باحتقاره الأفلاطوني للجسد ، ويصور الله بصورة طاغية همه ان يُنقص من حيوية الانسان وان يبتر ذلك الكيان البشري الذي هو خالقه . هذا فضلاً عن ان سلبية هذا الموقف « التربوي » لا بد لها ان تغذي الكبت الذي رأينا زيفه وأضراره[173]

أما التربية الدينية الاصيلة ، التي تُبذل الآن جهود متزايدة وناجحة لاستعادتها[174]، فأنها ، في صميمها ، تربية الاتجـــاه الى الآخر ، لانها تربية المحبة . فالمحبة هي ، في المنظار المسيحي ، الف الاخلاق وياؤها ، ولا قيمة للعفة الا بالاضافة اليها[175]! « المحبة ، يقول الرسول بولس ، هي كمال الناموس » (رومية ١٣ : ١٠) . العلاقة بين الانسان وربه ، تلك العلاقـة التي ينبغي ان يكون انماؤها هاجس التربية الدينية الحقة ، ليست علاقة بشرع انمـا هي علاقة بشخص ، بالذات الالهية ، وهي ، على وجه التدقيق ، جواب حب على الحب الالهي المغدق على كل كائن بشري[176]! هنا تتخذ العفة كامل معناها . ذلك ان الحب الذي يقدمه الانسان جواباً على محبة ربه لا بد له ، كي يكون أصيلا ، ان يمر بمحبة الانسان الآخر ، ذلك الانسان الذي تنعكس في كيانه صورة الخالق . لذا قال الرسول يوحنا : « من قال انـــه يحب الله وابغض أخاه فهو كاذب » (١ يوحنا ٤ : ٢٠) ، وقال الرهبان الأقدمون : « اذا رأيت أخاك فقد رأيت ربك »[177]! لذا وجب على التربية الدينية ان تغذي هذين الحبين اللذين ، كما علم يسوع ، لا ينفصلان : « تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ، هذه هي الوصية الاولى والعظمى في الناموس ، والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء » (متى ٢٢ : ٣٧ — ٤٠) . من موقف الحب هذا تنبع العفة بشكل طبيعي وحرّ ، صادرة عن كيان موحد يستقطبه الحب بكليته ، بما فيه قواه الغريزية (كما يتضح من ترداد عبارة « كل » في الآية أعلاه) . فمن أحبّ لا يرتضي فيما بعد ان يمتلك الآخر ويشيئه ، انما يعتبره بمثابة « نفسه » ، شخصاً كريماً ، مستقلاً ، هاماً بحد ذاته . أليس هـذا جوهر

العفة ، قاعدة الممارسة الانسانية للجنس ؟ ولكن من كان عفيفاً على هذا المنوال لا يُبتر كيانه ولا تُنقص حيويته ، بل بالعكس يتحرر من قوقعة ذاته الخانقة باعترافه بالآخر ، الآخر الانساني والآخر الالهي ، ويغتني بالاتصال به . فالحب الالهي المغدَق على الانسان ليس حباً خانقاً ، طاغياً ، انما همه ان يطلق الانسان في رحاب الوجود ، ان يفجّر فيه طاقات لا تُحدّ : « لقد جئت لتكون لهم الحياة ، وتكون لهم بوفرة » (يوحنا ١٠ : ١٠).

بمجمل الكلام ان تربية العفة او تربية الجنس – التي هي الشيء نفسه – ليست ، كما يُظن في كثير من الاحيان ، مجالاً مستقلاً ، قائماً بذاته ، **انما هي جزء لا يتجزّأ من تربية الشخص ككلّ**[١٧٨] بحيث يسير دون عائق في خط النمو والنضج ويبلغ الى التعهد الواعي لذاته في اتجاه صميمي الى الآخر .

حواشي الفصل الثالث

١ ــ يقول جاك غيه .

« ... تحديد العفة على انها غياب الاتحاد الجنسي يعني افراغها من كل معناها . انه يعني ردها الى مجرد شريعة ، والاستسلام لارتكاس الخوف من الجسد الذاتي والخوف من الآخر ، ذلك الارتكاس الذي يحجب كل الاستلابات ويغلق على المرء في توقعة تأمل ذاته . انه يقود الى شجب الزواج والحب البشري ، ويتجاهل قوة الانجيل وحريته . كما انه يثير ، كرد فعل طفولي عليه ، العدوانية الحالية ضد كل اشكال الضبط الجنسي ، وتفشي الاثارة الجنسية » .

Jacques Guillet : La Chasteté de Jésus-Christ, p. 163, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17, avril 1970.

راجع ايضا :

Dominique Bertrand : Pour une chasteté humaine, op. cit., p. 206.

٢ ــ راجع كوستي بندلي : العفة والحب من منظار سيكولوجي ، « النور » ، سنة ١٩٦٣ ، الاعداد ١ و ٢ و ٣ .

٣ ــ يقول ارنست ال :

« ذلك هو معنى العفة : احترام الغاية العليا المرصود لها الجنس » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 104.

٤ ــ راجع :

Jean-Claude Barreau : La Foi d'un païen, p. 34.

٥ ــ راجع :

Gabriel Marcel : Etre et Avoir.

٦ ــ راجع :

Emmanuel Mounier : OEuvres, 4 tomes, Ed. du Seuil.
Jean Conilh : Emmanuel Mounier, P.U.F., Paris, 1966.

٧ ــ راجع :

Louis Lavelle : L'Erreur de Narcisse, Ed. Grasset.

٨ ــ « لقد كتب فريدريك فون غاغرن ان العفة تحدد بالمعنى الذي يعطى للقاء الجنسي (...) الحصول على لذة خالية من

المعنى ، هذا ما يناقض العفة ، وما لا يجلب ... اي فرح حقيقي او دائم » .

U. Beer : Amour ou érotisme ?, cité par Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 225, en note.

٩ ــ هذا الخوف من الجنس (الذي يولد النفور) عامل اساسي في الاضطرابات العصابية او العقد النفسية التي تنسب بصورة شائعة الى مجرد « الحرمان الجنسي » . ويشير فرويد الى ذلك بقوله :

« ربما (...) اعتقد بعض الاطباء انني اعزو حالات العصاب névroses الى الحرمان الجنسي خاصة (...) صحيح ان الحرمان الجنسي شائع في ظروف حياة مجتمعنا (...) (الا) ان الحاجة الجنسية والحرمان لا يشكلان سوى احد العوامل التي تتدخل في اوالية العصابات . لو كان هذا العامل موجودا وحده ، لما ظهر المرض بل الدعارة . ان عاملا آخر ، لا يقل اهمية عن الاول ولكنه منسي في كثير من الاحوال ، انما هو النفور الذي يبديه العصابي تجاه الجنس ، عجزه عن الحب ... » .

S. Freud : De la Psychothérapie (1904), p. 22, in La Technique psychanalytique, P.U.F., 1970.

راجع ايضا :

S. Freud : A propos de la psychanalyse dite «sauvage» (1910), p. 38, in op. cit.

١٠ ــ يقول المحللان النفسيان لابلانش وبونتاليس :

« لقد رفض فرويد على الفوز الاطروحة العامية التي تربط الانزعاج الناتج عن الجنس بتحريم خارجي محض ... (وقد كتب بهذا الصدد) : « برايي ، انه لا بد من وجود مصدر مستقل في الحياة الجنسية يطلق انزعاجا ... » » .

Jean Laplanche et J.B. Pontalis : Fantasme originaire, fantasmes des origines, origine du fantasme, in «Les Temps Modernes», 19ème année, No. 215, avril 1964, p. 1842, note 24.

ويقول بوهييه :

« ان كان هناك من امر اثبته التحليل النفسي مثلا بوضوح . فهو ان اللذة والجنس واقعان نزاعيان conflictuelles في الاساس . وانهما كذلك بطبيعتهما » .

J.-M. Pohier : Recherche sur les fondements de la morale sexuelle chrétienne, pp. 181-182, in Au nom du Père. Recherches théologiques et psychanalytiques, Cerf, Paris, 1972.

وقد كتب الدكتور اندره مورالي ــ دانينوس :

« يلاحظ ان الذين يصيحون ويطالبون اكثر من الجميع عاجزون

عن الاستفادة من التقدم الذي احرز (في ميدان الحرية الجنسية) ؛ لأن علة الداء هي في ذواتهم وان هذه العلة تسمى القلق والشعور بالذنب (...) ان القلق والشعور بالذنب اذ يرتدان عـلى نفس الشخص الذي يولدهما ، يحدثان نتائج خاصية لها تقريبا نفس الحدة التي كانت للقمع الخارجي سابقا (...) ان اعتبـار النفس يلعب دوره هنا ، فاذا كان المرء لا « يعرف » ان يحسن القيام بما يسمح له مجتمع اليوم اخيرا بتتميمه بكل طمأنينة ودعاية ، فلا يسعه تحميله ، كما في السابق ، مسؤولية اخفاقه . ولكنه امر عسير جدا ان يتهم الانسان نفسه ! » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 132, Casterman, 1972.

هذا ما يلتقي مع ملاحظات المحللة النفسية الدكتورة فرنسواز دولتو حول ازدياد حالات العجز والبـرودة الجنسيين في المجتمـع الحديث مع ان الضغط الاجتماعي والتربوي قد خف .

Cité par André Dumas : Sexualité et langage, p. 1890, in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960.

١١ ـــ راجع :

François Duyckaerts : op. cit., p. 68.

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 161.

١٢ ـــ راجع :

Dr. Guy Delpierre : L'Affrontement de l'inquiétude, p. 36, Ed. du Centurion, Paris, 1968.

١٣ ـــ راجع :

Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le Père, pp. 61-62, p. 215.

André Stéphane : L'univers contestationnaire, pp. 190-191, p. 269, note 1, Petite Bibliothèque Payot, 1969.

Simone de Beauvoir : Le Deuxième Sexe, Tome 1, pp. 206, 222-228, 274, 276, 330, 336, 456, 459.

Mélanie Klein et Joan Rivière : L'Amour et la Haine, pp. 64, note 1 et 117, note 2.

Sigmund Freud : Moïse et le Monothéisme, p. 101, coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1967.

François Duyckaerts : La Formation du lien sexuel, pp. 40-47, 65, 70-71, 228-249.

Marie Bonaparte : Eros, Saul de Tarse et Freud, in Revue Française de Psychanalyse, t. XXI, No. 1, janvier-février 1957, p. 29.

Marc Oraison : Le Mystère Humain de la Sexualité, pp. 16-17, pp. 45-49.

Marc Oraison : Le Célibat, pp. 44-46.

Otto Rank : Le Traumatisme de la Naissance, p. 43; p. 99, note 2; p. 13, note 1.

Denise Saada : L'Enfant et les Grandes Personnes, pp. 78-79, 80-81, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1968.

Roger Bastide : La Sexualité chez les Primitifs, pp. 71-72, in Sexualité Humaine, Ed. Lethielleux, Paris, 1966.

Jean Cazeneuve : L'Ethnologie, pp. 183-199, «Le livre de poche», 1967.

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, pp. 11-12, 54, 140-144, 153-158.

S. Freud : Malaise dans la Civilisation, p. 46, note 2, Revue française de Psychanalyse, 1, tome 34, janvier 1970, pp. 9-80.

S. Freud : Le Tabou de la Virginité, in La Vie Sexuelle, pp. 66-80, PUF, 1970.

S. Freud : L'inquiétante étrangeté (1919), pp. 199-200, in «Essais de psychanalyse appliquée», «Idées», Gallimard, 1971.

E. Jones : La Phase phallique (1932) in J. Chasseguet-Smirgel et al. : La Sexualité féminine, pp. 59-65, PBP, 1970.

Herbert Marcuse : Eros et Civilisation, p. 78, Coll. «Points», Seuil, 1971.

Marlène Leist : L'Education sexuelle de votre enfant, pp. 105, 199, Bloud et Gay, 1972.

١٤ — يقول المحلل النفسي الكندي ميشال دانسرو :

« ان الأنا التائق الى التمايز الجنسي . قد يمنعه الجزع من قبول الموت عن احدى امكانياته ، المثلة بالجنس الآخر ، لتأكيد كيانه الشقي sexué (المنفصل) . وقد يفضل المحافظة على وهم الاكتمال الجنسي . لذا فقد يتهرب من النضج الجنسي « أنا » ضعيف يحس نفسه غير موجود ان لم يكن كل شيء ، اي ان لم يكن الله . . . » . راجع :

Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 117, Desclée, 1971.

وبعبارة اخرى ينبغي للمرء ان يقبل عميقا ، وليس فقط على الصعيد العقلي ، انه لا يجمع في ذاته كل الطاقات الانسانية ، لأنه كائن شقي يمثل فقط احدى الامكانياتين الانسانيتين . بشرط هذا الاقرار بحدوده الكيانية ، يمكنه ان يكتشف حقيقة الآخر كمتميز عنه ومكمل له ، وان يسلك طريق الاكتمال الحقيقي بلقاء الآخر ، لا الاكتمال الوهمي بالاكتفاء بالذات . راجع ايضا :

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, La Femme et

sa psychanalyse, pp. 44-45, Le Centurion, 1973.

١٥ — يقول فرويد :

« ... فيما يتعلق بالانسان ، يحدث ان متطلبات الغرائز الجنسية ، التي تتجاوز الفردية بكثير ، تبدو له خطرا يهدد اما بقاءه الذاتي اما اعتباره الواجب لنفسه » .

S. Freud : Une difficulté de la psychanalyse (1917), p. 139, in Essais de Psychanalyse appliquée, «Idées», Gallimard, 1971.

وتقول المرشدة الزوجية مرغريت لامبير بهذا الصدد :

« أن شريكا من الجنس الآخر ... يمثل دوما ، الى حد ما ، تهديدا ، بقدر ما يخشى المرء ان يبتلع ، ان يلتهم منه .

« كثيرا ما يعبر فتيات وفتيان عن هذا الخوف ، رغم سهولة العلاقات الحالية (بين الجنسين) ... » .

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, pp. 39-40, Resma, 1973.

١٦ — يقول كريستيان دافيد :

« كل حب اغتصاب للفرد ، من حيث ينظر اليه كوحدة متوازنة في توزيع طاقاتها وتوظيفها ، كل حب يفترض تحطيم لقوقعته النرجسية » . وايضا :

« ... ان الرغبة في تحطيم حدود الانا ميزة اساسية للحب الجنسي . يستشهد فرويد بقول جلال الدين : « حيث يستيقظ الحب ، يموت الانا ، هذا الطاغية القاتم » » .

وفي موضع آخر يقول :

« ... ان الحب ، بالاضافة الى هدف اشباع الرغبة بامتلاك الموضوع ، يفترض ... ايضا بطبيعته « تنازلا عن الشخصية الذاتية » (فرويد) ، تنازلا يمكن اعتباره صدى ، ونقلا على الصعيد النفسي للغاية الافراخية التي للجنس الفيزيولوجي » . راجع :

Christian David : L'état amoureux. Essais psychanalytiques, pp. 33-35, p. 123, p. 131, PBP, 1971.

ويقول دومينيك برتران :

« ان هذا العجز « اللحمي » عن البقاء وحيدا هو اساس الاضطراب الجنسي ، والسبب الذي لاجله يذل هذا الاضطراب المرء وقد يرعبه ، ذلك انه يزعزع حتى الجذور اكتفائيتنا واسقاطاتها . ان الجنس يعيدني الى مركزي الحقيقي : فلست سوى فرد في شبكة نقل الحياة الهائلة التي هي النوع البشري » .

Dominique Bertrand : Pour une chasteté humaine, p. 219, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17, avril 1970.

١٧ — عن مسؤولية التربية في هذا الصدد ، قالت مونيك غونو :

« ان تربية متشددة او ضيقة بأفراط تتوصل الى خلق مكبوتين ينزعون الى الاحتفاظ لانفسهم بما ينبغي ان يهبـــوه في خط الجنس المكتمل والحب . ان طلاب الصفوف التحضيرية للمباريات الكبرى ، مثلا ، يستقطب احيانا عملهم كل افكارهم ونشاطهم الى حد انه لا يعود اي شيء آخر موجودا بنظرهم . وانك لتجـــد بعضهم في سن الرشد مثقلين بالمسؤوليات المهنية ولكنهـــم غير ناضجين من حيث عاطفتهم ومعقمون نهائيا » .

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, p. 64, Le Centurion, 1971.

١٨ — يقول جورج فيليب برابان :

« ايا كان حبها ، فالأم (...) ليست فقط مصدر هبة بل انها ايضا مصدر حرمان : انها لا تثير غبطة الاشباع وحسب ، بل الألم ايضا والخيبة والغيظ ، عندما تتأخر في التخفيف من جوع ولدها » .

Georges Philippe Brabant : Clefs pour la Psychanalyse, p. 35, Seghers, 1971.

ويقول الدكتور وينيكوت ، مخاطبا الأم :

« ان طفلك يعرف جيدا كيف يغضب . مهما فعلت ، ستكـــون لحظات تخيبينه فيها وسيبكي من الغضب ... لفترة بضع دقائق ، ينوي حقيقة تدمير الاشخاص والاشياء او ، على الاقل ، ايذاءهم » .

Dr. D. Winnicott : L'Enfant et sa famille, p. 66.

١٩ — راجع :

S. Freud : Sur la Sexualité féminine (1931), p. 141, p. 150, in La Vie sexuelle, PUF, 1970.

٢٠ — عن هذه الصورة المرعبة للأم ، وبالتالي للأنثى ، نجـــد نموذجا في رواية « مورافاجين » لبليز ساندرار ، حيث ورد :

« المرأة تحت تأثير القمر ، هذا الانعكاس ، هذا الكوكب الميت ، ولذلك كلما انجبت المرأة ، كلما ولدت الموت . الأم رمز التدمير اكثر منها رمز التوليد ، واي منهن لا تفضل ان تقتل وتفترس اولادها لـــو كانت تضمن بذلك ان تربط الذكر بها ، ان تحتفظ به ، ان تتداخـــل واياه ، ان تبتلعه من اسفل ، ان تهضمه ، ان تنقعه في داخلهـــا ، محولا الى جنين ، وان تحمله هكذا طيلة حياتها في بطنها ؟ لأن هذا ما تؤول اليه كل آليات الحب هذه ، الى ابتلاع الذكر واختفائه » .

Blaise Cendrars : Moravagine, p. 76, La Guilde du Livre, Lausanne, 1961.

٢١ — راجع :

Karen Horney : La Peur devant la femme (1932), in J. Chasseguet-Smirgel et al : La Sexualité féminine, pp. 48-49, PBP, 1970.

٢٢ — ومن اسباب الخوف من المرأة ، كما يثبتها التحليل النفسي :

١) الرعب الذي يعتري الصبي عندما يكتشف غياب القضيب عند البنت ، فيستيقظ فيه الخوف من الخصي ، وقد يبقى هذا الخوف فيما بعد ، مرتبطا لا شعوريا بجسد المرأة . راجع :

S. Freud : L'Organisation génitale infantile de la libido (1923), pp. 115-116, in La Vie sexuelle, PUF, 1970.

S. Freud : De quelques conséquences psychiques de la différence anatomique entre les sexes (1925), p. 127, in La Vie sexuelle.

S. Freud : Le Fétichisme (1927), p. 135, in La Vie sexuelle.

٢) هذا السبب مرتبط بسبب آخر يوضحه فرويد ، الا وهو خوف الرجل من ان تفقده المرأة رجولته . راجع :

S. Freud : Le Tabou de la Virginité (1918), pp. 71-72, in La Vie sexuelle.

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse (1932), p. 34, «Idées», Gallimard, 1971.

٣) ويبين فرويد ايضا ان المرأة ، من حيث هي « الغريبة » ، يمكن ان تكون مكان اسقاط النزعات العدوانية الكامنة في الفرد نفسه ، ولهذا السبب تبدو غامضة ومقلقة . راجع :

S. Freud : Le Tabou de la Virginité, pp. 71, 73.

٤) الخوف من المرأة قد يرتبط ايضا بالخوف من دم الحيض ، هذا الدم نسبت اليه كثير من المعتقدات خصائص سحرية مقلقة . راجع :

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 21, Casterman, 1972.

٥) وقد يعود الخوف من المرأة الى الخوف من التبعية تجاه الأم . هذا الخوف الذي تمتد جذوره الى خبرة التبعية الكاملة التي يعيشها الرضيع . راجع :

Dr. D.W. Winnicott : L'Enfant et sa famille, pp. 205-206, PBP, 1971.

٢٣ — راجع مثلا :

S. Freud : Le Tabou de la Virginité, pp. 76-77, in La Vie sexuelle.

S. Freud : La Disparition du complexe d'OEdipe (1923), p. 121, in La Vie sexuelle.

S. Freud : Quelques conséquences psychologiques de la différence anatomique entre les sexes, p. 126, in La Vie sexuelle.

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychana-

lyse, p. 164.

٢٤ — يقول فرويد ان فض بكارة المرأة يكبدها « جرحا نرجسيا ينشأ عن اتلاف احد الاعضاء » .

S. Freud : Le Tabou de la virginité (1918), p. 74, in La Vie sexuelle.

راجع ايضا :

Marie Bonaparte : La Sexualité de la femme (1951) in J. Chasseguet-Smirgel et al. : La Sexualité féminine, p. 46.

٢٥ — يعتقد فرويد ان الجنس عندما يبلغ مرحلته التناسلية الطفولية حوالي الثالثة من العمر ، يتركز عند كل من الجنسين على القضيب — هذا ما يسميه « المرحلة القضيبية » stade phallique — وان البنت تتخذ البظر بديلا للقضيب ، ولكنها سرعان ما تتحقق انه لا يستطيع ان يقوم مقامه :

« ان اتجاهات ثلاثة للنمو تنبع من هذا الموقف المنقسم (موقف البنت من الجنس) . الاول يقود الى التحول عن الجنس بشكل عام . فالمرأة الصغيرة ، التي تخيفها المقارنة بينها وبين الصبي ، غير راضية عن بظرها ، فتتخلى عن نشاطها القضيبي ومعه عن الجنس عامة ... » . راجع :

S. Freud : Sur la sexualité féminine (1931), in La Vie sexuelle, p. 143, p. 151.

٢٦ — راجع :

Charles Baudouin : L'Ame enfantine et la Psychanalyse.

Hélène Deutsch : Psychologie des femmes, 2 tomes, P.U.F., Paris, 1955 et 1959.

J. Chasseguet-Smirgel et al. : La Sexualité féminine, pp. 134-136.

Anne-Marie Rocheblave-Spenlé : L'Adolescent et son Monde, p. 59.

Denise Saada : L'Enfant et les Grandes Personnes, pp. 148-149, Aubier-Montaigne, 1968.

٢٧ — تبين المحللة النفسية الالمانية الاصل هيلين دوتش ، في كتابها عن « نفسية النساء » ، ان الخوف من الجنس قد يسبب التخلي عن كل حياة عاطفية عند بعض الفتيات اللواتي يندفعن بكليتهن في ممارسة نشاطات ثقافية متنوعة ليهربن من نزعاتهن الجنسية الذاتية التي يحسسنها خطرة :

« ان هذا النوع من الفتيات ينزعن الى ازالة الحب كليا من حياتهن . وحتى اذا كان لهن ميول انسانية او اجتماعية او علمية راقية ، ينقصهن الغنى الروحي النابع من الخبرة العاطفية . هذا

النمط من الفتيات ، اللواتي تخلين عن كل حياة عاطفيـــة ، ينصرفن طيلة فترات طويلة الى « موضوعية » نرجسية وباردة ، الخطر كامن هنا في نجاح هذا الاعلاء الكامل الذي قد يبتر الحياة العاطفية نهائيا . تلك الفتيات مهددات ، في مجرى حياتهن اللاحقة ، بالعصاب » .

Hélène Deutsch : La Psychologie des Femmes, t. 1, Enfance et Adolescence, p. 115, PUF, 1959.

وتقول الكاتبة نفسها ان الهرب قد يتخذ بالعكس ، عنـــد بعض الفتيات ، شكل « هرب الى الامام » في حرية جنسية ظاهرية تتخـــذ احيانا شكلا استحواذيا obsessionnelle واضحا . الا ان هـــذه النشاطات الجنسية المتعددة تغذي القلق عندهن عوض ان تلغيه . راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., p. 114.

٢٨ — راجع :

Dr. A. Hesnard : Psychanalyse du lien interhumain, pp. 67, 106, P.U.F., Paris, 1957.

٢٩ — راجع :

Pierre Bovet : Le Sentiment religieux et la Psychologie de l'enfant, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchatel-Paris, 1951.

Eve Lewis : Les Enfants et leur Religion, Spes, Paris, 1967.

٣٠ — يذكر ارنست ال في كتابه « من الطفل الى الراشد » حالة عفة عصابية نتجت عن ارتباط ، عائد الى خبرة طفولية ، بين الجنس والشعور بالاثم . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 216-217.

وعن ازدواجية الافتتان بالجنس والخوف منه ، النـــاتجة من التعلقات الاوديبية ، راجع :

J.-M. Pohier : Le Célibat sacerdotal. Aspects théologiques et psychologiques, pp. 349-354, in Psychologie et Théologie, Cerf, 1967.

٣١ — يوضح المحلل النفسي جورج موكو قلق الاضطـــلاع بالجنس عند الذين ينتمون الى فصيلة « الدون جوان » ، « فيطيرون من امراة الى امراة ، ويغزونهن كلهن ، اذ ان هذا التنقل الدائم يحول دون ان تصبح اية منهن خطرة » . ويقول الكاتب ان هـــذا القلق يجعلهن « يجتنبون كل علاقة عاطفية حقيقية و . . . يهربون من حياة الزوج التي قد تستقر بالزواج » ، ذلك ان الزواج من شأنه ان يكرر الزوج الوالدي وان يظهر المراة بالتالي ، بالنسبة لعقلهم الباطن ، بمظهر الأم المحرمة والمشتهاة ابدا . لذا فسلوك الدون جوان توجهه غاية لاشعورية الا وهي « ابعاد الشريكة الجنسية ، وانكارها بشكل

من الاشكال ... » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 128.

ويقول المحلل النفسي الالماني هورست ابرهارد ريشتر ان شيئا من هذا حاصل في التهافت على الجنس في المجتمع الحاضر :

« ... هناك شيء اكيد ، الا وهو أن الصورة السطحية التي يقدمها مجتمعنا الحاضر ، صورة حماس للجنس لا يعتريه خوف ... لا تثبت سوى تحول الدفاع التقليدي ضد الجنس الى هرب الى الامام ، ليس بأقل من الاول مشحونا بالجزع » .

Horst-Eberhard Richter : Psychanalyse de la famille, p. 33, Mercure de France, 1971.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, p. 102.

٣٢ — راجع :

Hélène Deutsch : Problèmes de l'adolescence, pp. 35-38.

٣٣ — يبين مارك اوريزون ان المراهق ، من خلال توقه الى الاندماج في عالم الراشدين ، من خلال هذا التطلع المستقبلي عنده ، يكتشف بعده الزمني وبالتالي يكتشف نفسه سائرا نحو الموت . راجع :

Marc Oraison : La Mort... et puis après ?, pp. 40-43 Fayard, 1968.

٣٤ — راجع :

H. Deutsch : op. cit., pp. 82-89.

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 22.

Charles Combaluzier : Dieu demain, pp. 177-178, Seuil, 1972.

ويصف لنا الروائي ريشارد ليوالين التزامن بين اليقظة الجنسية عند المراهق ووعيه بأنه حلقة في سلسلة الاجيال . يقول بطل الرواية : « في هذه السلسلة التي لم تكن لها بداية او نهاية ، كنت حلقة مثلهم » . راجع :

Richard Llewellyn : Qu'elle était verte ma vallée ! p. 289, Jeheber, 1949.

ومن جهة اخرى ، يظهر كريستيان ده لاكامباني التلازم الصميمي بين الرغبة والموت ، اذ يقول :

« هناك علاقة بين التقسيم انا — العالم ، داخل — خارج ، من جهة ، والرغبة من جهة اخرى : فالرغبة هي دوما رغبة في الغاء هذه الحدود . الا ان الشعور الذي يحس به المرء ، في أوج المتعة ، بفقدان حواجزه الداخلية ، ليس سوى شعور **بالموت** ... هكذا يبدو ايروس (الحب) مرتبطا جوهريا بثاناتوس (الموت) ... » .

Christian Delacampagne : Antipsychiatrie. Les voies du sacré, p. 133, Grasset, 1974.

٣٥ ــ راجع :

H. Deutsch, op. cit., p. 80.

Dr. G.-Ph. Guasch : L'Adolescent, son corps et «les autres», 2, L'Ecole des Parents, sept.-oct. 1971, pp. 48-59.

٣٦ ــ راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., pp. 81-89.

يعتقد المحلل النفسي الدكتور رينه لافورغ ان المجتمع الحديث « بحجة المساواة في الحقوق » ، يتجه نحو « اللاتمايز بين الرجل والمرأة » ، مما يحمي النرجسية اذ يجعل من الحب اتجاها الى المثل لا خروجا من الذات باتجاه الآخر :

« ان هذه المساواتية تصل الى حد انكار كل فارق جنسي ، وذلك على حساب كل حب ، ما عدا حب النرجسية ، هذه العبادة العقيمة للذات » . راجع :

Dr. René Laforgue : Psychopathologie de la souffrance (1962), p. 247, in Au-delà du Scientisme, Mont-Blanc, Genève, 1963.

٣٧ ــ راجع :

H. Deutsch : op. cit., pp. 80-81.

٣٨ ــ راجع :

H. Deutsch : op. cit., p. 111.

٣٩ ــ تقول آن فيليب في مذكراتها ، متحدثة عن لقائها بمن اصبح زوجها فيما بعد :

« كان ممكنا ان يكون لقاؤنا لحظة رائعة وحسب ، تذكارا جميلا لا خطر فيه وليس من شأنه ان يغير شيئا في مجرى حياتنا . لا شيء اقل مغامرة من المغامرات . لا يعطي الانسان فيها شيئا اساسيا ، وبفضل ذلك يعتقد انه حافظ على نفسه ولكن بئس تلك المحافظة ، اذ ان المرء ، بكثرة ما يستعمل ، من مغامرة الى مغامرة ، كلمات واعمالا لا يستحقها ، يخسر نفسه شيئا فشيئا ، كمثل نسيج يتآكله الزمن قبل أن يستخدم » .

Anne Philipe : Le Temps d'un soupir, p. 135, Le Livre de poche, 1970.

خسارة النفس هذه من خلال محاولة المحافظة عليها ، نجدها ايضا في رواية فرنسواز ماليه ــ جوريس « الغرفة الحمراء » . ان بطلي الرواية ، هيلين وجان ، اذ شعرا بأن علاقتهما الجنسية اخذت تتحول الى حب ، رفضا ان يستسلما لهذه الخبرة التي بدت لهما خطرة لأنها كانت تدفعهما الى تجاوز النفس نحو الآخر . لذا انصبا على قتل حبهما وحرصا على ان تبقى علاقتهما مقتصرة على تبادل لذة

سطحي . وقد بلغا مأربهما . تقول بطلة الرواية :

« لقد انقذنا من الحب ، واصبحنا متحررين من متطلباته . لقد انقذنا من التبعية والرصانة والاقرار والصفح . لقد انقذنا من الآخرين ومن انفسنا (. . .) لقد انقذنا الى الابد . لقد هلكنا » .

Françoise Mallet-Joris : La Chambre rouge, pp. 307-308, «J'ai lu», Paris, 1972, aussi pp. 273-274.

هذا الموقف كثير التفشي في عصرنا ، حيث كثيرا ما يعاش الجنس على انه لقاء نرجسيتين ترفض كل منهما ان يخرقها الحب . وتقول جاكلين بارجريه ان لسان حال كل من الشريكين يكون عند ذاك :

« لا يمكن للمرء ان يحب دون ان يخرق ، فلنسم اذا المجون حبا ننبقى هكذا سليمين » . راجع :

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve, pp. 84-85.

ويوضح الدكتور ساشا نخت ، نائب رئيس الجمعية الدولية للتحليل النفسي ، ان هذا النوع من الحب ، وان كان ، في الظاهر ، متجها نحو موضوعه ، الا انه مطبوع بالنرجسية الثانوية (اي المنطوية على ذاتها) ، ولذا فهو يحتمي لا شعوريا من موضوعه بتجريده من كل وجود ذاتي وتحويله الى مجرد انعكاس للذات . راجع :

S. Nacht : Le Narcissisme, gardien de la vie (1965), pp. 204-205, in Guérir avec Freud, PBP, Paris, 1971.

ويرى الدكتور مورالي دانينوس في « الحرية الجنسية » كما تفهم كثيرا في عصرنا ، اي كممارسة بحت جسدية للجنس خالية من العاطفة ، نمطا من الطهرية جديدا يقمع الجنس على طريقته ، اذ يبتره ، لا من بعده الفريزي كما في السابق ، بل من بعده العاطفي :

« ان الحرية الجنسية المفرطة تشكل ، الى حد ما ، طهرية معكوسة بفصلها الجسد عن الروح . يعتقد بعض الشباب انفسهم مذنبين اذا لم يفقدوا براءتهم مبكرا . من هنا نشأ جنس دون حب .

« ان الحرية الجنسية المطلقة التي اكتسبت اخيرا هي القوة القامعة التي تمنع الحب . في الماضي ، كانوا يحبون ويقمعون الجنس . اما اليوم فينتقلون بسهولة الى حيز الفعل ويقمعون الحب. لقد احتفظوا بالطهرية ولكنهم بدلوا فقط نقطة ارتكازها » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 132.

كل هذه الظواهر مرتبطة ، في آخر المطاف ، بالخوف من الجنس . بالرغبة من تجنب مغامرة الخروج الكلي من الذات الملازمة للجنس اذا عيش في كل ابعاده . هذا التجاوز للذات يحسبه المرء وكأنه نوع من الموت . فيتراجع امامه ، وكأنه يحجم عن الحياة مخافة من الموت . يبين لنا المحلل النفسي كارل ستارن ، مقتفيا اثر غوته . كيف ان هذا الرباط بين الحب والموت يوقظ جزع الدون جوان ويمنعه

من الالتزام العاطفي . راجع .

Karl Stern : Refus de la Femme, pp. 217-220, Mame, 1969.

٤٠ ــ راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, pp. 140-144.

وقد يكون لهذا السلوك جذور عميقة ولاواعية تعود الى اول الطفولة ، كما تشهد مثلا تلك الحالة العيادية التي ترويها حنه سيغال ، وهي من مدرسة ميلاني كلاين الانكليزية للتحليل النفسي . انها حالة رجل كانت رغبته بانكار تبعيته الصادمة لأم عانى منها شديد الحرمان (اذ لم ترضعه من ثديها سوى يوم او يومين) ، تدفعه لاشعوريا ، في شبابه ، الى سلوك جنسي كان يعتبر بموجبه الفتيات التي كان يغويهن ــ وهن بائعات في محل تجاري كان يشغل فيه مركز مساعد المدير ــ بمثابة « صديقات قليلات الاهمية ، لا يصلحن سوى لأن يمتلكن منه ثم يحذفن ، حسب هواه » . هذا الموقف كان يشكل نكوصا الى مرحلة « الموضوع الجزئي » (الممتدة على الثلاثة او الاربعة شهور الاولى من الحياة) حيث لا تبدو الأم سوى مجموعة وظائف تتجسد بأعضاء معينة كالثدي واليدين . وبالفعل كان هذا الرجل يعتقد ، بصدد فتاتين من تلك الفتيات ، كانت علاقته بهما قصيرة بشكل خاص ، انهما « ربما لم تكونا تمثلان بالنسبة اليه سوى مهبل يعلوه ثديان » . راجع :

Hanna Ségal : Introduction à l'œuvre de Mélanie Klein, pp. 65-66, P.U.F., 1969.

٤١ ــ راجع :

André Stéphane : L'Univers contestationnaire.

Georges Mauco : Psychanalyse et Education, Aubier-Montaigne, 1967.

٤٢ ــ راجع :

Jean Brun : Aliénation et Sexualité, in «Esprit», novembre 1960, pp. 1812-1813.

٤٣ ــ راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., pp. 89-90, p. 140.

هكذا فكثيرا ما يتخذ ما يسمى « بالحرية الجنسية » شكل نوع جديد من الامتثالية ، اي من التقيد السلبي بأعراف مقررة تعاكس الاعراف التقليدية ولكنها لا تختلف عنها من جهة ممارسة الضغط الشديد على الافراد ومحاولة قولبتهم بموجبها . ومن بين تلك الضغوط التي كثيرا ما تتحكم بالجيل الحاضر ، تذكر المرشدة الزوجية مارغريت لامبير الآراء الشائعة التالية : « العذرية اصبحت شذوذا ، رفض الاستسلام اصبح عيبا ، انعدام الاختبارات الجنسية

اصبح يعتبر سببا للفشل الزوجي ، الامانة اصبح ينظر اليها كالى « حماقة ضخمة » . راجع :

Marguerite Lambert : Amour vécu. Journal d'une conseillère conjugale, pp. 46-47, Resma, 1973.

وعن امتثالية اللا امتثالية عند شبيبة اليوم ، تقول اوديت تيبو :

« هذا يصل الى حد ان فتاة ، على سبيل المثال ، تمنح ذاتها لشاب لأنها تريد ان « تفعل ما يفعله الآخرون » ولشعورها بالخجل لكونها لا تزال عذراء ، اكثر من كونها تحبه او ، على اقل تعديل ، تشتهيه ، وان شابا يعتقد نفسه « شاذا » ان لم يكن بوسعه ان يبرز لائحة محترمة من الفتوحات » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 119, Casterman, 1971.

وتقول الدكتورة فرنسواز بينازيه — مارتي في كتاب قيم لها عن « الأم واليقظة الجنسية عند طفلها » :

« ان الحرية الجنسية (في عصرنا) تقوم في كثير من الاحوال على تحريض كل واحد على القيام بالعمل الجنسي مهما كلف الامر ، وعلى عدم احترام رغبة من يختارون ، على الاقل مؤقتا ، شيئا من الامتناع. حاليا يميلون بشكل مؤسف الى الخلط بين الحرية الجنسية من جهة وفريضة ممارسة العلاقات الجنسية من جهة اخرى . . . اما حرية عدم ممارسة العلاقات الجنسية ، فينزعون الى اعتبارها شذوذا » .

Dr. Françoise Bénazet-Marty : La Mère et l'éveil sexuel de son enfant, pp. 161-162, Centurion-Grasset, 1972.

٤٤ — يقول المحلل النفسي الانكليزي ادوارد غلوفر :

« قد يكون الكبت معروفا اكثر من كل الآواليات اللاواعية الاخرى ولكنه مفهوم اقل منها كلها على حقيقته » .

Edward Glover : Freud ou Jung ?, p. 56, PUF, 1954.

٤٥ — راجع :

Albert Plé : Freud et la Morale, p. 145.

« في العاصمة النمساوية ، كان المهيمن على المجتمع بورجوازية منحلة خلقيا بالفعل ولكنها صارمة الاخلاق في الظاهر ، وكان هذ الوضع يولد نزاعات داخلية خطيرة عند افضل اعضائها واسرعهم عطبا » .

Francis Pasche et François Richaud : Freud, sa vie, son œuvre, p. 19, in Traité de Psychanalyse, 1, Histoire, P.U.F., 1965.

٤٦ — ان المجتمع الحديث يشكل تربة صالحة بصورة خاصة لمثل هذا التمزق ، لانه بآن واحد يثير النزعة الجنسية بحدة ويقمع تحقيقها . لقد كتب كريستيان ده لاكامباني بهذا الصدد :

«. المرأة تكشف جسدها اكثر فأكثر ، ولكن ذلك لا يعني دوما انها مستعدة لتقديم ذاتها ، اما الاغتصاب ، فلا يزال يعاقب بشدة . هذا هو بالضبط نموذج الضغط المزدوج ، الوضع الذي لا يطاق ولا يمكن الخروج منه . هكذا فالحاجات ، التي تثيرها الصور ، ازدادت ، بينما القمع ، الجزائي والاجتماعي ، لم ينقص » .

Christian Delacampagne : Antipsychiatrie. Les voies du sacré, p. 131, Grasset, 1974.

اذا كان هذا صحيح بالنسبة للمجتمع الغربي ، فكم بالاحرى بالنسبة لمجتمع كالمجتمع اللبناني لا يزال يضغط على الجنس بقسوة بفعل تقاليده الشرقية فيما يستورد من الغرب ازياءه وصوره المثيرة !

وبصدد هذه الصور ، يستشهد جان برون بهذا النص لروجيه مونييه الذي يوضح كيف ان الدعاية ووسائل الاعلام الحديثة تقدم العري ، تعرضه ، انما « على نمط الرفض » :

« هكذا الجسد المكشوف على الشاشة انما هو معطى ومرفوض بآن واحد . مرفوض من حيث انه اعطي واتخذ كل مظهر جسد حقيقي . مرفوض بقدر ما يبدو معطى اكثر . هذان النهدان المقدمان لملايين من العيون هما مرفوضان ــ مقدمان . ولما كان لرفضهما اهمية (فأن ما هو خيالي دائما مرفوض) ، لو لم يكونا مقدمين بهذا الشكل العجيب (الى حد انهما لم يعودا يبدوان خياليين في كشفهما هذا ، (...) انني احرم مما يرويني بالظاهر » .

Roger Munier : Contre l'image, Paris, 1963, p. 59, cité in Jean Brun : La Nudité humaine, p. 52, Fayard, 1973.

٤٧ ــ راجع :

S. Freud : Inhibition, Symptôme et Angoisse, p. 30, P.U.F., Paris 1965, cité par A. Plé : op. cit., p. 136, note 13.

Dr. Marcel Eck : L'Homme et l'Angoisse, p. 342, Ed. Fayard, Paris, 1964.

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 110, «Idées», Gallimard, 1971.

٤٨ ــ منير وهيبه الخازن : معجم مصطلحات علم النفس ، دار النشر للجامعيين .

٤٩ ــ راجع :

S. Freud : Métapsychologie, p. 47, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1968.

S. Freud : Cinq leçons sur la Psychanalyse, pp. 25-26, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1966.

S. Freud : Le Rêve et son Interprétation, pp. 84-90, «Idées», Gallimard, 1971.

وبصدد الفرق بين الكتمان والكبت ، راجع :

S. Freud : La Psychanalyse et l'établissement des faits en matière judiciaire par une méthode diagnostique (1906), pp. 51, 55, in Essais de Psychanalyse appliquée, «Idées», Gallimard, 1971.

٥٠ — راجع :

S. Freud : Psychanalyse et Médecine, pp. 121-122, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1968.

S. Freud : Abrégé de Psychanalyse, p. 55, P.U.F., Paris, 1967.

Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, p. 176, PUF, 1970.

٥١ — راجع :

S. Freud : Métapsychologie, p. 145.

٥٢ — يقول المحلل النفسي السويسري الدكتور شارل اوديه :

« ليس الكبت سوى الغاء كل عنصر جزع من حقل الاحساس الداخلي ، اي ازالته من الوعي » .

Dr. Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée magique, p. 71, Delachaux et Niestlé, 1966.

راجع ايضا :

Georges Philippe Brabant : Clefs pour la Psychanalyse, p. 80, Seghers, 1971.

٥٣ — راجع :

S. Freud : L'avenir d'une illusion, pp. 116-117, Denoel et Steele, 1932, cité par A. Plé : op. cit., p. 86.

يقول فرويد :

« ... الطفل عاجز عن ان يكبح بعمل نفسي عقلي عددا كبيرا بهذا المقدار من النزعات الغريزية الموجودة فيه ، تلك النزعات التي لن يكون لها مكان في مستقبله ككائن متحضر . ولذا فلا بد له ان يتغلب عليها بأعمال كبت ، يختفي عادة وراءها دافع خوف » .

S. Freud : L'Avenir d'une illusion (1927), pp. 60-61, PUF, 1971.

راجع ايضا :

Georges Philippe Brabant : op. cit., pp. 80-81.

٥٤ — راجع :

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 104, Gallimard, Paris, 1936, cité par A. Plé : op. cit., pp. 57-58.

يقول فرويد :

« ... ان الرغبة المكبوتة لا تزال باقية في اللاوعي » .

S. Freud : Cinq leçons sur la Psychanalyse, p. 29, PBP, 1965.

وفي كتاب آخر :

« ان الكبت ... يجعل العناصر النفسية ممتنعة ويحفظها على حالها بآن واحد ... » .

S. Freud : Délire et Rêves dans la « Gradiva » de Jensen (1906), p. 170, «Idées», Gallimard, 1971.

٥٥ ـــ راجع :

S. Freud : Inhibition, Symptôme et Angoisse, pp. 86-87, cité par A. Plé : op. cit., pp. 56-57.

٥٦ ـــ راجع :

S. Freud : Psychanalyse et Médecine, pp. 121-122, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1968.

Charles Baudouin : L'Ame et l'Action, pp. 44-45, 84, Ed. du Mont-Blanc, Genève, 1969.

يقول فرويد ان الكبت يجعل النزعة الغريزية المكبوتة بمعزل عن تأثير « الأنا » (ich) وهو يعرفه تلك الطاقة الشخصية التي تمكن الانسان من الاضطلاع بغرائزه وتوجيهها وفق العقل والواقع . راجع :

S. Freud : Inhibition, Symptôme et Angoisse, pp. 13-14, P.U.F., 1968.

ويضيف :

« عندما ينجح الأنا في الاحتماء من نزعة غريزية خطرة ، بواسطة عملية الكبت مثلاً ، فيكون طبعا قد كبت هذا الجزء من الـ « هذا » (id) (اي مجال الغرائز اللاواعية) واضر به ، ولكنه يكون قد وهبه بآن واحد نوعا من الاستقلال وتخلى عن جزء من سيادته الذاتية . هذا ينتج عن طبيعة الكبت الذي هو ، في الحقيقة ، محاولة هرب . فالمكبوت وضع الآن خارج القانون ، واقصي عن التنظيم الكبير الذي يحققه الأنا ، ولم يعد خاضعا سوى للنواميس التي تتحكم باللاوعي » .

S. Freud : op. cit., p. 81.

ويقول كارل غوستاف يونغ من جهته :

« ... ان هذه الناحية المظلمة من النفس (اي الناحية المكبوتة) تتوارى عن جهود التنقيب الواعي التي يقوم بها الفرد . لا يمكن للمريض ان يتفاوض مع ظله المجهول ، ليس باستطاعته لا ان يحسنه ، ولا ان يتأقلم معه ، وحتى لا ان يتخلى عنه ، لانه ، بالواقع ، غير مسيطر على دوافعه الغريزية اللاواعية : بما انها مكبوتة ، فقد اقصيت عن ترتيب النفس الواعية واصبحت مركبات مستقلة ... » .

C.-G. Jung : Psychologie de l'Inconscient, p. 57, Georg, Genève, 1973.

كبت الغرائز يبقيها اذا على شكلها الفوضوي ، الاعمى ، غير الناضج ، يحول دون تطورها وارتقائها . هذا ما يفسر مثلا الفضول المنحرف الذي كثيرا ما يبدو عند الراشدين ــ الذين اضطرتهم تربية متزمتة على كبت الجنس في طفولتهم ــ تجاه الاشكال البذيئة او المنحرفة التي يتخذها الجنس وهي التي يتميز بها جنس لم يكتمل ولم ينضج ، بالضبط لانه كبت. يقول أ.س. نايل بهذا الصدد :

« الجميع تقريبا يحبون ان يقرأوا في جرائد الاحد قصص الطلاقات الفاضحة ، وقصص الجرائم الجنسية (. . .) ان المتعة التي نجدها في الاستماع الى قصة ماجنة عائدة كليا الى تربيتنا غير السليمة فيما يتعلق بالجنس » . وايضا :

« ان التحريمات المتزمتة tabous والمخاوف التي هي في اساس سلوكنا الجنسي هي نفس التي توجد المنحرفين الذين يغتصبون ويخنقون الفتيات الصغيرات في الحدائق العامة . . . » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, pp. 186, 188, Maspéro, 1973.

٥٧ ــ يقول فرويد :

« . . . ان ممثل النزعة الغريزية (اي مظهرها النفسي) ينمو بحرية ووفرة أكبر عندما يفلت ، بفضل الكبت ، من تأثير الوعي » .

S. Freud : Métapsychologie, cité par Georges Philippe Brabant : Clefs pour la Psychanalyse, p. 29.

ويقول الدكتور شارل اودييه :

« غنى طاقي من جهة ، فقر نفسي من جهة اخرى ، ذلك افضل تحديد للنزعات الغريزية التي ابقي عليه في حالة كبت » . راجع :

Dr. Charles Odier : L'Angoisse et la Pensée magique, p. 119, Delachaux et Niestlé, 1966.

ويقول اينياس لاب :

« ميزة عملية الكبت النفسية هي . . . انها لا تحل ولا تلغي شيئا » .

Ignace Lepp : La Mort et ses Mystères, p. 111, Grasset, 1966.

٥٨ ــ يقول الدكتور رولان كاهين :

« محاولة حل نزاع تقتضي اولا ان نراه وندركه ، ان نعيه ، اي ان نفهمه حاوين في عمل الفهم هذا كل توافقياته harmoniques العاطفية وكل اصداءه الحشوية viscérales ، ان نقبله ، ان نضطلع به مع شحنته الانفعالية . . . » .

Dr. Roland Cahen : L'Agression quotidienne, p. 131,

in C.G. Jung : L'Homme et son Message, «Planète + Plus», octobre 1970.

٥٩ ــ راجع :

S. Freud : Ma vie et la Psychanalyse, pp. 38-39, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1968.

S. Freud : Inhibition, Symptôme et Angoisse, p. 85.

Dr. André Berge : Les Psychothérapies, p. 111, PUF, 1968.

٦٠ ــ يقول الدكتور رولان كاهين :

« ... اللاوعي ... عالم يعج بالافضل والاسوأ ، بالاسوأ خاصة ، اذا تركناه في حالة غابة عذراء ، مثقلا بتقييد الأنا الواعي له وعدم تفهمه له ورفضه اياه ، بالافضل ، اذا توصلنا الى ادراك طاقاته الحية وتوجيهها ودمجها بالشخصية » .

Dr. Roland Cahen : op. cit., pp. 120-121.

ويستشهد هذا الكاتب بكلمة لفرويد بليغة :

« انني أغوص في المستنقعات ليتسنى للأجيال الطالعة ان تشيد كاتدرائيات جميلة » .

S. Freud, cité par R. Cahen : op. cit., p. 130.

٦١ ــ راجع :

Albert Plé : Freud et la Morale, pp. 61-62.

٦٢ ــ راجع :

S. Freud : «Civilized» Sexual Morality and Modern Nervous Illness, cité par A. Plé : Freud et la Morale, p. 59.

Joseph Goldbrunner : Sainteté et Santé, Ed. Desclée de Brouwer, Bruges, 1954.

يقول أ.س. نايل :

« أن كرهتم الجنس ، تكرهون الحياة . ان كرهتم الجنس ، لا يسعكم ان تحبوا قريبكم » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 192.

٦٣ ــ يقول الدكتور اندره برج :

« لكي يتم وعي حقيقي ، يجب ان يلتقي الكلام والانفعال » .

راجع :

Dr. André Berge : L'Enfant au caractère difficile, p. 150, Hachette, 1970.

٦٤ ــ يقول أ.س. نايل :

« يصدم الانسان دوما بالشيء الذي يثير اهتمامه اكثر من سواه . ان الملتزمت اباحي ليست له الشجاعة الكافية لتعرية نفسه » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 111.

٦٥ ــ يوضح فرويد ان النزعات المكبوتة قد تظهر بشكل مستتر

في و من خلال الصعيد الكابت نفسه ، كأن تتستر مثلا وراء تشدد عقلي او خلقي او ديني . راجع :

S. Freud : Délire et Rêves dans la «Gradiva» de Jensen, pp. 163-166, «Idées», Gallimard, 1971.

٦٦ — راجع :

Maryse Choisy : Problèmes sexuels de l'adolescence, p. 170, Ed. Aubier-Montaigne, 1954.

S. Freud : Ma vie et la Psychanalyse, pp. 38-39.

٦٧ — راجع :

S. Freud : Trois Essais sur la Théorie de la Sexualité, pp. 50-52, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, 1962.

٦٨ — يقول جان بول شارييه :

« بكبتنا خطاب الرغبة خارج دائرة الكلام ، برفضنا ان نعيه ... مما كان من شأنه ان يسمح لها بأنسنته ، نضطره ان يستخدم ليظهر الاستعارات العصابية » .

Jean-Paul Charrier : La sexualité, fonction ou conduite ? p. 204, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17, avril 1970.

٦٩ — يقول أ.س. نايل :

« ان الاشخاص الذين يكيلون الشتائم لفرويد لأنه علــى حد تعبيرهم « يرى الجنس في كل مكان » هم انفسهم الذين رووا قصص ماجنة ، واصغوا اليها وضحكوا لها ... كل الناس تقريبا يحبون ان يطالعوا في جرائد الاحد قصص طلاقات فاضحة وجرائم جنسية . ومعظم الرجال يسردون لزوجاتهم القصص التي سمعوها في المكتب او المقهى » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, pp. 185-186.

٧٠ — يقول أ.س. نايل :

« ان شجب الراشد لأهتمام الطفل بالقضايا الجنسية ، انمــا هو مرائي واحمق ، فليس هذا الشجب سوى اسقاط ، نقل للشعور الشخصي بالأثم الى الآخرين . ان الوالدين يعاقبون بقسوة عــلى الاخطاء الجنسية لأنهم هم انفسهم مهتمون ، بشكل حيوي مع انه غير سليم ، بهذه الاخطاء » .

A.S. Neill : op. cit., p. 186.

٧١ — راجع « اسئلة الشباب حول العفة » ، ص ٨٩ — ٩٣ ، منشورات بيت الشماسة القبطي بالجيزة ، ١٩٦٩ .

٧٢ — راجع :

Julien Green : Moïra, Ed. Plon, Paris, 1950.

يذكر المحلل النفسي الالماني هورست أبرهارد — ريشتر الحالة

العيادية التالية : كان زوجان قد تبنيا ايديولوجية مضادة للجنس وذلك على سبيل عقلنة نصف عجز جنسي عند الزوج وعدم رضى الزوجة . الا ان رد الفعل العكسي هذا انهار اخيرا : فوقعت المرأة في اغواء مراهق واقامت معه علاقات طويلة الامد سببت صراعا خطيرا بين الزوجين وادت الى طلاقهما . راجع :

Horst Eberhard-Richter : Psychanalyse de la famille, pp. 106-110, Mercure de France, Paris, 1971.

٧٣ — راجع :

S. Freud : Essais de Psychanalyse, pp. 246-247, P.B.P., 1963.

٧٤ — راجع :

S. Freud : Métapsychologie, p. 47, pp. 56-57.

٧٥ — راجع :

Wilfried Daim : Transvaluation de la Psychanalyse, pp. 169-170.

٧٦ — راجع :

Dr. André Berge : op. cit., pp. 175-176.

٧٧ — يقول أ.س. نايل :

« ان الاولاد الذين يربون على نظام لا يرتضونه كذبة طيلة حياتهم . فانهم لا يجراون ابدا على التعبير الحر عن انفسهم » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 147.

٧٨ — يقول الدكتوران جان دلاي وبيار بيشو :

« ان الصراع لا بد منه لنضج الشخصية وكثيرا ما يكون ، بفضل عملية الاعلاء ، مصدر لأسمى القيم الانسانية . ان بعض دراسات الاناسة الحضارية anthropologie culturelle تظهر انه ، حيثما يلاحظ غياب شبه كامل للتحريمات في التربية ، تميل الحضارة المعنية الى الركود والزوال » .

Jean Delay et Pierre Pichot : Abrégé de Psychologie, p. 113, Masson, Paris, 1967.

ويقول المحللان النفسيان لوبوفيسي وسوليه بالمعنى نفسه :

« ان بعض (الحضارات) ، التي تسمح بأرضاء لا حد له للحاجات الجنسية منذ فترة الكمون السابقة للبلوغ (اي الفترة الممتدة بين ٦ و ١٢ سنة تقريبا) ، تتميز بمحدودية نسبية في نمو الشخصية وفي نشاط الوظائف الفكرية العليا وفي القيم والاهتمامات النابعة من الاعلاء . ان حرمان الغريزة شرط سابق للتقدم في النمو ، على ان لا يكون هذا الحرمان مطلقا ، بل ان يبلغ حدا امثل ... » .

S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'enfant par la psychanalyse, pp. 485-486, PUF, 1970.

راجع ايضا بهذا الصدد حصيلة الاستقصاء الذي قام به انوين

سنة ١٩٣٤ حول ثمانين مجتمعا بشريا ، وقد Unwin
اوردها الطبيب النفساني الانكليزي الشهير د.ج. واست في كتابه
عن « الجنس المثلي » . راجع :

D.J. West : Homosexualité, p. 318, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1970.

٧٩ — راجع :

S. Freud : Lettre à Pfister, 25 juillet 1922, in Correspondance Freud-Pfister, p. 135, Ed. Gallimard, 1966.

Antoine Vergote : Psychanalyse et anthropologie philosophique, in La Psychanalyse, science de l'homme, pp. 214-216, 221, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1964.

يشير المحلل النفسي هورست — ابرهارد ريشتر الى انه من باب التأويل الخاطىء الاعتقاد بأن التحليل النفسي ينادي بموقف تربوي رافض لكل حرمان وكل نظام ، ويشير الى ان رايش نفسه ، الذي نادى بحرية جنسية واسعة ، يحذر من تربية خالية من الحرمان . راجع :

Horst-Eberhard Richter : Parents, Enfant et Névrose, p. 31, Mercure de France, Paris, 1972.

راجع ايضا :

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 196, «Idées», Gallimard, 1971.

Richard Evans : Entretiens avec C.G. Jung. Avec des commentaires de Ernest Jones, pp. 130-131, PBP, 1970.

٨٠ — راجع :

Dr. Daniel Widlocher : Préface à la Correspondance Freud-Pfister, pp. 35-36.

٨١ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education Sexuelle et Affective.

Dr. André Berge : L'Education sexuelle chez l'enfant, P.U.F., 1952.

Dr. André Berge : Education familiale, Aubier-Montaigne, 1967.

Georges Mauco : L'Education de la sensibilité chez l'enfant, Ed. familiales de France, Paris, 1962.

Georges Mauco : Psychanalyse et Education.

Denise Saada : L'Enfant et les Grandes Personnes, Aubier-Montaigne, 1968.

Susan Isaacs : Parents et enfants, leurs difficultés quotidiennes, P.U.F., 1952.

Nicole Fabre : Vers la liberté. De l'enfant coupable à l'enfant responsable, Fayard, Paris, 1966.

Nicole Fabre : L'Education familiale et ses problèmes, Fayard-Mame, 1968.

Marlène Leist : L'Enfant et Dieu, Desclée, Paris, 1970.

Selma H. Fraiberg : Les Années magiques, pp. 152-165, 219-232, P.U.F., 1967.

Oscar Pfister : La Psychanalyse au service des éducateurs, Ed. Ernest Bircher, Berne, 1921.

يقول المحلل النفسي والمربي الفرنسي جورج موكو :

« كان فرويد ... يؤمن بأمكانية تغيير التربية بفضل معطيات معرفة اللاوعي . وقد قال لي وللدكتور لافورغ سنـــة ١٩٣٠ ان مستقبل التحليل النفسي هو في التربية ، اذ برايه ان « الوقاية يجب ان تتقدم على العلاج » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 215.

راجع ايضا :

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, Aubier-Montaigne, Paris, 1969.

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, Casterman, 1966.

Dr. Françoise Dolto : Le Cas Dominique, pp. 232-235, Seuil, 1971.

Dr. André Berge : Les Défauts de l'Enfant, pp. 137-155, PBP, 1968.

Georges Mauco : La Paternité, Editions Universitaires, 1971.

Colette Hovasse : Liberté et Autorité devant les enfants de notre temps, Le Centurion, 1965.

Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 210-212, Aubier-Montaigne, 1956.

Marlène Leist : L'Education sexuelle de votre enfant, Bloud et Gay, Paris, 1972.

٨٢ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education Sexuelle et Affective, pp. 161-163.

٨٣ — راجع :

Dr. André Berge : op. cit., p. 167.

٨٤ — راجع :

S. Freud : Introduction à la Psychanalyse, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1962.

S. Freud : Le Moi et le Ça, in Essais de psychanalyse, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1963.

S. Freud : Métapsychologie.

S. Freud : Abrégé de psychanalyse

S. Freud : Psychanalyse et Médecine.

S. Freud : Les Diverses instances de la personnalité psychique, in Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, «Idées», Gallimard, 1971.

٨٥ — يترجمها منير وهيبه الخازن « الأنا الاعلى » .

٨٦ — يقول جورج فيليب برابان :

« ان « الذات » (او « الأنا ») يبدو لنا في وسط هذا الصراع (اي الصراع النفسي) ، مجتهدا ان يوفق بين مختلف المصالح والمتطلبات المتنازعة ، والصادرة من « الهذا » ، ومن الواقع ومن « الأنا الاعلى » ، وان يحكم فيما بينها ، بينما هو يمثل مصالح الشخص ككل » .

Georges Philippe Brabant : Clefs pour la Psychanalyse, pp. 79-80, Seghers, 1971.

٨٧ — يقول الدكتور دنيس فالون :

« ... ان الاشراف « القشري » (اي الاشراف العقلي الذي يتم بواسطة قشرة الدماغ) على انماط السلوك السابقة (اي السابقة لهذا الاشراف) ، لا يجب تصوره على انه صراع بين « العقل » و « الهوى » : انما هو تحويل ، توجيه جديد لقوى هي بحد ذاتها ضرورية لا يستغنى عنها (اذ ليس من طاقات اخرى للعمل الانساني) . فالنضالية والتمردات السليمة والغضبات المقدسة ، نابعة دوما من ردود فعل « مزاجية » : فالفكر يوجه ويصحح ويركز ، ولكن القوى التي يوجهها قديمة (اي بدائية) . يستحيل علينا ان نستبدلها بأخرى بقدر ما يستحيل على الشخصية ان تستغني عنها » .

Dr. Denis Wallon : Les Ages de l'Enfant, tome 2, 3 à 11 ans, p. 130, Editions Universitaires, 1971.

٨٨ — راجع :

Gerda Kronfeld : Dans quelle mesure la psychanalyse peut-elle favoriser la personnalisation progressive ? pp. 80-81, p. 83, in Personnalisation. Etudes sur la Psychologie d'Igor Caruso. Desclée, 1971.

٨٩ — يستشهد المحلل النفسي جورج موكو بالعبارات الشهيرة التي خطها الشاعر الفرنسي الكبير رامبو Rimbaud عندما كتب وله من العمر اربعة عشر سنة ونصف : « ... خطأ القول : انا افكر je pense ، ينبغي ان يقال : يفكر بي on me pense . انا هو آخر » . ويعلق عليها بقوله :

« هذا افضل تعبير عن جزع ... المراهق ذات « الأنا » (او الذات) المنقسم بين ما يتساكن فيه من نزعات غريزية وكبت لا واع نابع من « انا اعلى » والذي لا يرحم ، و« الأنا الاعلى » هنا امومي

بشكل خاص » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 125.

وتقدم المحللة النفسية البريطانية حنه سيغال صورة عن « انا » مسحوق بين الأنا الاعلى والدوافع الغريزية ، كما تبدو في حلم معالج بالتحليل النفسي . راجع :

Hanna Segal : Introduction à l'œuvre de Mélanie Klein, pp. 12-13.

٩٠ — راجع :

Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, p. 187, PUF, 1970.

٩١ — يقول جورج موكو :

« ينبغي للسلطة ان تفقد سلطويتها اللاوعية . على الراشدين ان يقوموا بتربيتهم الذاتية وذلك بأن يخففوا في ذواتهم من متطلبات « أنا اعلى » تعسفي يفرض عليهم لا شعوريا تحريمات متزمتة tabous وشعورا بالاثم تجاه نزعاتهم الغريزية الذاتية ونزعات الشباب .

« عند ذلك فقط يستطيع الوالدون والمعلمون لا ان ينقطعوا عن شجب وكبت رغبات الطفل وحسب ، بل ان يقودوه الى الاعتراف بها ليسمحوا له بالتعبير عنها وضبطها » .

Georges Mauco : op. cit., p. 193.

٩٢ — راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 157.

٩٣ — راجع :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective, pp. 126-127.

٩٤ — راجع :

Denis de Rougemont : Comme toi-même, p. 250.

٩٥ — راجع :

Denis de Rougemont : L'Amour et l'Occident, pp. 264-265.

يقول المحلل النفسي دنيس فاس :

« صحيح ان الانسان قد « يفعل الحب » (اي يقيم العلاقة الجنسية) مدفوعا بالحاجة الى « الاستهلاك » ، ولكن الحب هو ما يسمح للأنسان ان يتخلى عن حاجة آلاستهلاك . لا يقدر ان يتخلى عن « فعل الحب » الا اذا احب ، اي اذا رغب الآخر من اجل ما هو عليه ، اي من حيث هو مختلف عنه ، متميز عن حاجته اليه ، غير ضروري » .

Denis Vasse : Le Temps du désir, pp. 39-40.

٩٦ — راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, p. 167.
Dr. André Berge : Les Psychothérapies, pp. 161-162, P.U.F., 1968.

٩٧ ــ عن كون العفة الحقة مواجهة لا هربا ، راجع :
فالتر ترويبش : احببت فتاة ، ص ٩٥ — ٩٩ .

٩٨ ــ عن تشويه معنى « الكبت » عند الجمهور . راجع :
Dr. André Berge : L'Erfant au caractère difficile, p. 117, Hachette, 1970.

٩٩ ــ راجع :
S. Freud : Métapsychologie.
Albert Plé : op. cit., pp. 57-67.

١٠٠ ــ راجع :
Articles «refoulement» et «répression» in Laplanche et Pontalis : Vocabulaire de la psychanalyse, Presses universitaires de France, 1967.
C.G. Jung : Psychologie et Education, p. 79, Ed. Buchet-Chastel, 1963.
C.G. Jung : Psychologie et Religion, pp. 150-159, id., 1961.
Charles Baudouin : L'Ame enfantine et la psychanalyse, Tome 2, p. 9, Ed. Delachaux et Niestlé, 1951.
W. Daim : Transvaluation de la psychanalyse, pp. 169-170.
Dr. Charles Odier : Les deux sources consciente et inconsciente de la vie morale, pp. 231-236, Ed. de la Baconnière, Neuchâtel, 1947.
R. Gleason et G. Hagmaier : Direction, Education et Psychopathologie, pp. 44-47.
Jean-Paul Charrier : L'Inconscient et la Psychanalyse, pp. 40-41.
André Alsteens : Dialogue et Sexualité, p. 23.
Denise Saada : L'Héritage de Freud, pp. 81-82.

١٠١ ــ يقول فرويد : « ... ان الجزع يوجد الكبت ... » .
S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 118, «Idées», Gallimard, 1971.

راجع ايضا :
S. Freud : Inhibition, Symptôme et Angoisse, pp. 27-29, pp. 89-92, PUF, 1968.

١٠٢ ــ راجع :
Charles Baudouin : L'Ame et l'Action, pp. 34-35, Ed. du Mont-Blanc, Genève.
انها ، برأي فرويد ، عبارة عن « ضبط آلي للانزعاج » .

S. Freud : De la Psychothérapie (1904), p. 20, in La Technique Psychanalytique, P.U.F., 1970.

وقد بين فرويد ان الكبت ثمرة غلو في تقدير الذات ، له طابع طفولي . اما ضبط النفس فيفترض ان يعترف المرء بحدوده ونقائصه وان يضطلع بها . راجع :

S. Freud : Pour introduire le narcissisme (1914), p. 98, in La Vie sexuelle, PUF, 1970.

١٠٣ — يقول فرويد :

« انه (اي « الأنا » او « الذات ») يفضح ... ضعفه بتخليه ، بفعل الكبت ، عن جزء من تنظيمه الدفاعي ، وبتسليمه بأن يرى دوماً النزعة الغريزية بمأمن من تأثيره » .

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 123.

وفي موضع آخر يقول :

« لا يسعنا ان نضبط نزعاتنا الغريزية الا اذا استخدمنا أرقى طاقاتنا النفسية ، تلك التي ترتبط دوما بحالة الوعي » . راجع :

S. Freud : De la Psychothérapie, p. 20, in La Technique psychanalytique.

١٠٤ — راجع :

S. Freud : Cinq leçons sur la psychanalyse, pp. 29-30, 63-64.

S. Freud : Introduction à la Psychanalyse, pp. 409-411, P.B.P., 1962.

Victor Smirnoff : La psychanalyse de l'enfant, pp. 265-266.

Dr. Hesnard : in «Esprit», novembre 1960, p. 1803.

Claude Geets : Psychanalyse et Morale sexuelle, pp. 103-105, 112.

Selma H. Fraiberg : Les Années magiques, pp. 30-32.

يقول فرويد :

« ... انه (اي التحليل) يستبدل الكبت ، الذي هو عملية آلية ومتطرفة ، بضبط ملائم ومعتدل للغرائز يمارس بمساعدة ارقى القوى النفسية ، مختصر القول انه يستبدل الكبت بالشجب » .

S. Freud : Le Petit Hans (1909), in Cinq Psychanalyses, p. 196, P.U.F., 1954.

وفي موضع آخر يقول :

« ان نهجا كهذا (اي العلاج بالتحليل النفسي) يتوصل الى ازالة الصراعات والعصابات . فتارة يقر المريض بأنه اخطأ بكبته الرغبة التي سببت المرض ويقبل تلك الرغبة كليا او جزئيا ، وطورا توجه الرغبة عينها نحو هدف ارقى ولهذا السبب اقل قابلية للانتقاد

(هذا ما اسميه اعلاء الرغبة) ، وتارة يعترف المرء بانه كان محقا برفضه الرغبة ، ولكنه يستبدل اوالية الكبت الآلية ، وبالتالي غير الكافية ، بحكم شجب خلقي يصدر بمساعدة ارقى الصعد الروحية في الانسان ، وبالتالي ينتصر على الرغبة (بعد ان يبرزها) في وضح النهار » .

S. Freud : Cinq leçons sur la Psychanalyse, pp. 29-30.

ويقول جان — بول شارييه بصدد التحليل النفسي :

« بالزامنا انفسنا على التحدث عما نعيشه ، على تسميته ، نعتاد على « تحويل الصراعات الى روايات récits » ، على حد تعبير لاغاش ، وعلى ضبط عنف المشاعر الغريزية ، عوض ان نكتفي بتحملها على غير وعي لمصدر آلامنا » .

Jean-Paul Charrier : La sexualité : fonction ou conduite ? p. 204, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17, avril 1970.

راجع ايضا :

S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, p. 126, P.U.F., 1970.

Georges Philippe Brabant : Clefs pour la Psychanalyse, pp. 185-186.

Georges Mauco : L'Inconscient et la Psychologie de l'Enfant, p. 171.

١٠٥ — راجع :

Carl Rogers : Le Développement de la personne, pp. 49-51, cité par Dr. Jacques Sarano : Connaissance de soi, Connaissance d'autrui, p. 97.

١٠٦ — ان المواجهة الحقيقية للجنس لا تتم اذا كان هناك تهرب من الانفعال الذي لا بد وان تثيره النزعة الجنسية ، انها لا تتم الا من خلال المرور بهذا الانفعال بغية تعهده وضبطه . هذا ما يوضحه دومينيك برتران بقوله :

« لا يسع (الفكر) ان يسبق الشعور ليضع له قواعد ، ولا يسعه ايضا ان يهرب منه . عليه ان ينمو ضمنه . انه « فكر قلبي » ، على حد تعبير بيار عمانوئيل » .

Dominique Bertrand : Pour une chasteté humaine, p. 214, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17, avril 1970.

١٠٧ — راجع :

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, p. 48, Aubier-Montaigne, 1969.

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, pp. 27-29, Les Editions Ouvrières, 1968.

Les Lettres d'amour de François et d'Antoinette, pp. 117-121, Les Editions Ouvrières, 1967.

١٠٨ ـــ راجع :

S. Freud : Analyse terminée et Analyse interminable, cité par A. Plé : op. cit., p. 80.

يقول فرويد في موضع آخر :

« ان « الأنا » ينمو انطلاقا من ادراك الغريزة حتى ضبطها ، ولكنه لا يتوصل الى هذا الضبط الا عند ترتيب ممثل الغريزة في ترابط اوسع ، عند ضمه الى مجموعة » .

S. Freud : Les Diverses instances de la personnalité psychique, pp. 102-103, in Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, «Idées», Gallimard, 1971.

وقد ورد في كتاب عن التربية الجنسية اصدرته منظمة « مدرسة الوالدين » في فرنسا ، ما يلي :

« ان المشكلة التي تطرح باكثر حدة على الشبيبة ـــ وعلى الراشد ايضا ـــ انما هي مشكلة دمج الغرائز في الشخصية . ان الجنس لا يهدد الفرد حقيقة الا اذا لم يندمج بشكل طبيعي في حياته العاطفية بل ظهر كقوة لا يستطيع مراقبتها وتسيطر عليه بشكل لا معقول » .

Ecole des Parents : Cette éducation sexuelle qui vous fait peur, pp. 242-243, Stock, 1974.

راجع ايضا :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, pp. 118-119, Casterman, 1970.

١٠٩ ـــ راجع :

Dr. Louis Corman : L'Examen psychologique d'un enfant, pp. 61-62, pp. 74-75, 103, 146, 238-239, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1968.

R. Osborn : Marxisme et Psychanalyse, p. 57.

Dr. S. Lebovici, in La Sexualité, «Esprit», nov. 1960, p. 1944.

١١٠ ـــ يقول فرويد :

« ... ما يلفت النظر في النزعات الغريزية الجنسية هو مرونتها ... » .

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, p. 128.

١١١ ـــ راجع :

S. Freud : «Civilized» sexual morality and modern Nervous Illness, cité par A. Plé, p. 124, p. 138, note 36.

١١٢ ـــ راجع :

Dr. Jean-G. Lemaire : Les conflits conjugaux, pp.

206-207.

يقول فرويد :

« انها (اي الغريزة الجنسية عند الانسان) تضع تحت تصرف العمل الحضاري كمية عجيبة من القوى ، وذلك يعود ، على الارجح ، الى الميزة البارزة فيها بشكل خاص ، الا وهي القدرة على نقل هدفها دون ان تفقد شيئا اساسيا من قوتها » .

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la Maladie nerveuse des temps modernes, p. 33, in La Vie sexuelle, PUF, 1970.

وفي كتابه « خمس دروس في التحليل النفسي » ، يقول :

« ان الميول التي تتكون منها الغريزة الجنسية تتميز بالضبط بهذه الاهلية الى الاعلاء : ان غايتها الجنسية تستبدل بهدف ارقى وذات قيمة اجتماعية اكبر . ان اشرف مكاسب الفكر البشري انما تعود الى الغنى النفسي الناتج من عملية الاعلاء هذه » .

S. Freud : Cinq leçons sur la Psychanalyse, p. 64.

وفي كتابه « ضيق في الحضارة » ، يقول :

« ان اعلاء الغرائز هو من ابرز سمات النمو الحضاري ، فهو الذي يسمح للنشاطات النفسية الراقية ، من علمية وفنية وفكرية بأن تلعب دورا هاما بهذا المقدار في حياة الكائنات المتحضرة » .

S. Freud : Malaise dans la Civilisation, p. 39, Revue française de Psychanalyse, janvier 1970, pp. 9-80.

ويقول المحلل النفسي جورج موكو :

« ان الطاقة الجنسية تتفرغ بشكل طبيعي في الاتحاد الجنسي بين جسدين ، ذلك الاتحاد الذي يبلغ ملئه في الانتعاظ الجنسي (اي ذروة النشوة الجنسية) . ولكن ... الطاقة الجنسية عند الانسان هي ايضا وخاصة علاقة حب و ... بوسعها ان تنتقل الى مواضيع متنوعة . امكانية النقل هذه هي التي تسمح بتوظيف الطاقة الجنسية في نشاطات متعددة » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 135.

ويضيف :

« ... بقدرته على الاعلاء ، يتمتع الانسان بميزة تجريد طاقته الجنسية عن طابعها الغريزي (...) وهكذا تنفتح الانسانية على الحضارة وعلى تجاوز الحيوانية الغريزية » .

G. Mauco : op. cit., p. 141.

١١٣ — راجع :

S. Freud : «Civilized» Sexual Morality..., cité par A. Plé : op. cit., p. 116.

١١٤ — راجع :

S. Freud : Le Moi et le ça, in Essais de Psychanalyse,

p. 217.

١١٥ — راجع :

S. Freud : La Dynamique du transfert, in De la technique psychanalytique, p. 57, cité par A. Plé : op. cit., p. 124.

١١٦ — راجع :

Charles Baudouin : l'Ame et l'Action, p. 175.

١١٧ — يقول جورج موكو :

« ... هذا الاعلاء يبقى وظيفة للاوعي اكثر منه فعل ارادة حرة وواعية » .

Georges Mauco : op. cit., pp. 141-142.

١١٨ — يقول فرويد :

« أن سياق الاعلاء ، وهو في طريقه عند كل شخص قادر على الاعلاء ، يتحقق من ذاته فور رفع الكوابت » .

S. Freud : Conseils aux médecins sur le traitement analytique (1912), p. 70, in La Technique psychanalytique, PUF, 1970.

وفي موضع آخر يقول :

« ... قد ينشأ الاعلاء من سياق خاص يعيقه الكبت » .

S. Freud : «Un enfant est battu». Contribution à la connaissance de la genèse des perversions sexuelles (1919), pp. 221-222, in Névrose, Psychose et Perversion, PUF, 1973.

١١٩ — راجع جورج خضر : العفة نار ، حديث الاحد ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، منشورات النور ، بيروت ١٩٧٠ .

يقول المفكر الارثوذكسي الفرنسي اوليفيه كليمان متحدثا الى الطيب الذكر البطريرك اثيناغوراس :

« ما ينبغي ان نقدمه لعمل الحضارة ، هو خبرة تحويل خلاق للجنس éros . في هذا المنظار ، يمكن تصور الاديرة على انها بمثابة مختبرات يحتاج اليها المجتمع حاجته الى مختبرات البحث العلمي او الى مشاغل الفنانين ! » .

Olivier Clément : Dialogues avec le patriarche Athénagoras, p. 239, Fayard, 1969.

ويقول كريستيان ده لاكامباني :

« لقد كان فرويد يزعم ان الدين ينشأ عن كبت الجنس . يبدو بالاحرى ، في كل حقبات التاريخ ، ان كبت الواحد ملازم لكبت الآخر » .

ويقدم ، مثلا على ذلك ، المجتمع البورجوازي حيث يقترن رفض القدسية le sacré ، بقمع للجنس اتخذ في الماضي شكل الطهرية ويتخذ الآن شكل « الحرية الجنسية » التي تبتر الجنس

مما يعطيه عمقه وكثافته . راجع :

Christian Delacampagne : Antipsychiatrie. Les voies du sacré, p. 128, Grasset, 1974.

١٢٠ — راجع :

François Mauriac : La Vie de Racine, p. 175, coll. «10-18», Union générale d'éditions, Paris, 1962.

١٢١ — راجع :

Guy de Larigaudie : Etoile au grand large, p. 14, Ed. du Seuil, Paris, 1947.

١٢٢ — يوحنا السلمي : سلم الفضائل ، الدرجة الخامسة ، راجع نشرة دير مار جرجس الحرف ، العدد ١٨ ، شباط ١٩٦٥ ، ص ٢٣ .

١٢٣ — راجع :

St. Maxime le Confesseur : Le Mystere du salut, pp. 80-82, Ed. du Soleil Levant, Namur, 1965.

١٢٤ — راجع :

H. de Lubac : Athéisme et Sens de l'homme, p. 123, coll. «Foi vivante», Ed. du Cerf, 1968.

١٢٥ — راجع :

Lanza del Vasto : Vinôbâ ou le Nouveau Pélerinage, p. 160, Ed. Denoêl, 1959.

١٢٦ — راجع :

J.A. Hadfield : L'Enfance et l'Adolescence, p. 173.

١٢٧ — راجع :

P. Teilhard de Chardin : L'Esprit de la terre, VI. 40, cité in «Ensemble», 6e série, fiche No. 6, p. 4.

١٢٨ — راجع :

P. Teilhard de Chardin : L'Evolution de la chasteté, cité in op. cit.

Gregory Zilboorg : Sigmund Freud et l'activité mentale de l'homme, pp. 145-146, Ed. du Cerf, Paris, 1957.

١٢٩ — يقول أوسفالت كوله :

« مدة عشرين سنة او اكثر ، يربون شباب مجتمعنا على هذا المفهوم أن الجنس هو شيء مناف للأخلاق ، ثم يطلب منهم فجأة ان يتمتعوا بحرية بما كان يبدو حتى ذلك الحين فاسدا الى حد ما » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 74, Robert Laffont, 1970.

١٣٠ — راجع مجلة « النور » — ٣١ كانون الثاني ١٩٦٣ — ص ٢٦ .

١٣١ — راجع :

S. Freud : «Civilized» Sexual Morality and Modern Nervous Illness, cité par A. Plé : op. cit., p. 130.

يقول فرويد :

« كلما قوي الاستعداد للعصاب عند شخص ما ، كلما قل احتماله للأمساك (او التعفف) ، فالنزعات الغريزيسة الجزئية (اي ما يسبق منها الاكتمال الجنسي ، كالنزعة الفمية والشرجية وما شابههما) التي تملصت من النمو الطبيعي (...) اصبح كبحها اعسر ، من جراء ذلك بالضبط » .

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la Maladie nerveuse des temps modernes, p. 38, in La Vie sexuelle.

١٣٢ — في عرضه لأحد التحاليل النفسيـة التي قـام بها ، والمعروف بتحليل « رجل الذئاب » ، يتحدث فرويد عن مصير نزعة جنسية مثلية ذات مصدر طفولي تتبعها عند معالجه ، فيقول :

« ان التيار الجنسي (...) الذي كان يفرض فيه ان يعلى (...) لم يعد حرا ، بل كان معزولا جزئيا بفعل الكبت ، وبالتالي متملصا من الاعلاء ، متجمدا في تعلقه بهدفه الجنسي الاصلي » .

S. Freud : Extrait de l'histoire d'une névrose infantile (L'Homme aux Loups) (1918), p. 416, in Cinq Psychanalyses, PUF, 1954.

١٣٣ — تقول مونيك غونو :

« ان الطاقة التي تولدها الميول الجنسية قابلة للاعــلاء : ان المراهقين الذين لا يعيشون حياة جنسية مفرطة الحرية هم الذين ينصبون على تهيئة الامتحانات ، ويجاهدون للدفاع عن فكـرة او نشرها ، او للوصول الى مثل اعلى ، او للأهتمام بقضايا الانسانية الكبرى . يوجد عند هؤلاء سخاء لا يصادف عند الذين يعيشون في امساك مستلهم من تحريم متزمت للجنس » .

Monique Gueneau : L'Enfant et son désir d'aimer, p. 63, Le Centurion, 1971.

١٣٤ — راجع :

Hélène Deutsch : Problèmes de l'adolescence, pp. 22-24.

١٣٥ — راجع :

Hélène Deutsch : op. cit., p. 23.

راجع ايضا :

Dr. René Spitz, cité par Anne-Marie Rocheblave-Spenlé : L'Adolescent et son monde, p. 118.

هناك لا شك مشكلة ناتجة عن الفاصل الكبير (من ١٠ الى ٢٠ سنة) الحاصل في المجتمع الحديث بين نضج جنسي اصبح يتم ابكر مما قبل واستقلال اقتصادي يحصـل عليه الشبـاب في سن

متأخرة عن السابق . راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, pp. 181-184, Le Centurion, 1971.

راجع ايضا :

S. Freud : La Morale sexuelle civilisée et la maladie nerveuse des temps modernes, p. 40.

١٣٦ — يقول غيزي Giese ، احد الاخصائيين في شؤون الجنس :

« عندما لا يعود الشريك يدرك على انه ند ، بل كما لو كان مجرد شخص صوري يكتفي بأن يكون هنا ، واداة للمتعة ، عند ذاك نقترب مما يمكن تسميته ، في عصرنا ، شذوذاً » . راجع :

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 274.

راجع ايضا (ما سبق وذكرناه) :

George Sand : Histoire de ma Vie, tome 4, p. 291, cité par André Maurois : Lélia ou la Vie de George Sand, pp. 246-247.

١٣٧ — يوضح المفكر الارثوذكسي الفرنسي اوليفيه كليمان كيف ان الزهاد المسيحيين الشرقيين فهموا العفة على انها اكتمال الكيان وتوحيده :

« يحصل الاكتمال والعفة الحقة بالضبط عندما تحل كل جسامة الحياة داخل لقاء حقيقي ، عندما يحتوي الحنان الهوى » .

Olivier Clément : Dialogues avec le patriarche Athénagoras, p. 166.

ويقول المفكر نفسه في كتاب آخر :

« العفة هي دمج الجنس éros في لقاء حقيقي لكي يكون الحب شاسعا كالحياة ، ولكي تجد الحياة معنى وسلاما وحنانا في اشراق الوجوه ... » .

Guy Riobé : La Liberté du Christ. Entretiens avec Olivier Clément, p. 54, Ed. Stock-Cerf, 1975.

١٣٨ — يقول احد ابطال الروائي الانكليزي الشهير شارل مورغان :

« لا اعتبر افراح الحب الجسدية خطيئة ، ولكنها تصبح خيانة مميتة كل ما كان الفرد مهووسا بقبول هذه المتع او بالرغبة فيها » .

Charles Morgan : Fontaine, p. 235, Le Livre de poche.

١٣٩ — راجع مجلة « النور » — ١٥ شباط ١٩٦٣ — ص ٣٧ .

١٤٠ — راجع مجلة « النور » ، ١٥ شباط ١٩٦٣ ، ص ٣٧ — ٣٨ .

يقول اوسفالت كوله :

« من المؤكد ان كثيرا من الرجال يقومون بالجماع بتسرع

مفرط ، بشكل شبه لا شخصي ودون ان يفكروا سوى بلذتهم الذاتية . ان ثلاثة ارباع كل الرجال يبلغون الانتعاظ في مهلة دقيقتين بعد بدء العلاقات الجنسية (كينسي) . ان هذه الفترة من الزمن لا تكفي المرأة المتوسطة لبلوغ الارضاء ... » .

Oswalt Kolle : Expérience de l'amour moderne, p. 228, p. 374.

وفي موضع آخر يوضح الكاتب ما ينبغي ان يكون الموقف السليم :

« بفعل ارادة ، يلزم الرجل نفسه بأن لا يهتم بشكل حصري ودائم بمتعته الخاصة وبأن يركز كليا على شريكته » .

O. Kolle : op. cit., p. 215.

١٤١ — راجع :

Jean Guitton : L'Amour humain, p. 114, Ed. Aubier-Montaigne, Paris, 1955.

Dr. Bernard Muldworf : L'Adultère, pp. 97-98, Casterman, 1970.

Les Lettres d'Amour de François et d'Antoinette, pp. 172-173.

١٤٢ — تقول ماري تيريز فان ايكوت :

« ... ان الجنس الانساني يطبع بشكل عميق وجوهري الشخص بكامله . ان جنسنا ليس محصورا البتة في اعضائنا التناسلية . انه بالعكس مسجل في خلايانا ، في دماغنا ، في فكرنا ، في مشاعرنا ، في كياننا كله . اننا مشكلون به ومتشبعون بالهورمونات الجنسية .

« ان نشاط اعضائنا التناسلية ليس سوى تعبير محلي وظرفي عن حالة عامة كامنة هي وضعنا الذكوري او الانثوي .

« صحيح ان الجنس يحوي الوظيفة الجنسية ، ولكنه يتجاوزها بكثير اذ يعني الشخص كله (...) .

« ان الجنس (...) يحدد ، حتى بالاستقلال عن كل تعبير وظائفي ، ليس فقط سلوكنا بل وخاصة نمط وجودنا الشخصي . اننا نتجه نحو العالم كرجل او كامرأة ، معبرين عن انفسنا في وحدتنا وتكاملنا » .

Marie-Thérèse Van Eeckhout : Nos enfants devant la sexualité, pp. 9-10, Casterman, 1966.

راجع ايضا :

Karl Stern : Refus de la femme, pp. 15-40.

١٤٣ — يقول ارنست ال :

« ... ان موقف المربين من الجسد من شأنه ان يؤثر ... عميقا في علاقة الطفل بجسده الذاتي » .

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte. Les Etapes de la vie affective et sexuelle, p. 34.

١٤٤ ــ راجع :

Irène Lézine : Psychopédagogie du premier âge, pp. 154-155.

عن اكتشاف الطفل المبكر للجنس وعن المواقف الوالدية تجاه هذا الاكتشاف ، راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, pp. 16-17.

١٤٥ ــ راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, pp. 21-36, Casterman, 1970.

١٤٦ ــ لقد كتب هنري انجلمان : « يقال ان ٨٠ ٪ من الوالدين الفرنسيين لا يجسرون على ان يتحدثوا بأنفسهم الى اولادهم عن شؤون الحب ، كأن الموضوع ممنوع ، وكأن مجرد الخوض به مخجل ... » .

H. Engelmann : J'ai perdu la foi, p. 110, Ed. Fayard, Paris, 1966.

فما هي يا ترى ، نسبة الوالدين الذين يسلكون هكذا في شرقنا ؟

اليكم بعض الاحصاءات في هذا المضمار .

فقد ورد في كتاب اصدرته حديثاً « مدرسة الوالدين » في فرنسا عن التربية الجنسية :

« ... في تحقيق اجري مع ٧٠٠ عنصر من الشباب ، كان كلهم ، ما عدا واحد فقط ، يأسفون ان لا يكون والدوهم قد اطلعوهم بأنفسهم على اسرار الحياة ، بصورة تدريجية وكاملة » .

Ecole des Parents : Cette éducation sexuelle qui vous fait peur, p. 241, Stock, 1974.

وقد كتبت الدكتورة فرنسواز بينازي ــ مارتي في كتابها عن « الأم واليقظة الجنسية عند طفلها » :

« هل انقضى زمن الصمت العائلي هذا حول امور الجنس ؟ كلا ، ولكنه في حالة تطور ، كما تشير نتائج تحقيق اجراه الدكتور له مول (١٩٦٢) :

فقد أجابت ٦٩ ٪ من النساء ان تربيتهن الجنسية تركت للصدفة .

٤٨ ٪ منهن يعتبرن ان العلاقة الجنسية آثمة ، مخجلة او منفرة .

٤٠ ٪ يقدرن انه لو اعطيت لهن تربية جنسية افضل لكانت حياتهن الزوجية احسن مما هي عليه .

٩٠ ٪ يعتبرن ان التربية الجنسية امر لا يستغنى عنه .
٥٨ ٪ من الأمهات اجبن عن الاسئلة التي كان يطرحها اطفالهن عليهن .
٢٥ ٪ من الأمهات اخذن مبادرة تجاه صمت الطفل .
٦٧ ٪ يتذرعن للدفاع عن انفسهن بالحياء الذي يشعرن به في هذا المجال » .

وتضيف الكاتبة :

« اننا نجد هذه النتائج بنسب متشابهة بضعة سنين بعد ذلك (١٩٦٨) بمناسبة تحقيق اجرته المجلة الاسبوعية Elle : فهناك امهات ، لم يتلقين لأنفسهن اعلاما جنسيا ، يأسفن على ذلك ، ويعتقدن أن التربية الجنسية ، لو اعطيت لهن ، كان من شأنها أن تزيد من حظهن في النجاح الزوجي ، ويتمنين ان يفدن منها اولادهن ، الا ان عدداً منهن فقط سيتوصل الى ذلك ، بسبب الضيق الكبير الذي ما زلن يشعرن به في هذا الميدان الذي بقي محميا لفترة طويلة من الزمن » .

Dr. Françoise Bénazet-Marty : La Mère et l'Eveil sexuel de son enfant, pp. 61-62, Centurion-Grasset, 1972.

راجع ايضا الارقام التي يقدمها اوسفالت كوله مشفوعة بشواهد مؤلمة :

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, p. 13, p. 25, pp. 33-34.

وهاك احصاء جرى في لبنان :

« لقد اجرينا ، مع ١١٧ شابا من الصفين الثاني والثالث من المرحلة المتوسطة ، تحقيقا حول التربية الجنسية :

« ٨٦ من اصل هذا العدد ، اي ٧٣ ٪ ، تلقوا الاعلام الجنسي من رفاق يكبرونهم بقليل ، ١٥ ، اي ١٢ ٪ ، تلقوا هذا الاعلام من والديهم . ١٤ ، اي ١١،٩ ٪ ، لم يتلقوا اي اعلام البتة » .

«L'Orient», 16 décembre 1967.

١٤٧ ــ نذكر بما وجده الدكتور له مول في تحقيق اجراه سنة ١٩٦١ ، من ان ٤٨ ٪ من النساء اللواتي استجوبهن كن يعتبرن ان العلاقة الجنسية آثمة ، مخجلة او منفرة . راجع :

Dr. Françoise Bénazet-Marty : op. cit., p. 61.

١٤٨ ــ يتحدث الروائي الفرنسي الكبير جوليان غرين في مذكراته عن الأثر الذي تركه في نفسه الموقف السلبي الذي كانت تقفه والدته من الجسد في طفولته :

« الجسد ... كانت تقول هذه العبارة بطريقة جعلتني اتردد في استعمالها حتى سن الخامسة او السادسة عشرة ، كما لو كانت تشير الى شيء مخجل » .

Julien Green : Partir avant le jour, p. 84, Grasset, Paris, 1963.

وتذكر المحللة النفسية الفرنسية الدكتوره فرنسواز دولتو كيف يصدم الاولاد من جراء الكلمات التحقيرية التي يتفوه بها الوالدون بصدد عضوهم التناسلي (« قذر » ، « غير جميل » ...) . راجع :

Dr. Françoise Dolto : Le Cas Dominique, p. 234.

ويقول أ.س. نايل :

« قليلة هي الزيجات السعيدة . واذا اخذنا بعين الاعتبار التربية التي تتلقاها اغلبية اطفالنا ، نتعجب ان لا يكون عدد الزيجات التعيسة اكبر مما هو بالفعل . عندما يكون الجنس قذرا في الطفولة الاولى ، لا يمكنه ان يكون نظيفا في المضجع الزوجي » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 194.

ويظهر الكاتب نفسه كيف ان القمع ، مع انه يؤول الى كبت اهتمام الطفل بالجنس ، يهيج فيه هذا الاهتمام بآن واحد :

« يكتشف الطفل يديه ، وانفه ، واصابع رجليه ، فتطلق امه صيحات فرح . ولكنه ، عندما يكتشف اعضاءه التناسلية ، تسرع الأم في ابعاد يده عنها . ان النتيجة الاولى لهذا التصرف ، هي اعطاء هذه الاعضاء اقصى الاهمية » .

A.S. Neill : op. cit., p. 316.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 101-102.

١٤٩ — راجع :

Marlène Leist : L'Enfant et Dieu, pp. 51-62, Ed. Desclée, Tournai, 1970.

Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective.

لنا شاهد على ذلك في مذكرات سيمون ده بوفوار : اذ نرى من جهة ان التربية الامومية المتزمتة ربطت عند سيمون ده بوفوار بين الجسد والخطيئة ، ومن جهة اخرى ، وبالتوازن ، ان رفض الله كان مرتبطا بيقظة الجسد عند سيمون المراهقة .

Simone de Beauvoir : Mémoires d'une jeune fille rangée, Le Livre de poche, Paris, 1964.

ومن جهة اخرى ، فان كبت الطاقة الجنسية قد يجمد نمو الحياة العاطفية وبالتالي قد يسبب جفاف الشعور الديني عينه . لقد كتب المحلل النفسي الفرنسي الشهير ، الدكتور رينه لافورغ ، بهذا الصدد :

« ... ان نمو الشعور الديني عند الجنسين يبدو مرتبطا بشكل حميم بنمو الاحساس .

« كثيرا ما نعاين في عيادتنا نساء يشكين من برودة كلية في المجال الجنسي (...) ولكنهن ، عموما ، في هذه الحالات ، يشكين

ايضا من انه يستحيل عليهن ان يشعرن بأي ايمان ، وخاصة من تربى منهن وفقا لتقليد ديني . فالصلوات كلها تبدو لهن فارغة من المعنى ، والطقوس الدينية كأنها شيء آلي . ليس لهن أي شعور ديني . تستطعن تحريك شفاههن والسير في زياح ، في الظاهر ، كباقي الناس ، ولكنهن عاجزات عن الاشتراك به بقلبهن .

« في تلك الحالات ، نلاحظ في كل مرة تقريبا وجود عائق عطل بشكل خطير ، منذ الطفولة ، نمو الاحساس » .

Dr. René Laforgue : La Foi et l'Equilibre psychique de l'homme (1953), p. 121, in Au-delà du Scientisme, Mont-Blanc, Genève, 1963.

١٥٠ — يقول العالم البيولوجي الدكتور بول شوشار .

« ليكون الانسان حرا ، عليه أن يتعلم كيف يضبط نفسه » .

Dr. Paul Chauchard : Connaissance et Maîtrise de la Mémoire, p. 223, Marabout, 1970.

١٥١ — يقول الدكتور توردجمان أن الدماغ القديم (هيبوتالموس ، مسيخ الأنف rhinencéphale) « لا يمثل عند الانسان سوى ١٤ ٪ من مجموعة كتلة الدماغ بينما هو بنسبة ٨٩ ٪ عند الجرذ مثلا » .

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 101.

١٥٢ — راجع :

Dr. Paul Chauchard : Le Cerveau et la Conscience, pp. 128-131, Ed. du Seuil, Paris, 1960.

راجع ايضا : اسئلة الشباب حول العفة ، ص ٢٣ — ٢٥ .

يقول الدكتور توردجمان :

« ان الدماغ الجديد néencéphale (اي المراكز الدماغية العليا النامية عند الانسان بشكل خاص) ، دماغ الوعي الارادي ، والكلام والتفاكر . يدمج التيارات الجنسية الصادرة عن الدماغ القديم في مجمل شخصية الفرد (...) ان الانسان ، خلافا للحيوان ، ليس مستعبدا بشكل لاارادي لغرائزه » . راجع :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 98-101.

راجع ايضا :

Dr. Paul Chauchard : Connaissance et Maîtrise de la Mémoire, p. 76, p. 97 note 26.

Dr. Denis Wallon : Les Ages de l'Enfant, tome 2, 3 à 11 ans, pp. 97-100, 103-104.

١٥٣ — راجع :

Les Lettres d'Amour de François et d'Antoinette, pp. 73-76, Les Editions Ouvrières, 1967.

١٥٤ ــ « المطلوب ... ليس البتة كبح نمو طاقة الحب ، بل بالعكس المساعدة على انمائها ، اذ ان نموها بالذات هو الـــذي يضبطها .

« ذلك ان الحب غير المتطور يبقى ذاتي المركز égocentrique . انه لا يأخذ الآخر بعين الاعتبار : ان الفرد في هذه الحال لا يرى في هذا الآخر سوى اداة للمتعة الشخصية . انما المرء في الحب ليس وحده معنيا ... والا لا يكون هذا الحب كاملا وراشـــدا (... ان التربية الجنسية ، كالتربية عامة (التي لا تكاد تتميز عنها) . يجب ان تستهدف قبل كل شيء قيادة الطفل حتى حالة الرشد . علما بأننا نعطي لكلمة رشد معنى كاملا يعطيها قيمة حقيقية » .

Ecole des Parents : Cette éducation sexuelle qui vous fait peur, p. 243, Stock, 1974.

راجع ايضا :

Dr. André Berge : L'Education sexuelle, dialogue familial, p. 12, in Le Groupe familial, No. 54, janvier 1972.

١٥٥ ــ « كل تربية للسلوك الجنسي لا يمكن ان تكون تلقين بالمعنى الصحيح ، بل انفتاحا للقاء الآخر ... » .

Furter : La Vie morale de l'adolescent, Delachaux et Niestlé, 1965, cité par Edouard Breuse : La Coéducation dans les écoles mixtes, p. 131, PUF, 1970.

ويقول مارك اوريزون :

« بالمحبة يمكن للعفة ان تقوم » . راجع :

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, p. 78.

١٥٦ ــ تقول المعالجة النفسية الالمانية مرلين لايست :

« فقط الطفل المقتنع بأنه موضوع حب يمكنه ان يكون هو نفسه قادرا على ان يحب الغير » .

Marlène Leist : L'Education sexuelle de votre enfant, p. 134, Bloud et Gay, 1972.

ويقول المحلل النفسي السويسري مانغ :

« ان المحبة الحقة ، امان المحبة الـــذي يعطيـــه « العش » . البيت العائلي ، انما هي من اهم العناصر لاطـــلاق حب القـــريب والانسانية : انها صلة الوصل بين الانا والانت والنحن » .

Heinrich Meng : Contrainte et Liberté dans l'éducation. La sanction dans la relation éducative, p. 199, Privat, Toulouse, 1968.

وتوضح مرلين لايست ان هذا الحب الذي ينبغي ان يحاط به الطفل لينمو ويصبح قادرا على الحب يجب ان يعبر عنه بأخذ حاجه الطفل الى اللذة بعين الاعتبار : لذة الملاطفات الامومية والاحتكاك بجسد الأم ، لذة الامتصاص ، لذة الافراز . راجع :

Marlène Leist : op. cit., pp. 53-56.
احاطة الولد بهذا الحب المحيي تبدأ منذ اول عهده بالحياة ، وتبدأ معها بالتالي تربيته الجنسية . تقول اوديت تيبو بهذا الصدد :

« ان التربية الجنسية تبدأ في المهد ، هذا اوضح ما يستنتج من اعمال فرويد ! » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 71.

وتقول بياتريس ماربو كليرنس :

« من اجل انه احب في هذا العمر (اي اشهر الحياة الاولى) ، سوف يستطيع الراشد ان يحب ملء الحب ، ان يحب ليس فقط من اجل نفسه بل من اجل الآخر ايضا » .

Béatrice Marbeau-Cleirens : Psychologie des Mères, p. 173, Editions Universitaires, 1967.

وتلعب الرضاعة دورا هاما من هذا القبيل . فان رضاعة ناجحة من ثدي الأم تسهل اتصال الطفل بالكون كما يوضح المحلل النفسي الانكليزي وينيكوت :

« في نهاية رضاعة ناجحة من الثدي ، يمكن للأم ان تقول انها وضعت الف مرة ثديها قرب الطفل ، في نفس اللحظة التي كان الطفل يرغب فيها بشيء . انها اعطته بهذه الطريقة مبررا للاعتقاد بأن الكون مكان يوجد فيه للمرء امل بأن يجد ما يوازي ما ينتظره ويتخيله ويحتاج اليه . شيئا فشيئا ، يتوصل الطفل الى اقامة علاقة مع اشياء خارجية » . راجع :

Dr. D.W. Winnicott : L'Enfant et sa famille, pp. 136-137, PBP, 1971.

وفي موضع آخر يقول بصدد الرضاعة :

« ان تكيف الأم المحسوس ... مع حاجات الطفل ابرز عنده فكرة الكون على انه مكان صالح . لقد كان العالم (في شخص الأم) يتوجه للقاء الطفل ، بشكل ان الطفل اصبح بأمكانه مقابل ذلك ان يخرج (من ذاته) ليتوجه الى العالم » .

Dr. D.W. Winnicott : op. cit., p. 92.

راجع ايضا :

Dr. D.W. Winnicott : op. cit., pp. 162-163.

Marie-Claude Boisbourdain : L'Attachement du petit enfant, p. 16, in L'Ecole des Parents, novembre 1973.

١٥٧ — من جهة اخرى يجب التنويه الى ان الحب الزوجي بين الوالدين عنصر اساسي في تربية الحب عند الاطفال . راجع :

Denise Stagnara : Qui nous répondra ? pp. 67-71, Ed. du Chalet, 1971.

وتلاحظ جاكلين بيرجريه ان حياء في غير موضعه كثيرا ما يمنع

الوالدين اليوم من ان يظهرا لأولادهما حبهما احدهما للآخر . فبحرمانهما من شهادة من شأنها ان تلعب دورا اساسيا في تربيتهم الجنسية .

Jacqueline Bergeret : Suite pour Eve. La Femme et sa Psychanalyse, pp. 210-213, Le Centurion, 1973.

١٥٨ ـــ راجع :

Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 152.

١٥٩ ـــ راجع :

Hans Zulliger : Chapardeurs et Jeunes Voleurs, Ed. Bloud et Gay, Paris, 1969, pp. 62-64.

يقول جورج موكو :

« ان الطفل غير المحبوب كما ينبغي ، سواء من جراء نقص او افراط ، او الذي عاش بين زوج والدي غير منسجم ، قد يجد صعوبة، اذا اصبح راشدا ، في ان يحيا حياة زوج couple في الزواج . هنا يحمل الاولاد اثر جزع وعدم اطمئنان الوالدين » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 208.

راجع ايضا :

Joachim Bodamer : Sexualité, Amour et Névrose, p. 76, Labor et Fides, 1970.

١٦٠ ـــ راجع :

Bernard Muldworf : Le Métier de père, pp. 116-117, 144-145, Casterman, 1972.

S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, p. 445.

Dr. André Berge : Le Métier de parent, p. 158.

١٦١ ـــ يقول فرويد :

« ينبغي للتربية ... ان تجد طريقها بين خطر التساهل المفرط وخطر التحريم (...) ينبغي تقرير ما يجب تحريمه ، ومن ثم في اي وقت وبأية وسيلة يجب أن يتم هذا التحريم . بالاضافة الى ذلك ، لا يجب ان ننسى ان الشخصيات المختلفة التي علينا ان نؤثر فيها انما تحمل استعدادات وراثية مختلفة ، لذا فان سلوك المربي لا يجب ان يكون هو هو بالنسبة لكل الاولاد (...) ان نعرف الميزات الوراثية التي يحملها الطفل ، ان نحزر ، بفضل دلائل دقيقة ، ما يجري في نفسه التي لم تكتمل بعد ، ان نظهر له دون افراط الحب المتوجب له مع احتفاظنا بالسلطة الضرورية ، تلك هي المهمة الصعبة التي تفرض ذاتها على المربي ... » . راجع :

S. Freud : Nouvelles Conférences sur la Psychanalyse, pp. 196-197.

راجع ايضا :

Dr. André Berge : Le Métier de parent, pp. 141-143.
Dr. Denis Wallon : Les Ages de l'Enfant, t. 2, 3 à 11 ans, pp. 136-137.
S. Lebovici et M. Soulé : La Connaissance de l'Enfant par la Psychanalyse, pp. 444-447.

١٦٢ — حول خبرة ناجحة في حقل التربية الجنسية المدرسية ، راجع :

Henry Tavoillot : Une expérience d'éducation sexuelle, Aubier-Montaigne, 1969.

وبصدد التربية الجنسية في المحيط المدرسي ، كوسيلة لاكتشاف الحب الحقيقي ، راجع خبرة دينيز ستاغنارا :

Denise Stagnara : Qui nous répondra ?, pp. 73-84.

١٦٣ — راجع :

Jacques Drouet : Ecole et Sexualité, Les Editions Ouvrières, Paris, 1972.

١٦٤ — راجع : كوستي بندلي : هل يجب ادخال التربية الجنسية الى المدارس ؟ « نداء الشمال » ، العدد ٣١٨ ، ٢٠ نيسان ١٩٧٠ ، ص ١ و ٤ .

راجع ايضا ما يقوله الدكتور لاوو كونز ، وهو مدير مدرسة الماني اشرك الطلاب في المسؤوليات وافسح امامهم مجال المساهمة الفعالة في احياء كافة النشاطات المدرسية :

Dr. Léo Kunz : Quand les élèves participent aux responsabilités, pp. 36-37, Les Editions ouvrières, 1970.

١٦٥ — راجع :

Paul Foulquié : Les Ecoles Nouvelles, Presses Universitaires de France.
Dr. Gérard Mendel : La Révolte contre le père, pp. 149-163.
Dr. Léo Kunz : op. cit.

١٦٦ — كوستي بندلي : المقال نفسه .

١٦٧ — راجع :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp 178-179.

١٦٨ — راجع :

Elisabeth Huguenin : La Coéducation des sexes, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel et Paris, 1929.
Situation du problème de la mixité, Ed. Feuilles familiales — Vie ouvrière, Bruxelles, 1964.

في موضوع الاختلاط واهميته وشروط نجاحه وكيفية تأمينه ، راجع :

كوستي بندلي : مع تساؤلات الشباب (منشورات النور ، بيروت ، ١٩٧٣) .

وتقول دينيز ستاغنارا ، وهي اخصائية في التربية الجنسية المدرسية ، ان موقف الوالدين من هذا الاختلاط مهم ايضا في تحديد نوعيته . راجع :

Denise Stagnara : Qui nous répondra ?, pp. 55-56.

١٦٩ ــ راجع :

Dr. André Berge : La Sexualité aujourd'hui, pp. 37-56, Casterman, 1970.

Edouard Breuse : La Coéducation dans les écoles mixtes, P.U.F., Paris, 1970.

١٧٠ ــ راجع :

Dr. Léo Kunz : op. cit., p. 37.

١٧١ ــ كوستي بندلي : المقال نفسه .

١٧٢ ــ راجع :

Marc Oraison : Tête dure, p. 149, Ed. du Seuil, Paris, 1969.

١٧٣ ــ كما انها تثير اهتماما مفرطا ــ مع انه مكبــوت ــ بالجنس . يقول ا.س. نايل :

« انها (اي التربية الدينية المتزمتة) هي التي تعطي الجنس اهميته المفرطة » .

A.S. Neill : Libres enfants de Summerhill, p. 318.

١٧٤ ــ راجع :

Marc Oraison : Amour ou Contrainte, Ed. Spes.

Marc Oraison : Une Morale pour notre temps, Ed. Fayard, Paris, 1965.

١٧٥ ــ راجع :

Jean Cardonnel : Du bon Dieu au Dieu vivant, p. 129, Ed. de l'Epi, 1963.

١٧٦ ــ راجع :

André Manaranche : Je crois en Jésus-Christ aujourd'hui, pp. 92-93, Ed. du Seuil, Paris, 1968.

Paul Evdokimov : Les Ages de la vie spirituelle, p. 150, Ed. Desclée de Brouwer, Bruges, 1964.

Paul Evdokimov : Sacrement de l'Amour, p. 216.

Jean-Claude Barreau : La Foi d'un païen, p. 21.

Pierre Emmanuel : L'Ouvrier de la onzième heure, pp. 81-82, Ed. du Seuil, Paris, 1953.

Bruno Lagrange et Marc Oraison : Ailleurs existe... La Résurrection, pp. 123-124, Fayard, 1969.

Arthur Michael Ramsey : Dieu, le Christ et le monde, pp. 97-98.

الارشمندريت الياس مرقص : الحياة الرهبانية كممتدة الى

الآخرة ، الى الله . (« النور » ، آب ١٩٦٥ ، ص ١٧١ — ١٧٣) .
الارشمندريت جورج خضر : التوبة في الكنيســـة الشرقية .
(« النور » ، حزيران ١٩٦٧ ، ص ٢٣٤) .
١٧٧ —
cité par P Evdokimov : Les Ages de la vie spirituelle, p. 230.
١٧٨ — راجع :
Dr. André Berge : L'Education sexuelle et affective.

الفصل الرابع

آفاق الجنس

لقد كان هاجسنا ، في الفصول السابقة ، ان نبحث في الجنس من زاوية انسانية صرفة ، متقصين أبعاده على ضوء معطيات العلوم الانسانية ومحاولين بالانطلاق من تلك الأبعاد تقييمه خلقياً . الا ان كل خبرة انسانية عميقة لا بد وان تطلّ ، اذا تلبعناها في كل امتدادها ، على ما يتجاوز الانسان ويؤسسه بآن ، معطياً لوجوده غاية ومعنى . لذا كان لا بد لخبرة صميمية كخبرة الجنس ان تتكشف لنا عن آفاق بعيدة سنحاول في هذا الفصل ان نقول عنها شيئاً ، منطلقين هنا ايضاً من الواقع الانساني ، كما يتجلى لنا في السلوك الفردي والحضاري وفي الآثار الأدبية ، مستخلصين منه ، على ضوء عقلنا وايماننا ، ما يبدو لنا المعنى الأخير للجنس الانساني .

١ – الجنس كسعي الى المطلق

يقول فرنسوا دويكارتس : « ليس من باب الصدفة ان تتكلم النصوص الدينية الكبرى التي ظهرت في الانسانية لغة الحب »[١] . كيف السبيل الى تفسير تلك الظاهرة ؟ لقد حاول فرويد ان يلقي ضوءاً عليها بقوله ان التوق الديني انما هو « اعلاء » للنزعة الجنسية . ولكنه باستقامته الفكرية المعهودة اقر بأن هذا « الاعلاء » يكتنفه الغموض[٢] . بالفعل لم يحل اكتشاف عملية « الاعلاء » المشكلة ، بل بقي السؤال الآتي مطروحاً بجدة : كيف يمكن للجنس ان يرتقي من الصعيد البيولوجي الى قمم الخبرة الصوفية ، ان لم يكن حاملاً في ذاته طاقة تدفعه الى تجاوز ذاته الى ما لا نهاية ، وبعبارة اخرى اذا لم يكن المطلق مستقطباً له في الصميم ؟[٣] لذا يضيف فرنسوا

دويكارتس على ما ذكرناه له اعلاه : « ذلك ان في الحب نفسه يتجلى طابع قدسي ... يهيئه للتعبير عن وقائع تتجاوز مجرى الحياة اليومية »[٤] . هذا ما حدا بمدرسة من مدارس التحليل النفسي الا وهي ، « حلقة دراسات سيكولوجية الاعماق في ڤيينا » (Cercle viennois d'études de Psychologie des profondeurs) الى عكس المنظار الذي املته على فرويد فلسفته الخاصة[٥]: فعوض ان يرى افراد هذه المدرسة (وفي طليعتهم ايغور كاروسو وولفريد دام) ان النزعة الى المطلق هي تعبير عن الجنس ، يرون في الجنس تهجئة للسعي البشري الى المطلق ، « رمزاً » للمطلق[٦] .

استقطاب المطلق للجنس البشري يتضح لنا اذا استعرضنا الخبرة الجنسية بشكل عام والحب البشرى بشكل خاص ، كما انه يتجلى بشكل صارخ فيما يمكن ان ندعوه « ديانات الجنس » على اختلافها .

اولا – الخبرة الجنسية بشكل عام

فمن جهة يبدو بوضوح ان السعي الجنسي عند الانسان يستهدف بلوغ ملء يتجاوز ما يحصل عليه الانسان عادة من خيرات الوجود ، وكأن الانسان يَنشد من وراء الممارسة الجنسية تحقيقاً لذاته مطلقاً[٧]، سعادة فردوسية . هذا ما تعبر عنه اللغة الشعبية الفرنسية مثلا عندما تطلق على النشوة الجنسية عبارة « السماء السابعة » (و« السماء السابعة » هي ، في اللغة الصوفية ، ذروة الاتحاد بالالوهة) .

قد يُخيّل لنا ان الماجنين لا ينشدون سوى اللذة ، ولكن الواقع انهم في كثير من الاحيان يتلهفون هم ايضاً الى ملء فردوسي ينشدونه من خلال الجنس . يحدثنا فرنسوا مورياك عن الكاتب المعاصر هنري دي مونترلان ، فيقول : « لقد اختار منذ البدء بأن لا يقول لا لأية رغبة من رغباته . ولكنه كان يميز في كل رغبة مطلباً لا نهائياً . لقد كتب في مطلع احد كتبه هذه العبارة للقديسة تيريزيا : « ان رغبتنا لا دواء لها » . لقد وجدت في مفكرتي كلمات منه ... مثلاً « ما يشتهي الاجساد ، انما هي النفس فينا اكثر مما هو الجسد »[8] . لقد سمعنا ايضاً رينو ، بطل « راحة المحارب » لكريستيان روشفور ، يصرح بأن « المهم في المجون ليس اللذة ، انما هو الاله » . هناك أمثلة كثيرة على الموقف نفسه . فقد أوضح ايفور كاروسو ان « الروايات الاباحية التي صدرت في القرن الثامن عشر مليئة بالعبارات الدينية » تطلق على العمل الجنسي وما يتعلق به ، وان ذلك « العصر الأكثر عقلانية والاقل تقوى اختار اللغة الدينية للتعبير عن الجنس »[9] . واذا تفحصنا آثار ذلك الشاعر الفرنسي الكبير الذي عاش في القرن الماضي ، شارل بودلير ، رأينا ان تلك النفس المتعطشة الى المطلق كانت تحاول ان تبلغ اليه من خلال المجون لتتحرر من سأم الحياة اليومية المحدودة ، لذا نراه يطلق على النساء الفاسقات تلك العبارة التي تبدو غريبة لأول وهلة ، عبارة « الساعيات الى اللانهاية » (« chercheuses d'infini »)[10] . واذا بالجنس يصبح بالنسبة اليه ديناً ، وان كان ، كما يدعوه ، ديناً معكوساً (contre - religion)[11] .

هذا الطابع الديني المضفى على العمل الجنسي ، نراه ظاهراً

بشكل خاص في المراهقة ، ذلك السن الذي لا يقبل بانصاف الحلول بل يتوق الى المطلق مدفوعاً بزخم الحيوية المتأججة فيه . لقد بيّن الاخصائي في علم النفس التحليلي انطوان ڤيرغوت في كتابه عن « سيكولوجية الدين » كيف ان أحد أسباب الازمة الدينية عند المراهقين هو اليقظة الجنسية مع ما تتضمنه من وعد بسعادة مطلقة ، واذا بإيمانهم يتضاءل او يزول بطغيان هذا المطلق الجديد على مشاعرهم[12] . وقد صوّر لنا اندره جيد في روايته « مزيفو النقود » ذلك الوجه الديني الذي يتخذه الجنس عند المراهق ، في شخص ارمان ، وهو شاب ثائر على كل القيم الدينية والاجتماعية التي يمثلها والده القسيس ڤيديل . فقد سهّل أرمان لعلاقة غرامية بين شقيقته وصديقه ودفعهما الى قضاء ليلة معاً في غرفة الفتاة . لم يستطع هو ان ينام في تلك الليلة ، وفي الصبح تسلل الى الغرفة حيث كان العشيقان لا يزالان نائمين ، فتأملهما طويلاً ، ثم ، يضيف الكاتب ، « ركع فجأة أمام السرير بين الاغطية الملقاة على الارض . من يا تُرى ذلك الاله الذي كان يصلي اليه على تلك الصورة ، مضموم اليدين ؟ »[13] .

شيء من هذا يحدثنا عنه الروائي المعاصر جوليان غرين في مذكرات طفولته وحداثته التي نشرت بعنوان : « الانطلاق قبل طلوع النهار » . لقد بدأ الكاتب مبكراً ينفّس عن نزعته الجنسية ، المكبوتة بتأثير تربية قاسية ، بانصرافه الى رسم اجساد عارية . كانت هذه الرسوم تدخله في حالات من الانخطاف يغيب أثناءها عما حوله ، وتغذي فيه رغبات ، لم يكن يدرك عند ذاك ماهيتها ، ولكنها ، كما يقول « رغبات كان محكوماً عليها ان تبقى غير مُشبعة لانها كانت تتجاوز الامكانات البشرية »[14] . ويضيف الكاتب معلقاً على خبرته هذه : « احزن كثيراً عندما

أفكر انني كنت ، من حيث لا أدري ، أسعى ، بقلم أسود وورق ، وراء حلم البشرية الساقطة القديم ، حلم لذة بمقدورها ان تنتزع الانسان من الارض ولا تدعه يسقط عليها فيما بعد ... »[15]

هذا الطابع المطلق الذي رأيناه ، في كل هذه الحالات ، يلازم الخبرة الجنسية ، وجده فرويد في الرغبة البشرية (wunsch) كما تبرز عند الطفل لتستمر في العقل الباطن عند الراشد نفسه . تلك الرغبة ، من طبيعتها ان لا تعرف الشبع ، لانها لامحدودة[16] . وقد قال الدكتور ولفريد دام معلقاً على ملاحظة فرويد هذه : « يرى فرويد ان الطفل لامحدود في رغباته . تلك اللامحدودية انما هي صفة من صفات المطلق »[17].

٢ - الحب والمطلق

ما رأيناه في الخبرة الجنسية بشكل عام ، نلحظه بشكل أوضح في الحب الذي فيه يتبلور الجنس ويتسامى . فالحب خبرة بشرية يستقطبها المطلق بشكل صارخ . هذا يتضح من نزعته الى تأليه المحبوب الذي يصبح « معبوداً » حسب العبارة الشائعة . لقد بيّنت سيمون دي بوڤوار ، في كتابها « الجنس الثاني » ، ذلك التأليه المتبادل الذي يجري في علاقة الهوى[18] ، وأوضحت كيف يمكن للحب ان يتخذ شكل التديّن[19] . هناك نصوص أدبية عديدة تثبت ذلك الطابع « الديني » الذي يتخذه العشق ، ذلك الاحساس ، عند العاشقين ، انهما يبلغان ذروة الوجود ويدخلان في عالم الخلود[20]. سنكتفي ببعض نماذج من ذلك النوع من الادب ، مستقاة من الانتاج المعاصر . يصف

عمانوئيل روبلس في روايته « هذا يُدعى الفجر » ما يشعر به ڤاليريو في وصاله مع كلارا : « لقد تجددت المعجزة . لقد كان بوسع تلك المخلوقة الرقيقة ، الجذابة ، العذبة ، ان تجترح تلك المعجزة . لقد ذابت فيه وانتزعته عن الارض ! وأعطته ذلك الكبرياء اللامعقول واللذيذ بأنه لن يموت أبداً »[21] . وفي مكان آخر يتحدث ڤاليريو قائلاً : « هل تتذكرين ، يا كلارا ، رحلتنا الغرامية الاولى الى بوجرو ؟ الشاطىء الرملي الكبير ، الامواج الخضراء . تلك السعادة التي كان يخفق بها قلبانا ، قلبانا اللذان كانا يحسان بأنهما لن يتوقفا أبداً عن الخفقان ، انهما سيخفقان الى الابد . عيناك ، كلارا ، عيناك الرقيقتـان ، يا حبيبتي ، حيث كنت أحيا ، كأن الله يتبعني بنظره ، عيناك اللتان كانتا تمنعان عني الشك وتفهمانني ان الموت ليس نهاية السر ، بل قوس النصر ، البدء ، الطريق الحقيقية »[22] .

في رواية الكاتب الالمـــاني أريك ماريا ريمارك ، « المسلة السوداء » ، يقول لويس بودمير مناجياً محبوبته : « يا ايزابيل ، عذوبتي وحياتي ، أعتقد انني أخيراً اكتشفت ما هـو الحب . انه أعلى مرقاة نحو النجوم المتوارية ... محاولة أبداً فاشلة يقوم بها المائت لبلوغ الخلود ، لقاء واهٍ في الأفـــق بـين الجلَد والامواج »[23] .

يصور لنا الكاتب الروسي الكبير الكسندر سولينيتزين ، في روايته « الدائرة الاولى » ، الطابع القدسي الذي اتخذه الحب عند أحد السجناء السياسيين في العهد الستاليني ، وهـو الشاب روسكا . لقد عشق هذا الشاب عامـــلة شابة حرة ، كلارا ، واستطاع ان يقبلها لأول مرة . ها هو الآن يحـــلم ، وقلبه

« يشتمل سعادة » : « لقد انقضى نصف يوم منذ تلك القبلة التي هزّت كيانه ، ولم يزل متردداً فيما اذا كان ينبغي له ان يدنس شفتيه المرتويتين بتلفظه باقوال لا طائل لها او بتناوله طعاماً »[٢٤].

لقد اوضح الشعراء من جهتهم ذلك الطابع الصوفي الذي يحمل من الحب محاولة لمعانقة الكون قاطبة والاتصال باللانهاية والنفاذ الى سر الوجود . ينشد احد الشعراء بهذا المعنى :

« لقد شربت شفتاكِ لي روح الكون ...
سقطت دمعة من عينيكِ . فنظرتُ العالم
في مرآة هذه الدمعة .
وانكشفت لي اغوار الكون ...
غرقت نظراتي في عينيكِ ...
الكون كنز مدفون تحت جفنيكِ . »[٢٥]

ويتساءل طاغور :

« هل صحيح ان سر اللانهاية
مكتوب على تلك الجبهة الصغيرة التي هي لي ؟ »[٢٦]

لا يسعنا ، في هذا المجال ، الا ان نذكر الشاعر الفرنسي الكبير لويس آراغون ، الذي اوحى له حبه لزوجته إلسا الكثير من شعره . وقد اتخذ هذا الحبّ عند هــذا الشيوعي ابعاداً صوفية دفعت فرنسوا مورياك الى القول بأنــه « امر يستحق الاعجاب ان كاتباً ملحداً كلويس اراغون اتاح لنا ان نعتقد بأنه بوسع الانسان ان يحمل اللانهاية في الحب »[٢٧] .

٣ – ديانات الجنس

ما رأيناه على الصعيد الفردي من استقطاب المطلق للجنس ، نجده ايضاً على صعيد حضاري .

اولا – في الحضارات القديمة و « البدائية »

فالجنس في الحضارات القديمة وعند الشعوب « البدائية » الحالية ، لا يُعتبر مجرد طاقة طبيعية ، انما هو ذو طابع قدسي ، مكان لتجلي الالوهة . لذا يُعبد الجنس وراء صور ترمز الى العضو التناسلي الذكر (cultes phalliques) ، ذلك العضو الذي يُعتبر في هذا المنظار ، رمزاً للقوة الخلاقة التي تحيي كل شيء . لذلك ايضاً يُعتبر العمل الجنسي ، في ظروف معينة ، واسطة للاتصال بالقوى الكونية . هكذا نرى الشعوب البدائية التي تتقيد عادة ، في حياتها الجنسية ، بقواعد دقيقة تعين ما هو حلال وما هو حرام (tabou) ، توقف من حين الى آخر (مثلاً في اول السنة) فعل تلك القواعد ، فيطلق الناس للغريزة العنان ، لا على سبيل الاباحية وحسب ، بل لانهم يعتقدون انهم ، بذلك الاندفاع الغريزي ، يعودون الى اصل الكون ، عندما كان فوضى (chaos) ، ويتصلون بالقوى الالهية الخلاقة مستمدين منها زخماً يجدّدون به الحياة بكل مظاهرها ويحولون دون شيخوخة الكون وانحداره . بهذا المعنى ايضاً يجب ان تُفهم ممارسة العمل الجنسي الطقسية في الحقول المزروعة ، بغية استمداد القوى الالهية المحيية واشاعتها في الارض لاخصابها .

القضية هنا تتعدى مجرّد اتصال جسدي بين رجل وامرأة ؛ انها من خلال ذلك ، اتصال مبدأين كونيين ، المبدأ المحيي الخلاق (الذي يمثله الرجـل) والمبدأ المتقبل لفعله المحيي (الذي تمثله المرأة)[٢٨] .

ثانياً – في العالم المعاصر :

ذلك الطابــع القدسي الذي تضفيه على الجنس الحضارات القديمة و « البدائية » ، يعود فيبرز في العالم المعاصر الذي يشاء نفسه عقلانياً وعلمانياً الى ابعد حد . تلك هي المفارقة . فمـن جهة غاب الايمان عند الكثيرين ، ومن جهة اخرى برز الجنس بمثابة « الدين الجديد » بالنسبة للعديد من معاصرينا . فالجنس كما يتجلى في كتب وروايات حديثة (كمؤلفات جورج باتاي ، وروايات هنري ميللر وكريستيان روشفور) وفي افلام معاصرة (كالعاشقين للويس مالّ ، وهيروشيما حبّي) يتخذ طابع المطلق ويبدو كأنه طريق الخلاص لانسان يعذبه لا معنى الوجود ويقض الموت مضجعه ويجد نفسه في عزلة مريرة . من هــذا المنظار تبدو النشوة الجنسية للانسان المعاصر وسيلة يخيل اليه انه يستعيد بها ذاته الضائعة ، باتصاله بالطاقة الكونية .[٢٩]

في كتاب حديث « من هو ضائع ؟ » (Qui est aliéné ?) اوحته ثورة الطلاب في ايار ١٩٦٨ في فرنسا ، يعرض موريس كلافيل وجهة نظر تلقي ضوءاً على العديد من ظواهـــر العالم الحديث ، بما فيها دين الجنس الذي نحن بصدده . اطروحة الكاتب ان النزعة الانسانية (humanisme) التي تميز بها تاريخ الانسانية منذ عصر النهضة ، تلك النزعة حاولت حصر الانسان ضمن

محدوديته وجعل تلك المحدودية مقياساً لكل شيء ، فيما الانسان مزيج من المحدود واللامحدود . هكذا اقصي اللامتناهي عن مجال الوجود الانساني ، « كبت » على نحو ما صوّر فرويد كبت الغرائز . ولكن مناخاً من هذا النوع اصبح خانقاً للانسان واذا باللامحدود يبرز من جديد بعد غيابه[30]، وبما انه كان مكبوتاً فبروزه يتخذ شكلاً فوضوياً ، عنيفاً . بهذا المنظار يفسر موريس كلاڤيل انتفاضة ايار ١٩٦٨ ويرى فيها تعبيراً عن هذا المخاض الذي به يثأر اللانهائي لنفسه فيفجر مجتمعاً بُني على تجاهله[31] .

على ضوء هذا التحليل يمكننا ان نفهم ايضاً دين الجنس في العالم المعاصر . ان المطلق المقصى من مجتمع حاول ان يكتفي فيه الانسان بمحدوديته ، قد وجد ملجأ له وتعبيراً في جنس رُفع الى صعيد الالوهة ، فاصبح ، كما يقول الفريد دوماس ، « الصنم الجديد »[32].

تأليه الجنس هذا نجده يتخذ شكلاً جماعياً في تلك « الحضارة » الجديدة التي اخذت تنتشر بين شبيبة العالم الحديث ، وليدة رفض لما في هذا العالم من تنكر لحاجات الانسان العميقة ، عنيت بها « حضارة » الهيبيّين . مسعى الهيبيّين ، من خلال اجتماعاتهم وموسيقاهم ورقصهم وتعاطيهم المخدرات ، « ديني » الى حد بعيد[33]، يبتغي بلوغ خبرة خارقة . انه مظهر من مظاهر تلك العودة الفوضوية للامحدود المكبوت ، التي حدثنا عنها كلاڤيل . ويلعب الجنس دوره في هذا المسعى « الديني » ، اذ يستخدم الهيبيّون الاتصال الجنسي لبلوغ الخبرة الخارقة التي ينشدونها . يقول كروسبي ، احد المغنين في جوقات الهيبيّين : « من خلال العمل الجنسي ، الله الحب يعطي ذاته »[34] .

ب - إخفاق الجنس في بلوغ المطلق

ولكن هل يبلغ الجنس هذا المطلق الذي يستقطبه ؟ الاختبار الانساني يعلمنا عكس ذلك ، يُظهر لنا اخفاق الجنس في بلوغ اللانهائي الذي يصبو اليه . هذا الاخفاق يحصل اذا كان السعي الى المطلق يتوسل المتعة الجنسية البحتة ، ولكنه حاصل أيضاً في طريق الحب عينه .

١ – المطلق لا يبلغ من خلال المتعة الجنسية البحتة

فالمتعة الجنسية البحتة هي ، كما سبق ورأينا ، نشوة عابرة يتبعها شعور بالعزلة أشد مرارة . انها لا تمكّن ، بحال من الاحوال ، من بلوغ الملء المنشود[٣٥]. لقد صور لنا بودلير هذه الخيبة التي خبرها طيلة حياته الماجنة ، عندما تحدث عن « العودة المستمرة نحو لذة تعد بإخماد العطش ولكنها لا تخمده أبداً »[٣٦]. لذا فدين الجنس المعاصر يكتنفه حزن ومرارة عميقان يتجليان في الرواية الحديثة[٣٧]. يحاول الماجن ان ينجو من نقصه الكياني باتحاده بالكون من خلال النشوة . ولكنه باتخاذه اللذة كقاعدة

سلوكه الوحيدة ، ينكر الآخر كشخص ، وبالتالي يبقى أسير حدود أناه ، فلا يبلغ الآخر ولا يبلغ الكون من خلال الآخر. وكما يقول أبال جانيّير : « الطبيعة الشاملة ، التي كان يسعى الى الاتحاد بها في هذه المرأة ، تفلت منه اذ تفلت هذه المرأة منه »[٣٨]. صنمية الشهوة يرافقها احساس بالفراغ والعدم. نذكر كلمة رينو ، بطل « راحة المحارب » بهذا الصدد : « المهم في المجون ليس اللذة ، انما هو الاله ، ولكن الاله لم يزل غائباً » . وقد يصبح هذا العدم مصدر تلذذ وتذوق ، في ما يشبه الانتحار النفسي ، كما هي الحال عند جورج باتاي الذي يشبه هذا العدم الملازم لخبرة المجون « بليل » الصوفيين (أي بذلك الاختبار القاسي للعزلة الذي يمر به الصوفيون في طريق اتحادهم بالله) . الفارق المهم هو ان « ليل » المجون هو بدون رجاء .

٢ — المطلق لا يُبلغ من خلال الحبّ

ولكن الحب نفسه ، رغم تخطيه النسبي لنرجسية الغريزة واندفاعه في طريق الاتحاد ، ليس بمقدوره ان يدرك هذا المطلق الذي يستقطبه[٣٩]. لقد رأينا في الحب سيراً نحو الاكتمال الانساني ، ولكن هذا الاكتمال يبقى أبداً ناقصاً . فالاتحاد بالآخر مهما عمق لا يبلغ الى تلك الوحدة الكاملة التي ينشدها المحبان . هناك حواجز تنتصب أبداً بينهما ، فالطباع تتصادم ورواسب النرجسية تفرّق ومشاكل الحياة وآلامها تدفع الى الانطوائية والجفاء . هناك عزلة قائمة ابداً حتى في صميم الحب ، شعور اليم يعتري المحبان بان المشاركة بينهما ، مهما كانت صميمية ، لا تشمل كيانهما كله . واذا عبرا عن اللقاء بينهما بالاتصال الجنسي ، فصحيح

انهما يختبران من خلال انفعال شديد ولذة عارمة ، وحدة بينهما لا يعبّر عنها . الا ان هذه اللذة وذلك الانفعال لا يدومان طويلاً ، واذا بالمحبين يجدان نفسيهما بعد الوصال في وضع يتنازعه الرضى من جهة وحنين الى فردوس اطلاّ عليه برهة ولم يسعهما ان يستقرا فيه من جهة اخرى :[٤٠]

ذلك الشعور بالعزلة في صميم الحبّ ، يعبّر عنه الروائي المعاصر بول اندره ليسور في هذا المقطع من احدى رواياته : « كم هو وحيد كل نوم ! يظن المحبان انه بامكانهما ان يرقدا الواحد بين ذراعي الآخر ، ثم ينفصلان ، يتدحرج كل منهما الى أعماق ذاته كثمرة ناضجة . فرنسواز نائمة ، وقد تركته وحده يتحرك فيه هذا الجزع ، هذا الحزن ، هذا الحقد ، بدونها ، طوال هذه الأمسية . كم يود ان يتأكد بأن هـذا ليس صورة عن حياتهما ، العناق الذي ينفكّ ، هذا الثقل ، ثقل الاجساد المستقلة »[٤١]

ثم أن الحبّ ، اذا كان أصيلاً ، يـنزع ، كما رأينا ، الى الخلود . المحبان يحسّان عميقاً بأن حبهما لا يمكن الا ان يكون أبدياً . ولكنهما لا يستطيعان ان ينجوا من فعل الزمن ، ذلك الزمن الذي ينال من حرارة الحب[٤٢] بتأثير رتابة العادة ثم بفعل الشيخوخة ، ويصب عاجلاً او آجلاً في الموت[٤٣]. لقد خيّل للمحبين ان الحب فتح لهما أبواب جنة الخلد ، واذا بالموت يبدد هذا الحلم بقسوة . هذا ما عبّر عنه عمانوئيل روبليس في روايته المذكورة آنفاً ، عندما وصف اليأس الذي اشاعه في نفس ساندور موت زوجته الشابة ماغدا : « لا بدّ ان ماغدا وساندرو تبادلا فيما مضى الكلمات المحرقة ، ربما الكلمات نفسها التي تبادلها عند الصباح كلارا وفاليريو ، الكلمات السحرية نفسها ،

كمثل سور هزيل ضد الموت ، قلبه الموت بنفخة منه ! »[٤٤] .
الحب البشري ممزّق هكذا بين توقه الى وضع يعلو على الزمن وبين خضوعه الاضطراري لذلك الزمن الذي يتأكله ثم يدمره[٤٥].

لذا يقترن الحبّ ، لا بالسعادة وحسب ، كما يحاول الكثيرون ان يتوهموا ، متعامين عن واقع مرير ، بل بالكآبة والحنين ، الى فردوس سليب ، الى مطلق يتراءى ولكنه يبقى بعيـــد المنال . هذا ما عـبّر عنه طاغور بقوله :

« دعنا نصبح واحداً في الجمال .
أواه ! ان رغبتي هذه باطلة !
أين يتحقق رجاء الوحدة هذا
ان لم يكن فيك يا ألهي ؟ »[٤٦]

جـ - الجنس سعي إلى الله من خلال المخلوق

في نداء طاغور هذا اطلالة على ما يعطي الجنس معناه الاخير . ان ما قلناه آنفاً يدعونا الى التساؤل عن معنى استقطاب المطلق للجنس وفشل هذا الاخير في بلوغ الملء الذي يصبو اليه . ما هو سر هذا التناقض الغريب ، في صميم الجنس ، بين ما يتوق اليه وما يدركه ؟ من أين للجنس ان يسعى الى مطلق لا وجود له في الواقع البشري ، فيرتد خائباً ، ولكنه يعيد الكرة الى ما لا نهاية ؟ كيف السبيل الى فهم ذلك المدّ الهائل الذي يتكسّر أبداً على صخور الواقع وأبداً يتجدد ؟ هل هناك فلك محجوب عن الانظار يجتذبه أبداً الى لانهاية سمائه ؟

جوابنا على ذلك يستوحي تراثاً فكرياً عريقاً يمتد من افلاطون[٤٧] الى موريس بلونديل وسيمون ڤايل مروراً باوغسطينوس المغبوط والصوفيين وباسكال وماليبرانش . الجنس في نزعته الى المطلق لا يمكن ان يستقطبه الا الكائن المطلق نفسه ، الا الله . الله هو « المشتهى بالحقيقة » ، كما تقول قطعة طقسية بيزنطية . اليه تسعى ، في آخر المطاف ، حركة الجنس عند الانسان : « العشق ، كما كان معلوماً لدى أفلاطون ، هو « اشتهاء الابدية »[٤٨] . انه

سعي الى الله من خلال المخلوق . هذا ما أدركه المتصوف الكبير ابن عربي عندما قال ان الله يتجلى بنظر كل محب في محبوبه ، ذلك لانــــه مستحيل ان يعشق المرء كائناً ان لم يتصور فيـــه الالوهة[49] . وقد قالت المفكرة المعاصرة سيمون ڤايل ان ما يستقطب الحب الجنسي انما هو السعي الى الاتصال بجمال الكون ومن خلاله بالحكمة الالهية[50] .

هــذا السعي الى الالوهة من خـــلال الجنس يقره فلاسفة معاصرون ملحدون لا يعترفون بواقع الالوهة . فقد كتبت سيمون دي بوفوار في كتابها « الجنس الثاني » : « لقد حُدّد الحب للمرأة كدعوتها الاسمى . فعندما توجهه الى رجل ، تفتش عن الله فيه ... الحب البشري والحب الالهي يختلطان ، ليس لان هذا الأخير إعلاء للاول ، بل لان الاول هو أيضاً حركة نحو ما يتجاوز الانسان ، نحو المطلق »[51] . أما برتراند راسل فقد قال ، معبراً عن هذا التوازي بين الحب البشري والسعي الى الله : « انني شاعر بأنني ، في قرارة النفس ، استخدم الحب البشري كوسيلة للتهرب من سعي غير المجدي الى الله »[52] .

ان هذا التلازم بين الحبّين يفسر كيف يمكن للحب البشري ان يكون مناسبة لخبرة دينية . يروي لنا انطوان فيرغوت في كتابه « سيكولوجية الدين » حادثة من هذا النوع : « كان رجل قـــد تلقى في طفولته تربية مسيحية ثم اعتنق لسنوات عقلانية لادينية وعاد بعد ذلك الى ايمان غير واضح المعالم . ثم أحب فتاة ، وفي احد لقاءاتـــه الاولى معها كان جالساً الى جانبها في محطة كانت الفتاة على وشك السفر منها . عند ذاك ، وفي لحظات قصيرة من الوعي الساطع ، اعـــتراه على دفعتين احساس لا يمكن تحديده بأن الحياة لا يمكن ان تنقضي ، بانها

مستمرة حُكماً ، بانها تساهم في واقع خالد ، متمال »[53]. خبرة من هذا النوع ترويها لنا الكاتبة المعاصرة الكبيرة بيرل باك في روايتها « جناح النساء »[54].

هكذا يمكن للحب البشري ان يوقظ عند المحب توقاً الى الله من خلال عشقه للمحبوب . هذا ما عبّر عنه قديماً الشاعر الايطالي الكبير دانتي ، واتخذه الشاعر الفرنسي المعاصر بول كلوديل موضوعاً أساسياً لشعره ومسرحياته[55]. يقول دانتي متوجهاً الى بياتريس : « هل تعتقدين انني كنت اشتهيت بهذا المقدار رؤية الله لو لم أجده في نظرك ؟ »[56]. وقد قال عنها في موضع آخر انها كانت تنظر الى الله ، أما هو فكان ينظر اليه بعينيها وكانت السماء اكثر زرقة[57].

اذا كان المحبوب يوجّه قلب محبّه الى الله ، فهذا ناتج من كونه يوقظ فيه عطشاً لا يمكن للمحبوب ان يرويه ، لانه عطش الى المطلق . يعده بفردوس ليس بمقدوره ان يفتح له أبوابه ، لانه فردوس الاتحاد بالله . هكذا يحرّك فيه الحنين الى ربّه . هذا ما عبّر عنه كلوديل بشكل بليغ . فالمرأة المحبوبة هي ، كما يقول ، « الوعد الذي لا يمكن ان يُبرّ به »[58] ، ولكن حب الرجل لها ينتزعه من اكتفائيته الانانية اذ يحفر في قلبه فراغاً لا قرار له ويشعره بحاجته الى الله الذي يقدر وحده ان يملأ هذا الفراغ . هكذا ينكشف للمحبّ ، من خلال المرأة المحبوبة ، ذلك الحضور اللامتناهي الذي تستمد منه وجودها[59]. صحيح انه لا يسعها ان تمنح عاشقها السماء ، ولكنها تجعله يتوق اليها بكل جوارحه ، غير قادر فيما بعد ان يرتاح الى خيرات الارض وملذاتها ، غير مطمئن الى متعة الحب عينها ، لانها لا تكشف له الفردوس لحظة الا لتشعره بأنه مقصي عنه .

في مسرحية كلوديل ، « الحذاء الاطلسي » ، يصــور لنا الشاعر مأساة عاشقين ، رودريـغ وبروييز ، تحول الظروف دون زواجهما ، ولكنهما ما يلبثان ان يدركا ان مشكلتهما أعمق من مجرد ظروف معاكسة ، اذ ان ما ينتظره كلاهما من الآخر لا يمكن للقاء بشري ان يحققه ، ليس هو من هذا العالم ، انما يتم فقط اذ اتحدا بالله والتقيا فيه .

في حوار مؤثر بين بروييز وكميل ، منافس رودريـغ في حبه لها ، يسألها هذا الآخر ، وقد أدرك بحدسه أعماق حب خصمه :

دون كميل : « بروييز ، ما يحتاج اليه رودريـغ هذا ، هل هو هذا الجسد ؟

دونا بروييز : بل ، ما هو أبعد من كل جسد !

دون كميل : هل هي الروح ؟

دونا بروييز : لقد جعلت فيّ الاضطراب بسؤالك هذا ... لا أدري ما أجيب .

دون كميل : سأجيب أنا عنه . ما هو أبعد من الروح !
ما هو أبعد من الروح ، يا بروييز ، تلك النجمة التي أنت إياها !
ما هو أبعد من الروح ، يا بروييز ، تلك الكلمة الالهية التي أنت إياها بالنسبة اليه !

دونا بروييز ، بصوت خافت : نعم ! هذا ما أريد ان أكونه بالنسبة اليه ! »[60]

في هذا المنظار الكلوديلي ، لا يُلغى شخص المرأة المحبوبة ، كما هي الحال مثلاً في فلسفة أفلاطون التي تعتبر المحبـوب مجرد

ذريعة لبلوغ ألوهة لاشخصية هي عبارة عن المثال المطلق[61]، انما يتم لقاء المحبين في ذاك الذي منه ينبع كيانهما وبه وحده يكتمل، يتم لقاء الأنا والأنت في ذاك « الأنت المطلق » (Le Toi absolu) الذي يجد فيه كل شخص بشري حقيقته العميقة، ذاته الحقيقية، وبالتالي فيه وحده يتم ملء اللقاء بين شخص وشخص.

اضفاء صفة الاطلاق على الجنس أو على الحب هو اذاً صنمية لانه ينتظر من خبرة بشرية محدودة بطبيعتها ذلك الملء الذي لا يعطيه الا الكائن اللامحدود وحده. انه اذاً، ككل صنمية، مظهر من مظاهر تأليه الانسان لذاته[62]. ديانات الجنس على أنواعها تحاول ان تقتحم الالوهة من خلال النشوة الجنسية. ولكن الله هو بطبيعته ما لا يُقتحم، لأنه لو كان في متناول الانسان، لما كان الله، بل مجرد امتداد للانسان، صورة مضخمة لمحدوديته. صحيح ان الله حاضر في صميم الانسان، أقرب اليه من ذاته، على حد تعبير أوغسطينوس المغبوط، وما توق الجنس الى اللامتناهي سوى طابع ذلك الحضور الالهي في القلب البشري، ولكن الله هو بآن متعالٍ فوق الانسان ورغائبه، مختلف عنه اختلافاً جذرياً[63]. هذا هو المعنى العميق لوحدانية الله: الله واحد، هذا يعني خاصة انه وحيد، ان لا مثيل له. فالله اذاً ليس في متناول الرغبة البشرية، لذا فهو وحده قادر ان يحرر تلك الرغبة من محدوديتها ويحقق مرماها البعيد، شرط ان يتجاوز الانسان ذاته ورغائبه في انفتاح كلي الى ربه وإسلام تام له. هذا ما يعبّر عنه هذا الحوار بين رودريغ وبرويز في « الحذاء الاطلسي »:

رودريغ — « ما نفع تلك النجمة التي لا تُدرك أبداً ؟

برويـيز — يا رودريغ ، صحيح ان المسافة التي تفصلني عنك ، لا يمكنك اجتيازها بمحض قواك .

رودريغ — أين هو اذاً ذلك السبيل بيننا ؟

برويـيز — يا رودريغ ، لماذا التفتيش عنه بينما هو الذي أتى ليفتش عنا ؟ تلك القوة التي تدعونا خارج ذواتنا ، لماذا لا نضع ثقتنا بها ونتبعها ؟ لماذا لا نؤمن بها ونسلمها ذواتنا ؟...

كن كريماً بدورك ! ما فعلته أنا ، ألا يمكنك ان تفعله بدورك ؟ تجرد ! ألق عنك كل شيء ! أعطِ كل شيء لننال كل شيء ! ... »[٦٤]

« لماذا التفتيش عنه بينما هو اتى ليفتش عنا ؟ » . تلك العبارة تشير الى ناحية جوهرية في علاقة الانسان بربه . اذا كان الله هو ذلك « الآخر بالكلية » ، كما تفترض ألوهته ، فهذ يعني ان الانسان لا يمكن ان يجده بمجرد سعيه اليـه . السعي البشري المحض الى الالوهة يوجد أصناماً ولكنه لا يـلاقي الاله الحي . الله لا يُعرف على حقيقته الا اذا كشف ذاتـه ، اذ سعى بنفسه الى الانسان[٦٥]. عند ذاك يعرف هذا الاخير ربـه ويعرف ذاته بآن . هذا هو خـطّ الوحي الالهي الذي يؤمن المسيحيون انه بلغ ذروته بتجسد كلمة الله . سنتوجـه الآن صوب هذا الوحي لنتعرف على آفاق الجنس كما يكشفها لنا .

د - نظرة كتابيّة إلى الجنس[٦٦]

١ - الله متعال عن الجنس

ان ما يتميز به الوحي الكتابي هو اعلانه عن تعالي الله ، اي عن اختلافه الجذري عن الانسان ، وبالتالي تجاوزه لافكار الانسان وتصوراته . هذا هو احد معاني الاسم الذي اطلقه الله على نفسه في حواره الشهير مع موسى . لقد سأله موسى عن اسمه ، والاسم عند الشعوب القديمة تعبير عن جوهر المسمى ، وكأن موسى يسأل الله عن جوهره . فاجابه الله : انا يهوه ، الذي تفسيره ليس فقط : « انا الكائن » ، بل يعني ايضاً : « أنا من أنا » اي ان جوهري لا يمكن ان يُدرك.[٦٧]

ينتج عن هذا التعالي الالهي بأن الله يتجاوز الجنس[٦٨] . بهذا يختلف الوحي الكتابي اختلافاً قطعياً عن جميع الديانات الوثنية التي ربطت الله بالجنس ، فأوجدت آلهة والهات للخصب ، وانشأت « الدعارة المقدسة » تمارس أحياناً في الهياكل ، وادخلت الجنس في الحياة الالهية نفسها اذ تصورت عائلات من الآلهة فيها الاب والأم والابن[٦٩].

٢ - الجنس في اصالته مكان حضور الهي

ولكن تعالي الجوهر الالهي فوق الانسان مقترن بحضور الهي في صميم الانسان ، اذ اننا ، كما يقول الرسول « به (أي بالله) نحيا ونتحرك ونوجد » . (أعمال الرسل ١٧ : ٢٨) . الوحي الكتابي يعلن ان كل ما فينا من نور وقوة وخير انما هو مساهمة ممنوحة لنا من الله في حياته ووجوده ، انها حضور الله فينا ، قبس من نوره في كياننا ، شبه بينه وبيننا رغم الاختلاف الجوهري . لذا فالجنس البشري في اصالته ، أي في اكتماله بالحب ، مكان لذلك الحضور الالهي .

ففي سفر التكوين وردت الآية التالية : « يوم خلق الله الانسان على مثال الله عمله . ذكراً وانثى خلقه وباركه وسماه آدم يوم خُلق » (تكوين ٥ : ١و٢) . فلنلاحظ هنا هذا الاستعمال الغريب للضمير بصيغة المفرد فيما هو يتكلم عن اثنين ، ذكر وأنثى . يعلّق يوحنا الذهبي الفم على هذه الآية بقوله : « في كلامه عن الاثنين ، يتحدث الله عن واحد »[٧١] . أما كيرلس الاسكندري فيقول بهذا الصدد : « الله خلق الكينونة معاً »[٧٢] . وكأن الكتاب يقول ان ذلك الانسان المخلوق على صورة الله ليس الانسان الفرد ، انما هو الشركة الانسانية التي يشكل اتحاد الرجل والمرأة اسمى تعبير عنها[٧٣] . اذاً اتحاد الرجل والمرأة يشكّل هذا الانسان الكامل ، هذا « الآدم » بمعنى الانسان كما ورد في النص المذكور أعلاه ، الذي هو على صورة الله . يقول الذهبي الفم بهذا الصدد : « عندما يتحد الزوج والزوجة في الزواج ، لا

يظهران بعد كشيء أرضي ، بل كصورة الله نفسه »[٧٤]. اما كيف تكون تلك الشركة الانسانية صورة لله ، فهذا لم يتضح جلياً الا في ملء الاعلان الالهي الذي أتى به العهد الجديد . فقد أدركنا على ضوئه ان « الله محبة » (١ يوحنا ٤ : ٨) ، وانه بالتالي « حركة حب أبدية » تجمع بين أقانيم ثلاثة لا يقوم كل منها الا بعلاقة الحب التي تجمعه بالاقنومين الآخرين في وحدة تامة ، هي وحدة الجوهر الالهي : « ان سر الثالوث يحقق ، متجاوزاً اياه بما لا حدّ له بآن ، اجرأ احلام الحب البشري : الوحدة التامة بين أشخاص عدة يبقون متميزين . وحدة ، وليس فقط اتحاد ... وحدة دون ذوبان ، دون اختلاط . ان يصبح الواحد الآخر ، وان يحتفظ بذاتيته ، تلك هي أمنية الحب »[٧٥]. الشركة الانسانية تعكس تلك الحقيقة الالهية دون ان تبطل تعاليها[٧٦]. فالرجل والمرأة يصبحان بالحب واحداً بصورة ما كما يقول الذهبي الفم ، مرجّعاً صدى سفر التكوين : « ان خواص الحب هي على هذا المنوال ، ان المحبوبة والمحب لم يعودا كائنين بل كائناً واحداً »[٧٧]. ولكن تلك الوحدة لا تلغي شخصيهما بل تؤكدهما ، اذ ان الشخص لا يتحقق ، كما سبق وقلنا ، الا باتصاله بالآخر ، بانفتاحه اليه . هكذا تتحقق في الحب صورة الله الثالوث . يقول ثيوفيلوس الانطاكي بهذا المعنى : « لقد خلق الله آدم وحواء ليحقق الحب الأكبر بينهما ، عاكسين سر الوحدة الالهية »[٧٨]. الحب يحقق اذاً في وحدة المحبين صورة الثالوث ، فيصبحان أيقونة لله . وصورة الله ، بمعناها الكتابي ، ليست مجرد رمز يشير الى الله ، انها مكان لحضور لله كثيف ، انها مساهمة خاصة في الحياة الالهية[٧٩] (هذا المفهوم يوحي ، في الكنيسة الشرقية ، لاهوت الأيقونة

التي ليست مجرد رمز للالهيات يُذكّر المؤمنين بها ، بل اطلالة حقيقية من السماء على الارض) . لذا فالحب الاصيل مكان لتجلي الله ، هذا ما ورد في خاتمة نشيد الانشاد : « فان الحب قوي كالموت ... لهيبه لهيب نار ولظى الرب . المياه الغزيرة لا تستطيع ان تطفىء الحب والانهار لا تغمره ... » (نشيد الانشاد ٨ : ٦ و ٧) . هذا ما يتضح أيضاً في رواية خلق المرأة كما وردت في سفر التكوين في المقطع المذكور آنفاً . يقول اللاهوتي الكبير المعاصر جان دانيالو معلقاً على هذا المقطع : « ... لقد ورد ان الله ألقى على الانسان سباتاً عميقاً . ليست القضية هنا قضية نوم عادي . النص اليوناني يتحدث عن اختطاف . والعبارة نفسها تعود في حادثة أخرى ، باللغة الأهمية ، ألا وهي العهد الاول بين يهوه وابراهيم : « فوقع على ابراهيم سبات عميق » (تكوين ١٥ : ١٢) . في كلا الحالتين ، اشارة الى الذهول ... الذي يقع فيه الانسان اذا اقترب الله منه بافراط . انه اختطاف صوفي »[٨٠] .

تلك العلاقة الصميمية بين الحب والالوهة ، عبّر عنها الكتاب ايضاً باتخاذه الحب الزوجي صورة لعلاقة الله بشعبه[٨١] . هذا ما ظهر في العهد القديم عند النبي هوشع أولاً ثم عند ارميا وحزقيال واشعيا[٨٢] ، وبلغ قمته في نشيد الانشاد الذي هو ، كما يُظنّ ، نشيد عُرسي اتخذ للتعبير عن معانٍ الهية[٨٣] . وفي العهد الجديد اتخذت الصورة نفسها ، في الاناجيل ورسائل بولس والرؤيا ، للتعبير عن علاقة الاله المتجسد بكنيسته[٨٤] . وأخيراً اتخذها المتصوفون المسيحيون كأفضل تعبير عن خبرتهم ، خبرة اتحاد الله بالنفس البشرية[٨٥] .

٣ – الجنس والسقوط

هذا الحضور الالهي الذي رأينا الجنس في اصالته مكاناً له ، لا يقتحم اقتحاماً ، كما اعتقد الوثنيون متجاهلين بذلك التعالي الالهي ، انما ينحدر من تلقاء ذاته لمن كان منفتحاً اليه ، متقبلاً له ، وبالتالي غير منهمك بذاته ، غير منشغل باهوائه عن ذلك الآخر الالهي الذي هو قطب وجوده . ذلك الانسان غير المكتفي بذاته ، الفقير الى ربه ، ذلك « المسكين بالروح » الذي يتحدث عنه يسوع في التطويبات ، يتقبل الالوهة فيه لانه فاتح قلبه لها .

مساهمة الانسان في حياة الله عطية حبّ له من العلى وليست فريسة في متناول مطامعه . شطط الانسان انه يحاول ان يستولي على الالوهة ، ان يتملكها بشهوته وارادته ، عوض ان يتقبل المساهمة بها نعمة تأتيه من فوق . بعبارة أخرى شطط الانسان انه يحاول تأليه محدوديته عوض ان ينفتح الى الاله اللامحدود ويدعه يتمم فيه فعله المؤلّه . ولكن تلك المحاولة محكوم عليها بالفشل الذريع ، ذلك لان المحدود لا يمكنه بفعل ذاته ان يرتفع فوق محدوديته ، واذا به أسيرها ، أسير فراغه وهزالته ، أسير العزلة والشر والموت .

ذلك الاخفاق يتجلى على صعيد الجنس في كون الانسان ، اذا شاء تأليه ذاته ، انفصل ليس عن الله وحسب بل عن الانسان الآخر أيضاً الذي يصبح بالنسبة اليه مجرد وسيلة لاشباع شهوته . هكذا يتحول الجنس عن خطه الأصيل ويخفق في مسعاه الاتحادي ؛ فاذا بالرجل والمرأة لا شريكان يتبادلان العطاء

الحيي ، بل عزلتان متقابلاتان ![86] واذا بعلاقة العشق بينهما تتخذ طابعاً حصرياً يفصلها عن الجماعة البشرية ويصطـدم بمقتضيات الحياة الجماعية ، كما بـيّن فرويد في كتابه « ضيق في الحضارة »[87]؛ واذا بتلك الطاقة التي تسعى في الاصل الى التوحيد بين البشر ، كما أوضح فرويد أيضاً ، تنقلب الى ازدواج انانيتين[88].

هذه المأساة التي هي في صميم الوجود الانساني ، منذ ظهر الانسان ، مأساة النزعة الى تأليه الذات وما يتبعه من انفصام عن الله وعن الانسان الآخر ومن تضعضع الكيان الانساني بجملته ، قد عبّر عنها الكتاب المقـدس بقصة السقوط الاول الذي يرويه سفر التكوين في فصله الثالث . في هذا الفصل اشارة بليغة الى العلاقة بين رفض الانسان لارتباطه بالله من جهة وبين انحراف الجنس من جهة اخرى . تلك العلاقة يوضحها مـارك اوريزون معلقاً على قصة السقوط كما وردت في الكتاب : « عندما اتى يهوه « عند نسيم النهار » وسأل آدم عما حدث ، اجاب هذا : « لست انا الفاعل ، انما المرأة التي اعطيتني اياها ... » . هكذا فكّ مصيره عن مصير حواء ، رغم كونه نعتها قبـل ذلك بانها « لحم من لحمه وعظم من عظامه » . بمعنى ما ، يمكن القول بان « الخطيئة الاصلية » هي ادخــال صيغة الغائب في الكلام ، تلك الصيغة التي « تبعد » وتفصل ؛ وهـذا نتيجة منطقية للموقف الذي « يبعد » كلمة الآخــر (اي الكلمة الالهية . »[89]

هكذا فالجنس صورة للوضع البشري باكمله في وضعه المأساوي الممزق بين نداء المطلق وصنمية تأليه الذات ، وهو مثله بحاجة الى فداء ليستقيم سعيه وتتحقق اصالته . هذا الفداء قد اتمه الله بيسوع المسيح . فالمسيح فتح امام الانسان طريق الفردوس المفقود بسبب الانتفاخ الانساني . فقد كان ، في انسانيته ، متجهاً بكليته الى الله ومن خلاله الى البشر اجمعين ، متجرداً عن كل انهماك بالذات ، فكانت حياته كلها خدمة للآب وللبشر المثقلين بأحمال الآلام والشرور ، خدمة بلغت ذروتها في تقدمه الطوعي لذاته قرباناً على الصليب . فغلب حبه هذا الموت نفسه بالقيامة وصار يسوع هكذا مصدر عدوى كيانية تنتقل الينا اذا شئنا الاتحاد به ، فتحولنا بدورنا الى كائنات منفتحة ، متحررة من الاستيلاء ومن الخوف الذي يغذي نزعة الاستيلاء هذه . هكذا مات المسيح « ليجمع ابناء الله المتفرقين الى واحد » (يوحنا ١١ : ٥٢) ، ولكي يعيد بالتالي الى الجنس ، الذي هو بطبيعته اكثف مكان لهذه الوحدة ، اصالته الانسانية . لذا جعلت الكنيسة ، وهي امتداد المسيح في التاريخ ، جعلت من الزواج « سراً » به يُفتدى الجنس بخلاص المسيح[٩]: « الجنس ، ككل نشاط بشري ، يحتاج الى فداء المسيح ، الى المرور في سر الصليب المطهر المحيي ... لذلك ، في العهد الجديد ، رُفع الزواج الى رتبة سر يرسخ اتحاد الزوجين في المسيح ويجعله صورة فاعلة لاتحاد المسيح والكنيسة (« ان هذا السر عظيم . اقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة » . افسس ٥ : ٣٢) ويمكّن الرجل والمرأة ان ينتصرا اكثر فأكثر بالنعمة على الانكماشية التي

تهدد حبهما ، ويهبهما ان يحبا احدهما الآخر بحب المسيح للكنيسة - وهو عطاء النفس الكامل حتى موت الصليب - وبحب الكنيسة للمسيح - وهو هبة النفس الكاملة حتى الاستشهاد - : « ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح الكنيسة وبــذل نفسه لاجلها » (افسس ٥ : ٢٥)[٩١]. لذلك نرى ان الكنيسة في خدمة الاكليل تصلي لكي يحصل الزوجان على الفرح الذي حصل لهيلانة عندما وجدت الصليب ، وتنشد في آخر الخدمة ترنيمة الشهداء[٩٢]. ان نعمة سر الزواج التي بها يُدمج الحب البشري في سر المحبة الفادية ، سر الصليب والقيامة ، ان هذه النعمة تحـدث تحولاً في الجنس : ذلك الجنس المعد « ليتأنس » في الانسان ، يرتفع بفضل هذا السرّ الى قمة تفوق الوصف اذ يفيض فيه غنى الحياة الالهية بفعل تجسد ابن الله الذي ضم الى ذاتـه الطبيعة كلها ليؤلهها ... »[٩٣]

الزواج ، يقول يوحنا الذهبي الفم ، هو « سر الحب »[٩٤] . « نعمة هذا السر ، يقول لنا اللاهوتي الكبير بول افدوكيموف ، تتمم تجاوز ما هو للذات نحو حضور شفاف من الواحد للآخر ، من الواحد تجاه الآخر ، بغية تقديم ذاتيهما معاً ، كياناً واحداً ، لله » .[٩٥] تلك القوة العلوية التي تتحد الزوجــين يُشير اليها الاكليل الذي يكلل كل منهما به في الطقس البيزنطي ، ذلــك الاكليل الذي يضعه الكاهن على رأس العروسين قائلاً : « ايهـا الرب الهنا ، بالمجد والكرامة كللهما » . فالاكليل اذاً اشارة الى « المجد » الذي يكتنف العروسين . ولكن ما هو هذا « المجد » ؟ انه بلغة الكتاب بهاء الحضور الالهي ، حضور الروح القـدس الذي يحيي الخليقة ويوحّد بين الاشخاص . ذلك « المجد » الذي ملأ انسانية يسوع يتدفق منه على المؤمنين به ليجمع بينهم على

صورة وحدة الثالوث ، حسبما ورد في صلاة المسيح قبل آلامه : لقد اعطيتهم المجد الذي اعطيتني لكي يكونوا واحداً كما نحن واحد ... لكي يكونوا مكمّلين في الوحدة ... » (يوحنا ١٧ ٢٢ - ٢٣)[٩٦]

« نعمة المسيح هذه لا تفعل بمعزل عن ارادة الزوجين وحريتهما بل انها تلهم وتعضد وتغذي ذلك المجهود الذي يتوقف عليهما ان يبذلاه يومياً في سبيل عفة زواجهما وبلوغه هدفه بانتصار الحب على قوى الانكماشية . بهذه الجهود ترتسم في الحب اكثر فأكثر صورة اتحاد المسيح والكنيسة ... »[٩٧]

الى هذا الجهاد الزوجي يشير ايضاً الاكليل الذي يُكلل به العروسان والذي يُذكرّ بالشهادة . يقول المتصوف الالماني الكبير تولر : « البعض يحتملون الشهادة مرة بالسيف ، والبعض الآخر يعرفون استشهاد الحب الذي يكللهم من الداخل »[٩٨] .

٥ - الجنس والقيامة

هكذا بالمسيح ، بالاشتراك الكياني في صليبه (وهذا قد يتم لمن لا ينتمي الى المسيح في الظاهر والعكس بالعكس ، اذ ، كما يقول أوريجانيس ، « كثيرون ممن يُعتقدون في الخارج هم في الداخل ، وكثيرون ممن يُعتقدون في الداخل هم في الخارج ») ، يدخل الجنس الى عالم القيامة ، عالم الانتصار على الموت بمعناه الكتابي العام الذي يشمل كل صنوف الضعف والشر والعزلة والتفكك . انه يصبح طريقاً للقاء الله في الآخر وبالتالي مدخلاً الى ملكوت الله .

ولكن ملكوت الله هذا ، وان كان قد زُرع بالمسيح في قلب الزمن والتاريخ (« ستأتي ساعة وهي الآن حاضرة » ، « ملكوت الله هو فيما بينكم » ...) ، لن يتحقق بالكلية الا اذا تفجّر الزمن بفعل الأبدية . نحن الآن فيه بالرجاء فقط ، « نرى في مرآة ، في لغز » ، كما يقول الرسول (١ كورنثوس ١٣ : ١٢) ، ذلك النور الالهي الذي لا يتاح لنا ان نراه « وجهاً لوجه » ونتحول به بالكلية الا مروراً ، أثر يسوع ، من باب الموت الجسدي الذي به يتمّ تعرّينا من محدودية الوجود الترابي والنرجسية الملازمة له[٩٩].

عالم القيامة ، ملكوت الله سوف يتحقق على أكمل وجه في نهاية الازمنة ، في « يوم الرب » . عند ذاك ستزول محدودية الجنس بزوال طابعه الغريزي . بهذا المعنى يقول الرب يسوع انهم « في القيامة لا يزوّجون ولا يتزوجون » (لوقا ٢٠ : ٣٤) . ذلك ان الغريزة مرتبطة بالوضع الانساني البيولوجي الذي هو بطبيعته زائل لا محالة[١٠٠] الغريزة ملازمة اذاً للموت ، وبنوع خاص الغريزة الجنسية التي هي ، كما رأينا ، واسطة لتخليد النوع مروراً بموت الفرد[١٠١] لذا ففي عالم القيامة الذي زال الموت منه ، يزول الطابع الغريزي للجنس أيضاً . هذا ما يستنتج من النص الانجيلي المذكور أعلاه الذي فيه اقتران بين زوال الزواج (بمعناه الارضي) وزوال الموت : « فقال لهم يسوع : « ان أبناء هذا الدهر يزوجون ويتزوجون . أما الذين يستحقون الفوز بذلك الدهر ، وبالقيامة من بين الاموات ، فلا يزوجون ولا يتزوجون ؛ ولا يمكن من بعد ان يموتوا لانهم يكونون مثل الملائكة وأبناء الله ، لكونهم أبناء القيامة » . (لوقا ٢٠ : ٣٤ – ٣٦)[١٠٢]. ولكن محدودية الجنس لن تزول الا

لكي يتحقق ، بقوة الله ، مرماه البعيد ، ألا وهو الاتحاد بالله وما هو ملازم لهذا الاتحاد ، أي التداخل الصميمي بين البشر قاطبة ، ذلك التداخل الذي يسعى اليه الحب البشري دون ان يدركه الا على وجه التقريب وضمن دائرة محدودة ، والذي هو من مميزات ملكوت الله[103] ، كما ورد في تلك العبارة المنسوبة الى الرب يسوع : « الملكوت يأتي عندما يصبح اثنان واحداً » .

٦ – العفة المكرسة

عالم القيامة هذا ، شاء البعض ان يستبقوه ، ان يعيشوا في هذا الدهر وكأنهم بلغوا نهاية الازمنة[104] . لذا تخلوا عن الممارسة الجنسية ، حتى في اسمى اشكالها ، لا احتقاراً للجنس[105] ، بل من اجل حشد كل طاقاتهم وتكريسها لله الذي به وحده يتحقق بالتمام مرمى الجنس الانساني . الزواج صورة للملكوت ، اما هم فقد شاؤوا ان يتجاوزوا تلك الصورة[106] لينفذوا ، بنعمة الله ، الى الاصل ، ويعيشوا منذ الآن حياة الذين تغلبوا على الموت .

هؤلاء ، اذا كان تكريسهم اصيلاً ، لا يمتنعون عن الجنس بضغط عقد نفسية تكبلهم ونتيجة لكبت نزعة جنسية تخيفهم ، انما يتخلون بحرية عن حبّ يستهويهم وبمقدورهم ان يعيشوه ، من اجل حبّ اسمى . انهم ، على حد تعبير يوحنا السلمي ، « يدفعون عشقاً بعشق » . ليست عفتهم المكرسة هرباً ، انما هي التزام . العفة المكرسة التي يدعو اليها الانجيل من شاء ان يتجند كلياً في خدمة ملكوت الله ، انما هي تلك التقدمة الحرة للنفس . هذا ما يشير اليه المسيح في ذلك المقطع من انجيل متى : « ان من الخصية من وُلدوا هكذا من بطون امهاتهم ، ومنهم

من خصاهم الناس ، ومنهم من خصوا انفسهم من اجل ملكوت السماوات » (متى ١٩ : ١٢) . يُفهم من هذا التعليم ان الامتناع عن الممارسة الجنسية (الذي يشير اليه الخصي على سبيل الصورة) لا قيمة انجيلية له اذا كان ناتجاً عن موانع نابعة من التكوين النفسي (« وُلدوا هكذا من بطون امهاتهم ») او من الضغط التربوي والاجتماعي (« من خصاهم الناس ») ، انما قيمته نابعة من تكريس حر لله[١٠٧].

فمن كان على هذه الحال ، لا يعيش العفة كأنقاص من حيويته بل « كتفجير » لتلك الحيوية ، كانطلاق للقوى الحية كلها نحو من هو مصدر الحياة وغايتها ؛ لا يحيا العفة كحدّ من مجال الحب في حياته ، بل على العكس كتحرير للحب من كل الحدود بانطلاقه نحو من هو الحب المطلق[١٠٨]. فلنذكر هنا تلك الأسطر التي خطّتها امرأة بتوقيع « عزباء كاثوليكية » في العدد الخاص من مجلة Esprit المخصص للجنس ، قالت : « ان دعوة للعفة تكون مشبوهة اذا كانت نتيجة عجز عن الحب . هنا أيضاً يرتكب معظم الناس خطأ فادحاً . فعن امرأة جافة ، قليلة الحب ، يقال بصورة شائعة انه كان ينبغي لها ان تدخل الدير عوض ان تتزوج . ولكن الأرجح ان تلك الزوجة غير الناجحة كانت ، لو دخلت الدير ، أصبحت راهبة فاترة ، يعوزها الاندفاع[١٠٩]. ان العفة الحقة تتطلب بالعكس ، كأرض تنبت فيها ، طاقات عاطفية (وجنسية) نامية نمواً طبيعياً ، ولكنها مدعوة الى التحول الى حب معطاء (الى الاعلاء ، اذا شاء المحللون النفسيون) بفعل جهاد طويل »[١١٠].

من عاش العفة المكرسة على حقيقتها لا يغلق قلبه دون

الحب ، انما يغرف الحب من ينبوعه الالهي ويبتهج بـه وسط جهاده . أنه لا يحس بأنه على هامش الحياة ، مقصي عن الحب ، بل يختبر اتصالاً بمن هو ملء الحياة والحب[111]، كما ورد في البيتين الرائعين التاليين للشيخ الفاضل محمد ابو هلال الدرزي ، اللذين انا مدين بالاطلاع عليهما لصديقي المطران جورج خضر :

« يا مؤنس الابرار في خلواتهم
يا خير من حطّت بــه النزّال
من ذاق حبك لا يريـــد زيادة
أنت الحبيب وما سواك محال »

ثمرة ذلك الاتصال الكلي بالله ومحكّ اصالته بأن هما المحبة التي يبديها للناس من مارس العفة المكرسة[112]! قلت ان تلك المحبة للناس هي محك التكريس الحقيقي لله[113]، ذلك انها وحدها تثبت ان الانسان لا يُنشد في الله حلماً جميلاً من صنع خياله ، ترتاح اليه نرجسيته ويجنبه مشقة مجابهة الواقع ، بل انما يتصل بالاله الحي الذي يتجاوز كل حلم وينتزع الانسان من قوقعة « أناه » ويطلقه في رحاب الحب اللامتناهي . ان المكرسين بالحقيقة « بما انهم انفتحوا الى الحب الذي لا حدّ له ، فان قلبهم ، عوض ان يضيق وينكمش ، شأن المكبوتين او المستهترين ، ينفتح لاقتبال كل الناس . ان حبهم ، عوض ان ينحصر في شخص وعائلة ، يشمل البشرية جمعاء التي اليها يحولون كل كنوز الانعطاف الكامنة في قلوبهم فيضرعون من أجلها ويضمدون جراحاتها ويعملون لتقدمها ونموها »[114]. هكذا فالتكريس الحقيقي لا يتم البتة على حساب محبة الناس ، كما يعتقد الكثيرون خطأً ، فان الاتصال الوثيق بينبوع الحب لا بد له ان يُترجم حباً فائضاً للبشر :

« انهم يدخلون في لعبة الحب اللامتناهي هذه . انهم يحبون ، ويقدرون ، وينظر اليهم كل من أجل نفسه ، ليسوا محبوبين حباً أقل (sous - aimés) بل حباً أكثر (sur - aimés) »[115].

ذلك التلازم بين التكريس الحق وانفتاح أكبر الى الآخرين اختبره ، فيمن اختبره ، ذلك الفريق من الشبان البروتستانت الذين أسسوا رهبنة تيزيه الشهيرة بعد الحرب العالمية الثانية ، خلافاً للتقليد البروتستانتي الذي نبذ الرهبنة . يروي لنا رئيسهم الأخ روجيه شوتز ، كيف اكتشف هؤلاء الشبان أبعاد العفة المكرسة . فقد كانوا في البدء ينذرونها لمدة سنة ويجددون نذرهم هذا عاماً بعد عام ، الى ان شعروا برغبة في ان ينذروها بشكل نهائي ، فأقدموا على هذه الخطوة . ولم يكونوا ليفطنوا بادىء ذي بدء الى ان نذراً كهذا قد ينسجم مع متطلبات العالم المعاصر . الا انهم أدركوا بعد ذلك انه تمرس على الانفتاح الى البشر أجمعين[116]، وانه بالتالي يلبي تلك الدعوة الملحة الى التزام شؤون الناس ومشاكلهم التي يتميز بها عصرنا . وبالفعل أصبحت تيزيه محجة للشباب[117]، مؤمنين وغير مؤمنين ، يتواردون اليها ليجدوا مناخ محبة وانفتاح وحوار وتحسس عميق لمشاكل العالم الثالث وتفهم لانتفاضة الشباب وسعي حثيث نحو وحدة المسيحيين والمصالحة بين البشر[118].

★ ★ ★

هكذا نرى ان الجنس اذا سار نحو تحقيق مرماه الانساني الاتحادي ، متخطياً النرجسية التي تجعله فريسة الاختناق في قوقعة الكبت او الضياع في سراب المجون ، فانه يتخذ واحدة

من طريقين : احدهما هي تعهد الغريزة وتوجيه طاقتها نحو لقاء صميمي بالآخر يكرسه الزواج ، والاخرى هي تجاوز اكثر جذرية للغريزة بالامتناع عن الحب البشري نفسه ، بغية تحويل الزخم العاطفي كله الى خدمة مكرسة لله والناس . هذان الطريقان ، وان اختلفا ، فان غايتهما واحدة في آخر المطاف[١١٩]، اذ ان في كليهما سعياً الى اللقاء بالآخر ، ذلك اللقاء الذي لا يكتمل الا في الله ، مركز الوحدة بين الناس وقطب الحنين البشري .

حواشي الفصل الرابع

١ ــ راجع :

François Duyckaerts : La formation du lien sexuel, p. 271.

٢ ــ راجع :

A. Plé : Freud et la Religion, pp. 88-92, Cerf, 1968.

٣ ــ راجع :

Albert Plé : Freud et la Religion, pp. 88-92.

F. Pasche : Freud et l'Orthodoxie judéo-chrétienne, Revue Française de Psychanalyse, tome XXV, No. 1, janvier-février 1971.

Louis Beirnaert : Expérience chrétienne et psychologie, pp. 426-427, Ed. de l'Epi, Paris, 1964.

Dr. Wilfried Daim : Transvaluation de la Psychanalyse, pp. 181-182.

Paul Ricœur : De l'Interprétation, Essai sur Freud, p. 485, note 17, Ed. du Seuil, Paris, 1965.

يقول المحلل النفسي جورج موكو :

« ان القدرة الانسانية على الاعلاء لا يمكن تفسيرها كليا بالتحليل النفسي (...) فالانسان الناقص يسعى الى ذاته في جدلية المجابهة بين رغبته في المطلق وحاجز الواقع (...) الاعلاء وسيلة ونتيجة لسعي الانسان هذا الى تحقيق ذاته » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 144.

٤ ــ راجع :

François Duyckaerts : op. cit., p. 271.

يقول الفيلسوف المعاصر جان لاكروا :

« صحيح أنهم يتحدثون عن حيل الغريزة ــ وبالاخص الغريزة الجنسية . ولكن ، لو كانت الغريزة محرك الحب الاوحد ، لما احتاجت الى الحيل : فمجرد كونها تحتاج الى حيل يفترض وجود حب يتجاوزها (...) اذا كانت الغريزة تتقنع بقيم نبيلة ، فذلك لأنها تحس بأنها جعلت لكي تسمو بها الروح . القناع هو المرحلة الاولى وكأنه البداية للتجلي ، والغرائز التي ترتدي هذا القناع هي الغرائز الأكثر قابلية للروحنة والمجمعة . لقد امكن

لتيون ان يقول بحق ان الجنس الذي يمثل دور المثال يكشف بذلك عينه قرابته العميقة بالمثال » .

Jean Lacroix : Le Sens du Dialogue, p. 34, La Baconnière, Neuchâtel, 1965.

٥ ـ وقد تكون املته عليه ايضا مشاكله النفسية الشخصية التي يبدو انها دفعته الى اتخاذ الجنس بديلا عن الله . راجع :

Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, pp. 21-28.

٦ ـ راجع :

Igor Caruso : Psychanalyse et Synthèse personnelle, Ed. Desclée de Brouwer, Bruges, 1959.

Igor Caruso : Psychanalyse pour la personne, Ed. du Seuil, Paris, 1962.

Wilfried Daim : Transvaluation de la Psychanalyse.

٧ ـ يقول المحلل النفسي الكندي ميشال دانسرو :

« يبدو الجنس بمثابة محاولة غامضة لبلوغ الاكتمال وملء الحياة ، بمثابة رغبة في الابدية نجدها حاضرة حتى في اشكال الجنس الاكثر مرضية » .

Michel Dansereau : op. cit., p. 169.

٨ ـ راجع :

François Mauriac : Mémoires intérieurs, pp. 285-286, Ed. «Le Livre de poche», Paris, 1966.

Barbey d'Aurevilly : Les Diaboliques, pp. 252-253, La Guilde du livre, Lausanne, 1961.

H. de Montherlant : Les Jeunes filles, p. 261, Gallimard, 1954.

٩ ـ راجع :

Igor Caruso : Psychanalyse pour la personne, p. 98.

١٠ ـ راجع :

Charles Baudelaire : Les Fleurs du Mal, Femmes Damnées, p. 137, Le Livre de poche classique, 1963.

١١ ـ راجع :

Pierre Emmanuel : Baudelaire, Desclée de Brouwer, 1967.

١٢ ـ راجع :

Antoine Vergote : Psychologie religieuse, pp. 283, 317, Ed. Charles Dessart, Bruxelles, 1966.

١٣ ـ راجع :

André Gide : Les Faux-Monnayeurs, p. 388, Gallimard, Paris, 1963.

Richard Llewellyn : Qu'elle était verte ma vallée !, pp. 366-367, 368, Jeheber, 1949.

١٤ ـ راجع :

Julien Green : Partir avant le jour, pp. 88, 93-94, Grasset, Paris, 1963.

١٥ ـ راجع :

Julien Green : op. cit., pp. 308-309.

١٦ ـ راجع :

Paul Ricœur : De l'Interprétation, Essai sur Freud, pp. 315-316.

يقول فرويد :

« الحب الطفولي لا قياس له ، انه يطالب بالحصرية ولا يكتفي باجزاء » .

S. Freud : Sur la Sexualité féminine (1931), p. 144, in La Vie sexuelle, PUF, 1970.

وفي موضع آخر يقول :

« ... اعتقد ان علينا ان لا ننسى أن هذه الدوافع الجنسية التي تظهر في بداية الحياة لها قوة تبقى متفوقة على قوة الدوافع اللاحقة ويمكن ان ننعتها بأنها ، بالمعنى الصحيح ، لا قياس لها » .

S. Freud : op. cit., p. 154.

١٧ ـ راجع :

Dr. W. Daim : Transvaluation de la psychanalyse, p. 232.

١٨ ـ راجع :

Simone de Beauvoir : Le Deuxième sexe, tome 2, p. 401, Collection «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1968.

١٩ ـ راجع :

Simone de Beauvoir : op. cit., pp. 376-378, 383, 390, 393, 394.

٢٠ ـ يقول ب. غريلو ان « حلم الفردوس المستعاد يطرز على شبكته كل حب بشري » .

P. Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, p. 100, «Foi Vivante», Cerf, 1969.

ويستشهد جورج غرغام بتلك العبارة التي وجهها الشاعر الرومنطيقي الالماني الكبير نوفاليس لمحبوبته :

« نعم ، يا ماتيلد ، اننا خالدان لأننا نحب احدنا الآخر » .

Novalis, cité par Georges Gargam : L'Amour et la Mort, p. 22, Seuil, 1959.

ويضيف غرغام في موضع آخر :

« ان الفرد ، الذي هو انفصال وتعدد ، يحس بأنه ، من حيث هو كذلك ، معد للهلاك من جراء نقص في الكيان وفي تبرير الوجود . اما الحب ، الذي هو توق الى الواحد ، فأنه يشعر به على انه

اكتمال للوجود وبالتالي تحرر من الموت » .

Georges Gargam : op. cit., p. 175.

ويذكر الدكتور اندره مورالي — دانينوس بما علمه سقراط وافلاطون بهذا الصدد . يقول :

« ان افلاطون هو الذي علمنا ان ديوتيم — من مانتيني — علم سقراط ان الحب (...) ليس الها بل « وسيطا كبيرا بين ما هو مائت وما هو خالد » (...) وسيلة اتصال بين الآلهة والبشر » .

Dr. André Morali-Daninos : Evolution des mœurs sexuelles, p. 31, Casterman, 1972.

ويضيف :

« ما هو الحب ؟ » سأل سقراط ، ويجيب بنفسه وفقا لما علمه ديوتيم : « انه الوسيط الذي يسد الفراغ الفاصل بين الآلهة والبشر ... » .

Dr. A. Morali-Daninos : op. cit., p. 133.

٢١ — راجع :

Emmanuel Roblès : Cela s'appelle l'aurore, p. 76, La Guilde du livre, Lausanne, 1959.

٢٢ — راجع :

Emmanuel Roblès : op. cit., p. 154.

٢٣ — راجع :

Eric Maria Remarque : L'Obélisque noir, p. 389, Ed. «Le Livre de poche», 1969.

٢٤ — راجع :

Alexandre Soljénitsyne : Le premier Cercle, p. 381, Editions Robert Laffont, Paris, 1968.

تقول فلورانس باركلاي عن بطلة روايتها « الوردية » التي اكتشفت الحب :

« ... اعوام العزلة الكئيبة الماضية ، تلق الساعة الحاضرة ، توقع مستقبل غير اكيد ، كل ذلك تلاشى . فقد كانت مبحرة مع غارت ، وجميع القلوع منشورة ، على محيط سحري ، بعيدا عن شواطىء الزمن . لأن الحب ابدي . فنشوء حب حقيقي يحرر المخلوق من أسر الجسد » . راجع :

Florence L. Barclay : Le Rosaire, p. 99, Ed. «J'ai lu», 1968.

٢٥ —

cité par Dr. Jouvenroux : Témoignage sur l'amour humain, p. 54.

٢٦ — راجع :

Tagore : La Fugitive, cité par Dr. Jouvenroux : op.

cit., p. 58.

٢٧ ــ راجع :

L'Orient, 2 septembre 1970, p. 7.

٢٨ ــ راجع :

Louis Beirnaert : Expérience chrétienne et Psychologie, pp. 425-426.

Roger Caillois : L'Homme et le Sacré, Coll. «Idées», Ed. Gallimard, Paris, 1963.

Roger Bastide : La Sexualité chez les «Primitifs», in Sexualité humaine, Lethielleux, Paris, 1966, pp. 57-72.

Mircea Eliade : Images et Symboles, p. 16, Ed. Gallimard, Paris, 1963.

Jean Servier : Rites et Symboles de l'Accouplement, in «Janus», No. 3, octobre 1964, Ed. Robert Laffont, Paris.

Abel Jeannière : Anthropologie sexuelle, pp. 54-55, 60-61.

Mikel Dufrenne : Mythe, Science et Ethique du sexe in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960, pp. 1703-1704.

Lanza del Vasto : Le Pélerinage aux sources, pp. 74-75, 94-95, «Le Livre de poche», 1964.

Dr. Marcel Eck : L'Homme et l'Angoisse, p. 117, Fayard, Paris, 1964.

Antoine Vergote : Psychologie religieuse, pp. 56, 59-60.

David-Herbert Lawrence : Le Serpent à plumes, pp. 114-115, La Guilde du livre, Lausanne.

C.G. Jung et Ch. Kerényi : Introduction à l'essence de la mythologie, pp. 82, 85, 86, 101, «Petite Bibliothèque Payot», 1968.

Max-Pol Fouchet : L'Art amoureux des Indes, pp. 9, 33, 92, 95, La Guilde du Livre, Lausanne, 1957.

Pierre Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, pp. 13-24, «Foi Vivante», Cerf, 1969.

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 22-23, 25, Ed. Seghers, Paris, 1972.

٢٩ ــ راجع :

Menie Grégoire : Un dernier mot sur l'amour, in La Sexualité, «Esprit», novembre 1960, pp. 1950-1951.

Alfred Simon : Le Sexe et l'Ecrivain, id, pp. 1881-1887.

Michel Deguy, in La Sexualité, id., p. 1662, pp. 1697-1698.

Philippe Muller : id, pp. 1700-1701.

Jean Brun : id., p. 1700.

V. Morin et J. Majault : Un Mythe moderne, l'Erotisme, pp. 7, 50, 102.

A. Picyre de Mandiargues : Le Lis de Mer, pp. 111-112, 130-131, «La Petite Ourse», Lausanne, 1962.

يقول الدكتور جيلبير توردجمان :

« ان عصرنا ، الساعي الى ايمان ، يشعر بحاجة عميقة الى اعادة القدسية للحب » » . راجع :

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, pp. 29-30.

٣٠ — في كتابه « الله بالنسبة لانسان اليوم » ، يبين جاك دوكين ان مجتمع الاستهلاك الذي يحصر الانسان فيه في ابعاده كمنتج ومستهلك ، لا يترك مكانا لله الا كبلسم او ملهاة . ولكن هذا المجتمع ، ينصب عليه الاتهام اليوم من كل صوب . واذا بالانسان ، الذي يرفض ان يستوعب ويقولب ، يسعى متلمسا الى الله كالى معنى وجوده . راجع :

Jacques Duquesne : Dieu pour l'homme d'aujourd'hui, pp. 290-292, Grasset, 1970.

ويشهد العالم الفيزيائي الكبير لويس لوبرانس — رانغي في حديث ادلى به في بيروت :

« ان حاجة الى المطلق ، يصعب التعبير عنها ، وضبطها ، وفهمها ، ولكنها ذات طابع ديني عميق ، تدفع بأستمرار عصرنا المدهش » .

Louis Leprince-Ringuet : Variations sur la pensée des scientifiques devant la société «Eglise», p. 14, in «Samedi», du 3 au 9 août 1974, pp. 13-14.

ويقول كريستيان ده لاكمباني :

« ... هذه العودة الى القدسية le sacré بكل اشكالها انما هي ... عامة اليوم ، خاصة عند الشباب . مردها ... الجفاف الروحي الاقصى الذي قادتنا اليه ايديولوجية المجتمع الذي تتحكم فيه التقنية » .

Christian Delacampagne : Antipsychiatrie. Les voies du sacré, p. 296, Grasset, 1974.

راجع أيضا :

Guy Riobé : La Liberté du Christ. Entretiens avec Olivier Clément, pp. 148-149, Stock-Cerf, 1975.

٣١ — راجع :

. La Revanche de l'infini, propos de Maurice Clavel, recueillis par J.P. Manigne, «Informations Catholiques Internationales», No. 365-366, août 1970, pp. 30-32.

تقول ميشال جوز — رولان :

« (ان الطلاب) يفتشون عن قيم اكثر اصالة من التسابق وراء

آلة الغسل او الرفاهية المادية البحتة . انهم جائعون الى نوع من الصوفية ترفض لهم » .

Michèle Joz-Roland : Qu'as-tu fait de ton Dieu ?, p. 88, «Points Chauds», Fayard, 1970.

راجع ايضا :

Jacques Duquesne : Dieu pour l'Homme d'aujourd'hui, pp. 45-70, 80, Grasset, 1970.

Maurice Clavel, in Cinq types autour d'un archétype.

Table-Ronde Planète : Dieu est-il ressuscité ?, p. 18, in «Planète», mai 1970.

Les Signes du temps. Le Retour de la contemplation, in «Informations Catholiques Internationales», No. 399, 1 janvier 1972, p. 14.

٣٢ — تقول كلير جبيلي :

« لقد احرق العلم الآلهة وهياكلهم . فلكي يعوضوا عنهم ، عاد البشر الى عبادات العهود التضييبية (اي العهود التي كان يعبد فيها عضو التذكير) » .

Claire Gebeyli : L'Orient-Le Jour, Vie Moderne, Culture, Jeunes, du 12 au 18 février 1972, p. 9.

وايضا :

« منذ بضعة سنين ، نشر سامبيه رسما في « الاكسبرس » ؛ يمثل شخصين امام صورة ضخمة لحسناء عارية ؛ احدهما يقول للآخر بنبرة متعبة : « لقد جربت المسيحية ؛ ثم الاشتراكية ، وبعد ذلك الماركسية . البوذية بعيدة جدا . سأجرب مذهب الجنس érotisme » .

Claire Gebeyli : op. cit.

راجع ايضا :

Jean Chevalier : Archétypes, Mythes et Rêves, symboles de l'inconscient collectif, pp. 43-44, in C.G. Jung : L'Homme et son Message, «Planète + Plus», octobre 1970.

Jules Romains : Le Dieu des Corps, «Les Meilleurs livres français», 1952.

٣٣ — بموجب تقرير تدم في الدورة الرابعة « للجمعية الدولية لعلم النفس الديني » ، المنعقدة في فورزبورغ من ٨ الى ١٢ ايلول ١٩٦٩ ، يتضح « أن الشباب ، الذين يتناولون من وقت الى آخر او بانتظام مخدرات مهلة ، يقولون ان الباعث الاساسي لسلوكهم هذا انما هو جوع الى أختبار ماورائي — ديني ، لا تشبعه الديانات التقليدية » .

cité in Mort et Présence, Les Cahiers de Psychologie religieuse, 5, p. 284, Ed. de Lumen Vitae, 1971.

راجع ايضا :

Dominique Desanti : Show-business sacré, in «Planète», No. 16, avril-mai 1970, pp. 27-34.

Michel Lancelot : Je veux regarder Dieu en face, Albin Michel, 1971.

مما يثبت هذا الطابع الديني للحركة الهيبية ، تلك الظاهرة التي برزت في الولايات المتحدة عندما اخذ عدد من الهيبيين ، منذ نيسان ١٩٦٨ ، وفي احد المراكز الاساسية للحركة الهيبيـــة ، وهو منطقة سان فرنسيسكو ، يدعون امثالهم الى بلـــوغ الانخطـــاف بواسطة الايمان بالمسيح ، عوض ان يسموا اليه من خلال تناول المخدرات . وقد نشأت ، من جراء ذلك ، حركة تضم بضعة عشرات آلاف من الشبـــاب سمـــوا انفسهـــم بـــ Jesus freaks اي الهيبيين المسيحيين . وقد ورد في الصحيفة الناطقة بلسانهم The Goad « لقد ادركنا انه كان (اي المسيح) ذاك الذي كنـــا نفتش عنه منذ البدء » (عدد ٢٦ آب ١٩٧١ ، ص ٤) . راجع :

Jean Duchesne : Jesus-Revolution, made in U.S.A., in «Etudes», juin 1972, pp. 803-821.

وفي الخط نفسه ، قال رئيس جماعة هيبية بولـــونية ، يسميه رفاقه « النبي » ، في مقابلة اجريت معه :

« في آخر المطاف ، ما يفتش عنه الهيبيون في المخدر ، انما هـــو معنى للحياة ، ما يحاولون أن يرووه ، انما هو العطش الى حياة مليئة وجميلة » . وايضا :

« انني مقتنع شخصيا ان بامكان الكنيسة ان تسد الفراغ الذي يشعر به كثيرون من الهيبيين ، وانهم اذ ذاك يتركـــون المخدر » .

Entretien avec un hippie polonais, in «Informations Catholiques Internationales», No. 418, 15 octobre 1972, pp. 19-21.

٣٤ — راجع :

Philippe Hamon : Les composantes religieuses du phénomène «hippy» et de la «pop music», in «Témoignage Chrétien», No. 1363, 20 août 1970, p. 18.

٣٥ — هذا ما صوره اميل زولا بشكل بليغ في روايته « فـــرح العيش » . بطل الرواية ، لعازر شانتو ، المستحوذ عليه الخوف من الموت ، قطع علاقته بقريبته بولين ، التي كان يـــربطه بها حب عميق ، ليتزوج من لويز ، وهي فتاة جذبته اليها شهوانيـــا مفاتنها المثيرة . يقول الكاتب :

« في باريس ، في وسط حمى الحب التي كانت تنتابـــه ، نسي لعازر الموت . لقد كان يلجأ بوله الـــى ذراعي لويز ، وكان بعـــد ذلك ، وقد اخذ منه التعب كل مأخذ ، يرقد رقاد طفل . وهي ايضا

كانت تحبه كعشيقة ، بغنجات شبقة كأنها غنجات قطة (...) هذا الاشباع النزق لرغباتهما القديمة ، ونسيان كل مـا تبقى في عناق احدهما للآخر ، كانا قد استمرا طالما كانا يعتقدان انهما لن يجدا حدا لهذه الافراح الشهوانية . ولكن الشبع اخذ في الظهور ، فكان هو يندهش لكونه لم يكن يستطيع ان يتجاوز نشوة الايام الاولى ، بينما هي ، في حاجتها الوحيدة الى الملاطفات ، لم تكن تطلب او تريد اكثر من ذلك ، وبالتالي لم تكن تقدم له اي سند او تشجيع مما تحتاج لـه الحياة . هل كان فرح الجسد محدودا بهذا المقدار ؟ الم يكن بالامكان التعمق فيه بأستمرار ، واكتشاف احاسيس جديدة فيه بغير انقطاع ، بحيث ان جدة هذه الاحاسيس تكون من القوة بمقـدار كاف لأحلال وهم السعادة ؟ ذات ليلة ، استيقظ لعازر مذعورا على هبوب النفثة الباردة التي كان يقف لملامستها شعر رقبته ، فأخذ يرتجف ، وتمتع في اطلاق صيحته الجزعة : « يا الهي ! يا الهي ! لا بد من الموت ! » كانت لويز راقدة الى جانبه . وها انه كان يجد المـوت في نتيجـة قبلاتهما » .

Emile Zola : La Joie de vivre, pp. 210-211, La Guilde du Livre, Lausanne, 1964.

٣٦ ــ راجع :

Baudelaire : Art romantique, 221, cité par Pierre Emmanuel : Baudelaire, pp. 89-90.

٣٧ ــ راجع :

Alfred Simon : op. cit.

٣٨ ــ راجع :

Abel Jeannière : Anthropologie Sexuelle, pp. 59-63, p. 170.

٣٩ ــ راجع :

Marc Oraison : Le Célibat, pp. 41-44.

Jean-Claude Barreau : La Reconnaissance ou Qu'est-ce que la foi ? pp. 45-48, Ed. du Seuil, 1968.

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, p. 45, Les Ed. Ouvrières, 1968.

٤٠ ــ راجع :

Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, pp. 109-111.

يقول جورج غرغام ان الحب يسعى دون جدوى الى « وحـدة الاشخاص التي لا يمكن تحقيقها » ، ويصور لنا مأساة بطلي الحب ، تريستان وايزولت ، اللذين ، كلما اقتربا احدهما من الآخـر ، كلما اتضحت لهما استحالة اللقاء الكامل الذي يتوقان اليه :

« تريستان وايزولت ، شقيان في الحضور ، متقاربان ولكنهما

غير متداخلين . في اثناء عناقهما ، يلعنان المسافة العدوة . ان العناق يجلب لهما ، بصورة اكثر ايلاما من الغياب ، الشعـور بأنهمـا منفصلان (. . .) فالقرب يكشف بعداً لا يمكن ازالتـه . « بعيدان بهذا المقدار ، قريبان بهذا المقدار ! قريبان بهذا المقـدار وبعيدان بهذا المقدار ! . . . » . راجع :

Georges Gargam : L'Amour et la Mort, pp. 24-25.

راجع ايضا :

Richard Llewellyn : Qu'elle était verte ma vallée ! p. 388, Jeheber, 1949.

Gilbert Tordjman : Clefs pour la Sexologie, p. 79.

٤١ ــ راجع :

Paul-André Lesort : Le Vent souffle où il veut, cité par René Wintzen : Paul-André Lesort, romancier de la médiation, «Ecclesia», No. 215, février 1967, p. 81.

الطفل المولود من الحب لا يجسد اتحـاد المحبين وحسب ، بل يعلن بوضوح ، من جراء كيانه المستقل ، عن استحالـة الوحـدة الكاملة التي كانا ينشدانها بينهما :

« ان الطفل ، المولود من رغبتين تتوافقـان دون ان تتمكنا من انعام احدهما الاخرى بصورة كاملة ، يتخذ وجوده المستقل : انـه يخلد اللقاء ولكنه يخلد الانفصال ايضا : انه اللقاء المنفصل » .

M.J. Jacquey : Le Corps à Corps père-mère-enfant au cours de la petite enfance, p. 5, L'Ecole des Parents, mai 1971.

راجع ايضا :

Charles Morgan : Fontaine, Le Livre de poche, pp. 287-288.

٤٢ ــ راجع الحوار بين فريدريك وزميله وصديقه جيرار ، في فيلم « الحب ، بعد الظهر » ، لأريك روهمر ، حيث يقول فريدريك :

« احلم بحياة لا تتألف الا من حالات من الحب الاول ومن الحب الدائم (اي ان يدوم الحب ويكون في كل لحظة كـأنه حب جديد) (. . .) اريد المستحيل ، انا اعرف ذلك » .

cité in L'Orient-Le Jour, Cinéma, Femme, Loisirs, du 11 au 17 novembre 1972, p. 3.

٤٣ ــ في قصيدته الشهيرة « كآبة اولمبيو » ، يقول فيكتور هيغو بلسانه ولسان محبوبته :

« سوف يمر الآن سوانا حيث مررنا نحن
« لقد اتينا الى هذا المكان ، غيرنا سوف يأتي اليه ،
« والحلم الذي بدأناه روحانا ،
« سيتابعونه دون ان يتمكنوا من اكماله . . . » .

Victor Hugo : La Tristesse d'Olympio.

ويقول جاك ده بوربون — بوسيه :

« هنا يظهر القلق ، كرفيق للفرح لا يفترق عنه . ان موت الزوج هو كابوس دائم للآخر . الدودة حاضرة في الثمرة . ولا يستطيع اي منطق ان يتغلب على هذا القلق . . . » .

Jacques de Bourbon-Busset : Radioscopie du bonheur, p. 82, in Oui au bonheur, Semaine des Intellectuels Catholiques, 1970, Desclée de Brouwer, 1970.

ولكن الموت لا يهدد الحب من الخارج ، كناموس طبيعي ، وحسب ، انما تستدعيه حركة الحب نفسها ، كما توضح اوديت تيبو قائلة :

« . . . المفارقة هي ان رغبة الحب في الافلات من الزمن (ان عبارة « نشوة » بالفرنسية ex-stase تعني « خارج الزمن ») تدفعه نحو الموت ، لأن الموت هو الوسيلة الوحيدة للخروج من الزمن والدخول في الابدية — راجع اساطير الحب الكبرى : تريستان وايزولت ، روميو وجولييت ، الخ . . . » .

Odette Thibault : Le Couple, aujourd'hui, p. 23.

٤٤ — راجع :

Emmanuel Roblès : Cela s'appelle l'aurore, p. 161.

٤٥ — راجع :

Marc Oraison : Le mystère humain de la sexualité, pp. 142-143.

٤٦ : — راجع :

Tagore : La fugitive, cité par Dr. Jouvenroux : op. cit., p. 71.

يقول بطل « الوردية » لفلورنس باركلاي عن الحبيبة :

« . . . في تلك اللحظة ولدت رغبة بها لا يمكن لشيء ان يشبعها ، ولن يشبعها شيء حتى اليوم الذي سألتقي فيه من جديد واياها في نور المدينة المذهبة ، حيث لن يكون فيما بعد لا دموع ولا الم ولا ظلمة . . . » . راجع :

Florence L. Barclay : Le Rosaire, p. 227, Ed. «J'ai lu», 1968.

راجع ايضا :

Ernest Ell : De l'Enfant à l'Adulte, pp. 257-258.

٤٧ — راجع :

Georges Gargam : L'Amour et la Mort, p. 148.

٤٨ — راجع :

Olivier Clément et P. Evdokimov : Discerner les esprits ?, in «Informations Catholiques Internationales», No. 313-314, juin 1968, p. 28.

٤٩ ــ
cité par Denis de Rougemont : Comme toi-même, pp. 228-229.

٥٠ ــ راجع :
Simone de Beauvoir : Le Deuxième Sexe, tome II, Livre de poche», 1963.

٥١ ــ راجع :
Simone de Beauvoir : Le Deuxième Sexe, tome II, pp. 416-419.

٥٢ ــ
cité par Alain Woodrow : Bertrand Russell : 1872-1970, in «Informations Catholiques Internationales», No. 355, 1 mars 1970, p. 31.

بهذا المعنى ايضا يقول الكاتب غير المؤمن روجيه فايان :
« الحب الجنوني عبارة اخرى عن حب الله » .
Roger Vailland : Les Mauvais Coups, p. 126, «La Petite Ourse», La Guilde du Livre, Lausanne, 1960.

٥٣ ــ راجع :
Antoine Vergote : Psychologie religieuse, p. 82.

٥٤ ــ راجع :
Pearl Buck : Pavillon de Femmes, pp. 317, 457, Ed. Rencontre, Lausanne.

من الشواهد على تلك الظاهرة ، ما حدث لأحد كبار المفكرين واللاهوتيين الارثوذكس المعاصرين ، الأب سرجيوس بولغاكوف . فقد عاش في شبابه خبرة الحاد قوية . منذ حوالي الرابعة عشرة من عمره ، « تقوض الايمان في نفسه ، وبعد ازمات وشكوك ، امتلكها فراغ ديني » . وبعد ان اصبح عالما اقتصاديا كبيرا يستلهم الماركسية ونائبا في مجلس النواب الروسي (الدوما) ، كشف له الله ذات يوم ، وقد كان في الرابعة والعشرين من عمره ، من خلال جمال الطبيعة . وقد اعطي له الكشف نفسه بعد ذلك بواسطة الحب . يقول راويا هذه الخبرة :

« ما كانت الجبال تحدثني عنه في نورها المهيب ، تعرفت عليه في نظرة فتاة ، تحت سماوات اخرى ، قرب جبال اخرى (...) ان كشف الحب عرفني على عالم آخر ، عالم كنت قد فقدته » .
Serge Boulgakov : La Lumière sans déclin, Moscou, 1917, en russe, cité par Olivier Clément : Dialogues avec le patriarche Athénagoras, p. 268, Fayard, 1969.

خبرة مماثلة يفضي بها الينا الكاتب الفرنسي جاك ده بوربون ــ بوسيه :
« فيما يختص بي ، فان زوجتي ، بحبها السخي وغير المشروط ،

اعادت الي الشعور بالمطلق ، وبالتعالي ، ذلك الشعور الذي كنت قد فقدته كليا » .

Jacques de Bourbon-Busset : Radioscopie du bonheur, p. 82, in Oui au bonheur, Desclée de Brouwer, 1970.

يقول اينياس لاب :

« ان كبريال مارسيل ، في مجرى تحاليله الثاقبة للوجود ، قد فهم ذلك جيدا ، فقد كتب : « ان الحب البشري ليس بشيء ، وهو مائت لذاته ، ان لم يكن حاملا طاقات لامتناهية ... لكي لا يموت ، ينبغي له ان يكون منفتحا » . انما المقصود هنا الانفتاح الى حب تفوق قوته قوة الحب المسمى « بشريا » .

Ignace Lepp : La Mort et ses Mystères, p. 193.

راجع ايضا :

François Mauriac : Un Adolescent d'autrefois, p. 186, Ed. «J'ai lu», 1972.

٥٥ — راجع :

Paul Claudel : Le Soulier de satin, Ed. Gallimard.

Paul Claudel : Partage de Midi, «Le Livre de poche», 1965.

Paul Claudel : Feuilles de saints, Ed. Gallimard.

٥٦ —

cité par André Alsteens : Dialogue et sexualité, p. 271.

٥٧ —

cité par Paul Evdokimov : Sacrement de l'Amour, p. 148.

٥٨ — في مسرحية كلوديل « قسمة الظهر » تقول ايزي لحبيبها ميزا : « انا المستحيل » .

P. Claudel : Partage de Midi, p. 51, Le Livre de poche.

٥٩ — راجع :

Georges Cattaui : Claudel, poète lyrique, «Ecclesia», No. 245, août 1969, p. 48.

André Alsteens : Dialogue et sexualité, pp. 271-273.

٦٠ — راجع :

Paul Claudel : Le Soulier de Satin, Edition pour la scène, p. 198, Gallimard, Paris, 1951.

٦١ — راجع :

Christos Yannaras : De l'Absence et de l'Inconnaissance de Dieu, pp. 117-118, Cerf, 1971.

راجع ايضا :

Platon : Le Banquet, 211 b7-c9, cité par Christos Yannaras : op. cit., p. 133, note 117.

٦٢ ـ راجع :

P. Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, p. 100.

٦٣ ـ راجع :

Arthur Michael Ramsey : Dieu, Christ et le Monde, pp. 34-35, Casterman, Paris, 1969.

٦٤ ـ راجع :

Paul Claudel : Le Soulier de satin, version intégrale.

٦٥ ـ راجع :

Christos Yannaras : De l'Absence et de l'Inconnaissance de Dieu, p. 118, Cerf, 1971.

٦٦ ـ راجع :

Les Lettres d'Amour de François et d'Antoinette, pp. 83-85, Les Editions Ouvrières, 1967.

٦٧ ـ راجع :

Marc Oraison : op. cit., pp. 135-136.
pp. 127-128.

٦٨ ـ راجع :

Marc Oraison : op. cit., pp. 135-136.

تقول ماريز شوازي :

« ان الها ذكرا او انثى يكون ناقصا . لا يمكنه ان يكون الاله **الوحيد** (...) ليس للمطلق نقص او رغبة » .

Maryse Choisy : Moïse, p. 103, Mont-Blanc, 1966.

٦٩ ـ راجع :

Herbert Haag : L'Histoire biblique de la Création, aujourd'hui, pp. 42, 50, in Haag, Haas et Hurzeler : Bible et Evolution, Mame, 1964.

Pierre Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, pp. 24-27, «Foi Vivante», Cerf, 1969.

٧٠ ـ راجع المقابلة التي اجراها سمير عطاالله مع المطران جورج خضر ونشرت بعنوان : « الملحق » يتجرا مع المطران جورج خضر ، « ملحق النهار ـ الاتحاد اللبناني » ، ١٤ ايار ١٩٧٢ ، ص ٦ .

٧١ ـ

cité par Paul Evdokimov : Sacrement de l'Amour, p. 160.

٧٢ ـ

cité par Paul Evdokimov : op. cit., p. 162.

٧٣ ـ راجع :

Jean Daniélou : Au Commencement : Genèse 1-11, pp. 47-51, Ed. du Seuil, Paris, 1963.

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, pp. 35-38, Les Editions Ouvrières, 1968.

٧٤ —

cité par Paul Evdokimov : op. cit., p. 163.

٧٥ — راجع :

A.C.J.F. : Eléments de doctrine spirituelle, fiche No. 25.

٧٦ — راجع :

cité par Paul Evdokimov : op. cit., p. 163.

٧٧ —

cité par Paul Evdokimov : op. cit., pp. 161-162.

٧٨ —

cité par Paul Evdokimov : op. cit., p. 162.

٧٩ — راجع :

Christos Yannaras : op. cit., p. 128, note 59.

تقول مارسيل ليفي :

« ... ان حب الزوج يشير الى علاقة الله بالانسان نفسها ، وبصيرورته هذه الاشارة لا يفقد شيئا من انسانيته . فهو ليس مجرد ذريعة ، مناسبة للتحدث عن شيء آخر . بل بالعكس اكتسب مـا يشبه بعدا جديدا ، نوعا من الكثافة ، من جراء قدرته على كشف ما يتجاوزه » .

Marcelle Lévy : Comprendre l'Evangile, p. 52, in Jésus ou le Christ ?, «Foi Vivante», Cerf, 1970.

٨٠ — راجع :

Jean Daniélou : op. cit., p. 48.

٨١ — راجع :

Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, pp. 138-140.

يقول جان — ماري له بلون :

« معروف ... ان قمة ، ذروة الحديث عن الله والحديث الى الله في الكتاب تظهر خاصة في كلام مستعـار من الحب البشري ، الشبقي sexué ، من حيث انه التمثيل الاكثر تعبيرا » .

Jean-Marie Le Blond : Unité de l'expérience chrétienne, p. 224, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17 avril 1970.

راجع ايضا :

Paul Beauchamp : A travers Canaan, pp. 160-161, in op. cit.

٨٢ — راجع :

Pierre Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture,

pp. 46-55, 107, 121-123.

٨٣ — راجع :

Pierre Grelot : op. cit., pp. 61-67.

٨٤ — راجع :

Pierre Grelot : op. cit., pp. 81-88, 108.

٨٥ — راجع :

Ignace Lepp : Psychanalyse de l'Amour, pp. 270-273.

يقول اللاهوتي اليوناني المعاصر خريستوس ياناراس :

« ان كاتب الكتابات الاريوباغية (وهي كتابات صوفية نسبت الى ديونيسيوس الاريوباغي) يستشهد بتلك العبارات لكاتب آخر مجهول : « ان حبك انقض علي كحب النساء » .

Christos Yannaras : op. cit., p. 117.

وفي موضع آخر يقول :

« لقد كتب القديس نيلوس الزاهد : « ان اكثر العشاق جنونا بمن يحبها ، لا يجاري شوقه شوق الله ، عندما يسعى الى النفس التي تريد التوبة » .

Christos Yannaras : op. cit., p. 123, note b.

راجع ايضا :

P. Grelot : op. cit., p. 66.

يقول كارل ستارن :

« ان الطبيعة تربة النعمة ، وحب الجنسين صورة الحب الالهي ».

Karl Stern : Refus de la Femme, p. 190, Mame, 1969.

وفي موضع آخر :

« ... ان تحقيق الحب ، سواء بين الرجل والمراة ، او بين الانسان والله ، يتضمن الموت . وكأن الاتحادين يساهمان في السر نفسه ... » . راجع :

Karl Stern : op. cit., pp. 218-219.

٨٦ — في رواية « طواحين بيروت » ، لتوفيق يوسف عواد ، نجد هذه الافكار ، وردت على لسان الصحفي الثائر والماجن رمزي رعد ، وهي تعبر ابلغ تعبير عن جذور مأساة الحب البشري :

« تميمة احبت كلماتي . احبتني انا بالغلط .

« خلطت بيني وبين كلماتي . لان كلماتي ليست انا . ليست انا الذي يدرج بين الناس ، على كل حال . وحينما اتضحت لها الحقيقة تركتني .

« الكلمات نفسها ، القصائد التي عملتها لتميمة عملتها لعشرات قبلها واعملها الآن لغيرها . اكذب ؟ المسألة ليست مسألة كذب وصدق . الم اقل لك اننا كلنا نؤجر ارواحنا ؟ (...) .

« الحب بيع .
« بيع بات . ونحن لا نرضى ان نبيع ارواحنا . متعلقون بها ـــ كتعلق جدي بجل التوت الذي ورثه عن أبيه عن جده . يزرعه الى الآن تفاحا . يترك التفاح يهترىء على امه كل سنـــة . لا يريد ان يبيع بخسارة . هكذا نحن ، يهترىء كل شيء في ارواحنـــا ، ويملأ خياشيمنا النتن ، ولا نبيع .
« وحده روميو باع روحه لجولييت وباعته روحها .
« وحدهم الملهمون المؤمنون يبيعون أرواحهـــم ، لا يؤجـــرونها (...) .
« سيد من باع روحه المسيح .
« والانبياء كلهم والشهداء ... » .
توفيق يوسف عواد : طواحين بيروت ، ص ٢٦٧ ـــ ٢٦٨ ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٢ .
٨٧ ـــ راجع :
Jean-Michel Palmier : Présentation d'Herbert Marcuse, pp. 66, 84-86.
٨٨ ـــ يقول فرويد :
« في اشد الحب ، لا يبقى اي اهتمام بالعالم المحيط ، فالعاشقان يكفيان أحدهما الآخر ، وليسا بحاجة حتى الى طفل مشترك ليسعدا . لا توجد حالة اخرى يفضح فيها الجنس Eros بشكل افضل جوهر طبيعته ، قصده بأن يجعل من عدة كائنات كائنا واحـــدا ، ولكنه ، عندما ينجح في ذلك بجعله كائنين يعشقان أحدهمـــا الآخر ، يكتفي بذلك و ، كما يشهد المثل ، يقف عند هذا الحد » .
S. Freud : Malaise dans la Civilisation (1929), p. 47, Revue française de Psychanalyse, 1, tome 34, janvier 1970, pp. 9-80.
٨٩ ـــ راجع :
Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, pp. 146-147.
Olivier Clément : L'Eglise orthodoxe, p. 39, P.U.F., Paris, 1961.
يقول ادمون بربوتان :
« الخطر ، الخطر الكبير منذ الخطيئة ،
« هو ان ينسى المرء ان الحب عطاء للذات ،
« انفتاح ، تجرد ،
« مجانية خلاقة ،
« ـــ وبأن يتجه الى الاشياء والاشخاص ،
« ليأخذ منها ، ليأسر منها شيئا ،
« ويحتفظ به لنفسه ،

« اذا بأن ينغلق ، ينطوي على نفسه :
« عند ذاك لا يعود الحب عطاء بل اشتهاء ،
« لا يعود حركة ، بل توقفا ،
« لا يعود انفتاحا ، بل انغلاقا ،
« انغلاقا على الذات ، على « الأنا » : انانية .
« هذا هو خطر الحب الاعظم والوحيد ،
« هذا هو سم الحب .
« انه في صميم كل خطيئة :
« ارادة المرء ان يصنع حياته دون الله .
« انه يفسر الالتباس والنقص
« في كثير من حالات الحب :
« فان انانية تختبىء بها ، كالدودة في الثمرة » .

Edmond Barbotin : Croire, pp. 141-142, Desclée.

راجع ايضا :

Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, pp. 38-44, Les Editions Ouvrières, 1968.

Pierre Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, pp. 41-42, p. 106.

٩٠ — راجع :

P. Grelot : op. cit., pp. 90-92, 108-110.

٩١ — راجع :

P. Grelot : op. cit., pp. 123-126.

٩٢ — يقول اللاهوتي الارثوذكسي الانكليزي تيموثي وير في كتابه « الارثوذكسية . كنيسة المجامع السبعة » :

« ان ذروة خدمة (الزواج) الثانية هي الاحتفال بالتكليل ، فيضع الكاهن اكليلا على راس كل من الزوجين (...) هذان الاكليلان هما علامة السر المنظورة ويشيران الى النعمة الخاصة التي يتلقاها الزوج couple من الروح القدس ، من اجل ان يؤسس عائلة جديدة ، كنيسة منزلية . هذان الاكليلان اكليلا فرح ولكنهما ايضا اكليلا استشهاد ، اذ ان كل زواج حقيقي يتطلب من الطرفين انكارا للذات كاملا » .

Timothy Ware : L'Orthodoxie. L'Eglise des sept conciles, pp. 392-393, Desclée de Brouwer, 1968.

٩٣ — راجع :

كوستي بندلي : العفة والحب من منظار سيكولوجي ، « النور » ، ١٥ شباط ١٩٦٣ ، ص ٣٩ .

Abel Jeannière : Anthropologie sexuelle, pp. 197-200.

André Alsteens : Dialogue et Sexualité, pp. 188-190.

٩٤ —
cité par Paul Evdokimov : op. cit., p. 58.
٩٥ — راجع :
P. Evdokimov : Les Ages de la vie spirituelle, p. 137.
٩٦ — راجع :
P. Evdokimov : Sacrement de l'Amour, pp. 162-163, 203-204.
٩٧ — كوستي بندلي : المقال ذاته ، ص ٣٩ .
٩٨ — راجع :
cité par P. Edvokimov : Sacrement de l'Amour, p. 95.
٩٩ — يقول ميشال دانسرو :
« ... ان الجسد الجنسي ، بحاجته المرضية ، سوف يتخذ ملء قامته عندما سيصبح معبرا عن الحب ، ولن يجد تجسد الحب اكتماله الا في الجسد المتجلي والمنبعث ! » .
Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, p. 171.
ويقول بيار غريلو :
« ... بالنسبة للزوج كما بالنسبة لكل شخص انساني ، ينبغي الموت مع المسيح ليتاح الدخول معه من جديد الى الفردوس المفقود » .
P. Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, p. 101, note 1.
راجع ايضا :
Marc Oraison : La Mort... et puis après ?, p. 170, Fayard, 1968.
١٠٠ — راجع :
Claude Tresmontant : Le Problème de l'âme, p. 208, pp. 213-220, Seuil, 1971.
١٠١ — راجع :
Marc Oraison : La Mort... et puis après ?, p. 149.
١٠٢ — راجع :
Marc Oraison : Le Mystère humain de la sexualité, pp. 149-153.
١٠٣ — راجع :
Marc Oraison : L'Harmonie du Couple humain, pp. 49-50, 52-53, Les Editions Ouvrières, 1968.
Pierre Teilhard de Chardin : Le Phénomène humain, pp. 266-269, Coll. «Points», Seuil, 1970.
١٠٤ — راجع :
P. Grelot : Le Couple humain dans l'Ecriture, pp. 75-80, 93-94.
Claude Tresmontant : Le Problème de l'âme, p. 219.

Marc Oraison : La Mort... et puis après ?, pp. 146-151.

١٠٥ — يقول المفكر واللاهوتي الارثوذكسي الفرنسي اوليفيه كليمان :

« في المجمع المسكوني الاول ، ارتفعت بعض الاصوات لتطلب بأن يعلن ان الزواج والكهنوت متعارضان ، بحجة ان الجنس يدنس المرء (...) فكان ان راهبا مصريا كبيرا ذكر عند ذاك بعفة الزواج وبأن هذا الاخير يتوافق بالتالي تماما مع ممارسة الكهنوت » .

Guy Riobé : La Liberté du Christ. Entretiens avec Olivier Clément, p. 55, Stock-Cerf, 1975.

١٠٦ — يقول بول بوشان :

« بما ان المكان الذي يعاش فيه الرمز لا يحوي بالكلية المرموز اليه ، بما ان الرمز حضور وغياب ، (...) لذا ينبغي ان يترك مكان لاظهار بعد الغياب هذا ، في الامتناع عن الحياة الزوجية » .

Paul Beauchamp : A travers Canaan, p. 162, in Sexualité et Chasteté, «Christus», No. 66, tome 17, avril 1970.

ويقول جان — ماري له بلون :

« لقد استشهدنا سابقا بملاحظة والس Wells هذه : « مرجوري ، لماذا لها كل هذه القيمة ، ولماذا ليس لها اكثر من هذه القيمة ؟ » (يذكر هنا الكاتب والس عبارة يقولها رجل عن زوجته). ذلك انه يبدو صحيحا ان الزوجين يصبحان ، احدهما تجاه الآخر ، شاهدين لله ، وذلك بما هما عليه ، بقيمتهما الذاتية التي يكتشفانها بلا انقطاع ، وبآن واحد بما ليسا عليه ، بالقيمة الاسمى التي يوجهان اليها . قد يتخذان في البدء بسذاجة « كأصنام » ، ولكنهما يظهران بعد ذلك ، من خلال عملية نزع الصفة الاسطورية عنهما دون تجريدهما من مقامهما ، بمثابة « رموز » تقود الى ابعد منهما (...) هذه خبرة كل زواج يتعمق ، ويمكن نقل جوهر هذه الخبرة حتى الى هؤلاء الذين لا يمارسونها في الواقع . نعتقد ان كثيرا من الدعوات الى العزوبة من اجل ملكوت السموات تستلهم هذا التقدير لحب رجل وامرأة كما تستلهم بآن واحد الحركة الرمزية التي تقود الى تجاوز (...) في آخر المطاف ، انى لنا ان نعرف ما هو الحب لو لم يكن حولنا رجال ونساء يتحابون ، في نهائية ولا نهائية هذا الحب بآن واحد ؟ ان العزوبة من اجل ملكوت السموات تولد في هذه التربة (...) يبدو لنا ان عازبا « من اجل الله » لا يسعه الاستسلام لاحتقار الجنس دون ان يتجاهل اصل دعوته » .

Jean-Marie Le Blond : Unité de l'expérience chrétienne, pp. 233-234, in op. cit.

ويلخص ميشال روا كما يلي مداخلة للطبيب والكاهن مارك اوريزون في حوار نظمه « المركز الكاثوليكي للأطباء الفرنسيين » حول

العزوبة :

« ... ان تحقيق الحب على الصعيد الجنسي يتــواجد فيه بالواقع متناقضان . فانه المكان الممكن للقاء قــوي ومتميــز بين شخصين ، يفتح بابا على اللانهاية ليغلقه فورا . على هذا الصعيد ، يلتقي الجنس الممارس والجنس غير الممارس ليشهدا ان الانسان لم يجعل للزمن بل للأبدية : فالزواج والعزوبة لا معنى لهما الا اذا اخذا معا في المنظار الاخروي ، منظار تجــاوز الجنس التناسلي (متى ٢٢ : ٣٠) » .

Michel Roy : Un Colloque sur le Célibat, p. 276, in op. cit.

١٠٧ ــ حول الانحرافات التي قد تطرا على العزوبة المكرسة من جراء تأثرها بالصراع الاوديبي وعقدة الخصي ، راجع ما يقوله الكاهن والمحلل النفسي الفرنسي ج.م. بوهييه :

J.-M. Pohier : Le Célibat sacerdotal. Aspects théologiques et psychologiques, in Psychologie et Théologie, pp. 333-373, Cerf, 1967.

ويقول المحلل النفسي جورج موكو بهذا الصدد :

« كثير من العصابيين يجدون انفسهم مدفوعين ، لا شعوريا في كثير من الاحوال ، الى الاتجاه نحو الكهنوت (الذي هو بالضرورة مقرون بالعزوبة في الكنيســة الكاثوليكيــة الغربيــة) من اجــل « الاحتماء » من نزعتهم الجنسية . بينما العزوبة الدينيــة تتطلب بالعكس نضجا اكبر على الصعيد العاطفي والجنسي » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 167.

على نقيض هذه الانحرافات ، راجع ما يقوله المحلل النفسي الكندي ميشال دانسرو عن عفة يسوع الخالية من الكبت :

Michel Dansereau : Freud et l'Athéisme, pp. 144-149.

عن موضوع العفة المكرســة وامكانيــة تزييفهــا وشروط اصالتها ، راجع ايضا :

Costi Bendaly : La Sexualité et sa Signification humaine, in L'Evangile dans la Vie, Editions An-Nour, Beyrouth, 1975.

١٠٨ ــ راجع :

Odile Simon : L'Esclave était fille de roi, p. 185, Les Ed. Ouvrières, Paris, 1965.

١٠٩ ــ يذكر المحلل النفسي الفرنسي ، الدكتور رينه لافورغ ، حالة راهبات اتين يستشرنه بخصــوص « حالــة من اللامبالاة المطلقة كن يعانين منها ، حتى تجاه ايمانهن » ، « كل عمل ديني لم يكن له اي معنى بالنسبة لهن . كن يؤدين الحركات المطلوبة كي لا

يفتضح امرهن ، ولكن دعوتهن لم تعد تتجاوب مــع اي شيء في نفوسهن ، فالقداس لم يعد سوى مجرد اصوات ، والصلاة كلاما اجوف » . وقد كشف التحليل النفسي ، في تلك الحالات ، « وجود عائق كان قد عطل بشكل خطير ، منذ الطفولة ، نمو الشعور » .

Dr. René Laforgue : La Foi et l'Equilibre psychique de l'Homme (1953), pp. 121-122, in Au-delà du Scientisme, Mont-Blanc, Genève, 1963.

وفي موضع آخر يقول :

« لا ينبغي ان نخفي عن انفسنا ان اختفاء القدرة على الحب يرافقه عامة اختفاء كل شعور ديني حقيقي ، كما نلاحظ في عــدد كبير جدا من الاحوال عند النساء الباردات جنسيا » .

Dr. René Laforgue : Crime et Châtiment (1957), p. 230, in op. cit.

١١٠ — راجع :

«Esprit», novembre 1960, p. 1947.

يقول الفيلسوف الفرنسي المعاصر غاستون باشيلار :

« ليس الاعلاء دائما انكارا لرغبة ، انه لا يظهر دوما كأعلاء **ضد** غرائز . بل يمكن ان يكون اعلاء **من اجل** مثال » .

Gaston Bachelard : l'Eau et les Rêves, José Corti, Paris, 1942, pp. 34-35, cité par Herbert Marcuse : Eros et Civilisation, p. 193.

وقد بين المحلل النفسي جورج موكو في كتابه « العازبون » . انه ، اذا كان الاعلاء الكامل ، الذي من شأنه ان يسمح للمرء بأن يكون سعيدا بالكلية في التخلي عن حياة الزوج ، نادرا ، الا ان التخلي الذي يضطلع به الانسان بوعي ، مدركا المه وقابلا اياه ، « يمكنه ان يسمح باكتمال للشخصية . والامثلة على ذلك عديدة . يمكن القول هنا انه « اذا كان الزواج الطريق الطبيعية للأكتمال ، فالعزوبة يمكن ان تكون الطريق غير الاعتياديــة لأكتمال آخر » (مارك اوريزون : العزوبــة ، ص ١٨٧) . ويضيــف الكاتب : « ... ان العزوبة الدينية ، ككل وضع حيوي ، قابل للتطور . انه يمر بالضرورة بأزمات او تساؤلات ، تماما كما هي الحال في الوضع الزوجي » . المهم ، يقول الكاتب ، هو ان يستطيع الشخص تعهد هذه الأزمات بوعي ، مهما كانت اليمة ، مما يسمح له بأن يعيشها ويتخطاها ، بينما ، اذا كبتها ، تصبح اكثر تشويشــا وديمومــة وتقوده الى التفتيش عن تعويضات نكوصية (اي تشكل ارتدادا الى مستوى نفسي سابق ، طفولي) . راجع :

Georges Mauco : Les Célibataires, pp. 169-170.

١١١ — يقول جان ماري له بلون :

« ليست القضية قضية امتناع سلبي ، قضية « امـــانة » . صحيح ان العزوبة تطال الرجل والمراة في صميم كيانهما ورغبتهما في الامتلاك الحسي . انما لا يجب ان تفهــم ، رغــم الانحرافات الممكنة ، على انها نوع من الماسوخية واحتراس من الفرح (...) ليست رياضة ضبط للنفس ، او بطولة رياضية في الاماتات (...) ما ترتكز عليه هذه التضحية وهذا الاختيار ، انمـــا هـــو اختبــار وحضور ، ولكنه اختبار وحضور في الايمان ، مع ما يفترضه ذلك من « ليل » ومغامرة (...) « ان الحياة قد ظهــرت ولقد رأيناهـــا ونخبركم بذلك ليكون فرحنا كاملا » : اختبار الله هـــذا ، يجب ان نعود اليه لنبلغ جذور الدور « النبوي » الذي يلعبه العازبون من اجل ملكوت السموات » (اذ ان النبي هو « الشاهد على حقيقة الله وقربه ») . راجع :

Jean-Marie Le Blond : op. cit, pp. 230-231.

١١٢ ـــ يقول جان ماري له بلون :

« ... التحرر من اجل خدمة الناس ، والتحرر من اجل خدمة الله ، انما هما امر واحد فقط » . راجع :

Jean-Marie Le Blond : op. cit, pp. 229-230.

١١٣ ـــ هذا ما ادركه مارون عبود وعبر عنه في روايته « فارس آغا » التي تصور حياة قرية لبنانية في عهد المتصرفية ، اذ سخر من « الخوري يوسف بطرس ابي ابراهيم ، المشهور بالخوري مسرح نسبة الى قريته » ، الذي لم يحل تزمته للبتولية دون استرسالـــه في العدوان والخصام ، فكان يطعن بسيرة الكهنة المتبتلين الآخرين ويقيم الدعاوى على الكثيرين من اهالي مسرح وعين كفاع . يقول عنه مارون عبود بلهجته الساخرة :

« المعروف عنه انه خوري بتول ، عفيف طاهر الذيل ، ومنهم من زعم انه لم ينظر الى امراة قط حتى امراة اخيه التي كانت تقيم واياه تحت سقف واحد . ولما انس من نفسه ضعفا بشريا ، كمـــا يسمي الغريزة ، رجال الدين ، وخاف من نفسه الامارة بالسوء ، قعد الخوري وحده في بيته الذي ورثه عن ابيه (...) انفــرد خشية ان يتهمه الناس بما كان يتهم هو غيره من الكهنـــة المتبتلين (...) عرف المحترم ، كما قلنا ، بنسبته الى (مسرح) وهي قرية منعزلة هادئة مطمئنة ، ولكن الهدوء فارقها حين حلت نعمة الروح القدس على هامة الخوري يوسف ... » .

مارون عبود : فارس آغا ، ص ١٦١ ـــ ١٦٢ ، دار مـــارون عبود ودار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ .

١١٤ ـــ كوستي بندلي : المقال نفسه ، « النور » ، ١٥ شباط ١٩٦٣ ، ص ٤٨ .

ان العفة المكرسة الاصلية ليست هربا من الحب بل جهادا من اجل تحريره الى اقصى حد من نـزعة التملـك التي تحـد من انطلاقته . لذا فالذي يعيش تلك العفة على حقيقتهـا لا « يملك » لا زوجة ولا اولادا ، حتى بهذا الحد الادنى من الامتـلاك الـذي يعبر عنه الحب البشري بقوله : زوجتي واولادي ، والذي ينبغي لهذا الحب ان يتحرر منه تدريجيا من خلال تعمق وجهاد . ولكنـه ، مقابل ذلك ، وبسبب من ذلك ، **متفرغ** لتقبل كل انســان من اجل ذاته . انه ، كما قال احد الرهبان القدامى ، « منفصل عن الجميع ومتحد بالجميع » . راجع :

Guy Riobé : La Liberté du Christ. Entretiens avec Olivier Clément, p. 54, Stock-Cerf, 1975.

١١٥ ــ راجع :

Odile Simon : op. cit., p. 185.

عن هــذا الحب المتفجــر عنــد المكــرسين ، يمكن تقديـم شواهد عديدة ، اكتفي هنا ببعض منها .

يروي أوسفالت كوله ، في كتابه « زوجتك ، هذه المجهولة » ، الشهادة التالية :

« روى لي اخصائي نفسي القصة التالية : « عندمــا كنت في المستشفى العسكري ، ساعدتني كثيرا راهبــة كاثوليكيــة كانت تعتني بي . كنت اثق بها اكثر بكثير مما كنت اثق بأي طبيب . كانت نشيطة ومليئة بالحيوية ، وكانت تهتم بأمور عديدة (. . .) بالنسبة لراهبة ، كانت منفتحة الفكر جدا ، ولذا لم اتردد في سؤالها ذات يوم ، بشكل فضولي الى حد ما ــ ولكنها تظاهرت بأنهــا لم تلاحظ ذلك واعادت بلباقة الامور الى نصابها دون ان تفارقها ابتسامتها ــ لماذا لم تتزوج . كم كنت مغفلا وغبيا ، انا الذي لم اربى الا بــروح « الانجاب في خدمة الشعب » ! اجابتني الاخت ببساطة كلية : « لو تزوجت ، لما كنت ، على الارجح ، استطعت ان أعتني **بك** في هــذه اللحظة . ارايت ، لقد استطعت هكذا ان اساعد **كثيرا** من الناس . لا اعتقد ان ذلك كان ممكنا على منوال آخر .

« لم تتحدث مرة عن « الله » او « الدعوة » . انمــا شهدت فقط عن حياة مليئة ، عن حياة انسانية (. . .) اليس ذلك رائعا ؟ تلك الراهبة التي لن انساها ابدا ــ ولن اكون وحــدي في هــذا الوضع ! ــ كانت سعيدة . ايمكن لكل النساء المتزوجات ان تقلن ذلك ؟ » .

Oswalt Kolle : Ta femme, cette inconnue, p. 221.

ويقدم الطبيب النفسي ريشار دامبروزيو صــورة رائعة عن الاخت بوليت ، وعن تفانيها الامومي « المقرون بشفقة لا حد لها

تقريبا » نحو طفلة اعتنى بها هذا الطبيب وتوصل الى شفائها . وقد كانت مغلقا عليها في خرس انطوائي وخاليـــة من كل جاذبية .

Richard d'Ambrosio : Pas d'autre langage qu'un cri, pp. 177-178, 279, Ed. Fleurus, 1972.

وفي الكتاب عينه يتحدث ذلك الطبيب عن عطف الراهبـــات « الذي لا يفرغ » والذي كان شاهدا له .

R. d'Ambrosio : op. cit., pp. 268-269, pp. 279-280.

ويقول جورج موكو :

« لقد لاحظوا في المستشفيات ان الراهبات كثيرا مـــا يقدمن تفانيا ويكرسن للمرضى وللعجائز وقتا اطول بكثير مما تستطيع ان تقدمه ممرضات متزوجات » .

Georges Mauco : Les Célibataires, p. 148.

واسمح لنفسي بأضافة شهادة شخصية الى تلك الشهّادات . لقد اتيح لي ان ارافق ، كأخصائي نفسي ، ولعدة سنين ، عمـــل راهبات ارثوذكسيات تأمليات انتدبن لتعهد احد المياتم ، وان ارى عطفهن العميق على فتيات حرمن من نعمة الجو العائلي ، وسهرهن الحثيث على التعويض لهن قدر الامكان عن هذا الحرمان بدفق من الحنان يشملنهن به وانتباه دائم الى حاجاتهن . وقد رايت أيضـــا تحسسهن المرهف للمشاكل النفسية التي كانت تنجم احيانـــا عن الوضع الشاذ الذي كانت تعاني منه تلك الفتيات ، ومجابهتهن لهـــا بالتفهم والصفاء والعناية . كما لفت نظري سخاء حبهن الذي كان يقنع بأسعاد وانماء الغير ويقبل بأن لا يقابل بالمثل .

١١٦ ـــ راجع :

Roger Schutz : La Violence des Pacifiques, cité in «Ecclesia», No. 258, septembre 1970, p. 60.

لقد كتب الاخ روجيه شوتز :

« ان العفة تفتح بعدا مسكونيا لم يفطن اليه : وهي ان نكون ، من خلالها ، بشرا يستقطبهم انتظار بهذا المقدار حتى انهم يتمنون ان لا يحتفظوا بشيء لأنفسهم . هنا تدريب على الانفتاح الى مـــا هو شامل ، يسمح لنا بأن نتعهد ، بقلب متفرغ ، كل من اتى الينا » .

F. Roger Schutz : Unanimité dans le pluralisme, cité par Marcel et Yvonne Bracquemont, in Hebdo-T.C., No. 1438, 27 janvier 1972, p. 16.

١١٧ ـــ « ... لقد مر منهم خمسة عشر الفا في تيزيه سنـــة ١٩٦٨ ، وكانوا ٤٢٫٠٠٠ سنة ١٩٧١ ، ٦٠٫٠٠٠ سنـــة ١٩٧٢ ، ٧٠٫٠٠٠ سنة ١٩٧٣ . وهم ينتمون الى جنسيات متعددة جدا » .

André Vimeux : Le Concile des Jeunes à Taizé, Hebdo-T.C., No. 1573, 29 août 1974, p. 19.

١١٨ ـــ راجع الشهادات عن تيزيه المنشورة في :

Hebdo-T.C., No. 1438, 27 janvier 1972, p. 16.

١١٩ ــ يقول ادمون بربوتان :

« هكذا ، وبمثابة تفرعين
« لتيار حب واحد مولود في الله ،
« الزواج والعزوبة المكرسة يتكاملان ،
« يتناديان ، يتطلبان احدهما الآخر .
« بهما يتجلى في الكون
« بعدا الحب الالهي :
« ــ فالازواج يشهدون ان الله يحب كل انسان كما لو كان وحده في الكون ،
« والمكرسون يشهدون ان الله ، اب الجميع ،
« يشمل كل البشر في حب واحد (...)
« ــ في الاسرة ، يتجلى الله على انه الحي العظيم
« الذي يحب الحياة ، ويسكبها بلا انقطاع .
« يشهد المكرسون ان وراء الحياة الارضية
« التي يتوجب فيها على جنسنا ان ينجب دون انقطاع ليستمر في البقاء ،
« توجد حياة اخرى ، غير فانية ، ابدية ،
« حيث تلك الضرورات : الانجاب ، والموت ، لم يعد لها مكان ،
« انهم ينذرون بانسانية الغد ، ويؤلفونها منذ الآن ؛
« انهم ينبئون بالانسانية الفصحية ،
« ملكوت الله » .

Edmond Barbotin : Croire, pp. 148-149, Desclée, Paris, 1971.